بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي
لبلاد الشام
في العصر الحديث

الدكتور عبد الكريم رافق
استاذ في قسم التاريخ
كلية الآداب - جامعة دمشق

سمح بطبع هذا الكتاب تحت رقم ١١٢٤٨ تاريخ ١٩/٢/١٩٨٥

(٢٠٠٠)





مقدمة

يزداد الاهتمام ، يوما بعد يوم ، في الكتابات العربية وغير العربية ، بدراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للاقطار العربية ، عبر العصور المختلفة . وطبيعي ان التاريخ السياسي الواعي الذي يتتبع تحليل الاحداث السياسية ، أفقيا وفي العمق ، ويربط بعضها بالبعض الآخر ، بشكل شامل وواع ، يشكل الاطار الاساسي الذي من خلاله تدرس أنماط التطورات الاقتصادية والاجتماعية . وتساعد دراسة هذه التطورات بدورها على تصحيح فهمنا للتاريخ السياسي ولبواعثه العميقة ، وجعله أكثر عقلانية . فالاسس الاقتصادية والاجتماعية لأي حادث ، أو موقف ، أو اتجاه سياسي أو ثقافي ، هي وحدها التي تفسر الدوافع العميقة لهذه الاحداث والمواقف والاتجاهات .

وقد عكفت ، في السنوات الاخيرة ، على تناول عدد من القضايا الاقتصادية والاجتماعية ، في تاريخ بلاد الشام ابان الحكم العثماني ، شعورا مني بأهميتها من ناحية ، وللمساهمة ببحثها في المؤتمرات الدولية المتخصصة من ناحية أخرى . وقد تجمع لديّ عدد من البحوث ، بعضها باللغة العربية ، وبعضها بالانكليزية أو الفرنسية . وقد نشر معظم البحوث العربية في مجلة « دراسات تاريخية » التي تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق . ونظرا لنشر هذه البحوث على مدى سنوات في أعداد المجلة ، أو في مجموعات بحوث المؤتمرات ، مما يوجد صعوبة لبعض القراء في الحصول عليها ، وجدت من المفيد جمع ما كتب منها بالعربية في هذا الكتاب ليسهل الاطلاع عليها .

وتعالج مجموعة البحوث هذه بعض المظاهر الاقتصادية والاجتماعية لبلاد الشام في زمن الحكم العثماني . ولا يخرج عن هذا الاطار الجغرافي الا بحث واحد يُعنى بدراسة العوامل الاقتصادية لثورات العساكر في مصر في أواخر القرن السادس عشر . ولكنه يقارن ذلك بآثار الأزمة الاقتصادية آنذاك على سلوك انكشارية دمشق والجنود العثمانيين في اليمن . وقد عمدت الى ترتيب البحوث حسب نشرها زمنيا ، باستثناء بحث غزة ، وأضفت في البدء بحثا مقتضبا يصف الاطار السياسي لتاريخ بلاد الشام ابان الحكم العثماني

ويفيد هذا في وضع البحوث التالية في اطارها التاريخي · وقد حافظت على أرقام الصفحات، كما وردت في أماكن نشرها الاصلية ، ليسهل الاشارة اليها في الاصل الذي ظهرت فيه من جهة ، وتيسيرا لعملية الطباعة من جهة اخرى · كما وضعت ارقاما متتالية للكتاب (باستثناء غزة) في أعلى الصفحات لاعطاء الكتاب كيانا خاصا به · ومن الطبيعي أن يظهر التكرار او التشابه في الاقتباس احيانا بين البحوث المتقاربة في المحتوى وذلك بسبب نشر كل بحث على حدة ، في فترات متباعدة ومحاولة توضيح نقاطه ، وجعله شاملا ما أمكن في السياق الذي ظهر فيه ·

وانني أخص بالشكر الزميل الاستاذ **ناظم كلاس** رئيس تحرير مجلة « دراسات تاريخية » لابدائه الكثير من الملاحظات النقدية والتصويبية ، ولعنايته ودقته الفائقتين في حسن اخراج المجلة · وطبيعي انني وحدي المسؤول عن أية هفوات واخطاء في هذه البحوث·

دمشق في آذار ١٩٨٥ **عبد الكريم رافق**



ثبت الموضوعات

١ ـ المدخل الى تاريخ بلاد الشام في العهد العثماني ٠

٢ ـ غزة : دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ١٢٧٣ ـ ١٢٧٧ / ١٨٥٧ ـ ١٨٦١ ، بحث اعد بمناسبة المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، المخصص لدراسة فلسطين ، الذي انعقد في الجامعة الاردنية بعمان ، ١٩ ـ ٢٤ نيسان (ابريل) ١٩٨٠ ٠ قدم الباحث هذا البحث مطبوعا في ٩٥ صفحة بالاضافة الى مصور ملحق به ٠

٣ ـ ثورات العساكر في القاهرة في الربع الاخير من القرن السادس عشر والعقد الاول من القرن السابع عشر ومغزاها بحث القي في الندوة الدولية لتاريخ القاهرة (مارس ـ ابريل ١٩٦٩) بمناسبة مرور الف عام على تاريخها ، طبع دمشق ١٩٦٩ (ص ٩٧ ـ ١٢٩ بحسب ترقيم الكتاب) ٠

٤ ـ مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام من القرن السادس عشر وحتى مطلع القرن التاسع عشر ، مجلة «دراسات تاريخية» ، جامعة دمشق ، العدد الاول ، آذار (مارس) ١٩٨٠ ، ص ٦٦ ـ ٩٥ (ص ١٣٠ ـ ١٥٩) ٠

٥ ـ مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني ، مجلة « دراسات تاريخية » ، العدد الرابع ، نيسان (ابريل) ١٩٨١ ، ص ٣٠ ـ ٦٢ (ص ١٦٠ـ ١٩٢) ٠

٦ ـ قافلة الحج الشامي واهميتها في الدولة العثمانية ، مجلة « دراسات تاريخية » ، العدد السادس ، تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٨١ ، ص ٥ ـ ٢٨ (ص ١٩٣ ـ ٢١٦) ٠

٧ ـ مظاهر سكانية من دمشق في العهد العثماني ، مجلة « دراسات تاريخية » ، العددان

الخامس عشر والسادس عشر ، كانون الثاني ـ أيار (يناير ـ مايو) ١٩٨٤ ، ص ٥ ـ ٢٨ (ص ٢١٧ ـ ٢٤٠) ٠

٨ ـ الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الاوربي في القرن التاسع عشر ، مجلة « دراسات تاريخية » ، العددان السابع عشر والثامن عشر ، آب ـ تشرين الثاني (أغسطس ـ نوفمبر) ، ١٩٨٤ ، ص ١١٥ ـ ١٥٩ (٢٤١ ـ ٢٨٥) ٠

المدخل الى تاريخ بلاد الشام في العهد العثماني

تمهيـــد

كونت بلاد الشام جزءا أساسيا في السلطنة المملوكية (١٢٦٠ ـ ١٥١٧) المتمركزة في مصر،وحين هزم العثمانيون المماليك في موقعة مرج دابق في ٢٣ آب ١٥١٦ واستولوا على بلاد الشام ، انهارت السلطنة المملوكية ، خلال خمسة أشهر ، حين اجهز عليها العثمانيون في موقعة الريدانية ، خارج القاهرة ، في ٢٣ كانون الثاني ١٥١٧ ٠

وقد أفاد العثمانيون من السلاح الناري اليدوي (البندقية) ، الذي اتقنوا استخداته، وجربوه في معارك مظفرة في البلقان ، في صراعهم مع المماليك الذين عارضوا استخدامه على نطاق واسع لتعارضه وتقاليدهم في الفروسية ٠ وكان حسن استخدام العثمانيين للسلاح الناري وملاءمة استخدامه لانكشاريتهم المشاة من الاسباب الرئيسية التي مكنتهم من الظفر على المماليك ، وعلى الصفويين من قبلهم في موقعة جالديران في ٢٣ آب ١٥١٤ ٠ وقد ثبت الانتصار العثماني في جالديران الحدود بين العثمانيين والصفويين وابعد خطر هؤلاء عن المنطقة العربية طيلة اربعة قرون ، وبذلك يكون استخدام العثمانيين للسلاح الناري قد غير الخريطة السياسية للمنطقة العربية ٠ ويضاف الى عامل التفوق هذا عوامل أخرى ، اقتصادية وبشرية ، دعمت قوة العثمانيين واضعفت ، بالمقابل ، من قوة المماليك ٠

والملاحظ أن العثمانيين ، الذين بدأوا وجودهم كأحدى امارات الغزاة التركمان في الاناضول ، قد شرعوا في التوسع اولا في البلقان بعد أن عبروا الدردنيل في عام ١٣٥٤ ، وحققوا انتصارات كاسحة على دوله في موقعة قوصوه في عام ١٣٨٩ ، وفي نيقوبوليس في عام ١٣٩٦ ٠ وكلما زاد توسع العثمانيين في البلقان ووسط اوربا وازنوا ذلك بتوسع مماثل في الاناضول ضد امراء الغزاة المسلمين المتمركزين فيه ٠ وهدف العثمانيون من

★ هذا البحث مستمد من كتابي : العرب والعثمانيون ، ١٥١٦ ـ ١٩١٦ ، دمشق ، ١٩٧٤ ٠ ويراجع هذا الكتاب حول مصادر البحث ٠

ذلك توسيع قاعدتهم الاسلامية وتوحيد قبائل الغزاة التركمانية تحت سيطرتهم • وقد أثار هذا التوسع نقمة الغزاة والعلماء المسلمين • وفي محاولة من الامير العثماني ليسبغ على عمله في القضاء على امارات الغزاة صفة الشرعية فقد طلب في عام ١٣٩٤ من الخليفة العباسي المقيم في القاهرة منحه لقب سلطان الروم • وقد التزم العثمانيون بهذه القاعدة في فتوحاتهم ، أي التوسع اولا ضد أعداء الدين في اوربا ، ثم موازنة ذلك بالتوسع في الاقطار الاسلامية • وحين بلغوا اوج توسعهم في اوربا وازنوا ذلك بفتح معظم الاقطار العربية ، بالقوة العسكرية حينا ، كما في بلاد الشام ومصر واليمن والعراق ، او بالولاء ، كما في الحجاز ، أو بواسطة غزاة البحر ، كما في شمال افريقية ، باستثناء المغرب الاقصى•

ويلاحظ أن انحسار الحكم العثماني قد بدأ كذلك في اوربا ثم عم الاقطار العربية الى أن عادت الدولة العثمانية في عام ١٩١٨ الى الاناضول من حيث خرجت قبل حوالـي ستمائة سنة •

بلاد الشام في فترة القوة العثمانية في القرن السادس عشر

لم يلق العثمانيون أية مقاومة في فتحهم بلاد الشام أثر موقعة مرج دابق ، لان المماليك كانوا قلة فيها وقد هرب معظمهم الى مصر · ولم يقاوم الاهالي العثمانيين ، كما انهم لم يدافعوا عن المماليك بسبب ظلم هؤلاء لهم · ووقفوا موقف المتفرج وهم يستبدلون حاكما غير عربي بحاكم اخر غير عربي · وقد أذهل الاهالي استخدام العثمانيين للسلاح الناري حتى ظن أهل دمشق حين أطلق العثمانيون مدافعهم وكأن السماء انطبقت على الارض على حد تعبير الاخباري الدمشقي المعاصر للاحداث شمس الدين محمد بن طولون · وافادت بعض الفئات ، كتجار حلب مثلا ، من الانضمام الى هذه الامبراطورية المترامية الاطراف لانها فتحت لهم مجالات اقتصادية واسعة واسواقا هامة · وازدادت أهمية حلب كمركز لتجارة العبور (الترانزيت) بين اوربا والاناضول وايران والشرق الاقصى · ورغم اللامبالاة السائدة في بلاد الشام ، ازاء تغير الحاكم ، فقد لعبت منظمات شبان الاحياء في دمشق ، التي عرفت بالزعران ، دورا هاما في محاولة ملء الفراغ السياسي بين انتهاء الحكم المملوكي وتثبيت الحكم العثماني · وكانت هذه المنظمات قد اشتهرت منذ أواخر عهد السلطنة المملوكية كظاهرة سياسية ، ذات خلفية اقتصادية واجتماعية ، هدفها الدفاع عن الشعب ضد ظلم المماليك · ولكن استتباب الحكم العثماني. واعتماده على القوة في فرض نفوذه ، قضى على هذه المنظمات · وسيظهر ما يوازيها فيما بعد في القرن الثامن عشر حين تسرب اصحاب النفوذ في دمشق الى طائفة الانكشارية وسيطروا عليها من الداخل ، فعرفت تبعا لذلك باليرلية (المحلية) ، ودافعوا من خلالها عن مصالحهم ضد السلطة العثمانية ·

وقد أبقى العثمانيون كثيرا من مظاهر الادارة المملوكية في بلاد الشام أثر فتحهم لها وذلك لفترة مؤقتة لضمان استقرار الامور · وعينوا جان بردي الغزالي ، والي حماة المملوكي الذي انحاز اليهم ، واليا على دمشق · ولكنهم ازالوا بعض الامراء المحليين ، مثل التنوخيين امراء جبل لبنان الموالين للمماليك ، واحلوا مكانهم المعنيين · وابقوا ، من ناحية اخرى ، عددا من الامراء الاخرين ، الذين قدموا لهم الولاء مثل امراء حوران وفلسطين والبقاع · وكانت قوة هؤلاء الامراء تقوم على أسس بدوية أو اقطاعية أو

دينية او حزبية قيسية ـ يمنية وأفاد العثمانيون من هؤلاء الامراء في جمع الضرائب واقرار الامن ، وقيادة قافلة الحج الشامي من دمشق الى الحجاز ·

جابه العثمانيون بعد أربع سنوات من فتحهم الشام ثورة واليها جان بردي الغزالي ، في عام ١٥٢٠ ، اثر وفاة السلطان سليم الاول · وقد اظهر الغزالي طموحه المملوكي وأعلن نفسه سلطانا وتلقب بالملك الاشرف ، وخطب باسمه في الجامع الاموي · وطلب المساعدة من مماليك مصر ، وعلى رأسهم خاير بك واليها من قبل العثمانيين ، فلم ينجدوه لان خاير بك بقي مواليا للعثمانيين ، وسرعان ما قضى هؤلاء على الغزالي وثورته في عام ١٥٢١ وكانت هذه اخر ثورة للمماليك في بلاد الشام ·

ولجأ العثمانيون ، أثر القضاء على ثورة الغزالي ، الى توطيد اسس الادارة العثمانية في بلاد الشام فأبقوها ثلاث ولايات : الشام (دمشق) ، وحلب ، وطرابلس · وقسمت كل ولاية الى عدد من الصناجق او الالوية · ووزعت بعض اراضي الدولة كاقطاعات عسكرية ، عرفت بالتيمار والزعامت ، حسب مدخولها السنوي · وعرف اصحاب هذه الاقطاعات بالسباهية أي الفرسان وشكلوا أقدم فرق الجيش العثماني · أما الاقطاعات من نوع الخاص التي زاد مدخولها السنوي على مائة الف أقجة ، فالحقت ببعض المناصب للانفاق عليها مثل منصب والي الولاية او منحت لبعض كبار الموظفين والمقربين من السلطة الحاكمة · وما بقي من أراضي الدولة التي لم توزع كاقطاعات ، فقد عهد بها الى ملتزمين لجباية ضرائبها · وكان الالتزام نظريا لسنة واحدة ، ثم احتكره بعض الافراد والاسر مما اضطر الدولة فيأواخر القرن السابع عشر الىاصدار نظامالمالكانة،أي الالتزام مدى الحياة· وسلمت واردات الالتزام الى الدفتردار ومنها انفق على مرتبات الفرق الجديدة في الجيش ، وهي الانكشارية واقامت فرق الانكشارية في مركز الولاية وفي القلاع ، وكان لها قائد خاص بها (الاغا) ويعين من استانبول ، من قبل آغا الانكشارية فيها · ويوازن الاغا بسلطته الوالي · أما السلطة القضائية فكانت بيد قاض القضاة في مركز الولاية ، وهو من المذهب الحنفي ، المذهب الرسمي في الدولة · وكان باستمرار روميا ، أي تركيا ، يعين من قبل قاضي عسكر الاناضول · ونظرا لاهمية قاضي القضاة في تطبيق احكام الشريعة وتنفيذ القوانين فقد وازن هو الاخر سلطة كل من الوالي والاغا ·والى جانب القاضي اشتهر المفتي في تفسير الشريعة وكان هو الآخر حنفيا · ولكن هذا لم يمنع من اعتماد أحكام القضاة والمفتين الذين يتبعون المذاهب الاخرى بعد موافقة القاضي والمفتي الحنفي عليها · وأشتهر كذلك نقيب الاشراف الذي كان يعين من قبل نقيب الاشراف في استانبول ، ولعب الاشراف دورا هاما في السياسة المحلية ·

وقد سادت بلاد الشام في أعقاب القضاء على ثورة الغزالي وادخال التنظيمات العثمانية اليها ، فترة هدوء استمرت حتى أواخر القرن السادس عشر ، انعكست فيها قوة الدولة ، وبخاصة في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) ، وتجلت محليا باقامة الزينات المتواصلة تقريبا تخليدا للانتصارات العثمانية في اوربا وغيرها ·

وشهدت هذه الفترة بناء أهم المنجزات العمرانية العثمانية ، في بلاد الشام وغيرها ، وكان معظمها ذا نفع خيري ، كالتكايا والجوامع والمدارس والسبل والحمامات ومثال ذلك التكية السليمانية التي أمر السلطان سليمان القانوني ببنائها في دمشق ، في موقع القصر الابلق ، بالوادي الاخضر · وبوشر ببنائها في عام ٩٦٢/١٥٥٤ ـ ١٥٥٥ ، وانجز في صفر ٩٦٧/تشرين الاول ١٥٥٩ · وبنى الوزير لالا مصطفى باشا ، الذي ولي على دمشق بين عامي ٩٧١ و ٩٧٦/١٥٦٣ و ١٥٦٩ ، الخان المعروف باسمه تحت قلعة دمشق ، كما بنى حماما في سوق السروجية · وقام الوالي مراد باشا بعد ذلك ببناء جامع في السويقة عرف بجامع المرادية · وامر درويش باشا حين ولي دمشق في عام ٩٧٩/١٥٧١ ـ ١٥٧٢ ، ببناء جامع عرف باسمه جامع الدرويشية ، قرب باب الجابية ، وذلك بالاضافة الى عمارته عدة سبل وحمام وقيسارية · وفي عام ٩٩٩/١٥٩٠ ـ ١٥٩١ تم بناء جامع السنانية قرب باب الجابية · وكان قد امر ببنائه سنان باشا الوزير الاعظم حين عين على دمشق قبل عام من ذلك · وفي حلب أمر واليها خسرو باشا ، في عام ٩٥٢/١٥٤٥ ـ ١٥٤٦ ، ببناء جامع وتكية ضمت المدرسة الخسروية وأوقف عليها خانا وسوقا وبنى محمد باشا دوقة كين والي حلب ، في عام ٩٥٧/١٥٥٠ ـ ١٥٥١ ، عدة خانات فيها ، مثل الخان المعروف اليوم بخان الغرابين ، وخان النحاسين ، وخان العلبية · وبنى بهرام باشا ، حين ولي على حلب في عام ٩٨٨/١٥٨٠ ـ ١٥٨١ ، جامعه المشهور بالبهرامية في محلة الجلوم · وشهدت بقية الاقطار العربية ، تحت الحكم العثماني ، مثل هذه المنجزات العمرانية في هذه الفترة ·

ومما يلفت النظر أن أيا من بلاد الشام ، او غيرها من الاقطار العربية ، لم تشهد في القرون التالية ما شهدته في القرن السادس عشر من نشاط عمراني تجلى بهذا العدد الكبير من الابنية ذات النفع العام · واذا تمعنا في شخصيات الذين بنوا هذه الاوابد لوجدنا انهم شغلوا مناصب عليا في الدولة واسهموا في الفتوحات ، وخلفوا وراءهم أمجادا عريضة في ميدان المعارك ، وهو المجال الرئيسي لصنع البطولات آنذاك ، فشيدوا هذه الاوابد لتخليد ذكراهم وبالمقابل ، نجد أن الولاة في القرون التالية ، حين اخذت الدولة العثمانية بالضعف ثم الانحطاط ، كانوا يشترون مناصبهم في الغالب ، ويحرصون على جمع المال خلال حكمهم ، لذا لم يبنوا ما يشابه هذه الاوابد ، واكتفوا ، في أحسن الاحوال ، بترميم جامع أو بناء مدرسة او سبيل · واستلزم بناء تلك الاوابد وتسيير شؤونها ايقاف الاوقاف الكثيرة عليها ، في حين أن الولاة اللاحقين اهتموا بتحويل ثرواتهم الى اوقاف ذرية او أهلية لفائدة ذريتهم وخشية من مصادرة الدولة لها · ولهذا نجد غلبة الاوقاف الخيرية في القرن السادس عشر · ثم تكاثرت الاوقاف الذرية بعد ذلك ، وبخاصة في القرن الثامن عشر ، حين عمدت الدولة الى مصادرة ثروات الولاة المتزايدة ·

الضعف العثماني والثورات في بلاد الشام في القرن السابع عشر

بعد أن حققت الدولة العثمانية انتصاراتها الباهرة التي بلغت معها أقصى توسعها في عهد السلطانين سليم الاول وسليمان القانوني أخذت بذور الضعف بالظهور فتجمدت حدود الامبراطورية ثم أخذت بالتراجع • وواجه العثمانيون في اوربا أعداء اشداء تزعمهم آل هابسبورغ حكام الامبراطورية الجرمانية المقدسة ، التي مركزها فيينا • وفشلت محاولة العثمانيين الثانية لاحتلال فيينا في عام ١٦٨٣ ، واضطروا في عام ١٦٩٩ الى توقيع معاهدة كارلوفيتز مع آل هابسبورغ ، وتخلوا بموجبها عن جميع هنغاريا وترانسلفانيا وبودوليا • وكانت هذه أول خسارة كبرى للعثمانيين منذ حوالي ثلاثمائة عام ، حين هزمهم تيمور لنك في موقعة انقرة في عام ١٤٠٢ • كما كانت هذه أول مرة وقع فيها العثمانيون الصلح كمنهزمين ، وتخلوا عن مناطق سيطروا عليها منذ فترة طويلة • ولم يتمكن العثمانيون ، بعد ذلك من استعادة ما خسروه بل تخلوا عن مناطق اخرى • وجابه العثمانيون في الجبهة الشرقية اشتداد هجمات الصفويين على العراق ، واحتلالهم بغداد في عام ١٦٢٣ • ولم يستطع العثمانيون استعادتها حتى عام ١٦٣٨ ، في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ــ ١٦٤٠) ، ولم يظهر بين وفاة السلطان مراد الرابع ومجيء اول سلطان مصلح ، وهو سليم الثالث (١٧٨٩ ــ ١٨٠٧) أي سلطان يستحق لقب كبير • وانغمس السلاطين في حياة القصر الداخلية ومؤامراته • وازداد شأن الصدر الاعظم (الوزير الاعظم) في تصريف شؤون الدولة تبعا لذلك • واشتهر من الوزراء العظام افراد اسرة كوبريلي في الفترة بين ١٦٥٦ و ١٦٧٦ ، الذين اعادوا الى الدولة كثيرا من هيبتها •

وانعكس هذا الضعف على الجيش الاقطاعي (السباهي) والجيش الانكشاري فاستغل السباهية سلطتهم في الريف لابتزاز المال من الفلاحين وحذا حذوهم ملتزمو الضرائب • ولجأ الانكشارية بدورهم الى العمل في التجارة وابتزاز المال من الاهلين للتعويض عن انهيار قيمة مرتباتهم وتدخلوا في السياسة الداخلية ، واخذوا يرهبون السلاطين ويقيلونهم بعد أن كانوا يرهبون الجيوش الاوربية • وازاء هذا الوضع ، اضطرت الدولة شأنها شأن الامراء الثائرين عليها ، الى الاعتماد على الجند المرتزقة الذين عمدوا الى ترويع الاهلين أثر تسريح الدولة لهم •

وأخذت الدولة العثمانية تعاني ، منذ الربع الاخير من القرن السادس عشر، من أزمة اقتصادية خانقة . وقد نتج عن انقطاع موارد الفتوحات العثمانية وازدياد عدد الجنود الانكشاريين والموظفين الذين يتقاضون المرتبات ، وفساد نظام الالتزام وجباية الضرائب ، ونقص واردات الضرائب التي كانت تفرض على بضائع الشرق الاقصى المارة في الاراضي العثمانية بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، ان ارتبك الاقتصاد العثماني . وأدى تدفق الفضة الرخيصة الى بلدان البحر المتوسط من العالم الجديد ـ أمريكا ـ بواسطة المستعمرين الاسبان ، الى انهيار قيمة الوحدة الفضية للنقد العثماني وهي الاقجة ، بالنسبة للذهب . واضطرت الدولة في عام ١٥٨٤ الى تخفيض سعر الاقجة ، التي استمرت قيمتها بالانهيار بعد ذلك مما جعل الدولة تصدر وحدة نقدية جديدة هي البارة في عام ١٦٢٠ ، ثم القرش في الربع الاخير من القرن السابع عشر .

وانعكس ضعف الدولة العثمانية في سلسلة من الثورات ظهرت ، اول الامر ، في صفوف العساكر ، في عدد من الولايات العربية ، بما فيها بلاد الشام ، منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر ثم انتشرت بين الامراء المحليين في القرن السابع عشر . وقد بدأت ثورات العساكر في مناطق الاطراف ، حيث السلطة العثمانية ضعيفة ، كما في اليمن. ثم انتشرت باتجاه الداخل . وقد أشار الاخباري اليمني آنذاك ، قطب الدين محمد المكي، صاحب مؤلف « البرق اليماني في الفتح العثماني » ، الى انهيار قيمة العملة في اليمن وتدني القيمة الشرائية لرواتب الجند تبعا لذلك وانضمام هؤلاء الى ثورة الامام الزيدي على العثمانيين . واجتاحت مصر سلسلة من ثورات العساكر في الفترة بين عامي ١٥٨٩ و ١٦٠٩ في أعقاب تخفيض قيمة العملة فيها في عام ١٥٨٤ . وحاول العساكر في الريف ، من أصحاب الرواتب القليلة ، فرض ضرائب اضافية على الاهلين للتعويض عن قيمة مرتباتهم، الامر الذي قاومته الدولة مما ادى الى ثوراتهم . وكان لطموح العساكر المماليك بينهم أثره في تأجيج الثورات .

وقد عمت الازمة الاقتصادية بلاد الشام . ويذكر الاخباري الدمشقي المعاصر للاحداث شرف الدين موسى الانصاري ، في مؤلفه « نزهة الخاطر وبهجة الناظر » ، انهيار قيمة العملة وارتفاع أسعار المواد الغذائية وتضرر اصحاب المرتبات ، ومن بينهم الانكشارية ، من ذلك . وكان انكشارية دمشق منذ مطلع العهد العثماني قد انصرفوا الى تعاطي الفعاليات الاقتصادية ، من حرف ، وتجارة ، وربا وغيرها ، وشجعهم على ذلك عدم تعرض دمشق ، وبلاد الشام بعامة ، الى عدوان خارجي ، فأخذوا يعيشون خارج القلعة . وانضم ، بالمقابل ، الى صفوفهم عدد من الاهالي والاغراب للافادة من امتيازاتهم . واضطر السلطان ، في عام ١٥٧٧ ، الى اصدار أمر الى والي دمشق يأمره فيه بان يعين في الوظائف التي تشغر بين الانكشارية افرادا من الاروام العثمانيين ،لامن الاهالي والاغراب (وبخاصة الاكراد) كما كان عليه الحال . ولم ينفذ هذا الامر ، وازداد بالتالي تسلط الانكشارية وابتزازهم المال . ووسعوا دائرة نفوذهم وابتزازهم الى ريف حلب ، اثر دعوة الدولة لهم

لقتال الثائرين (الجلالية بالتركية) ، في تلك الانحاء • واستغل انكشارية دمشق وجودهم هناك فمارسوا كثيرا من الظلم وابتزاز المال مما اضطر الدولة لقتالهم ، واخراجهم من ولاية حلب بالقوة ، وقتل بعض زعمائهم •

ويلاحظ أن انكشارية دمشق لم تبلغ ثورتهم الدرجة التي بلغتها ثورة العساكر في مصر ، لان هؤلاء الاخيرين قد ضموا عنصرا مملوكيا ناقما استغل الضائقة الاقتصادية لتحقيق اطماعه • ولم يوجد مثل هذا العنصر في بلاد الشام • ولكن بطش الدولة بزعماء انكشارية دمشق المتمردين ، ومعظمهم من أهل غريب ، من اكراد وتركمان ، كما تدل اسماؤهم ، سهل الامر للمتنفذين والطامحين من الدمشقيين للتسرب الى طائفة الانكشارية والسيطرة عليها من الداخل • وتكرر البطش بزعماء انكشارية دمشق المتمردين في عهد السلطان مراد الرابع والوزراء العظام من آل كوبريلي مما أزال بالتدريج ، العناصر المتنفذه الغريبة من بينهم لصالح العناصر المحلية،وحين ايد انكشارية دمشق ثورة والي حلب حسن باشا على الدولة في عام ١٦٥٩ ، وتلا ذلك بطش الدولة بحسن باشا ، دفع انكشارية دمشق الثمن اذ بطشت الدولة بزعمائهم ، وقضي بذلك على معظم الاغراب من بينهم • وارسلت الدولة فرقا انكشارية جديدة عرفت بالقابي قول (أي عبيد الباب ،ويقصد بذلك باب السلطان تأكيدا للولاء له) ، استولت على النقاط الاستراتيجية في دمشق ، مثل القلعة وابواب المدينة التي كانت في عهدة الطائفة الانكشارية التي أصبحت تعرف بالانكشارية اليرلية،أي المحلية،لان معظم قادتها وافرادها اصبحوا بالتدريج من الدمشقيين• وعهدت الدولة الى هؤلاء بحراسة منازل الحج لحماية قافلة الحج الشامي ، بين دمشق والحجاز • ولكن اليرلية عمليا استمروا يقيمون في دمشق ، يمثلون اسرها المتنفذة التي انضمت اليهم ويدافعون عن مصالحهم • وكانوا يعيشيون بمعظمهم في حيين رئيسيين ، الميدان المشهور بفعاليته الاقتصادية وتسويقه حبوب حوران ، وسوق ساروجا الذي يواجه القلعة والسرايا ، مقر الوالي العثماني • واشتدت المنافسة بين الانكشارية اليرلية ، الذين أصبحوا عبارة عن دمشقيين بملابس عسكرية ، وبين الانكشارية القابي قول ، لان هؤلاء الاخيرين ، حاولوا ، كالاولين العمل في الفعاليات الاقتصادية • وهكذا ، اضيف الى التنافس السياسي والصراع على النفوذ ، التنافس الاقتصادي بين الفريقين • وعمدت الدولة الى تبديل ، أو ردف ، الانكشارية القابي قول بفرق جديدة ، بين فترة واخرى،لتحول دون هذه الفرق واقامة ارتباطات وولاءات محلية • ومع ذلك ، استمر العداء قائما بين الطائفتين الانكشاريتين في دمشق منذ عام ١٦٦٠ والى ان قضي على الانكشارية ككل في الدولة العثمانية في عام ١٨٢٦ •

ومما تجدر ملاحظته أن الطائفة الانكشارية في حلب لم تتحول الى طائفتين ، كما حدث في دمشق ، بل بقيت طائفة واحدة تخضع للدولة ، وتدافع عن المصالح العثمانية • ولم يتمكن الاهلون من التسرب اليها والسيطرة عليها • ولا شك أن قرب حلب من مركز الدولة ، ووقوعها على الطريق الرئيسية التي سلكتها معظم الجيوش العثمانية المتجهة الى

الجبهة الصفوية ومنها قد قوى من النفوذ العثماني على أفراد طائفة الانكشارية في حلب • ولم يمنع هذا هؤلاء من تعاطي التجارة وعقد القروض مع الفلاحين ، واستملاك الاراضي • ونظرا لان صفوف الانكشارية في حلب بقيت مغلقة في وجه الاهالي ، بالمقارنة مع ما حدث بدمشق ، فقد وجد هؤلاء في منظمة الاشراف وسيلة لفرض نفوذهم والدفاع عن مصالحهم في وجه السلطة العثمانية وطائفة الانكشارية التي تمثلها • ومن هنا اشتداد الصراع والقتال الدامي بين الاشراف والانكشارية في حلب • وحدث اكبر اصطدام بين الفريقين في عام ١٧٩٨ حين التجأ فريق من الاشراف الى جامع الاطروش ، قرب القلعة في حلب وذبح الانكشارية معظمهم • ومع ذلك فقد بلغ من تنظيم الاشراف وقوتهم في حلب أن لجأت اليهم الدولة لمقاومة حملة نابليون بونابرت على مصر

وتلا العساكر في الثورة على العثمانيين عدد من الامراء المحليين في بلاد الشام وغيرها من الولايات العربية ، وذلك منذ اواخر القرن السادس عشر • وقد استفاد هؤلاء الامراء من طبيعة المناطق التي وجدوا فيها ، مثل منطقة جبال طوروس ، حيث الثغور الاولى وبقايا القبائل والامارات التركمانية أو مثل جبل لبنان الذي لجأ اليه ، منذ الفتوحات العربية الاسلامية عدد من القبائل العربية ومن الطوائف الدينية المضطهدة •

وقد ثار في بلاد الشام ، في الربع الاول من القرن السابع عشر زعيمان محليان هما علي باشا جانبلاط ، الزعيم الكردي في منطقة كلس ــ حلب ، والامير فخر الدين المعني الثاني ، أمير الشوف في جبل لبنان • وكلمة جانبلاط (او جانبولاد) تحوير لكلمتي جان وبولاد ، وتعنيان بالتركية النفس الفولاذية • وكانت أسرة جانبلاط واحدة من الاسر التي ثارت على الدولة في منطقة الاناضول في العقد الاخير من القرن السادس عشر ، وعرف هؤلاء الثائرون بالتركية بالجلالية • وكانت اسباب ثورتهم الضائقة الاقتصادية التي حلت بمنطقة الاناضول آنذاك ووجود قوى بشرية وزعماء متعددين فيها • وأدى الوفر في القوى البشرية العاطلة عن العمل الى بيعها خدماتها كجنود مرتزقة • عرفوا بالسكبان (من سك ، وتعني الكلب ، وبان ، وتعني الحامي في الفارسية ، وتعنيان معا الكلابي الذي يرافق الصياد) • واستخدم هؤلاء السكبان بالالاف من قبل علي باشا جانبلاط وفخر الدين المعني الثاني لدعم قوتهما •

وقد نقم علي باشا لقتل الدولة عمه حسين باشا المعين واليا على حلب من كلس فثار في عام ١٦٠٥ وأخذ حلب عنوة وامتنع عن دفع الضرائب ، واتجه الى دمشق لاحتلالها بحجة الثأر من انكشاريتها الذين سبق أن قاتلوا عمه • وتحالف علي باشا مع فخر الدين المعني الثاني أمير الشوف الذي كان يبحث بدوره عن المجد والسلطة • وجمع بينهما أيضا عداؤهما لعدوهما المشترك يوسف باشا سيفا حاكم طرابلس الكردي الاصل ، الذي هرب من وجههما الى دمشق • وحاصر الحليفان دمشق في عام ١٦٠٦ • ولكنهما تراجعا عنها بعد أن علما بمغادرة يوسف باشا سيفا لها وبعد دفع مبلغ من المال لهما • وانفض التحالف بين الفريقين أثر ذلك • وتمكنت الدولة من هزيمة علي باشا في

منطقة مرعش في عام ١٦٠٧ ثم قتلته في عام ١٦١١ · وذكر أن بعض افراد اسرة جانبلاط لجأوا في عام ١٦٣٠ الى حلفائهم القدامى حكام الشوف المعنيين ، واعتنقوا ، مثلهم ، المذهب الدرزي واشتهروا فيما بعد في تاريخ جبل لبنان ·

انتقل ثقل الاحداث ومركز الثورة على العثمانيين ، أثر القضاء على علي باشا جانبلاط ، الى جنوب بلاد الشام ، وبالتحديد الى منطقة الشوف ، حيث حكم المعنيون · ويعد الامير فخر الدين المعني الثاني (١٥٩٠ - ١٦٣٥) من اشهر امراء جبل لبنان ، الذين مثلوا اسرا اقطاعية اعترف العثمانيون بوجودها ما دامت تقيم الامن وتدفع الضرائب · وتمكن فخر الدين من القضاء على منافسيه في الشمال ، آل سيفا الاكراد وآل عساف التركمان ، المسيطرين على منطقة طرابلس - بيروت ، واحتل البقاع ، وتوسع في فلسطين، وتمكن من اقامة امارة كبيرة · وقد اعتمد على الموارد الاقتصادية لمنطقته والمناطق الاخرى التي ضمها اليها وبخاصة انتاج الحرير الطبيعي في الشوف وتسويقه في الدويلات الايطالية · وانشأ جيشا من المرتزقة السكبان يبلغ عدة آلاف وكان فخر الدين يتمتع بدعم الحزب القيسي المناوىء للحزب اليمني · وهذا من بقايا العصبيات التي أتت بها القبائل العربية التي سكنت مناطق جبل لبنان عبر التاريخ العربي · ولم يقتصر الحزب الواحد على طائفة دينية واحدة بل شمل عدة طوائف ، مسلمة ومسيحية · وكان المعنيون من القيسية ، بينما كان اعداؤهم من الدروز ، من آل علم الدين ، من اليمينية ·

وحين ازداد شأن فخر الدين عزمت الدولة على البطش به فهرب في عام ١٦١٣ الى اصدقائه التجاريين آل مديتشي في توسكانيا ، في ايطاليا ، ثم عاد الى الشوف في عام ١٦١٨ بوساطة من مؤيديه · ومن جديد أخذ يمد نفوذه فاصطدم بوالي دمشق في عنجر في عام ١٦٢٣ ، وهزمه · وكانت الدولة ، آنذاك ، في مطلع حكم السلطان مراد الرابع ، مهتمة باحتلال الصفويين لبغداد ، فاعترفت بسلطة فخر الدين وعينته أميرا على بلاد عربستان ، شريطة أن يدفع الضرائب ويقيم الامن · والمقصود بعربستان هنا المناطق خارج المدن ، بين حلب والعريش وتدمر ، التي يؤمها البدو ، أي العرب أو العربان بمفهوم ذلك الزمن · واتخذ فخر الدين لنفسه لقب سلطان البر · واقتضى امتداد سلطته توزيع قواته في قلاع وحصون مبعثرة في انطاكية وقب الياس وبانياس وتدمر · وخشي مراد الرابع ، الذي كان يعد العدة لاسترجاع بغداد من الصفويين من ازدياد قوة فخر الدين فقرر البطش به أولا ، وأمر قواته بحصاره برا وبحرا · وهزم فخر الدين ، ثم قتل في عام ١٦٣٥ ·

ولم تكن نهاية فخر الدين نهاية حكم المعنيين في جبل لبنان ، اذ استمر هؤلاء في الحكم حتى عام ١٦٩٧ · ولكن مقتله ضعفهم واضعف معهم الحزب القيسي ، وأفاد من ذلك الحزب اليمني ، الذي أخذت الدولة تؤيده للحلول محل المعنيين في الامارة ·

وفي عهد الوزراء العظام من آلكوبريلي انشئت ولاية رابعة في بلاد الشام ، هي ولاية صيدا ، التي سلخت من ولاية دمشق ، وضمت صنجقي صفد ، وصيدا مع بيروت ، لاحكام

الرقابة على امراء جبل لبنان ، من ناحية ، ولاتاحة المجال لولاة دمشق للاهتمام بمسؤولياتهم المتزايدة ، كاقامة الامن في دمشق وفي الولاية ، وتأمين سلامة الحج ، ومساعدة السلطان في حروبه ، من ناحية اخرى ٠

وقد أدى القضاء على فخر الدين الى حدوث ما يشبه الفراغ السياسي في جنوبي بلاد الشام ، بعد أن قضى فخر الدين على كثير من الاسر الاقطاعية وأضعف ما بقي منها وحاول ولاة دمشق أن يملأوا هذا الفراغ ، ولكن الى حين ، اذ سيطر ظاهر العمر الزيداني في القرن الثامن عشر ، على معظم فلسطين ، وطغى بنفوذه على امراء جبل لبنان والولاة العثمانيين في المنطقة على حد سواء ٠

وحين توفي اخر أمير معني ، وهو أحمد ، في عام ١٦٩٧ ، دون أن يعقب ولدا ذكرا اجتمع زعماء الحزب القيسي ، على اختلاف مذاهبهم ، وانتخبوا الامير بشيرا الشهابي ، ابن أخت الامير احمد المعني ، خلفا له ٠ وفي حين أن أول أمير معني قد عين من قبل السلطان العثماني سليم الاول ، أثر فتح بلاد الشام ، فان أول أمير شهابي انتخب من قبل مشايخ وأعيان جبل لبنان ، مما يظهر أن هؤلاء كانوا اصحاب سلطة وقد تأكدت هذه السلطة فيما بعد ، بنتيجة ذلك ، حين مارسوا نفوذهم على معظم الامراء الشهابيين ٠ ومما يسترعي الانتباه قوة التعاطف القيسي الذي طغى على الاختلافات المذهبية ، فاختير الشهابيون السنة خلفاء للمعنيين الدروز ٠ وأدى هذا التكتل القيسي الى تكتل يمني بالمقابل ٠ وبلغ الصراع بين الحزبين أوجه ،وفي الحقيقة نهايته ،حين اشتبكا في قتال دام في موقعة عين دارة، في عام ١٧١١ ٠ وقد هزم اليمنية ، ولجأ من سلم منهم الى جبل حوران ، أو جبل الريان ، وكانوا بمعظمهم من الدروز ، فعرف الجبل منذئذ بجبل الدروز ٠ وكانت هذه التسمية تطلق على جبل لبنان ٠ وهكذا ساد القيسية في جبل لبنان ٠ ولكن غياب الحزب اليمني المنافس ، الذي وحد صفوف القيسية ، جعل هؤلاء ينقسمون على أنفسهم فتجمعوا حول حزبي الجانبلاطية واليزبكية الارسلانية في أواسط القرن الثامن عشر ٠ ونافس الجانبلاطية الامراء الشهابيين ، وبخاصة منهم الامير بشير الثاني (١٧٨٨ ـ ١٨٤٠) ، الذي اعتنق المارونية ٠

الانحطاط العثماني وتعاظم النفوذ المحلي في بلاد الشام في القرن الثامن عشر

فقد العثمانيون زمام المبادرة العسكرية في اوربا ، في أعقاب معاهدة كارلوفيتز في عام ١٦٩٩ ، وشغلت اوربا ، بعد ذلك ، بحروب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ ـ ١٧٤٨)، وحرب سبع السنوات (١٧٥٦ ـ ١٧٦٣) • وحلت روسيا محل النمسا في تهديد العثمانيين، وبخاصة في عهد القيصر بطرس الاكبر (١٦٨٢ ـ ١٧٢٥) والقيصرة كاترين الثانية (١٧٦٢ ـ ١٧٩٦) • ففي عهد الاول احتلت روسيا المناطق المنتجة للحرير في شمالي بلاد فارس ، وأثر ذلك على تجارة المرور المتمركزة في حلب ، لان الحرير الفارسي كان يمر عبرها ، وعبر مينائها الطبيعي ، الاسكندرونة ، الى اوربا • وفي عهد كاترين جرت أكبر حرب بين روسيا والدولة العثمانية ، دامت من عام ١٧٦٨ الى عام ١٧٧٤ ، وانتهت بمعاهدة كجك قاينارجة • وبموجب هذه المعاهدة استقل تتار القرم عن العثمانيين ، ثم ضمتهم روسيا اليها في عام ١٧٨٣ ، وبذلك خسر العثمانيون لاول مرة مناطق يسكنها أتراك مسلمون • وكان هذا ضربة كبيرة لنفوذهم • ووصلت روسيا بذلك الى سواحل البحر الاسود •

وشهدت الجبهة الفارسية تجدد القتال بين العثمانيين والحكام الذين حلوا محل الصفويين ، وابرزهم نادر شاه الذي قضى على السلالة الصفوية في عام ١٧٣٦ ، وكان أكبر عدو للعثمانيين اذ حاصر الموصل وهدد بغداد ، ولكنه توفي في عام ١٧٤٧ • وبعد فترة قام كريم خان زند في بلاد فارس ، وهدد العثمانيين من جديد بين عامي ١٧٧٤ و ١٧٧٩ •

وازاء هزائم العثمانيين المتكررة ، في القرن الثامن عشر ، جرت محاولات عثمانية للاصلاح ، وبخاصة في المجال العسكري • وكان اول سلطان مصلح هو سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) الذي ادخل عدة اصلاحات اهمها محاولة احداث جيش جديد على الطراز الاوربي عرف بالنظام الجديد • ولكن معارضة الانكشاريين والعلماء لهذه الاصلاحات

تسببت في عزل السلطان • ومع ذلك تابع خلفاؤه الاصلاح من الاعلى ، طيلة القرن التاسع عشر ، الذي عرف بعصر التنظيمات الخيرية •

ونجم عن هذا الانحطاط في القوة العثمانية ، وعجزها عن حماية حدودها ، أن تناقصت هيبة السلطة المركزية في الولايات • وظهرت قوى محلية ، تقوم سلطتها على أساس اقطاعي او ديني أو قبلي أو مملوكي عسكري ، فزادت من سلطتها ، واعترفت بها الدولة العثمانية لعجزها عن تحقيق الامن ، في حين نجحت هذه القوى في ذلك • ففي العراق ، مثلا ، ظهر حكم المماليك في بغداد ، الذي دام من عام ١٧٤٧ وحتى عام ١٨٣١ • وكذلك حكمت الموصل اسرة الجليلي من عام ١٧٢٦ وحتى عام ١٨٣٤ • ونجحت هاتان القوتان في صد هجوم حكام فارس على العراق • وبلغ المماليك في مصر ، في القرن الثامن عشر ، ذروة تسلطهم وأصبحوا الحكام الفعليين لتلك الولاية • وظهرت في طرابلس الغرب الاسرة القرمانلية التي حكمت بين عامي ١٧١١ و ١٨٣٦ • كما قامت عدة قبائل بدوية بالسيطرة على المناطق التي تواجدت فيها مثل قبائل العنزة في بادية الشام التي وصلتها منذ آواخر القرن السابع عشر ، وحلت محل تجمع قبائل الموالي ، وتحكمت في الطريق التجاري بين دمشق وبغداد ، ومثل قبائل المنتفق ، في منطقة البصرة ، أو قبائل هوارة في صعيد مصر • وظهر على الشاطىء الشرقي من الجزيرة العربية اسر بدوية حاكمة أسست نواة الامارات الحاكمة هناك اليوم • وظهرت في قلب الجزيرة العربية الدعوة الوهابية التي انتقدت ضعف السلطان العثماني وعدم أهليته لحماية بلاد المسلمين ، كما احتجت على البدع ، وبخاصة الطرق الصوفية المتطرفة التي حماها ورعاها العثمانيون • وكانت هذه الدعوة بشخص مؤسسها محمد بن عبد الوهاب ، والمنطقة التي ظهرت فيها ، ودعوتها الى اتباع تعاليم الاسلام في عهده الاول ، في عهد السلف الصالح ، حين كان بأيد عربية ، وفي الجزيرة العربية ، ثم بتبنيها من قبل الاسرة السعودية والقبائل الموالية لها في الجزيرة ، رد فعل عربي باطار ديني ، على انحطاط الدولة العثمانية •

وعلى غرار هذه التطورات فقد شهدت بلاد الشام ردود فعل كثيرة على انحطاط السلطة العثمانية • فقد ظهرت فيها اسرة العظم ، التي اشتهر مؤسسها كجندي عثماني ، في معرة النعمان ، في حوالي منتصف القرن السابع عشر • وتمكن أحد افراد اسرته من الحصول على ولاية طرابلس في عام ١٧٢٠ ، ثم انتقل الى ولاية الشام في عام ١٧٢٥ • وحكم افراد آخرون من هذه الاسرة ، في الوقت ذاته ، ولايتي صيدا وطرابلس • وبلغ حكم هذه الاسرة لولاية دمشق ، في القرن الثامن عشر ، حوالي ستين سنة متقطعة ، الامر الذي لم تشهده هذه الولاية ، أو أية اسرة اخرى ، طيلة الحكم العثماني • وكان اشهر ولاة آل العظم اسعد باشا ، الذي خلف عمه سليمان باشا في حكم ولاية دمشق ، بين عامي ١٧٤٣ و ١٧٥٧ • وهو الذي بنى فيها قصر العظم الذي تشيد الابيات الشعرية فيه بأسعد باشا دون ذكر السلطان العثماني الحاكم الذي انقزمت صورته كثيرا • ومن العوامل التي ساعدت هذه الاسرة في الوصول الى السلطة واحتفاظها بها ، تمتعها بأموال وافرة جمعتها

من مالكاناتها أي التزامها أراضي الدولة مدى الحياة ، في منطقة حماه والمعرة واستخدمتها لشراء الدعم في استانبول والحصول على النفوذ المحلي . كما أن انتقال امارة قافلة الحج الشامي الى دمشق وتعيين والي دمشق باستمرار بدءا من عام ١٧٠٨ ، أميرا لها ، كان حادثا هاما في تاريخ دمشق والمنطقة عموما ، ترتب عليه بالنسبة لدمشق تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية هامة ، نظرا لتغيب واليها مع القافلة قرابة ثلاثة أشهر ، ولتجمع العدد الكبير من القوات المرافقة للقافلة فيها . وكان الوالي الذي يؤمن سلامة القافلة يستمر في منصبه لاكثر من سنة او نحوها التي اقتصرت عليها مدد معظم ولاة دمشق في القرن السابع عشر . ومع ذلك ، يعزى عزل الولاة من آل العظم ، رغم تأمينهم سلامة القافلة ، الى تقلب الاحوال في استانبول وأثر ذلك على حماتهم فيها ، والى وجود منافسين آخرين لهم . وعد الاخباري الدمشقي المعاصر لهذه الاسرة ، ميخائيل بريك ، بداية حكم آل العظم نقطة تحول في تاريخ المنطقة لانه يمثل حكم أول طائفة من اولاد العرب تصبح حكاما « في بلادنا » ، وجعل ذلك بداية تاريخه للشام في ١٧٢٠ .

واشتهر كذلك في بلاد الشام ، في القرن الثامن عشر ، ظاهر العمر الزيداني ، الذي برز في الفترة بين حوالي ١٧٣٥ ومقتله في عام ١٧٧٥ . ويمثل أسرة بدوية من الزيادنة سيطرت في منطقة صفد ــ طبرية . وقد ورث ظاهر التزام ضرائب تلك المنطقة عن أبيه عمر وجده زيدان . واستفاد من عدة عوامل في تأسيس ما يشبه الامارة العربية في فلسطين ضمن الاطار العثماني . فقد تحالف مع عدد من القبائل البدوية في المنطقة . كما أن انقسام وتصارع القوى في جبل لبنان بين جانبلاطيين ويزبكيين ــ أرسلانيين ، من ناحية وبينهم وبين الامراء الشهابيين من ناحية أخرى ، وكذلك انقسام الزعماء المتاولة على أنفسهم ، في منطقة جبل عامل ، وذلك أثر اشتهارهم في القرن الثامن عشر ، تبعا لرواج انتاج منطقتهم من التبغ ، وانشغال أمراء جبل لبنان عنهم بخلافاتهم ، قد خفف الضغط عن ظاهر العمر ، من تلك الناحية . ومكنه ذلك . في الواقع ، من التحالف مع فريق أو آخر من هؤلاء . كما أن اشتغال ولاة دمشق بقيادة قافلة الحج وتأمين سلامتها اتاح المجال لظاهر لان يتخلص من ضغطهم عليه ولو لبضعة أشهر . وافاد ظاهر من النشاط الاقتصادي الذي عم منطقة فلسطين بنتيجة تكثيف الفرنسيين نشاطهم التجاري معها منذ الربع الاول من القرن الثامن عشر . واستغل ظاهر موارد المنطقة المتنامية ليستأجر جنودا مرتزقة ، معظمهم من المغاربة ، وليدعم قواته القبلية الخاصة من الزيادنة فتحدى السلطة العثمانية ، وامتنع عن تقديم ضرائب الميري اليها ، ومد سلطته على حيفا وعكا ، في حوالي منتصف القرن ، وحصن هذه الاخيرة وجعلها مركز اقامته ودفاعه ، الى جانب حصونه الاخرى في طبرية ودير حنا وغيرها . ولكن العوامل ذاتها التي ساعدت ظاهر على توطيد سلطته اسهمت ، بصورة عكسية ، في تحطيم قوته . فتحالفه مع القبائل تحول الى تمزيق سلطته من الداخل حين دعمت القبائل اولاد ظاهر الذين ينتسبون اليها ، عن طريق تزاوج ظاهر معها، ولذلك دب الشقاق داخل اسرته ، وقامت الثورات عليه من قبل ابنائه ، تدعم كلا منهم

القبيلة التي ينتسب اليها ، وذلك بعد أن تضخمت امارة ظاهر واتسعت حدودها مما أغرى اولاده الطامعين بها • أما قوى جبل لبنان فكانت تتجه نحو تأكيد سيطرة الامير الشهابي ، بدءا من عهد الامير يوسف الشهابي الذي حاول ، في أواخر الستينات ، التحالف مع والي دمشق العثماني لاضعاف خصومه • وكان والي دمشق ، طيلة فترة الستينات ، عثمان باشا الكرجي ، الذي كان من ألد أعداء ظاهر العمر ، وحاول اضعافه بواسطة ابنيه اللذين عينا على ولايتي صيدا وطرابلس • وأدى هذا العداء الى تحالف ظاهر العمر مع علي بك المملوكي ، حاكم مصر الفعلي ، الذي طمع بحكم بلاد الشام واعادة مجد السلطنة المملوكية الغابر ، فاحتلت قواته دمشق في الفترة بين ٨ – ١٨ حزيران ١٧٧١ • ولكن قائده محمد بك أبا الذهب تغيرت نيته ، وانسحب من الشام ، وانقلب على علي بك • ولجأ هذا الاخير الى حليفه ظاهر ، ثم قتل من قبل ابي الذهب في عام ١٧٧٣ • وقام ابو الذهب بحملة جديدة على بلاد الشام بحجة تأديب ظاهر العمر ولكنه توفي في عام ١٧٧٥ ، وعادت قواته الى مصر • ولم يهاجم بلاد الشام أي وال من مصر بعد ذلك حتى حملة محمد علي باشا في عام ١٨٣١ • وانصبت نقمة السلطان العثماني على ظاهر فارسل ، بعد انتهاء حربه مع روسيا في عام ١٧٧٤ ، قوة بحرية وبرية قضت على ظاهر في عام ١٧٧٥ ، وتلاشت امارته من بعده • ونتج عن هذه الاضطرابات تدهور الوضع الاقتصادي في بلاد الشام الجنوبية ، وكان ، ابان ازدهاره ، احد دعائم قوة ظاهر •

واستغل تقلص نفوذ والي دمشق ، اثر احتلال المماليك لهذه المدينة ، وبنتيجة الفراغ السياسي الذي حل في بلاد الشام الجنوبية ككل ، أحد ضباط الحملة العثمانية التي ارسلت لاخضاع ظاهر العمر ، وهو احمد باشا الجزار • وكان مملوكا في الاصل ، وعمل في مصر حيث لقب بالجزار لشدة بطشه ببدو اقليم البحيرة فيها • وفي عام ١٧٧٦ عينه السلطان واليا على ولاية صيدا ، فاشتغل تحصين عكا في عهد ظاهر فجعلها مركز حكمه ودفاعه وصد ، فيما بعد ، بحصونها واستحكاماتها القوية ، هجوم نابليون بونابرت عليها في عام ١٧٩٩ • واستمرت سيطرة الجزار في بلاد الشام الجنوبية حتى وفاته في عام ١٨٠٤ ، وخضع له الامير بشير الثاني الشهابي ، الذي وطد سلطته في جبل لبنان •

وبلغت قوة الجزار الذروة بتعيينه واليا على دمشق في عام ١٧٨٥ • ثم عين عليها ثلاث مرات بعد ذلك • ويعد تعيين الجزار هذا حدثا هاما في بلاد الشام الجنوبية من حيث الصراع على النفوذ فيها • فبعد أن كان ولاة دمشق يمدون نفوذهم على ولاية صيدا ، كما جرت العادة قبلا ، أصبحت دمشق الان تدور في فلك والي صيدا • وتعرضت المنطقة الى ظلم الجزار ، وابتزازه المال من الاهالي ، وفرضه أعمال السخرة عليهم • واعتمد على جيش من المماليك في الحكم • وخلف الجزار في ولاية صيدا أحد كبار مماليكه ، الذي عرف بسليمان باشا العادل (١٨٠٤ – ١٨١٨) • وقد اشتهر « بالعدل » بينما تسلم زمام المبادرة السياسة في بلاد الشام الجنوبية الامير بشير الثاني الشهابي الذي اعاد الى امارة جبل لبنان نفوذها في الداخل وفي المناطق المجاورة • ونظرا لطول عهده اضطر أن يتعامل

مع اثنين من كبار مهاجمي بلاد الشام ، نابليون بونابرت الذي هزم في بلاد الشام ومحمد علي باشا ، الذي احتلت قواته بلاد الشام بين عامي ١٨٣١ و ١٨٤٠ ، والذي أرغم الامير بشيرا على ربط مصيره به فعزل بعد انسحاب قوات محمد علي من بلاد الشام ٠

والى جانب ظهور الولاة المحليين في بلاد الشام حدثت تطورات اخرى ، على مستوى المؤسسات في المدن ٠ وقد ازدادت سيطرة الاهالي على الانكشارية البرلية في دمشق فدافعت عن مصالحهم ضد السلطة العثمانية والانكشارية القابي قول الذين دعموها ٠ واستمر الاشراف في حلب يدافعون عن مصالح أهلها ضد السلطة العثمانية ممثلة بالانكشارية فيها٠ كما أن العلماء من الاهالي برزوا في مؤسستين دينيتين كبيرتين ، وهما : الافتاء ونقابة الاشراف ٠ فأصبح المفتي الحنفي ونقيب الاشراف يعينان من بين الاهالي وليس من العثمانيين كما كان الامر في القرن السادس عشر والى حد ما في القرن السابع عشر ٠ وقاد مفتي دمشق الحنفي ، محمد خليل افندي البكري الصديقي ، في عام ١٧٢٥ ، الدمشقيين، الشاكين من الابتزاز العثماني ، في ثورة ضد والي دمشق عثمان باشا أبو طوق وعوانيته الظالميين ٠ واشتهرت مؤسسات شعبية كثيرة في القرن الثامن عشر ، نظرا للحاجة اليها في الدفاع عن مصالح افرادها تجاه عجز السلطة العثمانية عن تحقيق ذلك ٠ وابرز هذه المؤسسات الطوائف الحرفية التي حمل افرادها السلاح ، وجرى استعراضهم ، مع القوات العسكرية ، في دمشق ، كما يذكر احمد البديري الحلاق في يومياته ٠ واشتهر ، كذلك شبان الاحياء في الدفاع عن احيائهم ، كما كان الامر ايام الزعران ، في اواخر عهد السلطنة المملوكية وبداية الحكم العثماني ٠ ويذكر أن قوات علي بك المملوكية لاقت مقاومة ضارية من شبان أحياء دمشق هؤلاء فاقت ما لاقته من القوات العثمانية والمرتزقة التي هربت عند احتلال دمشق ٠ وكان تجمع القوى الدمشقية ، قبل ذلك قد جدد بوابات الاحياء وأبواب المدينة ، وتمكن ، في عام ١٧٣٨ ، من طرد والي دمشق العثماني ، الذي حاول فرض المظالم عليها ٠ كما طرد قوات المغاربة من المرتزقة التي استخدمتها السلطة العثمانية ضدهم ، وكذلك طرد قوات القابي قول العثمانية في عام ١٧٤٠ ٠ ولكن أسعد باشا اعاد هذه القوات الى دمشق ليسهل عليه اخضاع القوى المحلية وليتمكن من ممارسة الابتزاز من الاهالي ٠

ورغم بروز هذه المؤسسات الشعبية في القرن الثامن عشر ، وانتشار الثورة على العثمانيين في مناطق الريف حيث تحدى البدو والفلاحون السلطة العثمانية ، الا أن الفوضى التي نتجت عن ذلك ادت الى تمركز السلطة في أيدي طغاة اغراب ، من داخل المؤسسة الحاكمة العثمانية ، فاستغلوا انحطاط السلطة العثمانية لاقامة حكمهم وابتزاز الشعب ٠ ومن هؤلاء الطغاة أحمد باشا الجزار في بلاد الشام ، والمماليك في بغداد ، ومحمد علي باشا في مصر الذي قضى على المماليك فيها في عام ١٨١١ ، واغتصب الحكم من العثمانيين ، وحكمت سلالته البلاد حتى عام ١٩٥٢ ٠

نمو الوعي القومي العربي في القرن التاسع عشر والانفصال عن العثمانيين

شهدت بلاد الشام ، في القرن التاسع عشر ، تحولات سياسية واقتصادية واجتماعية هامة تمت بتأثير عدة عوامل أهمها : محاولات الاصلاح العثمانية ، وحكم محمد علي باشا لبلاد الشام ، والتدخل الاوربي الاستعماري ، ونمو الوعي القومي العربي ٠

جاءت جميع الاصلاحات ، في الدولة العثمانية ، من الاعلى ، اذ قام بها السلاطين والوزراء العظام في محاولة لتثبيت حكمهم عن طريق تحديث الدولة ٠ وكانوا بذلك يتبعون خطى الحكام الاوربيين ، في بروسيا والنمسا وروسيا الذين حاولوا الاصلاح فطبقوا سياسة الاستبداد المستنير التي وصفت بأنها اخر محاولة من الملوك للتكفير عن سياستهم المطلقة ، بغية تحاشي قيام الثورات ضدهم ٠ ورغم أن فلاسفة الاستبداد المستنير كانوا بمعظمهم من الفرنسيين فلم تعمل الملكية في فرنسا برايهم لانها كانت تحت سيطرة الارستقراطية ٠ ولم يكن رواد الاصلاح هؤلاء ، ومن بينهم العثمانيون ، يستهدفون مصالح الشعوب ، بل لجأوا للاصلاح تحت ضغط التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وبالمقدار الذي يخدم مصالحهم ٠

وأهم الاصلاحات العثمانية التي جاءت من الاعلى كانت الغاء الانكشارية في عام ١٨٢٦ واستبدال جيش جديد بها على الطراز الاوربي ، واصدار خط شريف كولخانة (خط غرفة الورد السلطانية) في عام ١٨٣٩ وخط شريف همايون في عام ١٨٥٦ ، الذي كرر ما جاء في الخط السابق من حيث تحقيق المساواة بين جميع المواطنين ٠ وبلغ الاصلاح الذروة باعلان دستور مدحت باشا في عام ١٨٧٦ الذي سرعان ما علقه السلطان عبد الحميد الثاني ٠ واتت هذه الاصلاحات لدعم سلطة الطبقة الحاكمة وامتصاص النقمة الداخلية ، من ناحية ، ولارضاء الدول الكبرى من ناحية اخرى ٠ ويلاحظ أن توقيت الخط الاول ، في عام ١٨٣٩ ، كان لكسب دعم الدول الاوربية ضد محمد علي باشا لاخراجه من بلاد الشام ٠ وجاء الخط الثاني للحصول على تأييد هذه الدول في حرب القرم ضد

روسيا • وكان اعلان الدستور قبيل انعقاد مؤتمر برلين في عام ١٨٧٨ ، الذي قرر مصير الامبراطورية العثمانية في البلقان •

ولما كانت محاولات الاصلاح من الاعلى قد قصرت في خدمة الطبقات الادنى ، فقد طالب ممثلو هذه الطبقات بالاصلاح على طريقتهم الليبرالية التحررية • وحمل لواء المعارضة الصحفيون والمثقفون بعامة وكذلك العسكريون الذين تأثروا بأفكار الغرب • وانتظم هؤلاء في جمعيات سرية كعادة الجمعيات البورجوازية آنذاك ، مثل الجمعية العثمانية الفتاة ، ثم الجمعية التركية الفتاة ، التي كانت طليعتها جمعية الاتحاد والترقي • وتمكنت هذه الجمعية من تأليب العسكريين على السلطان عبد الحميد الثاني والاطاحة به في عام ١٩٠٩ واعلان الدستور من جديد • ولم تجد هذا السلطان محاولته ، في السابق ، باعلان نفسه خليفة المسلمين ، والدعوة الى الجامعة الاسلامية ، بهدف تأليف المسلمين من حوله لمقاومة النزعات القومية ، التركية والعربية ، على حد سواء ، ولاخافة الدول الاوربية التي كانت تحكم ملايين المسلمين في شمال افريقيا العربي وفي الهند • ولكن تبني جمعية الاتحاد والترقي في الحكم سياسة قومية طورانية ضيقة أثار عليها العرب بعد أن هللوا لمجيئها •

وقد احدث حكم محمد علي باشا في بلاد الشام ، بين عامي ١٨٣١ و ١٨٤٠ ، تبدلات واسعة وهامة • فقد احتلها بعد أن وطد حكمه في مصر ، واختبر جيوشه في جبهات متعددة • وكانت اهدافه من احتلالها سياسية واقتصادية • كما أن الظروف الدولية والعثمانية كانت مواتية لمحمد علي باشا للقيام بحملته هذه • ولم يدافع الشعب في بلاد الشام عن العثمانيين ، كما انه لم يقاوم جيوش محمد علي المظفرة • وقد حقق قائد الحملة المصرية ابراهيم باشا ، ابن محمد علي ، الامن في بلاد الشام ، وصد غزوات البدو ، مما شجع الاستقرار في الريف ، وبالتالي الزراعة • وادخل بعض البدو في الجيش ، كما استخدم الجيش في تحسين الزراعة • ولم يلغ نظام التزام الضرائب العثماني ، ولكنه حسنه ، كما انه لم يرهق الاهلين بضرائب كثيرة • وفرض عليهم ضريبة الفردة على الاشخاص ، وكان مبلغها يتناسب وحالة الفرد المادية • ولكن الذي أثار الاهلين كان متطلبات جيش ابراهيم باشا ، من مصادرة المؤن ، أو شرائه لها بسعر متدن ، ومصادرة حيوانات النقل ، واستخدام اليد العاملة بأجور متدنية أو بالسخرة • وحين حاول ابراهيم تجنيد الاهلين ، ونزع سلاحهم لتحقيق ذلك ، قامت ضده عدة ثورات ، وبخاصة في مناطق الريف التي ستتأثر من التجنيد مدى الحياة لان ذلك يضر الحياة الزراعية فيها • ووجب على الفلاح المجند اما أن يستأجر غيره لزراعة الارض أو أن يبيعها • وانتشرت عادة تشويه الاعضاء ، أو الهجرة الى خارج البلاد ، أو الاحتماء بالقنصليات الاجنبية لتحاشي التجنيد • وقامت الثورات ضد ابراهيم باشا ، بدءا من عام ١٨٣٥ ، في ريف فلسطين وفي حوران ، وبخاصة منطقة اللجاه فيها ، وفي جبال العلويين • وكانت هذه الثورات عاملا هاما في اضعاف حكم ابراهيم باشا في بلاد الشام • وتعقدت الثورة الداخلية بتدخل الدول الاجنبية ، وعلى رأسها بريطانيا ، التي ساءها بناء

دولة كبرى لمحمد علي باشا ، تمتد على مصر وبلاد الشام ، وتهدد خطوط مواصلاتها الى الهند • فدعمت الدولة العثمانية ، ونجحت في اخراج محمد علي باشا من بلاد الشام في عام ١٨٤٠ •

وقد فتح ابراهيم باشا ، كما فعل والده في مصر الباب على مصراعيه للنفوذ الاوربي في بلاد الشام • فسمح للاوربيين باقامة قنصليات لهم ، في دمشق لاول مرة في العهد العثماني ، وسمح كذلك للارساليات التبشيرية الاوربية ولمدارسها في العمل بحرية • كما اتبع سياسة التسامح الديني والمساواة بين الطوائف • واعتمد على قوات حليفه ، بشير الثاني الشهابي ، أمير جبل لبنان ، ومعظمها من المسيحيين ، في اخماد الثورات التي قامت ضده ، ومن هنا اشتداد العداء بين الطوائف الدينية • ودفع الامير بشير الثاني ثمن تعاونه فعزل ، واعقب ذلك الاطاحة بأسرته من امارة لبنان ، نظرا للتعقيدات الدولية التي تلت انسحاب محمد علي باشا من بلاد الشام • وأفاد حكم محمد علي باشا القضية العربية بصورة غير مباشرة ، اذ اظهر للشعب في بلاد الشام أن السلطان العثماني كزعيم للمسلمين لم يعد باستطاعته حماية رعاياه • كما أن ثورات الاهالي على ابراهيم باشا قد نمت فيهم الثقة بالنفس والاعتزاز بحمل السلاح ضد الطغاة •

— واستغلت الدول الاوربية سياسة الانفتاح على الغرب ، التي اتبعها محمد علي باشا ، وغيره من الحكام في المنطقة ، فاندفعت تغزو اقطار الوطن العربي ، مغربه ومشرقه ، بقواتها العسكرية ، وباقتصادها الصناعي ، وبمؤسساتها السياسية والثقافية • وكانت الدول الاوربية ، وفي طليعتها حسب التسلسل الزمني ، الدويلات الايطالية ، ثم بريطانيا وفرنسا ، تتعامل تجاريا مع بلاد الشام ، قبيل قيام الثورة الصناعية في اوربا ، في أواخر القرن الثامن عشر [ولعبت حلب دورا أساسيا في تجارة المرور بين اوربا والاناضول وبلاد فارس والشرق الاقصى • واقتصر التدخل الاوربي العسكري ، قبل المد الامبريالي في القرن التاسع عشر ، على حملة نابليون بونابرت ، الذي غزا بلاد الشام ، في عام ١٧٩٩، امتدادا لحملته على مصر ، ولكنه فشل في الحملتين •

— وغدا التدخل الاوربي اكثر شدة في أعقاب ازدهار الثورة الصناعية التي اقتضت البحث عن المواد الخام والاسواق لتصريف منتجاتها في الخارج ، ومن هنا قيام حركة استعمار امبريالي تجلت على المستويات العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية • فقد استعمرت فرنسا الجزائر استعمارا استيطانيا في عام ١٨٣٠ ، واعقب ذلك احتلال فرنسا وبريطانيا وايطاليا لبقية أقطار المغرب العربي ولمصر • وجرت محاولة احتلال عسكري فرنسي في بلاد الشام ، في أعقاب احداث ١٨٦٠ ، ولكنها فشلت ، ومع ذلك كان الاثر الاوربي فيها ، اقتصاديا وثقافيا ، على درجة كبيرة من الشدة •

— وقد تم تدفق البضائع الاوربية المصنعة الى بلاد الشام ، عن طريق ميناء بيروت ،
]

الذي طغى على الموانى التقليدية الصغيرة في كل من صيدا وطرابلس والاسكندرونة • ولم تتمكن هذه الموانى من استيعاب السفن التجارية الضخمة وكميات البضائع الكبيرة التي تحملها • وسهل نقل هذه البضائع الى الداخل افتتاح طريق بيروت ـ دمشق ، الذي تم انشاؤه في عام ١٨٦٣ •/ واصيب الاقتصاد التقليدي في بلاد الشام بضربة كبيرة ، وبخاصة في مجال الصناعات الحرفية ، التي لم تقو على منافسة البضائع المصنعة الاوربية • وقاسى الحرفيون الذين شكلوا نسبة كبيرة من الشعب من نتائج ذلك • فأفقروا وتركزت الثروات في أيدي طبقة من التجار والوسطاء الذين سهلوا تصريف البضائع الاوربية في البلاد ، كما قاموا بتصدير المواد الخام ، كالقطن والحرير الى اوربا • وجنى رجال المال ثروات هامة من عقد الديون مع المعوزين من الاهلين وتقاضي فوائد كبيرة عليها • ولم تقم الدولة العثمانية بجهود لاصلاح هذا الوضع لانها كانت هي نفسها خاضعة للنفوذ الاوربي • وعمدت ، تحت ضغط اوربي أيضا ، الى تخفيض الضرائب الجمركية على البضائع الاوربية المستوردة بموجب معاهدة عام ١٨٣٨ التي عقدتها مع بريطانيا والتي سرعان ما عقدت مثلها دول اوربية اخرى ، مما جعل الضرائب على البضائع المنتجة محليا والمتداولة بين المناطق الداخلية تعادل ثلاثة اضعاف الضرائب المفروضة على البضائع المستوردة تقريبا مما عطل الفعاليات الاقتصادية المحلية •

وادى التدخل الاوربي ، وتأزم العلاقات الطائفية في أعقاب انسحاب قوات محمد علي باشا ، وعودة العثمانيين بصورة اقوى من ذي قبل • ومحاولة الملتزمين واصحاب الاقطاع اعادة فرض نفوذهم ، وتباين الثروات بين الفئات الاجتماعية الذي بدأ ابان الحكم المصري كل ذلك ادى الى اضطرابات اجتماعية واسعة في بلاد الشام بدأت في جبل لبنان • ولم يحل دونها انهاء حكم الاسرة الشهابية في عام ١٨٤٢ ، وتقسيم جبل لبنان ، في عام ١٨٤٣ ، الى قائمقاميتين : مارونية ، ودرزية • وزادت هذه الاجراءات ، في الواقع ، من تفاقم الاوضاع فشهد جبل لبنان ثورات فلاحية للتحرر من الاقطاع • وحدث اشهرها في عام ١٨٥٨ ، في منطقة كسروان حين ثار الفلاحون الموارنة بزعامة طانيوس شاهين ، ضد الاقطاعيين الموارنة من آل الخازن • واقام الفلاحون جمهورية في عام ١٨٥٩ • وحين انتقلت الثورة الى المناطق الدرزية في الجنوب ، حيث ثار الفلاحون من الدروز والموارنة ، ضد الاقطاعيين، الذين كان معظمهم من الدروز تدخلت القوى الاقطاعية والعثمانية والاوربية المتربصة لتحرف ثورات التحرر هذه عن مسارها وتحولها الى حرب طائفية • واثارت هذه القوى ذاتها الاضطرابات الطائفية في دمشق عام ١٨٦٠ ، ومن قبلها في حلب ، في عام ١٨٥٠ مستغلة الازمة الاقتصادية وتباين الثروات بين حرفيين ، من مختلف الطوائف ، ازدادوا فقرا ، وبورجوازية محلية ناشئة ، من مختلف الطوائف أيضا ، ازدادت ثراء بفعل المتاجرة مع اوربا • ووقف علماء دمشق واعيانها ، وعلى رأسهم الامير عبد القادر الجزائري ضد مفتعلي الاضطرابات الطائفية واوقفوها ليقطعوا الطريق على القوى الداخلية والخارجية المستفيدة من ذلك •

تحت ضغط هذه الاحداث ادخلت الدولة العثمانية نظاما اداريا الى جبل لبنان عام ١٨٦١ ، عدل عام ١٨٦٤ ، قام بموجبه نظام المتصرفية ، الذي الغى نظام القائمقاميتين ، وعين على جبل لبنان متصرفا مسيحيا عثمانيا ، مرتبطا مباشرة باستانبول • كما اعيد تنظيم بلاد الشام اداريا •[والاهم من ذلك ان خطر الطائفية ، التي كانت تقوم على الجهل واستغلال القوى المتربصة ، قد نبه الافكار الى خطرها • وتضاعفت الجهود الى التاكيد على وحدة الانتماء والمصير ، وظهرت حركة تستوحي الفكرة العربية ، وتعمل لمثل قومية لا طائفية • وادرك عدد من المفكرين العرب ، وبخاصة في لبنان الذي مزقته الحرب الطائفية خطورة هذه الظاهرة ودعوا الى رابطة عربية تجمع بين المواطنين على اختلاف مذاهبهم • وأستوحى التاريخ المشترك ، والمنجزات الحضارية العربية المشتركة ، التي اسهم فيها الناطقون بالعربية من كافة الطوائف ، لجمع ابناء الامة وراء هدف واحد ، يؤكد الهوية القومية للعرب ، كخطوة اولى في سبيل وحدتهم وتحررهم ورقيهم •]

ومر الوعي القومي العربي بمرحلتين : الاولى فكرية ، والثانية سياسية •[وككل الامم التي تتلمس وحدتها القومية بدأت الدعوة الى كشف ماضي الامة ومنجزاتها ، والاشادة بعظمة لغتها التي تحدت لغات الحكام الاغراب قرونا عديدة ، وصمدت أمام محاولات اللهجات المحلية والعامية النيل منها مما أكسبها الثقة بالنفس ، واكد شخصيتها من جديد]
ومن الادباء العرب الذين عملوا على أحياء الادب العربي في بلاد الشام ، وعرفوا اخوانهم بعظمة الحضارة العربية ، ناصيف اليازجي (١٨٠٠ ــ ١٨٧١)، وابنه ابراهيم ، وبطرس البستاني (١٨١٩ ــ ١٨٨٣) • وقد أصدر ناصيف اليازجي كتاب « مجمع البحرين » ، الذي قلد فيه مقامات الحريري وعلم اللغة العربية لعدة اجيال • ونحى ابنه ابراهيم نحوه ، وكان لقصيدته التي أهاب فيها بالعرب أن يتنبهوا ويستفيقوا أصداء واسعة • أما بطرس البستاني فكان أهم أعماله وضع موسوعة عربية باسم « دائرة المعارف » ، واتمها أولاده من بعده • وقد أسس المدرسة الوطنية ، واتخذ من القول المأثور « حب الوطن من الايمان » شعارا لاشهر صحفة الاسبوعية « نفير سورية » ، التي اصدرها في عام ١٨٦٠ ، في أوج الحرب الطائفية •

ولعبت الصحافة السياسية والمجلات العلمية دورا هاما في نشر الفكرة القومية العربية وقد صدرت جريدة « الاحوال »، في دمشق عام ١٨٥٥ ، وتلتها اول جريدة عربية في بيروت « حديقة الاخبار » ، في عام ١٨٥٧ • ثم اصدر احمد فارس الشدياق ، في استانبول ، في عام ١٨٦١ ، جريدة « الجوائب » الاسبوعية ، التي استمرت في الصدور حتى عام ١٨٨٤، وكانت اشهر الصحف العربية على الاطلاق • وظهرت عشرات الصحف والمجلات الاخرى ، التي ، رغم تعدد ولاءاتها ، فقد اسهمت في نشر الثقافة ، واغنت الفكر العربي بمناقشاتها• وسهل ظهورها انتشار المطابع التي لعبت دورا هاما في نشر التراث العربي ، وبعث الثقة في نفوس العرب ، ووضعهم في مواجهة العثمانيين والاوربيين ، كما انها فتحت أعين العرب

على حاضرهم وعملت أيضا على التقريب بينهم ، باعتماد لغة سهلة لا تخرج عن الفصحى ٠

والى جانب جهود الادباء الفردية ، ظهر العمل المشترك عن طريق تأسيس الجمعيات لنشر الثقافة والوعي القومي ، وظهرت اول جمعية علمية في بيروت ، في عام ١٨٤٧ ، تحت اسم « جمعية الاداب والعلوم » ٠ ثم قامت « الجمعية العلمية السورية » عام ١٨٥٧ وتمثلت فيها عناصر الشعب على اختلاف طوائفه واعترف بها رسميا في عام ١٨٦٨ وشملت عضويتها شخصيات عربية من استانبول والقاهرة ٠ ويعد ظهور هذه الجمعية بحق أول تعبير عن الوعي القومي الشامل الذي تجاوز حدود بلاد الشام ٠

ويجدر ، في المرحلة الفكرية ، التعرف على موقع الحركة الفكرية العربية من بين تياري الفكر اليساري العلماني والفكر اليميني الديني ٠ ولا شك ان الحركة العربية أفادت من التيارين ، دون أن تذوب في أي منهما ٠ وكانت في الواقع حلقة وصل بين هذين الاتجاهين اللذين عملا كل باسلوبه على تقويتها ، وعملت هي بدورها على استقطابهما نحوها وجعلتهما ، بالتالي ، يعملان لهدف عربي واحد وان اختلفت الوسائل واشتهر من رواد الاتجاه اليساري العلماني فرنسيس مراش الحلبي (١٨٣٦ ـ ١٨٧٣)، وشبلي شميل اللبناني (١٨٦٠ ـ ١٩١٧) وفرح انطون الطرابلسي (١٨٧٢ ـ ١٩٢٢) ٠ وتمثل الاتجاه اليميني الديني الداعي للنهوض بالاسلام وانشاء الجامعة الاسلامية ، بجمال الدين الافغاني (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧) ، ومحمد عبده المصري (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥) ومحمد رشيد رضا الطرابلسي (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥) ٠ وجمع عبد الرحمن الكواكبي الحلبي (١٨٤٩ ـ ١٩٠٢) بين الاتجاهين ٠

دعا مراش الطبيب ، في كتابه « غاية الحق » الى حب الوطن ، والى الحرية والمساواة ، والقضاء على الرق ٠ وآمن بالديمقراطية ، وبحق الشعب الذي اعتبره أساس الحكم ٠ أما شميل ، وكان هو الاخر طبيبا فقد أجمل في كتاب رفعه الى السلطان عبد الحميد الثاني ما يراه خطأ في الامبراطورية العثمانية ، وقال ان ثلاثة أشياء تعوز الامبراطورية : العلم ، والعدل ، والحرية ، وان العلم اهمها لانه مفتاح سر الكون ، ويقوم على وحدة جميع الكائنات الحية ويحرر الانسان من انانيته ٠ وقال أن الفرق بين أمم الغرب وأمم الشرق هو أن الاولى تحكمها قوانينها أما الثانية فيحكمها حكامها ٠ لكنه آمن بانتصار الشعب في النهاية وبسقوط الاستبداد وبحتمية الاشتراكية وهاجم التعصب الديني الذي فرق بين الناس واضعف بناء المجتمع بكامله ٠ أما فرح انطون فقد هاجم في كتاباته الاستبداد ، ودعا الى فصل السلطة الدينية عن الزمنية ٠ وقال ان المجتمع الصالح يقيم المساواة بين ابناء الامة ٠ وآمن بالاشتراكية العلمية التي وحدها توصل الشعب الى تحقيق الحرية والعدالة والمساواة ٠

أما التيار الديني الذي دعا الى النهوض بالامة الاسلامية ، وتطبيق مبادىء الاسلام

الاول ، في عهد السلف الصالح ، والملاءمة بين العلم الحديث وقواعد الدين ، فقد نشط في مصر منذ السبعينات من القرن التاسع عشر ، وقوي بعد الاحتلال البريطاني في عام ١٨٨٢، حين وجد الوطنيون المصريون في التآخي الاسلامي ، وما يتضمنه من تعميق العلاقة مع الدولة العثمانية وكسب دعمها ، ركيزة هامة في نضالهم ضد المستعمر الاوروبي • وفي حين كان الوجود العثماني في مصر اسميا فانه كان في بلاد الشام قويا ظالما مما يفسر هذا التباعد في التوجه الوطني في مصر ، والتوجه القومي في بلاد الشام للتحرر من الحكم العثماني •

بعد أن درس الافغاني العلوم الاسلامية تنقل في البلاد الاسلامية والعربية ، وتعاون مع الشاه في ايران ، ومع السلطان العثماني في استانبول ، والخديوي في مصر • ودعا الى توحيد العالم الاسلامي في ظل خليفة تركيا كان أم افغانيا أم مصريا • واعتقد بحتمية العمل الثوري • واذا كان الافغاني قد اخفق في حياته السياسية فان معارضته ظلم الحكام والتدخل الاجنبي خدم القضية الوطنية حيثما حل •

وكان محمد عبده من اسرة فلاحين ، درس في الجامع الاحمدي في طنطا ثم في الازهر ، ولازم الافغاني كظله • واصبح محررا للجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » • ونفته بريطانيا الى بيروت ، ثم التحق بالافغاني في باريس حيث اصدرا معا مجلة « العروة الوثقى » • ويختلف محمد عبده عن الافغاني في انه جعل الاولوية للنهوض بالاسلام والمسلمين عن طريق الثقافة لا العنف • ودعا الى تقبل منجزات الغرب ، وكان الى جانب دعوته الى اصلاح الاسلام والمسلمين يؤمن بالوطن وبدور التاريخ المشترك والمصالح المشتركة في ايجاد رابطة قوية بين ابناء الوطن الواحد •

أما محمد رشيد رضا فقد ولد في طرابلس الشام وتثقف ثقافة دينية وعصرية ، ثم ذهب الى مصر حيث أصدر فيها جريدة « المنار » • وأرخ للاستاذ الامام محمد عبده وكتب في الخلافة • وقد بحث في أسباب تخلف العالم الاسلامي وقال لو اتبعت تعاليم الاسلام بشكلها الصحيح فستؤدي الى النجاح في هذه الدنيا وفي الاخرة وفي كل مقال من مقالاته في « المنار » وقف الى جانب العرب ضد العثمانيين ، ونوه بالدور الذي لعبه العرب في الفتوحات الاسلامية ، وازدهار الدين الاسلامي في عهدهم ووجد في سياسة التتريك العثمانية خطرا على الترك انفسهم • وقد شارك في مقاومة الحكم الفرنسي لسورية ، وناصر القضية الفلسطينية • وأكد على الوطن والرابطة الوطنية التي تجمع بين المواطنين على اختلاف مذاهبهم •

وقد وفق بين الاتجاهين العروبي والاسلامي عبد الرحمن الكواكبي ، الذي بلغ الشعور القومي العربي عنده درجة عالية من الوضوح • فهو ، كالمصلحين الدينيين ، دعا الى اقامة الخلافة ، ولكنه كالعروبيين اشترط أن يكون الخليفة عربيا لا تركيا • كما انه يشترك مع دعاة التحرر العربي من العلمانيين بالمناداة باشتراكية متطرفة • وقد عبر

عن أفكاره في كتابيه : « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » ، وشغل عدة وظائف في موطنه حلب ، حيث عرف بأبي الضعفاء لدفاعه عن الفقراء • ثم انتقل الى مصر هربا من السلطان عبد الحميد الثاني • ويعد الكواكبي بحق من اوائل المفكرين العرب الذين تبنوا قضية العرب ضد الاتراك • وقد فرق بين مفهوم الحركة العربية وفكرة الجامعة الاسلامية التي نادى بها الافغاني وتبناها السلطان عبد الحميد الثاني لخدمة اغراضه ولابقاء العرب خاضعين له • وانتقد الخلافة العثمانية ، وأشار الى ان العرب يشكلون نحو ثلثي سكان الامبراطورية العثمانية ومع ذلك فهم محرومون من حقهم في المناصب الحكومية ومن التمتع بواردات مناطقهم • ولهذا نادى باعادة الخلافة الى العرب نظرا للدور الذي لعبوه في قيام الاسلام وانتشاره ، وبحكم لغتهم التي هي لغة القرآن • وآمن الكواكبي بالوطن العربي يضم جميع ابنائه ، وبالتآخي بين الطوائف ، وعد العروبة والاخلاص للوطن مقياس الولاء بين افراد الامة • ومما يميز الكواكبي عداؤه الشديد للتفاوت الطبقي واستغلال الانسان للانسان • ونبه الى أن العرب أهدى الامم لاصول المعيشة الاشتراكية •

وظهر مفكر عربي اخر هو نجيب عزوري ، الذي أسس في فرانسا « عصبة الوطن العربي » ، واصدر كتابا بالفرنسية عن يقظة الامة العربية ، ثم مجلة باسم « الاستقلال العربي » • واكد وجود امة عربية واحدة ، وقال ، وهو المسيحي ، برئاسة سلطان عربي مسلم للدولة العربية العتيدة ، وباقامة خلافة عربية في الحجاز • وكان اول من نبه الى مطامع الصهيونية في فلسطين •

وبموازاة المرحلة الفكرية في نشأة الوعي القومي العربي بدأت مرحلة العمل السياسي العربي الذي ظهر اول جهد فيه عام ١٨٧٥ بتأسيس بعض الشباب المثقف جمعية سرية في بيروت حضت الشعب على الثورة على الاتراك ، عن طريق الملصقات والنشرات الثورية التي وزعت في مختلف مدن بلاد الشام • وأكدت هذه النشرات على توحيد الجهد تحت شعار العروبة ، ونددت بمساوىء الحكم التركي ومحاولته القضاء على اللغة العربية• ونادت باستقلال سورية موحدة مع لبنان ، وبالاعتراف بالعربية لغة رسمية في البلاد ، وبرفع الرقابة عن التعبير والفكر وباستخدام الفرق العسكرية العربية في الخدمة المحلية فقط • واذا كان هذا الجهد قد فشل في تحقيق اهدافه فقد افاد في بلورة اهداف الشعب ، واعطاء الوعي القومي حافزا للتقدم ، والدعوة الى توحيد سورية ولبنان بعد أن فرض على لبنان نظام خاص به (المتصرفية) ، ورفض فكرة التقسيم والتجزئة •

ورغم وجود حركات وطنية وقومية في عدد من الاقطار العربية الاخرى ، في تلك الفترة ، وبخاصة العراق ، فلم يكن هناك من تعاون واع فيما بينها ، نظرا لصعوبة المواصلات ، وتقييد تنقلات الافراد ، ومحاولات الدولة العثمانية تقوية نفوذها ، أو اعادة فرضه من جديد ، كما حدث في اليمن في عام ١٨٧٣ •

وحين اطاحت جمعية الاتحاد والترقي في ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩ ، بحكم السلطان عبد

الحميد الثاني ، واعلنت الدستور ، هلل العرب للانقلاب الجديد ، وظنوه خطأ عهد تحرر حقيقي ، غير مدركين دعوته الى تمثيل جميع الرعايا في دولة تركية تتخذ التركية لغة رسمية لها • ونلاحظ ظهور تيارين سياسيين بين العرب في أعقاب ذلك : تيار معتدل يدعو الى التعاون مع الاتراك ضمن دولة عثمانية على اساس المساواة واقرار استعمال العربية لغة رسمية • ومثل هذا الاتجاه بجمعية الاخاء العربي العثماني التي تأسست في استانبول ، في ايلول ١٩٠٨ ، والمنتدى الادبي الذي تأسس هو الاخر في استانبول ، في عام ١٩٠٩ وحزب اللامركزية الادارية العثماني الذي تأسس في القاهرة في عام ١٩١٢ • أما التيار الثاني فمتطرف بدأ بالدعوة الى الحكم الذاتي للاقطار العربية ثم تطور الى المطالبة بالاستقلال الكامل • وقد ظهر هذا التيار المتطرف وتنامى بسبب نكوث أعضاء جمعية الاتحاد والترقي بوعودهم للعرب واعتمادهم الفكرة القومية الطوارنية أساسا في الحكم ، وهي التي تعود الى اصول الاتراك في ما قبل الاسلام ، وتتنكر بالتالي، للاخوة الاسلامية بينهم وبين العرب واحاط اصحاب هذا التيار جهودهم بالسرية خشية البطش بهم وطالبوا بتوحيد المقاطعات العربية العثمانية وهي بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية • وذهب بعضهم الى الدعوة لتوحيد كل الاقطار العربية بما فيها وادي النيل والمغرب العربي • وكانت بلاد الشام المركز الرئيسي لهذا التيار • وتمثل بعدة جمعيات وتنظيمات ، أشهرها الجمعية القحطانية التي أسست في أواخر عام ١٩٠٩ ، ودعت الى قيام ملكية ثنائية من العرب والاتراك ، اشبه بالامبراطورية النمساوية ـ الهنغارية • واستمالت هذه الجمعية اليها كثيرا من الضباط العرب في الجيش العثماني • وحين انكشف امرها انحلت وتوقف عملها • ثم قامت الجمعية العربية الفتاة السرية التي بدأها سبعة من الطلاب العرب في باريس في عام ١٩١١ • ودعت الى الاستقلال والتحرر من الحكم الاجنبي ثم انتقل مركزها الى بيروت عام ١٩١٣ ، ومنها الى دمشق •

ووجد العرب ضرورة نقل قضيتهم الى الصعيد الدولي فعقدوا في حزيران ١٩١٣ مؤتمرا في باريس برئاسة عبد الحميد الزهراوي ، وطالب المجتمعون بالحكم الذاتي ، وجعل العربية لغة رسمية وان تكون الخدمة العسكرية للعرب في ولاياتهم وبعد أن أيدت الحكومة التركية مطالب المؤتمر تنكرت لها مما اضطر العرب الى متابعة العمل السري الاستقلالي وتجلى ذلك بصورة فعالة في جمعية العهد التي انتسب اليها العسكريون العرب في الجيش العثماني • وبرز فيها الضباط العراقيون الى جانب مؤسسها عزيز علي المصري• ونسقت هذه الجمعية نشاطها مع جمعية العربية الفتاة منذ عام ١٩١٥ ، واسهمتا معا في الثورة العربية الكبرى •

وبقيام الحرب العالمية الاولى ، في عام ١٩١٤ ، فقدت الحكومة التركية سيادتها على البلقان وشمال افريقية • واصبحت الولايات العربية في اسيا أهم ما في الامبراطورية العثمانية سكانا وموارد اقتصادية • وجابه القوميون العرب مشكلة هامة ، وهي ماذا سيكون مصير المقاطعات العربية بعد انهيار الامبراطورية وهل سيكون بامكانهم تأسيس

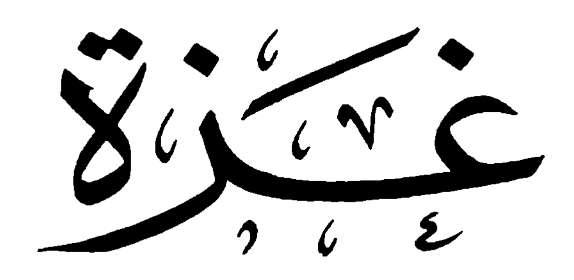
دولة موحدة مستقلة ، سيما وان خطرين كانا يتربصان بهم خطر الاستعمار الاوربي ، والخطر الصهيوني المرتبط به ٠

وقد حاولت بريطانيا استغلال الحركات الوطنية والقومية في المشرق العربي لصالحها لتقاوم بها النفوذ الالماني المتزايد في الدولة العثمانية والذي ادى الى التحالف بين الدولتين في الحرب العالمية الاولى مما هدد مصالح بريطانيا في قناة السويس والخليج العربي ، وبالتالي في الهند ٠ وقد التقت مصالح كل من بريطانيا والشريف حسين والقومين العرب الا أن غاياتهم كانت مختلفة ، فبريطانيا هدفت الى استخدام العرب للقضاء على النفوذ الالماني ـ التركي المعادي لها ، في حين تطلع العرب الى المساعدة فقط ، لتحقيق الاستقلال التام وعدم الوقوع تحت سيطرة اجنبية ٠ ومن هنا المفاوضات المشهورة التي تمت بين الشريف حسين ، أمير الحجاز ومكماهون المندوب السامي البريطاني في مصر والسودان ، بين عامي ١٩١٥ و ١٩١٦ ٠ وكان الحسين يأمل أن يكون ملكا للعرب ، وممثلا لحركتهم القومية ، ومن المحتمل خليفة لهم ٠ وقد برزت اثناء المحادثات مطامع فرانسا في المشرق العربي ٠ وتأكد التآمر البريطاني ـ الفرنسي على الحركة القومية العربية باتفاقية سايكس بيكو في ١٦ أيار ١٩١٦ التي كانت روسيا القيصرية طرفا فيها ، ثم انسحبت منها اثر الثورة الشيوعية ، واعلنت بنودها السرية التي اقرت تقسيم بلاد الشام والعراق الى مناطق نفوذ بريطانية وفرنسية ٠ واقر ذلك في معاهدة سان ريمو بين الدولتين في نيسان ١٩٢٠ ، وتم تنفيذه ٠

وكان القوميون العرب في بلاد الشام ، ابان محادثات حسين ـ مكماهون ، يتعرضون الى نقمة جمال باشا قائد الجيش الرابع في سورية ، الذي شدد قبضته على العرب اثر فشل الهجوم التركي ـ الالماني على قنال السويس في شباط ١٩١٥ ٠ ونفذ حكم الاعدام بعدد من الوطنيين بتهمة الاتصال بالاجانب ، واعدم اكبر عدد منهم في يوم واحد في ٦ أيار ١٩١٦ ، حين شنق سبعة وطنيين في دمشق واربعة عشر في بيروت بتهمة العمل على فصل سورية وفلسطين والعراق عن الدولة العثمانية ٠ وكانت الفرصة مواتية لاعلان الثورة على الاتراك بزعامة الحسين في ١٠ حزيران ١٩١٦ ٠

ولم يكد العرب يكتشفون خيانة الحلفاء لهم ، في اتفاقية سايكس ـ بيكو ، حتى صعقوا بخيانة الحلفاء التالية بوعد بلفور ، في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ ، الذي قلب رأسا على عقب ما جاء في الاتفاقية عن تدويل القدس بوعده اليهود بوطن قومي لهم في فلسطين ٠

وانسحب العثمانيون من بلاد الشام في تشرين الثاني ١٩١٨ ، وقامت حكومة فيصل العربية فيها ، ولكن التآمر الاستعماري البريطاني ـ الفرنسي سرعان ما انهى عهد هذه الحكومة واخضع بلاد الشام والعراق لهاتين الدولتين ٠ وبدأ بذلك عهد جديد في تاريخ بلاد الشام ، والاقطار العربية بعامة ، شهد كفاح العرب في سبيل التحرر والوحدة . أما العثمانيون فقد خسروا بنتيجة الحرب العالمية الاولى ، جميع الاقطار العربية ، وعادوا الى الاناضول من حيث خرجوا ، قبل حوالي ستة قرون امضوها في التوسع ثم الانحسار ٠



غزة

دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية

١٢٧٣-١٢٧٧ / ١٨٥٧-١٨٦١

الدكتور عبد الكريم رافق

استاذ تاريخ العرب الحديث في جامعة دمشق

بحث أعد بمناسبة المؤتمر الدولي الثالث

لتاريخ بلاد الشام (فلسطين)

الذي تنظمه الجامعة الاردنية في عمان في الفترة بين

١٩ ـ ٢٤ نيسان ١٩٨٠ م

٤ ـ ٩ جمادي الثانية ١٤٠٠ هـ

دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية
من خلال الوثائق الشرعية

جمعت هذه الوثائق من سجل يحمل رقم ٤٦١ وعنوان المحاكم الشرعية في غزة ، موجود في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق ، ويتألف من ٤٥٩ صفحة من القطع الكبير المعتاد في سجلات المحاكم الشرعية ، وخطه مقروء ، ولكن املاءه ركيك ، وليس فيه من حرص على قواعد اللغة يبدأ المجلد بتاريخ ١٩ جمادى الاول ١٢٧٣ /(١٥ كانون الثاني ١٨٥٧) وينتهي في ختام رجب ١٢٧٧/ (١١ شباط ١٨٦١) . ولا نعلم من اعطى هذا السجل الرقم ٤٦١ ، ولا مجموعة السجلات التي ينتظم فيها هذا الرقم ، وما الذي أتى به الى دمشق . وقد ذكر لي الاستاذ انور الارناؤوط ، خبير الوثائق العثمانية في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق ، انه جاء بهذا السجل ، مع غيره ، من أقبية قصر العدل الى مديرية الوثائق . ولعل هذا السجل قد استعير في الاصل من محكمة غزة الشرعية للاستشهاد بمحتواه في محاكم دمشق ، في قضية وقف او ارث ، أو غيرها . ومما يجدر ذكره ان Jon Mandaville الذي قام بمسح لسجلات المحاكم الشرعية في بلاد الشام بعامة في مقاله :

« The Ottoman Court Records of Syria and Palestine ». **Journal of the American Oriental Society, Vol. 89, No. 3 (1966), pp. 311 - 319.**

لم يشر الى سجلات محكمة غزة

وسنشير الى وثائق سجل غزة هذا باختصار كما يلي : سجل غزة ، ص (كذا) ، ٣ ن ، ٧٧ (أي ان تاريخ القضية هو ٣ رمضان عام ١٢٧٧) . والاحرف المعتمدة في سجل غزة للاشهر القمرية هي التالية : م = محرم ، ص = صفر ، را = ربيع الاول ، ر = ربيع الثاني ، جا = جمادى الاول ، ج = جمادى الثاني ، ب = رجب ، ش = شعبان ، ن = رمضان ، ل = شوال ، ذا = ذو القعدة ، ذ = ذو الحجة

١ ـ مقدمة :

لعبت غزة دوراً هاماً إبان الحكم العثماني وكانت ، في معظم الاوقات ، صنجقا ، أو لواء ، في ولاية الشام . والحقت ، لفترة قصيرة ، بولاية صيدا ، وكذلك بمتصرفية ، ثم ولاية ، القدس ، كما في الفترة التي نحن بصدد دراستها .

واشتهرت في غزة ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر ، أسرة الأمير مصطفى أبي شاهين ، التي برز منها ابناه بهرام ورضوان . واشتهر كذلك ابن هذا الاخير ، احمد ، الذي توفي في ١٦٠٦/١٠١٥ وعين هؤلاء الامراء حكاماً على صنجق غزة ، وشغل بعضهم حكم ولاية اليمن ومصر ، كما عهد اليهم بامارة الحج الشامي ، لسنوات عديدة واشتهر من مماليك هذه الاسرة الامير فروخ بن عبد الله ، الذي حكم صنجقي نابلس والقدس ، وعين أميرا للحج الشامي ، في الربع الاول من القرن السابع عشر(١)

وبرز من أبناء غزة ، في القرن الثامن عشر ، حسين باشا ابن مكي ، الذي عين صنجقاً عليها ، وكانت تابعة لولاية الشام ، ثم نقل والياً على دمشق في عام ١٧٥٧ ، خلفا لاسعد باشا العظم(٢) ، وأ بره الاخباري الدمشقي المعاصر ، ميخائيل بريك ، « من ثاني طائفة من اولاد العرب الذين صاروا وزراء في بلادنا »(٣) وكانت الطائفة الاولى آل العظم(٤)

---

(١) انظر حول حكم افراد هذه الاسرة ومملوكهم الامير فروخ ، كتابنا : بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت ، ١٥١٦ ـ ١٧٩٨ ، ط٢ ، دمشق ، ١٩٦٨ ، ص ١٦٤ ، ١٩٩ـ ٢٠٠ ، ٢٠٨

(٢) انظر حول حكم حسين باشا ابن مكي في دمشق ومهاجمة البدو قافلة الحج الشامي ، التي كانت بامرته ، كتابنا :
The Province of Damascus, 1723 - 1783, paperback ed., Khayats, Beirut, 1970, 209 ff.

(٣) الخوري ميخائيل بريك ، تاريخ الشام (١٧٢٠ ـ ١٧٨٢) ، نشره الخوري قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٣٠ ، ص ٣٦

(٤) المصدر السابق ، ص ٢

واشتهرت غزة بمرور قافلة الحج الشامي فيها ، في بعض الاحيان ، أثناء عودتها من الحجاز ، لتحاشي هجمات البدو ، أو لانقاذ ما يمكن انقاذه ، في أعقاب هذه الهجمات . وعرف الطريق الذي سلكته القافلة ، عبر غزة ، بالطريق الغزاوي ، تمييزا له عن الطريق الرئيسي ، المعروف بالطريق السلطاني(١) . وذكر ان من أراد اللحاق من الحجاج الشاميين بقافلة الحج المصري ، التي كانت تمر بالعقبة ، كان يمر بغزة في طريقه الى العقبة(٢) وافادت غزة كذلك من وقوعها على الطريق التجاري ، الذي يربط بين بلاد الشام ومصر

ويتبين من وثائق محكمة غزة الشرعية ان غزة كانت ، في فترة دراستنا ، صنجقاً ، أو لواءً ، حكمه قائمقام ، لقب بالافندي ، وألحق بالقدس ، التي كانت آنذاك ، كما يبدو ، ولاية قائمة بذاتها وكان والي القدس ، في عام ١٢٧٣/١٨٥٦ ـ ١٨٥٧ ، اسماعيل كامل باشا ، الذي وصف بأنه متصرف الالوية واشار الى امر صدر عنه بانه سطر « من ديوان متصرفيتنا ايالت قدس شريف ونابلس وغزة »(٣) ويبدو انه خلفه في ولاية القدس مصطفى باشا ثريا ، الذي وصف في أمر أصدره الى قائمقام غزة ، في ٢٨ محرم ١٢٧٤/(١٨ ايلول ١٨٥٧) ، بانه « متصرف القدس الشريف »(٤) كما وصف في الاوامر اللاحقة التي اصدرها الى قائمقام غزة وكبار موظفيها بانه « والي الالوية » ، وان أمره صادر من « ديوان ألوية القدس الشريف وملحقاتها »

وقد شغل قائمقامية غزة ، في فترة دراستنا هذه كل من مصطفى بك السعيد ، الذي عزل بموجب الأمر الذي أبلغه والي القدس ، مصطفى باشا ثريا ، الى المسؤولين في غزة ، بتاريخ ٢٨ محرم ١٢٧٤/(١٨ ايلول ١٨٥٧) ، وعين مكانه سالم افندي(٥) ثم عزل هذا القائمقام ، وخلفه في حكم غزة عثمان أفندي القاسم ، كما جاء في الامر المؤرخ في ١٧ ربيع الثاني ١٢٧٤/(١٥ كانون الاول ١٨٥٧) ، الذي أبلغه مصطفى

---

(١) انظر مصور هذا الطريق في كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ص ٤٧٣

(٢) انظر مصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين ، دار الطليعة ، ج١ ، ق٢ ، ص ٩٧ وانظر حول طريق الحج المصري ، كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ص ٤٧٥

(٣) سجل غزة ، ص ١٢ مكرر ، صورة أمر من اسماعيل كامل باشا ، بتاريخ ١٢ جمادى الثاني ١٢٧٣/(٧ شباط ١٨٥٧

(٤) سجل غزة ، ص ٥٩

(٥) المصدر السابق

باشا ثريا الى المسؤولين في غزة(١) . وفي امر لاحق من مصطفى باشا ثريا ، مؤرخ في ١٩ شوال ١٢٧٤/(٢ حزيران ١٨٥٨) ، الى المسؤولين في غزة ، أبلغهم انهاء قائمقامية عثمان أفندي القاسم في غزة ، وتوجيه هذا المنصب الى مصطفى بـك السعيد(٢)

وأقام القائمقام في سراي غزة(٣) ، وتقع في الجانب الشرقي منها ، في مكان غير بعيد عن الجامع الكبير(٤) وجاء في أوامر تعيينه ذكر المسؤوليات المترتبة عليه ، مثل مطابقة أعماله للشريعة والقانون ، وتحصيل أموال الميري من محلاتها بأوقاتها ، وتوريدها الى الخزينة ولعـل المقصود بالخزينة هنـا خزينة غزة التي أشارت اليها الوثائق(٥) وحثت الاوامر القائمقام على الاهتمام بكافة السكان ، في غـزة وخارجها ، وتأمين الأمن في الطرق

وجاء تسلسل المسؤولين في غزة ، كما ورد ذلك في مطالع الأوامر الصادرة اليهم من قبل والي القدس ، وفق الترتيب التالي : قائمقام غزة ، وهو المعني الاول بتنفيذ الأمر ، ثم نائب الشريعة حالاً أفندي ، أي القاضي الحنفي (ولم يذكر اسمه الا اذا كان الأمر موجهاً اليـه) ، ومفتي أفندي بها حالاً ، وقائمقام نقيب السادة الاشراف بها حالاً ، ثم اعضاء المجلس بها حالاً ولا نعرف شيئاً عن تركيب هـذا المجلس أو صلاحياته وأشارت الأوامر ، بعد ذلك ، الى أصحاب الالقاب التالية ، أو بعضهم « وجوه البلدة ، مختارين المحلات ، مشايخ الحارات ، أرباب التكلم بوجه

---

(١) سجل غزة ، ص ٩٣

(٢) سجل غزة ، ص ١٣١

(٣) سجل غزة ، ص ٤٣٩ ، ٤ ج ٧٧/(١٨ كانون الاول ٦٠)

(٤) انظر K. Baedeker, **Palestine et Syrie, Manuel du Voyageur,** Deuxième **édition, Leipzig, 1893, p. 159.**

ولكن (بيديكر) لم يقم بنفسه بالرحلة التي يذكرها الكتاب الى فلسطين وسورية ، بل قام بها وكتب وصفها ، كما جاء في مقدمة الكتاب ، Albert Socin ، استاذ اللغات السامية في لايبزيغ ، وهناك نسخة المانية اقدم من هذا . ونظرا لان هذه الرحلة تحمل اسم (بيديكر) فسنشير الى اسمه ، حين الرجوع الى هذا المصدر . والجدير بالذكر ان تاريخ ١٨٨٩ ورد داخل الرحلة مما يجعلنا نشير اليها بانها كانت حوالي ١٨٩٠ . وسنشير الى هذا الكتاب في مناسبات كثيرة فيما بعد

(٥) سجل غزة ، ص ٩٣ ، ١٧ ر ٧٤/(٥ كانون الاول ٥٧) ، ص ١٣١ ، ١٩ ل ٧٤/(٢ حزيران ٥٨) ، ص ٤٠٥ ، ١٤ را ٧٧/(٣٠ ايلول ٦٠)

العموم ، ومفاخر القبايل والعشاير شيوخ مشايخ عربان الصف القبلي والشمالي ومشايخ العربان ومشايخ واختيارية قرايا بلاد غزة بوجه العموم » .

وقد عين قاضي غزة الحنفي ، الذي أشير اليه ، عادة ، بنائب الشريعة في غزة ، وأحيانا بخليفة الحكم الحنفي بمدينة غزة(١) ، من قبل قاضي القدس ، الذي وصف بأنه منلا (مشتقة من مولى ، أي سيد) أفندي الديار القدسية وذكر في قرار تعيين قاضي غزة انه نصب نائبا شرعيا بغزة هاشم ومجدل عسقلان(٢) وكان والي القدس يؤكد تعيين القاضي بتوجيه أمر من قبله الى قائمقام غزة ، والى القاضي المعين ، والمفتي ، ونقيب الاشراف ، وأعضاء المجلس ، ووجوه البلدة ، وأرباب التكلم بوجه عام ، يعلمهم فيه بتعيين القاضي الجديد وعزل سلفه ، ويوصيهم بأن يكون القاضي الجديد مرفوع المقام بينهم ويهيب بالقاضي الجديد ان يتعاطى الاحكام على قاعدة ابي حنيفة وبتقوى الله(٣)

وأشير ، عادة ، في أمر تعيين قاضي غزة الى مهامه الرئيسية التي خوله اياها قاضي القدس ، ومنها « مباشرة وتعاطي فصل الاحكام بين الاهالي ، وختم الصكوك الشرعية والسندات المرعية ، وتحرير التركات الغير جسيمة وتقسيمها بين مستحقيها ، ونصب الاوصياء والنظار من أهل الدين والصلاح ، وتزويج من لا ولي له من الصغار ، وانابة من شاء عند الحاجة(٤) » وابلغ القاضي ، وغيره من كبار الموظفين ، بالتوجيهات الجديدة حين صدورها ومما أبلغه ، مثلا ، ضرورة تطبيق المساواة العادلة بين السكان ، على اختلاف مللهم ومذاهبهم(٥) ، وذلك في أعقاب صدور خط شريف همايون في ١٨ شباط ١٨٥٦ ، الذي أقر المساواة بين السكان

---

(١) سجل غزة ، ص ٢٢٣ ، ١٠ ذا ٧٥/(١١ حزيران ٥٩)

(٢) سجل غزة ، ص ٣٥٨ صورة مراسلة من قاضي القدس الى نائب الشريعة في غزة ، بمناسبة تعيينه ، بتاريخ ١ ذي الحجة ١٢٧٦/(٢٠حزيران ١٨٦٠) .

(٣) انظر ، مثلا ، سجل غزة ، ص ٢٥٨

(٤) سجل غزة ، ص ٨٣ : صورة مراسلة ، ص ٣٥٨ : صورة مراسلة

(٥) سجل غزة ، ص ١٤٥ صورة أمر من والي القدس الى كبار موظفي غزة ، بتاريخ ٢٥ ذي الحجة ١٢٧٤/(٦ آب ١٨٥٨)

وأبلغ القاضي أيضا ضرورة التأكد ، في عمليات شراء العقارات ، من هوية المشترين وجنسياتهم ، ومن صفة العقار ، ان كان ملكا أم وقفا ، ومن صلاحيته (أي القاضي) النظر في أمر العقار ، من حيث تبعيته لدائرته أم لدائرة قاض آخر(١) ، وذلك في أعقاب صدور قانون الاراضي العثماني في عام ١٨٥٨

وشغل منصب القضاء في غزة ومجدل عسقلان ، في فترة دراستنا ، ثلاثة قضاة هم : مصطفى افندي(٢) ، وعلمي زاده السيد مصطفى وفا افندي (أي السيد مصطفى وفا افندي ابن علمي) ، الذي عين بموجب مراسلة من قبل والي القدس بتاريخ الاول من ربيع الاول ١٢٧٤/(٢٠ تشرين الاول ١٨٥٧)(٣) ، ثم عزل في الاول من ذي الحجة ١٢٧٦/(٢٠ حزيران ١٨٦٠) ، وخلفه صلاحي زاده السيد عبد الغني افندي(٤)

ولا نعلم فيما اذا كانت الدولة قد اعتمدت في غزة ، أو قام فيها ، في الواقع ، قضاة من المذاهب الاخرى   ووردت معلومات في الوثائق الشرعية عن ممارسة المفتي الشافعي في غزة ، واسمه محمد نجيب أفندي النخال ، عملية الافتاء ، الى جانب المفتي الحنفي(٥) . ولكن المفتي الحنفي بقي متميزا، واشير اليه بانه مفتي غزة . وشغل هذا المنصب ، في فترة دراستنا ، السيد الحاج احمد محي الدين عبد الحي الحسيني(٦)   وكان نقيب الاشراف في غزة السيد صالح افندي عبد الحي

---

(١) سجل غزة ، ص ١٩٠ : صورة أمر من والي القدس الى نائب الشريعة في غزة ، بتاريخ ٢ جمادى الثاني ١٢٧٥/(٧ كانون الثاني ١٨٥٩)

(٢) سجل غزة ، ١٢ (مكرر) : صورة أمر من والي القدس ، بتاريخ ١٢ جمادى الثاني ١٢٧٣/(٧ شباط ١٨٥٧) .

(٣) سجل غزة ، ص ٨٣

(٤) سجل غزة ، ص ٣٥٨ صورة مراسلة من قاضي القدس ، بتاريخ ١ ذي الحجة ١٢٧٦/ ٢٠ حزيران ١٨٦٠)

(٥) سجل غزة ، ص ٧٩ ، ١٤٦

(٦) سجل غزة ، ص ٧ ، ٢٨ جا ٧٣/(٢٣ شباط ٥٧) ، وانظر ص ١١٧ ، ٢١٦ ، ٢٦٧ ، ٣٧١

الحسيني(١) ، ولعله من اقرباء المفتي الحنفي. ولم يرد ، في الوثائق، ما يشير الى هوية السلطات التي عينت كلا من المفتي الحنفي والمفتي الشافعي ونقيب الاشراف في غزة .

وضم لواء ، أو صنجق ، أو قضاء غزة ، عددا كبيرا من القرى ، تراس كلا منها شيخ عرف بشيخ القرية . وذكرت الوثائق الشرعية ، في فترة دراستنا هذه ، القرى التالية(٢) : برير ، البطاني الفربي ، بعلين ، بيت جرجا ، بيت حانون ، بيت داراس (ذكرها العارف ، ص ١٩٧ ، بيت دراس)(٣) ، بيت طيما ، بيت لاهيا ، تل الترمس ، جباليا ، الجسير ، جلين ، جولس ، الجية ، حتا ، الحديثة ، حمامة ، حميل الخيل (ذكر العارف ص ١٩٧ قرية حميل ، ولعلها نفسها) ، خان يونس ، دمرة ، الدوالية ، الدوايمة ، دورة ، الدير ، دير البلح ، دير سنيد (ذكرها العارف ، ص ١٩٧ ، دير اسنيد) ، ذكريا ، زرنوقة ، سدود (ولعلها اسدود) ، سمسم ، سوافير عودة ، سوافير المسالقة ، الشيخ مؤنس ، صامة (أو حامة) ، عبسان ، عجور ، عراق المنشية ، الفالوجة ، القبيبة الغربية ، القبيبة (وردت ايضا القبية) ، القسطينة ، اللتينة (وردت ايضا التينة) ، المسمية ، معربيا ، المغار ، ثعلبا ، هربيا ، يبنا ، وكرين البردان وبدهي ان هذه القرى لا تشمل جميع قرى لواء غزة .

٢ ـ مظاهر عمرانية :

ميزت الوثائق الشرعية ، في تحديد مواقع المحلات والخطوط ، ومن خلالها مواقع العقارات ، في غزة ، بين داخل مدينة غزة وظاهرها ومثل هذا التمييز .

---

(١) سجل غزة ، ص : ٣ ، ٩٠ ، ١٢٣ (ذكر اسمه هنا بانه السيد صالح افندي علاي الدين عبد الحي) ، ص ١٢٨ (ذكر انه السيد صالح افندي ، نجل نخبة الاشراف حسيني زادة المرحوم السيد علاي الدين افندي) ، ص ٢٣٢ ، ٣٧٩ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦

(٢) انظر حول موقع هذه القرى المصورات الملحقة بهذه الدراسة ، التي وضعت في فترة قريبة من الفترة التي نحن بصدد دراستها ، وانظرمثلا الدراسة المفصلة لهذه القرى التي قام بها الدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ١٨٩ ـ ٣٠٦ .

(٣) عارف العارف (قائمقام غزة) ، تاريخ غزة ، مطبعة دار الايتام الاسلامية في بيت المقدس ، ١٣٦٢/١٩٤٣ ، ص ١٩٧

بين داخل المدينة وظاهرها ، يقوم ، عادة ، كما في دمشق مثلا ، بالاستناد الى سور المدينة . ولم تشر وثائق غزة ، في فترة دراستنا ، الى وجود مثل هذا السور . ولاحظ كتاب (بيديكر)(١) ، في حوالي عام ١٨٩٠ ، زوال وجود السور وكذلك زوال وجود بوابات للمدينة . وهناك اشارة(٢) الى وجود السور قبل ذلك والى ان البقية الباقية منه قد تهدمت ابان هجوم نابليون بونابرت ولم يتبق منه الا بقايا قليلة ، بجوار مدرسة الفلاح الاسلامية(٣) . وربما كانت تسمية داخل غزة وظاهرها تعود الى زمن وجود السور . ومهما يكن ، فالامر الثابت ان وثائق غزة الشرعية أشارت الى هذا التقسيم ، وان داخل غزة ضم سبع محلات ، وما عداها عرف بظاهر غزة .

ولم يتجاوز ظاهر مدينة غزة حدود اراضيها المباشرة ، التي توقفت عند حدود اراضي القرى المجاورة لها وتألفت الاراضي ظاهر مدينة غزة ، والتي اشير اليها بأرض غزة ، من بساتين ، وحواكير ، كانت بجوار غزة المباشر ، كما في داخلها ، ومن كروم وموارس (جمع مارس ، وهي الارض الزراعية)(٤) . ومن جملة ما وجد في ظاهر غزة سوق الحمير(٥)

ومن النقاط المشهورة ، ظاهر غزة ، ما اسمته وثائق غزة الشرعية بجبل المنطار(٦) . واشير اليه كذلك بتل المنطار ، وكان على ارتفاع ثلاثة وثلاثين مترا عن سطح البحر ، ويقع الى الجنوب الشرقي من غزة ، على مسافة خمس عشرة دقيقة منها ، كما قدرت في حوالي عام ١٨٩٠ وفيه عدد من القبور ، واختلف المسلمون والمسيحيون حول تسميته ونسبته اليهم(٧) . ولا ندري اذا كان المنطار هذا هو نفسه الذي أعطى اسمه الى ضريبة (منطقة) عرفت بضريبة ولي الله تعالى الشيخ ابو علي المنطار ، وكانت ظاهر غزة ، من الجهة الشرقية(٨)

---

(١) Baedeker, p. 159

(٢) العارف ، ص ٢٠٩

(٣) الدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ٩٩

(٤) انظر ما يلي ، ص ٧٤

(٥) انظر ما يلي ، ص ٥٦

(٦) سجل غزة ، ص ٥٤ ، ١٥ ذ ٧٤/(٢٧ تموز ٥٨)

(٧) انظر حول المنطار ، العارف ، ص ٣٢٧ ، الدباغ ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٩٩ ، وانظر ايضا :
Baedeker, p. 159; Martin M. Meyer, **History of the City of Gaza,** 1st ed. Columbia University Press, 1907, reprinted by AMS Press, N. Y. 1966, pp. 109 - 111.

(٨) سجل غزة ، ص ٣٧٣ ، ٤ م ٧٧/(٢٣ تموز ٦٠)

وتألف داخل غزة ، في فترة دراستنا ، من عدد من المحلات (مفردها محلة) ، وربما عادلت الاحياء في التعبير الدمشقي وغيره آنذاك وورد في وثائق غزة الشرعية استخدام كلمة « حارة » ، ولكن بمعنى مرتبك ، فمرة قصد بها محلة(١) ، ومرة سمي بها زقاق(٢) وقسمت كل محلة الى خطوط (مفردها خط) ، وهي ما يعادل الشارع الرئيسي وكلمة « خط » مقتبسة من مصر ، حيث استخدمت للدلالة على الشارع(٣) واستخدمت وثائق غزة الشرعية كلمة « شارع » بشكل ضئيل ، وبصورة مرتبكة ، فمرة استخدمتها للدلالة على « خط » ، كما ورد في العبارة التالية ، حول موقع دكان صباغة :« داخل غزة بمحلة السجاعية بشارع الاسكافية »(٤) . وهذا الشارع أشارت اليه الوثائق باستمرار تقريبا ، بخط الاسكافية ووردت كلمة « شارع » بمعنى التفرع من خط ، كما في العبارة التالية : « الدار الكائنة داخل غزة بمحلة السجاعية بخط الجديدة شارع الواوية »(٥) ويبدو ان « شارع » هنا اطلق على مسار سالك ، أي نافذ ، وربما يوازي ، في ذلك ، تعبير « الطريق السالك » الذي استخدمته الوثائق الشرعية ، باستمرار تقريبا ، حين تحديد جهات عقار ما ، ويقع فيه ، عادة ، باب العقار ومن تفرعات الخط والطريق السالك الزقاق ، ويفترض انه ضيق وقصير ، وكان ، عادة ، غير نافذ ، وفتحت عليه ابواب الدور ولم ترد في وثائق غزة كلمة « الدخلة » ، التي استخدمت في دمشق آنذاك لتدل على تفرع أصغر من الزقاق ، وكانت غير سالكة

ومن الطريف ان الامر الذي وجهه والي القدس الى قائمقام غزة وكبار موظفيها وأصحاب النفوذ فيها ، بتاريخ ١٥ ذي الحجة ١٢٧٤/(٢٧ تموز ١٨٥٨) ، قد ذكر « مختارين المحلات ومشايخ الحارات »(٦) . ويبدو ان هذه العبارة هي مجرد

---

(١) سجل غزة ، ص ٢٣٩ ، ٥ م ٧٦/(٤ آب ٥٩) ، حيث اشير الى « حارت الزيتون ، وهي محلة الزيتون

(٢) سجل غزة ، ص ٢٤٢ ، ٢٦ ل ٧٦/(١٧ أيار ٦٠)

(٣) انظر :
André Raymond, **Artisans et Commerçants au Caire au XVIIIe Siècle,** 2 tomes, Damas, 1973, 1974, II, p. 855.

(٤) سجل غزة ، ص ٢٣٢ ، ١٨ ذ ٧٥/(١٩ تموز ٥٩)

(٥) سجل غزة ، ص ٣٢٢ ، ١٢ ش ٧٦/(٥ آذار ٦٠)

(٦) سجل غزة ، ص ١٤٥

اصطلاح ، استخدم في الاوامر الادارية ، بصورة عامة ، ولا ينطبق على لواء غزة ، لان الوثائق الشرعية فيها لم تشر الى الحارات ، وانما الى الخطوط ، الا اذا كان القصد من المحلات ، في الامر ، الاشارة الى الخطوط ، التي لم يكن لفظها مستعملا في غير لواء غزة .

ومما تجدر ملاحظته ان بعض القرى ، على الاقل ، المحيطة بغزة ، قد حذت حذوها في تسمية الشارع بالخط ويلاحظ ذلك ، بصورة خاصة ، في جباليا ، اذ قسمت الى خطوط . ولكن لم ترد اشارة الى انتظام هـذه الخطوط في محلات ، كما كان الامر في غزة ، ربما بسبب صفر حجم القرى . ومن الخطوط ، في قرية جباليا ، خط الدرادنة(١) ، وخط الجامع الكبير(٢)

وقد اشارت وثائق غزة الشرعية ، في فترة دراستنا ، الى سبع محلات فيها . واذا ما رتبناها بالنسبة لعدد الخطوط في كـل منها لاصبح تصنيفها كمـا يلي : السجاعية (وكتبت أحيانا : الشجاعية) ، البرجلية ، الزيتون ، الدرج ، حكر التفاح (أو التفاح) ، الخضر (أو دار الخضر) ، وبني عامر وورد في الوثائـق أحيانا ذكر خط بني عامر ، التابع لمحلة البرجلية . فاذا كانت الاشارة هنا الى محلة بني عامر فهذا يعني ان المحلة لصفرها اعتبرت ، أو اصبحت خطا تابعا لمحـلة البرجلية .

وتقع محلات غزة ، من الناحية الجغرافية ، بالاستناد الى المصـور المرافق لغزة الذي وضعه Aldrich (٣) ، والى الاوصاف الواردة في الوثائق الشرعية ،

---

(١) سجل غزة ، ص ٢٦٥ ، ١٧ را ٧٦/(١٣ تشرين الثاني ٥٩)

(٢) سجل غزة ، ص ٥٢ ، ١٧ م ٧٤/(٧ ايلول ٥٧)

(٣) Reconnaissance of Gaza, of the villages of Harrat IT TE Fear and Sajaeah, by Lt Aldrich Rl Engrs, June 1941.

وانني اشكر المكتبة البريطانية (مكتبة المتحف البريطاني سابقا) ، في لندن ، التي سمحت لي بالاطلاع ، في تشرين الاول ١٩٧٩ ، على مجموعة المصورات ، بمكتبة المصورات فيها ، وزودتني بصورة عن المصور المرافق ، ويلاحظ في هذا المصور ، الذي وضع في عام ١٨٤١ ، ان حارتي التفاح والسجاعية اعتبرتا قريتين ، وربما للتدليل على كبرهما كضاحيتين من ضواحي غزة ، وقد اعتبرتهما الوثائق الشرعية ، في فترة دراستنا ، محلتين داخل غزة .

والمصادر الاخرى ، كما يلي : محلة السجاعية في الشرق من غـزة ، قرب الطريق المؤدي الى الخليل ، ومحلة التفاح في الشمال ، غربي الطريق المؤدي الى الرملة ويافا ، ومحلة الزيتون في الجنوب ، غربي الطريق المؤدي الى العريش ، ومحلة الدرج في الغرب من غزة ، أي الى الشمال الغربي من محلة الزيتون ، ومحلة الخضر الى الجنوب الغربي من محلة الدرج . وتقع محلة البرجلية الى الجنوب الشرقي من محلة الدرج ، باتجاه الشمال الغربي من محلة الزيتون . والى جانب محلة البرجلية ، وربما في قسم منها ، قامت محلة بني عامر ، التي حلت تسميتها فيما بعد ، كما يبدو ، محل تسمية البرجلية(١) .

ولو قارنا محلات غزة هذه مـع محلاتها ، التي ذكرتها كتابات أخـرى ، في فترات أخرى ، سابقة ولاحقة ، ابان الحكم العثماني ، لوجدنا انسجاما أكثر بين هذه المحلات ومحلات الفترات التي تقدمت دراستنا بحوالي ثلاثة قرون وربع القرن ، واختلافا مع محلات الفترة التي أعقبت دراستنا بحوالي ربع القرن . ففي القـرن السادس عشـر ، ومن خلال عـدد مـن السجلات العثمانية ، ذكـرت أحدث الدراسات(٢) وجود الحارات التالية : حكـر التفـاح ، دار الخضر ، الدباغة او الصباغة ، الزيتون ، البرجلية ، التركمان وسجاعية (أو شـجاعية) الاكـراد وبالمقارنة مع فترتنا نجد أن حارة التركمان أصبحت خطا ، ضمن محلة السجاعية أما محلة الدباغة ، أو الصباغة ، فلم ترد أيـة اشارة اليها في وثائق غزة الشرعية ، في فترة دراستنا . وبدت الدراسة ، التي أوردت هذه التسمية ، غير متأكـدة من طريقة كتابتها ، كما انها ذكرت انها جزء من حارة التفاح ، ولعلها جنوبه حيـث يقوم المسالخ ، وذلك بالاستناد الى ما ذكره العارف بعد حوالي اربعة قرون . ومع ذلك ينسجم هذا التقسيم مع تقسيم غزة ، في فترة دراستنا ، الى حد كبير ، ويتفق معه بانه لا يذكر حيا خاصا بالنصارى ، وآخر باليهود ، وآخر بالمسلمين .

---

(١) انظر ما يلي ، ص

(٢) انظـر : Amnon Cohen and Bernard Lewis, **Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century**, Princeton University Press, 1978, pp. 117 - 677.

بعد الفترة التي تلت دراستنا ، بحوالي ربع القرن ، جاء في كتاب (بيديكر)(١) : ان غزة تألفت من اربع حارات ،هي : حارة التفاح ، وحارة السجاعية ، وحارة الزيتون ، وحارة الدرج ، وانه في السنوات الاخيرة زاد عدد حاراتها خمس حارات جديدة ولكن الكتاب لم يسم هذه الحارات ، ولا مواقعها ، ولا السنوات التي ازدادت فيها . كما انه لم يشر الى هوية السكان الذين اقاموا فيها ، وفيما اذا كانت هذه الحارات قد سلخت او تفرعت عن الحارات الاربع الاولى .

ثم جاءت دراسة Gatt عن غزة في عام ١٨٨٧(٢) ، ويبدو انه كان على اطلاع بما جاء في كتاب (بيديكر) باللغة الالمانية ، وربما على تنسيق معه ، فذكر ان حارات غزة ، آنذاك ، هي التالية : الزيتون ، اليهود ، النصارى ، المسلمين ، الفواخير ، الدرج ، بني عامر ، التفاح ، والسجاعية . وهذا التقسيم يعني انه في مدى حوالي خمس وعشرين سنة ، من فترة دراستنا ، أصبح في غزة تسع حارات ، عوضا عن المحلات السبع ، وان محلتي البرجلية والخضر قد الفي اسماهما على الاقل ، وبرزت حارات لليهود والنصارى والمسلمين . وقد نقل Meyer (٣) في عام ١٩٠٧ هذا التقسيم عن (غات) ، وقبله بدون مناقشة ، حتى بالنسبة لكلمة « التفاح » التي وردت في (غات) على شكل tufen ، فأبقاها كما هي . واخطأ (ماير) في كتابة كلمة el-fawakhir ، التي ذكرها (غات) بشكل صحيح فجعلها el-Fawakhin .

---

(١) Baedeker, p. 159

(٢) G. Gatt, « Legende zum Plane von Gaza », ZDVP (Zeitschrift des deutschen Palestina Vereins), XI (1888), pp. 149 - 159.

واشكر السيد Jean-Paul Pascual ، السكرتير العلمي للمعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، الذي زودني بصورة عن هذا المقال من المعهد الالماني ببيروت . والطريف في الامر ان كتاب Meyer اشار في طبعته الجديدة في نيويورك عام ١٩٦٦ الى مقال Gatt هذا بانه في المجلد التاسع من المجموعة السابقة ، ولكنني لم احصل عليه في المجلد التاسع الموجود في المكتبة البريطانية بلندن وبالرجوع الى الطبعة الاولى من كتاب Meyer ، في ١٩٠٧ ، ذكر المجلد الحادي عشر ، وهو الصحيح

(٣) Meyer, p. 108

والملاحظ ان كلا من (غات) و (مايــر) ذكر حارات خاصة باليهود والنصارى والمسلمين ، وهو ما لم تذكره وثائق غزة الشرعية في فترة دراستنا ، ولا السجلات العثمانية في القرن السادس عشر(١) . فهل تعرضت غــزة الى موجة من هجــرة اليهود خاصة ، وربما النصارى ، اليها ، في مدة خمسة وعشرين عاما ، استدعت قيام حارات خاصة بهم ، أو ربما غلب وجودهم في هذه الحارات على ما عداهم من السكان ، أم هل اتخذ التقوقع الديني بعدا كبيرا جعل اتباع هذين المذهبين يتجمعون في حارات خاصة بهم ثم هل تتطابق حارات اليهود والنصارى والمسلمين مــع الحارتين ، او المحلتين ، اللتين اندثرت تسميتهما على الاقل في تقسيم (غات) ومن نقل عنه ، وهما محلة الخضر ومحلة البرجلية ، اللتان أشارت اليهما الوثائق الشرعية قبل حوالي ربع قرن . لقد أشارت السجلات العثمانية ، في القرن السادس عشر ، الى وجود النصارى في غزة ، والى تواجد معظمهم في حارة الزيتون ، وكذلك الى وجود اليهود باعداد أقل ، بحيث شكلوا ، وسطيا ، حوالي ثلث عدد النصارى(٢) ، وان حوالي ثلثهم ، في سجل عام ١٥٢٥/٩٣٢ ــ ١٥٢٦ ، كانوا من المغــرب ، بنتيجة هجرة السفارديم(٣) من اسبانيا بعد اخراج العرب والساميين منها ولكن وثائــق غزة الشرعية ، في فترة دراستنا ، لم تشر الى محلة خاصة بالنصارى اذ انهم توزعوا في عدد من المحلات أهمها : الزيتون ، والخضر ، والدرج ، وسنتعرض الى ذلك في مكان آخر من هذه الدراسة(٤) كما انها لم تشـر الا الى اسمين يهوديين مــن غــير غزة فهل هذا يعني انعدام ، وفي أحسن الحالات ، تضاؤل عــدد اليهود في غــزة آنذاك

وعلى اية حال فقد ذكر D. Sourdel (٥) ان عدد سكان غزة في عام ١٨٨٢ كان ١٦ر٠٠٠ نسمة ، وبلغ في عام ١٩٠٦ ٤٠ر٠٠٠ نسمة ، منهم ٧٥٠ مسيحيا و ١٦٠ يهوديا ويفترض ان عدد هؤلاء كان أقل من ذلك في عام ١٨٨٢ ، أي قبل خمس

---

(١) انظر بصورة خاصة: Cohen and Lewis, p. 127

(٢) Ibid., p. 128

(٣) Ibid., p. 120, n. 15

(٤) انظر ما يلي ، ص ٣٨ .

(٥) Encyclopaedia of Islam, 2nd ed., s. v. Ghazza, pp. 1080 - 1081.

سنوات من التاريخ الذي ذكر فيه (غات) وجود حارة للنصارى واخرى لليهود في غزة .

أما عارف العارف ، الذي طبع كتابه عن تاريخ غزة في عام ١٩٤٣ ، فقد ذكر(١) انه وجد في غزة القديمة خمسة احياء هي : الدرج ، الزيتون ، التفاح ، والشجاعية (بقسميها : الجديدة والتركمان) . ولم يذكر العارف الحدود الزمنية لغزة « القديمة » ، ولا في اية فترة وجدت هذه الاحياء . وتقسيم الشجاعية الى الجديدة والتركمان ربما ينطبق على فترة المؤلف ، ولكنه لا يتفق مع محلات غزة ، في حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، حين كانت الجديدة والتركمان خطين ، من جملة خطوط في هذه المحلة .

وضمت محلات غزة ، في فترة دراستنا ، عددا كبيرا من الخطوط جاءت على ذكرها وثائق المحكمة الشرعية ، واشتملت محلة السجاعية(٢) على الخطوط التالية : خط الجديدة ، خط التركمان(٣) ، خط الاسكافية (ورد ايضا باسم خط السكافية) ، خط المحكمة القديمة ، خط الحمام (وقف آل رضوان) بزقاق الحزيزاتي ، خط الشيخ الغزالي (ورد ايضا باسم خط الغزالي)(٤) ، خط مسجد ولي الله تعالى السيد علي المغربي (ورد ايضا باسم خط الشيخ علي المغربي أو خط السيد علي

---

(١) ص ٢٥٥ .

(٢) ذكر العارف ، ص ٢٥٥ ، ان تسميتها تعود الى شجاع الدين عثمان الكردي الذي استشهد في غزة سنة ٦٣٧/(١٢٣٩ ـ ١٢٤٠) ، ابان الحروب الصليبية . وذكر الدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٣ ، احتمال نسبة الشجاعية الى شجاع الدين عثمان الكردي الذي استشهد بغزة ، ولكنه ، في هامش ٢ ، رجح ان الاسم نسبة الى « السجاعية » ، وهي بلدة من أعمال « المحلة الكبرى » ، في مصر ، وان جماعة منها نزلت غزة وسميت البقعة التي استقرت فيها باسم وطنها الاول

(٣) ذكر العارف ، ص ٢٥٦ ، ان التسمية نسبة الى القبائل التركمانية التي سكنت غزة ، في القرن الثالث عشر ، في عهد السلطنة المماوكية . ولا ندري اذا كان للتسمية من علاقة بمسجد ركن الدين التركماني الذي بناه ركن الدين عمر بن خليل التركماني الغزي في ٧٨٢/(١٣٨٠ ـ ١٣٨١) ، والذي ذكر العارف ، ص ٣٥٣ ، انه اندثر في عهده

(٤) ذكر العارف ، ص ٣٤٩ ، ان كثيرين يظنون ان الذي بنى هذا الجامع هو جان بردي الغزالي والي الشام (ومن ضمنها غزة) في مطلع الحكم العثماني .

المغربي)(١) ، خط اولاد عياد ، خط العيايدة (ولعل التسميتين الاخيرتين لخط واحد) ، خط بوابت ابو بكر (ورد ايضا باسم خط بوابت(٢) ابو كر) ، خط ولي الله تعالى الشيخ نصر الدين ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ عكري بن مسافر (ورد ايضا باسم خط بن مسافر)(٣) ، خط التفليسي ، خط سوق الفزل ، خط العابد(٤) ، خط زقاق اولاد حتحت ، خط الباسطية(٥) ، خط مسجد الشيخ محمد الطيار(٦) ، خط ساقية خليل(٧) ، خط خليل (لعل التسميتين لخط واحد) ، خط المفتي ، خط البازار (ضمن سوق السجاعية) ، خط الباز (قد يكون هو نفسه خط البازار(٨) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد الظفر

---

(١) هناك مسجد آخر باسم محمد المغربي تسمى به خط في محلة البرجلية وقد اشار العارف ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، الى مسجد المغربي ،المسمى ايضا بمسجد الشيخ المغربي ، وانه في حي الدرج والمعروف لدينا ، من خلال الوثائق الشرعية ، ان خط مسجد الشيخ محمد المغربي وجد في محلة البرجلية التي اندمجت ، في زمن العارف ،وما قبله بحارة الدرج لذا فمسجد المغربي الذي اشار اليه العارف هو مسجد محمد المغربي . ويبقى مسجد علي المغربي دون تعريف .

(٢) هكذا وردت كتابتها في الوثائق الشرعية ، وستبقى كتابة الاسماء كما وردت .

(٣) ذكر العارف ، ص ٣٥٣ ، ان مسجد الشيخ مسافر ، في حي السجاعية ، كان مندثرا في زمنه وذكر ان الذي أنشأه هو الحاج سعدالدين مسافر بن تتبغلي ، احد المماليك السلطانية ، في عام ٧٠٦/(١٣٠٦ - ١٣٠٧)

(٤) لعله اشارة الى مسجد العابد ، الذي ذكر العارف ، ص ٣٥١ ، انه كان مهجورا في زمنه ، وانظر ايضا ، العارف ص ٣٥٤ .

(٥) نسبة الى جامع الباسطية . وجاء في الوثائق تعبير « خربة جامع الباسطية » ، سجل غزة ، ص ٩٩ ، ١٨ جا ٧٤/(٤ كانون الثاني ٥٨) ، ولاندري هل الجامع كان خربة أم ان خربة وجدت قرب الجامع فعرف بها . وذكر العارف ، ص ٣٥٣ ، انهذا المسجد كان مندثرا في زمنه ، وقامت في مكانه مطحنة زمو .

(٦) ذكر العارف ، ص ٣٥٣ ، أن هذا المسجد كان مندثرا في زمنه

(٧) اشار اليها Gatt, p. 157 في عام ١٨٨٧ انها ساقية الخليل .

(٨) ذكر العارف ، ص ٣٥٢ ، مسجد الشيخ الباز في حي التفاح بغزة ، وانه كان مندثرا بكامله في زمنه. وقد يكون ان الشيخ الباز هذا تسمى خط الباز باسمه في محلة البرجلية او ان مسجد الشيخ الباز كان في محلة البرجلية ، وسمي الخط ،بالنسبة اليه ، اختصارا بخط الباز .

دمري(١) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ سعيد (ورد ايضا باسم خط الشيخ سعيد)(٢) ، خط الشيخ علي ابو الكاس(٣) ، خط الواوحد ، خط جامع شـــهاب الدين بن عثمان(٤) ، خط ولي الله تعالى الشيخ المضلع (ورد أيضا باسم خط الشيخ مضلع)(٥) ، خط الجـــامع الكبير(٦) ، خط حـــارة حلس ، خط الترجمان ، خط الطواشي ، خط أولاد سهمود (ورد ايضا باسم خط سهمود) ، خط مسجد محمد الهواشي(٧) ، خط مسجد الست رقية(٨) (ورد ايضا باسم خط الست رقية) .

وضمت محلة البرجلية(٩) الخطوط التالية : خط سوق الخضر ، خط مسجد

---

(١) ذكر العارف ص ٣٥٠ ان هذا المسجد انشيء من قبل شهاب الدين احمد ازفير بن الظفر دمري في سنة ٧٦٢/(١٣٦٠ - ١٣٦١) ، وينسب الى ظفر دمر من بلاد المغرب ، وانه عامر الى يومه .

(٢) لم يرد ذكره في كتاب العارف ، سواء بين اسماء المساجد القائمة او المهجورة أو المندثرة ، او بين المزارات

(٣) لا نعلم فيما اذا كان للشيخ علي ابو الكاس مقام او مسجد اندثر (لم يشر اليه ، على اية حال ، العارف) في هذا الخط. واشار Gatt, p. 151 الى مقبرة ابو الكاس في غزة

(٤) ذكر العارف ، ص ٣٤٢ ، والدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ١٢٦ ، ان هذا الجامع من الجوامع الكبيرة في غزة ، ويأتي بعد الجامع العمري الكبير من حيث الحجم ومتانة البناء ، والذي بناه هو احمد ابن عثمان من رجال القرن الثامن الهجري .

(٥) لا نعرف الاسم الكامل لهذا الشيخ ولا لماذا نسب الخط اليـه

(٦) اشار العارف ، ص ٣٣٠ - ٣٣٧ ، والدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ١٢٤ - ١٢٦ ، الـى الجامع العمري الكبير وانه قائم في محلة الدرج ، وانه بني في مكانه ، في الاصل ، معبد وثني ، ثـم كنيسة بيزنطية ولكن الوثائق الشرعية في فترتنا ذكرت خط الجامع الكبير في محلة الشجاعية وكذلك في محلة البرجلية ، وربما ان الخط استمر في المحلتين نظراً لان الجامع واحد . وبما ان العارف ، ص ٢٥٥ ، حين تعداد احياء غزة ، لم يشر الى محلة البرجلية ، التي يعتقد انها دمجت بحي الدرج ، فـان هـذا يفسر ورود الجامع الكبير في حي الدرج في تصنيفه .انظر وصف الجامع الكبير حوالي عام ١٨٩٠ في كتاب Baedeker, p. 159

(٧) ذكر العارف ٢ ، ص ٣٥٠ ، ان هذا الجامع واقع في حي الشجاعية ، ولا يعرف عـن ماضيه شيئا

(٨) ذكر العارف ، ص ٣٥٠ ، ان التسمية نسبة الى اسم زوجة احد حكام غزة العثمانيين

(٩) التسمية ، حسب الرواية المحلية ، بالنسبة الى جزء من سور غزة القديم ، الذي كثرت فيه الابراج ، انظر Cohen and Lewis, p. 117 n. 6

ولي الله تعالى الشيخ ظريف(١) (ورد ايضا باسم خط الشيخ ظريف) ، خط زاوية الهنود (٢) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ عياد(٣) ، خط مسجد ولي الله تعالى فرج(٤) (ورد ايضا باسم خط الشيخ فرج) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد المغربي(٥) ، خط الشيخ محمد العراقي(٦) ، خط مسجد ولي الله تعالى محمد الهليس(٧) (ورد ايضا باسم خط الشيخ محمد الهليس) ، خط بني عامر ، خط الخرابة(٨) ، خط سوق الفخار(٩) ، خط خان الكتان(١٠) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ علي الاندلسي(١١) (ورد ايضا باسم خط مسجد الاندلسي ، وباسم خط الاندلسي) ، خط حمام السوق ، خط القهوة ، خط الشيخ

---

(١) اشار العارف ، ص ٣٥١ ، الى ان هذا الجامع ، الذي أضحى في عهده في حي الدرج ، هجره الناس ، مع جوامع اخرى ، لقلة استعمالها ، او لعدم تصاليح الخراب فيها . وورد هذا الخط ايضا في محلة الدرج ، انظر فيما يلي ، ص ٢٣

(٢) ذكر العارف ، ص ٣٤٨ ، وجود مسجد زاوية الهنود وحول هذه الزاوية ، أنظر فيما يلي ، ص ٢٧

(٣) لم يرد في كتاب العارف مسجد بهذا الاسم . ولا ندري اذا كان لهذه التسمية من علاقة باسم الشيخ عياد بن الشيخ عبد الله الايبكي ، الذي ذكر العارف ، ص ٣٤٠ ، أنه مدفون بالقرب من السيد هاشم

(٤) ذكر العارف ، ص ٣٤٧ ، ان هذا المسجد كان صغيرا ، وانه ينسب الى فرج ، عبد السيد محمد خطاب ، من اواخر القرن العاشر (اواخر القرن السادس عشر) ، وانه دفن في ذلك الموقع وبني مسجد عنده

(٥) انظر فيما سبق ، ص١٨ ، هامش١ . لعل هذا المسجد هو الذي اشار اليه العارف ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، وانه كتب على مدخله ان الذي أمر بانشائه هو شاهين بن عبد الله الكجكلي ، واوقف الاوقاف عليه في ٧٨٦/١٣٨٤ - ١٣٨٥

(٦) لا تتوافر معلومات حوله

(٧) ذكر العارف ، ص ٣٥١ ، ان مسجد الهليس كان مهجورا في زمنه .

(٨) انظر فيما يلي ، ص ٢٣

(٩) انظر فيما يلي : ص ٥٤

(١٠) انظر فيما يلي ، ص ٥٣

ذكر العارف ، ص ٣٥٢ ، ان هذا المسجد ، الذي كان مندثرا في عهده ، بني في القرن الثامن الهجري ، وسمي كذلك لان فيه قبر الشيخ علي الاندلسي المتوفي في رجب ٧٥٩/حزيران ١٣٥٨ .

الاوزاعي(١) ، خط مسجد سيدي هاشم(٢) ، خط مسجد محمد العجمي(٣) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ منصور(٤) ، خط جامع البلاطة(٥) ، خط الشيخ شرف(٦) ، خط مسجد ولـي الله تعالى الشيخ محمد الازبكـي(٧) ، خط ساقية الدرج(٨) ، خط البيطار(٩) ، خط زاوية سيدي ابن مدين الغوث(١٠) ، خط القلعة(١١) ، خط الجامع الكبير(١٢) .

---

(١) ذكر العارف ، ص ٣٥٢ ، انه من المساجد المندثرة في زمنه وان مقبرة حلت مكانه .

(٢) ذكر العارف ، ص ٣٣٧ ، ان هذا الجامع ، في حي الدرج ، من اكبر جوامع غـزة واتقنها بناء ، وانه يعتقد أن السيد هاشم جد الرسول الكريم مدفون فيه ، وقيل انه بني في ١٢٦٨/ (١٨٥١ - ١٨٥٢) من قبل السلطان العثماني عبدالمجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١) . ولكن مما يشكك في هذا الكلام ما جاء في وصف هـذا الجامع في كتاب Baedeker, p. 159 ، في حوالي عام ١٨٩٠ من ان هـذا الجامـع assez vieille ، وانه رمم في ذلك القرن ، أي التاسع عشر

(٣) ذكر العارف ، ص ٣٥٢ ، مسجد العجمي بانه من المساجد التي اندثرت في زمنـه ، ولكنه ذكر ان موقعـه في حي الزيتون ونظرا لان الوثائق الشرعية ذكرت خط مسجد العجمي في حي البرجلية ومسجد محمد العجمي في حي الزيتون ، ولعل الاسمين للشخص نفسه وان خط مسجد العجمي ، امتد في الحيين ، أو ان خط مسـجد العجمي في البرجلية هو غير خط مسجد محمد العجمي في محلة الزيتون

(٤) ذكر العارف ، ص ٣٥١ ، ان جامع الشيخ منصور ، في حي الدرج ، بجوار خان الكتان ، كان مهجورا في عهده

(٥) وجد خط في محلة الدرج يحمل أسم مسجد البلاطة ، انظر فيما يلي ، ص ٢٢ ، والتشابه في التسمية ربما يفسره أن الخط امتد في المحلتين باسم واحد تقريبا (مع اختلاف بين جامع ومسجد) . ولا نعرف دلالة « البلاطة »

(٦) لا تتوافر معلومات حول هوية الشيخ شرف

(٧) لم يشر اليه العارف بين المساجد القائمة ، او المهجورة ، أو المندثرة . واذا لم يكن له من اسم آخر فلعله يندرج تحت جملة « جوامع سمعت بها ولكنني لم اعثر لها على اثر » ، كما ذكر العارف ، ص ٣٥٣

(٨) ذكـر Gatt, p. 157 ، ساقية الدرجية في غزة في عام ١٨٨٧ ولعلها ساقية الدرج

(٩) لا نعلم دلالة الكلمة .

(١٠) يبدو ان جامعا كان مندثرا في زمن العارف ، ص ٣٥٢ ، قد اقترن بالزاوية

(١١) ذكر اوليا جلبي ، الذي زار غزة في عام ١٦٤٩ (انظر العارف ، ص ١٧٩) ، ان في غزة قلعة تبعد ساعة عن البحر الى الشرق . ولم ترد في الوثائق الشرعية ، في فترة الدراسة ، معلومات عن القلعة . وقد اشار الى هذه القلعة الياس ديب مطر في كتابه المطبوع عام ١٨٧٤ ، وعنوانه : العصـور الدرية في المملكة السورية ، وذكره الدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ٩٨

(١٢) انظر فيما سبق ، ص ١٩

وضمت محلة الزيتون الخطوط التالية : خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ عثمان قوشقار(١) (ورد ايضا باسم خط الشيخ عثمان قوشقار) ، خط الكمالية(٢) ، خط الخضر ، خط بوابت أولاد شبير(٣) ، خط ولي الله تعالى الشيخ عطية(٤) ، خط مسجد الشمعة(٥) (ورد ايضا باسم خط جامع الشمعة) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ كاتب الاوليا(٦) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد البطل(٧) (ورد ايضا باسم خط البطل) ، خط جامع باب الدروب (ورد ايضا باسم خط باب الداروب) ، خط ساقية القيدة(٨) (ورد ايضا باسم خط القيدة) ، خط الشيخ الياس (حيث وجد مقام الشيخ الياس ، ولا نعلم اذا كان هذا نفسه مسجد الشيخ الياس الذي ذكرت الوثائق انه في خط الكمالية)(٩) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد العجمي (ورد ايضا باسم خط مسجد الشيخ العجمي)(١٠) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ ابي

---

(١) يظن ان عثمان قوشقار ألباني الأصل ، انظر العارف ، ص ٣١٩

(٢) لم يتبين لنا وجه التسمية

(٣) وجد في هذا الخط دار أولاد شبير (سجل غزة ، ص ١٨٠ ، ١٧ ر ٧٥/(٢٤ تشرين الثاني ٥٨) ويبدو أنه سمي نسبة اليها .

(٤) ذكر العارف ، ص ٣٥٤ ، مزار الشيخ عطية ، الذي كان مسجدا ، وهو في زمنه مزار فيه قبر بنت الامام الشافعي ، وخادمه الشيخعطية ، واضاف ، ص ٣٥١ ، ان المسجد اصبح مهجورا في عهده

(٥) ذكر العارف ، ص ٣٤٠ ، انه من الجوامع الشهيرة بغزة في زمنه ، وانه نقش على بابه الخارجي ان سنجر بن عبد الله الجاولي ، نائبغزة في ٧١١ – ٧٢٠/(١٣١١ – ١٣٢٠) وفي ٧٤٠/(١٣٣٩ – ١٣٤٠) أمر ببنائه .

(٦) عرف ايضا بجامع كاتب الولاية ، كما يقول العارف ، ص ٣٣٨ ، والدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ١٢٧ ، واضاف العارف انه بالقرب من كنيسةالروم الارثوذكس ، وانه نقش على بابه ان أحمد بك كاتب الولاية أمر ببناء هذا الجامع في أوائل العقدة٩٩٥/(أوائل تشرين الاول ١٥٨٧) . وقد اشار اليه Gatt, p. 152 ، باسم جامع كاتب ولايات .

(٧) من الجوامع التي اندثرت تماما في عهد العارف ، أنظر ص ٣٥٢ .

(٨) ذكرها Gatt, p. 152 ، من جملة سواقي غزة . ويبدو انه وجد عندها مسجد عرف بمسجد القيدة ، انظر العارف ، ص ٣٥٢ .

(٩) ذكر العارف ، ص ٣٥١ ، ان مسجد الشيخ الياس يقع ، في زمنه ، امام مقبرة آل الشوا ، بالقرب من زاوية الشيخ عابد (انظر فيما سبق ، ص ١٨) ، وانه كان مهجورا انذاك

(١٠) اشار العارف ، ص ٣٤٩ ، الى مسجد العجمي ، في حي الزيتون ، والى قيام الصلوات الخمس فيه وذكر ان هناك مسجدين بهذا الاسم واحد في حي العجمي وآخر في حي الباشر لكنهما في حالة من الخراب شديدة . ثم ذكر ، ص ٣٥٢ ، ان مسجد العجمي ، في محلة الزيتون ، كان مندثرا في زمنه ، ولا نعلم أي مسجد من هذه المساجد يتفق مع المسجد الذي ذكرته وثائق غزة الشرعية . وذكر Gatt, p. 152 جامع العجمي . ، انظر فيما سبق ، ص ٢١

ركاب(١) (ورد ايضا باسم خط مقام ابي الركاب) ، خط مسجد الشيخ الصيحاني(٢) ، خط آل رضوان ، خط بوابت سليط ، خط دار شرير(٣) ، خط مسجد ولي الله تعالى عمر(٤) ، خط مسجد الوزيري(٥)

واشتملت محلة الدرج(٦) على الخطوط التالية : خط مسجد الشيخ ظريف(٧) ، خط الشيخ ذكري(٨) ، خط الشيخ خالد(٩) ، خط الخرابة(١٠) ، خط مسجد البلاطة(١١) ، خط الفواخير(١٢) ، خط سوق الفخار(١٣) (ويبدو انهما خطان منفصلان) ، خط بير الدولاب ، خط الشيخ شعبان(١٤) ، خط البيمارستان(١٥) ، خط الشيخ محمد الخروبي(١٦)

---

(١) ذكر العارف ، ص ٣٥١ ، ان هذا المسجد كان مهجورا في زمنه

(٢) لا تتوافر معلومات عنه

(٣) كانت أسرة شرير من الاسر الكبيرة في غزة في فترة دراستنا .

(٤) لا تتوافر معلومات عنه .

(٥) من المساجد التي ذكرها العارف ، ص ٣٥١ ، بانها مهجورة في زمانه ، واطلق عليه لقب جامع

(٦) سمي بذلك لانه أعلى من المناطق المجاورة ويشعر المرء وكأنه يرتقي درجا للوصول اليه ، انظر ، العارف ، ص ٢٥٥ ، و Gatt, p. 142

(٧) ذكره العارف ، ص ٣٥١ ، باسم جامع الشيخ ظريف ، وانه في حي الدرج ، وكان مهجورا في زمنه

(٨) لعل التسمية مشتقة من جامع الشيخ ذكري ، الذي ذكر Gatt, p. 142 وجوده في غزة في ١٨٨٧

(٩) لعل التسمية نسبة لمسجد الشيخ خالد ، الذي يحمل كتابة تذكر انه جدد في أوائل جمادى الاول ٩٥٥/(أواسط حزيران ١٥٤٨) ، وانه يضم ضريح الشيخ خالد المتوفىسنة ١٣٤٨/٧٤٩ - ١٣٤٩ ، انظر ، العارف ، ص ٣٤٧

(١٠) هناك خط آخر باسم الخرابة ورد ذ في محلة البرجلية (انظر فيما سبق ، ص ٢٠) ، والتسميات تشير الى كثرة الخرائب في هذين الخطين

(١١) انظر فيما سبق ، ص ٢١

(١٢) انظر فيما يلي ، ص ٥٥

(١٣) انظر فيما يلي ، ص ٥٤

(١٤) يبدو ان التسمية بالنسبة لمزار الشيخ شعبان ، الذي كان من أولياء غزة ، او ربما لمقبرة الشيخ شعبان ، انظر Gatt, p. 152, Baedeker, p. 159 واذا كان الشيخ شعبان هذا هو الذي ذكره العارف ، ص ٣٥١ ، حين أورد اسم مسجدالشيخ شعبان ابي القرون ووصفه بانه مهجور فربما تكون التسمية مشتقة ايضا من هذا المسجد

(١٥) لعل التسمية نسبة الى جامع البيمارستان الذي ذكره العارف ، ص ٣٥٢ ، بانه من الجوامع التي اندثرت في زمنه ، وان به رباطا انشأهالملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون سنة ١٣٢٩/٧٣٠ - ١٣٣٠ ، وانه بقي عامرا حتى عام١٨٠٠/١٢١٥ اذ تهدم ابان هجوم نابليون بونابرت

(١٦) لعل التسمية بالنسبة الى مقبرة الخروبي التي ذكرها Gatt, p. 151

وضمت محلة حكر التفاح (أو التفاح) الخطوط التالية : خط جامع الشيخ عبد الله الايبكي(١) (ورد ايضا باسم خط جامع الشيخ عبد الله) ، خط جامع المسكة(٢) ، خط ولي الله تعالى الشيخ عبد الرحمن بن سلطان ، خط جامع القهوة(٣) ، خط القهوة(٤) (لعلهما خط واحد) ، خط جامع السدرة(٥) ، خط المعصرة ، خط الجماحية ، خط القاعات ، خط زقاق الشرفا(٦) .

واشتملت محلة الخضر على الخطوط التالية : خط حمام السمرة(٧) ، خط مسجد كاتب الاوليا(٨) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ ابي ركاب(٩) ، خط سوق الخضر ، خط معصرة أولاد مكي .

وضمت محلة بني عامر(١٠) خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد المغربي(١١) (ورد ايضا باسم خط محمد المغربي ، وخط الشيخ المغربي) .

ويلاحظ في خطوط غزة ان عددا منها اجتاز محلتين متجاورتين واحتفظ باسمه في المحلتين ، مثل خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد المغربي ، الذي اجتاز

---

(١) كان هذا الجامع عامرا في زمن العارف ، انظر ، ص ٣٤٠ ، وتسميته بالنسبة الى الشيخ عبد الله الايبكي من مماليك عز الدين ايبك المدفون بجانبه

(٢) لا تتوافر معلومات حول هذا الجامع .

(٣) لم يرد في كتاب العارف مسجد بهذا الاسم ، ولعله اتخذ تسمية اخرى

(٤) انظر فيما يلي ، ص ٥٤

(٥) ذكره العارف ، ص ٣٤٩ ، بانه يقع الى جانب بئر الاجعقية ، وانه سمي كذلك لوجود سدره بالقرب منه .

(٦) لعل التسمية نسبة الى أسرة الشرفا التي ذكرتها وثائق غزة الشرعية في فترة دراستنا .

(٧) ذكرها Gatt, p. 154 في ١٨٨٧ ،وذكر العارف ، ص ١٧٧ ، انها بنيت في عهد حكام غزة من آل رضوان في القرن السادس عشر ،

(٨) هناك خط مسجد كاتب الاوليا بمحلة الزيتون ـ انظر فيما سبق ص ٢٢ ـ مما يدل على ان هذا الخط مر بمحلتي الزيتون والخضر

(٩) انظر فيماسبق ، ص ٢٣ ، هامش ١ ،ويبدو ان هذا الخط مر بمحلتي الزيتون والخضر

(١٠) لعلها سميت كذلك لكون سكانها ، كما قيل (العارف ، ٢٥٥) ينتسبون الى عامر بن لؤي .

(١١) انظر فيما سبق ، ص ١٨ ، هامش ١

محلتي البرجلية وبني عامر ، وخط الجامع الكبير ، الذي مر بمحلتي السجاعية والبرجلية ، وخط مسجد الشيخ الظريف الذي امتد في محلتي البرجلية والدرج ، وخط مسجد البلاطة في كل من محلتي البرجلية والدرج ، وخط مسجد كاتب الاوليا الذي مر بمحلتي الزيتون والخضر ، وكذلك خط مسجد الشيخ ابي ركاب الذي مر بهاتين المحلتين ، مما يدل على تجاور الاحياء ذات الخطوط المشتركة وانفتاح المحلات على بعضها

ويلاحظ كذلك ان معظم الخطوط تسمى باسم جامع أو مسجد فيها ، مما يدل على كثرة الجوامع والمساجد في غزة عبر العصور . وتعتبر هذه الجوامع والمساجد من السمات العمرانية البارزة في غزة . ولا ندري هل استخدمت كلمتا « جامع » و « مسجد » بمعناهما ، كما في أوج ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، حيث عقدت في الجامع حلقات الدراسة في العلوم الدينية المختلفة في حين غلب على المسجد تدريس الشريعة(١) ، أم انهما استخدمتا بمعنى آخر ، أي ان الجامع حيث اقيمت صلاة الجمعة والصلوات الخمس ، والمسجد حيث اقيمت الصلوات الخمس فقط ، كما ذكر العارف(٢) ، او انهما استخدمتا بدون تمييز في الوظيفة والمعنى .

ونستدل من كثرة الجوامع والمساجد في غزة على تاريخ حافل لها خلدته هذه المجموعة من الابنية الدينية ، التي حملت في تسمياتها بعض تاريخ المدينة وتاريخ بناتها . ويمكن ايضا ان نستشف من كثرة الجوامع والمساجد ، والمحافظة عليها ، الى حد كبير ، درجة عالية من التدين والتقى عند السكان أكدها لجوؤهم في كل امر ، مهما صغر ، الى القاضي الشرعي لتحكيم الشريعة ، وكذلك مستوى عال من الالتزام بقواعد الدين ، كما دلت على ذلك عدة امثلة في الوثائق(٣) .

ولو أحصينا الجوامع والمساجد ، التي ورد ذكرها في مختلف الخطوط في غزة ، لتبين ان عددها ثمانية وثلاثون جامعا ومسجدا . وهناك مسجد آخر لم

---

(1) George Makdisi, « Muslim institutions of learning in eleventh-century Baghdad », Bulletin of the School of Oriental and African Studies, London, XXIV (1961), pp. 1 - 56.

(٢) ص ٣٣٠ ، ٣٣٦ .

(٣) انظر مثلا ، سجل غزة ، ص ١٠ ، ٥ ج ٧٣/(٣١ كانون الثاني ٥٧)

يسم خطباسمه ، وهو مسجد المحكمة القديمة ، في محلة السجاعية(١) ، وكان بخط المحكمة القديمة . وذكرت الوثائق جامع الخضر دون ان تعين مكانه . وهناك مسجد عرف بمسجد الشيخ الياس (ورد ايضا لياس) ، بخط الكمالية ، في محلة الزيتون ، علما بانه وجد خط في هذه المحلة عرف باسم خط الشيخ الياس(٢) . ووجد مسجد باسم مسجد الكمالية ، بخط الكمالية ، في محلة الزيتون ، وكذلك وجد مسجد الشيخ محمد العجان(٣) ، بمحلة الزيتون . وذكر وقف يخص مسجد جامع الحدره ، ولعل هذا المسجد ، وليس فقط الوقف ، في غزة . ولا نعلم تفاصيل اخرى عنه(٤) ، مما يرفع عدد الجوامع والمساجد ، التي ذكرتها الوثائق الشرعية ، في فترة هذه الدراسة ، الى اربعة واربعين . وقد ذكرت الوثائق عددا من الزوايا ، يفترض انها ضمت مساجد اخرى ، ولكن ليس من نص صريح على ذلك في الوثائق ، في حين ذكر العارف(٥)ان لكل من الزاوية الاحمدية وزاوية الهنود مسجدا ، مما يرفع عدد جوامع ومساجد غزة الى ستة واربعين . ولا ندري كم من هذه الجوامع والمساجد كان ، في فترة دراستنا ، بحالة تسمح بأن يؤمه المصلون . واستبعدنا خربة مسجد الجاولي ، التي ذكرتها الوثائق ، رغم ان كلمة « خربة » قد تعني مكانا خربا ملحقا بالمسجد ، أو ان المسجد قد اصبح خربا ، فأخذنا بالمعنى الثاني بدليل ما ذكره العارف (ص ٣٥٢) من ان هذا المسجد قد هدم اثناء حملة نابليون بونابرت ، وانه كان مندثرا في زمنه .

واذا اعتبرنا ان عدد سكان غزة ، في تلك الحقبة من الزمن ، وفق تقديرات عدة ، يساوي تقريبا ١٥ر٠٠٠ نسمة ، وان عدد المسلمين منهم حوالي ١٤ر٠٠٠ نسمة ، فيكون لكل ٣٠٤ اشخاص جامع او مسجد . واذا أخذنا بعين الاعتبار ان حوالي ثلث هؤلاء الاشخاص من الاطفال ، بدليل ما سنلاحظه فيما بعد(٦) من ان عدد غير البالغين فاق عدد البالغين ، لاصبح لكل ٢٠٣ اشخاص جامع او مسجد ، مما يؤكد شدة التدين عند سكان غزة . ونستدل من ذلك ايضا ان الجوامع صغيرة . ويمكن معرفة ابعادها على اساس ما يحتاج اليه الرجل من مساحة لاداء الصلاة .

---

(١) ذكره العارف ، ص ٣٣٠ ، باسم جامع المحكمة ، سجل غزة ، ص ١٣٣ ، ٧ ذا ٧٤/ (١٩ حزيران ٥٨)

(٢) انظر فيما سبق ، ص ٢٢ .

(٣) ذكر العارف ، ص ٣٥٢ ، انه كان مندثرا في زمنه .

(٤) سجل غزة ، ص ٢٧٨ ، ٥ جا ٧٦/ (٣٠ تشرين الثاني ٥٩)

(٥) ص ٣٤٨

(٦) انظر فيما يلي ، ص ٤٣

والى جانب الجوامع والمساجد ، وجد في غزة عدد من الابنية الدينية الاخرى ، مثل المزارات والزوايا . ولا تزودنا الوثائق الشرعية بمعلومات عن المزارات(١) ، ولكنها ذكرت عددا من الزوايا . فهناك زاوية الهنود ، بمحلة البرجلية ، وقد تسمى خط باسمها(٢) . وذكرت زاوية سيدي احمد البدوي بمناسبة الاشارة الى دكان اوقف عليها بسوق الصوافين بمحلة السجاعية(٣) ، ولا نستدل من ذلك على انها كانت فعلا في هذه السوق او المحلة . ووجود هذه الزاوية في غزة دليل على تأثير مصري قوي فيها ، لان سيدي احمد البدوي له مكانة صوفية مرموقة في مصر ، وخاصة في طنطا ، حيث توفي ودفن فيها في عام ١٢٧٦/٦٧٥ – ١٢٧٧ ، واقيم له مقام مشهور(٤) . واشارت الوثائق الى الزاوية الاحمدية بمناسبة ذكر دار موقوفة عليها بمحلة الزيتون ، بخط مسجد الشيخ الصيحاني(٥) . وذكر العارف(٦) ان مسجد الزاوية الاحمدية يقع في حي الدرج وانه كان عامرا في زمنه ، وان انشاء هذه الزاوية قد تم على يد اتباع الطريقة البدوية ، في أوائل القرن الثامن للهجرة ، انتسابا منهم للسيد احمد البدوي ، فهل يعني هذا ان الزاوية الاحمدية هي نفسها زاوية سيدي احمد البدوي . واذا كان الامر كذلك ، فلماذا أشارت الوثائق ، خلال ست صفحات ، الى الزاوية الاحمدية وزاوية سيدي أحمد البدوي . ولهذا نحتاج الى مزيد من الادلة لنتمكن من القول ان الزاويتين مستقلتان عن بعضهما ، أو انهما تسميتان لزاوية واحدة .

وذكرت الوثائق زاوية المغاربة ، ولعلها بخط مسجد الشيخ فرج ، بمحلة البرجلية(٧) . وتسمى احد خطوط محلة البرجلية بخط زاوية سيدي ابن مدين الغوث(٨) ، مما يدل على وجود هذه الزاوية في ذلك الخط .

---

(١) ذكر العارف ، ص ٣٥٣ – ٣٥٥ ، عشرة من هذه المزارات في غزة .

(٢) انظر فيما سبق ص ٢٠ ، وانظر : سجل غزة ، ص ١٢٣ ، ٧ ن ٧٤/(٢١ نيسان ٥٨) .

(٣) سجل غزة ، ص ٣٧١ ، ٧ م ٧٧/(٢٦ تموز ٦٠)

(٤) انظر كتابنا : العرب والعثمانيون ، ١٥١٦ – ١٩١٦ ، دمشق ، ١٩٧٤ ، ص ١٣١

(٥) سجل غزة ، ص ٢٧٥ ، ختام ر ٧٦/(٢٥ تشرين الثاني ٥٩) .

(٦) ص ٣٤٨ .

(٧) سجل غزة ، ص ٢٢ ، ٣ ن ٧٣/(٢٧ نيسان ٥٧)

(٨) يبدو ان هذه الزاوية ضمت جامعا ، عرف بجامع ابي مدين الغوث . وقد ذكر العارف ، ص ٣٥٢ ، انه كان مندثرا في زمنه ، ووصفه انه في حي الدرج ، الذي اندمج في حي البرجلية

ووجد عدد من السبل في غزة ذكرت الوثائق منها سبيلا بسوق الخضر(١) ، ولعله بخط سوق الخضر ، في محلة الخضر ، وسبيلا آخر بخط الاسكافية ، في محلة السجاعية ، بمناسبة وقف دكان صباغة عليه(٢) . والمدرسة الوحيدة التي ذكرت في الوثائق هي المدرسة الحسنية ، بمحلة البرجلية ، تجاه الجامع الكبير(٣) .

وذكرت الوثائق الشرعية عددا من الحمامات في غزة ، مثل حمام السمرة بمحلة الخضر ، وعرف خط باسمها(٤) ، وحمام السوق ، بمحلة البرجلية ، حيث عرف خط باسمها(٥) ، وحمام السجاعية « الذي شهرته بمحله تغني عن وصفه »(٦) ، وحمام وقف آل رضوان ، بمحلة السجاعية ، بزقاق الحزيزاتي(٧) ، الذي تسمى خط باسمه ، ويبدو ان حمام السوق ، الذي اشارت اليه الوثائق ، لم يكن حماما واحدا ، وانما سمي كذلك نسبة الى السوق الذي وجد فيه ، أي انه وجد في معظم الاسواق الرئيسية ، على الاقل ، حمام . فقد ذكر ، مثلا ، السوق الفوقاني ، وفيه حمام السوق(٨) ، وسوق المسلخ ، وفيه حمام السوق(٩) .

وقد ميزت وثائق غزة الشرعية بين أنواع من الابنية السكنية ، مثل الحوش والدار والبيت والقاعة . واكثر هذه الانواع تنوعا في اقسام البناء وفي الاستخدام هو الحوش . ووجود الاحواش باعداد كبيرة في غزة يدل على غلبة الطابع الزراعي على سكانها ، لان الاساس في الحوش انه لايواء الحيوانات المستخدمة في الزراعة ، والتي كانت تقيم في البايكة ، ثم استعمل لاقامة اصحابها ايضا . وتطور الحوش ، من

---

(١) سجل غزة ، ص ٣٦٨ ، غرة م ٧٧/(٢٠ تموز ٦٠) .

(٢) سجل غزة ، ص ٢٣٣ ، ١٨ ذ ٧٥/(١٩ تموز ٥٩)

(٣) سجل غزة ، ص ٣٢٨ ، ٢٩ ش ٧٦/(٢٢ آذار ٦٠) ، وانظر ايضا ، ص ٣٢٢ ، ١٤ ش ٧٦/(٧ آذار ٦٠)

(٤) انظر فيما سبق ، ص ٢٤ ، سجل غزة ، ص ٣٢٢ ، ١٤ ش ٧٦/(٧ آذار ٦٠) ، ذكر Gatt, p. 158 ، حمام السمرة

(٥) سجل غزة ، ص ٢٤٩ ، ٩ م ٧٦/(٨ آب ٦٠)

(٦) سجل غزة ، ص ٣٩ ، ١٤ ذا ٧٣/(٦ تموز ٥٧) ، وانظر : Gatt, p. 150

(٧) سجل غزة ، ص ٤٣٢ ، ١٠ جا ٧٧/(٢٤ تشرين الثاني ٦٠)

(٨) سجل غزة ، ص ٤٤٧ ، ١٥ ج ٧٧/(٢٩ كانون الاول ٦٠) .

(٩) سجل غزة ، ص ٣٧٩ ، ٢٥ م ٧٧/(١٣ آب ٦٠)

الناحية السكنية ، الى درجة الغيت معها البايكة في عدد من الحالات . وقد وصفت بايكة في حوش ، تألفت من ست قناطر ، بانها بايكة كبيرة ، وكانت مسقوفة بالاخشاب(١) . وقد تباع البايكة دون بقية الحوش(٢) . وهناك امثلة متعددة على بيعها بمفردها ، وكانت في هذه الحالة اما ذات بناء مستقل في الاساس ، او انها استخرجت من حوش(٣) . ومن اجزاء الحوش الاساسية الساحة السماوية . ويلحق الحوش أحيانا بالدار ، فيعرف عندئذ بحوش الدار (ولا علاقة لهذا بالتعبير الدارج ان حوش الدار يعني ساحتها السماوية) ، ويشكل ، في هذه الحال ، القسم البراني منها(٤) . واذا الحق الحوش بمعصرة سمي بحوش المعصرة(٥) . واشتمل الحوش ، مثل الدار ، على عدد من الآبار التي استخدمت لتخزين الغلال(٦) . واحيانا سمي مكان خزن الغلال بالكورة(٧) .

وقد لا يشتمل الحوش على بايكة ، كما في المثال التالي ، الذي كان الحوش فيه ملحقا بحاكورة : « المبيع ستة قراريط في جميع الحوش والحاكورة الكاينين داخل غزة بمحلة البرجلية بخط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد الهليس . . . المشتمل الحوش المذكور على ايوانين وخمسة قاعات معقدات بالحجر والجير وساحة سماوية بها بئرين معدين لتخزين الاغلال ومحل راحة وممر موصل الى الحاكورة المذكورة »(٨) . وأحاط بالحوش هذا دور سكن . ويلاحظ في هذا الحوش ، رغم ضخامته ، غياب البيوت السكنية فيه ، وكذلك المطبخ ، الذي هو لخدمة الساكنين . وقد وجد مطبخ ، مثلا ، في حوش اصغر ، بمحلة السجاعية ، بخط مسجد الست رقية « المشتمل على بيتين وخزانة ومطبخ مسقفات بالاخشاب وساحة سماوية »(٩) ، مما يدل على ان المطبخ كان لخدمة ساكني البيتين . ومع ذلك فالمطبخ لم يكن موجودا باستمرار في دور السكن ، ووجوده فيها يدل عادة على مستوى مادي متميز لاصحابها . واصغر حوش ورد ذكره ، في فترة دراستنا ، تألف من بيت واحد ، مسقوف بالخشب ، ولا توجد فيه ساحة سماوية او بايكة(١٠) .

---

(١) سجل غزة ، ص ٣٦٨ ، ٣ د ٧٦/(٣٠ تشرين الاول ٥٩)

(٢) سجل غزة ، ص ٣٨٨ ، ١٣ ص ٧٧/(٣١ آب ٦٠) .

(٣) سجل غزة ، ص ٣٣١ ، ١٩ ب ٧٦/(٧٧ شباط ٦٠) ، ص ٣٨٨ ، ١٣ ص ٧٧/(٣١ آب ٦٠) .

(٤) سجل غزة ، ص ٢٦٣ ، ١٩ ش ٧٥/(٢٤ آذار ٥٩) .

(٥) سجل غزة ، ص ٢٤٥ ، ١٣ ب ٧٧/(٥ شباط ٦٠)

(٦) سجل غزة ، ص ٤٤٣ ، ١٣ ج ٧٧/(٨ كانون الاول ٥٩)

(٧) سجل غزة ، ص ٩٢ ، ١٧ ر ٧٤/(٥ كانون الاول ٥٧)

(٨) سجل غزة ، ص ٣٦ ، ٢٣ ل ٧٣/(١٦ حزيران ٥٧)

(٩) سجل غزة ، ص ٣٩٩ ، ختام ص ٧٧/(١٦ ايلول ٦٠)

(١٠) سجل غزة ، ص ٣٦٨ ، غرة م ٧٧/(٢٠ تموز ٦٠) .

واطلقت كلمة « دار » على مكان سكن الناس ، وقد تضم بايكة(١) ، ولكن اسمها ، في هذه الحال ، لا يتحول الى حوش ، لان الاساس فيها سكن الناس ، والبايكة شيء اضافي . وضمت دار كبيرة ، بمحلة البرجلية ، بخط مسجد ولي الله تعالى الشيخ فرج « قاعتين عقد وثلاثة بيوت مسقفات بالخشب وثلاثة لواوين مسقفات بالخشب ومحل راحة عقد وساحة سماوية مفروشة بالبلاط بها سلمين من الحجر احدهما يوصل الىقصر معقد بالحجر والجير وايوان واوضة مسقفين بالخشب بجانب القصر المذكور ومحل راحة عقد والسلم الثاني موصل الى حضير فقط»(٢) . ويستخدم الحضير عادة لتربية الحمام والدجاج ، ووجد في معظم دور غزة ، مما اضفى على المدينة صفة ريفية . ولتلك الدار بابان : احدهما جواني ، يفتح على زقاق غير نافذ ، ولعله لاستخدام الحريم ، والآخر براني ، يفتح على طريق سالك . ورغم ضخامة هذه الدار يلاحظ عدم وجود المطبخ فيها . وخصت الدار محمد آغا سليمان الذي باع ستة قراريط منها لابنه خليل آغا بثمن قدره ٦٠٠٠ قرش اسدي ، مما يجعل سعرها معادلا لـ ٢٤٠٠٠ قرش ، وهذا ثمن من اغلى اثمان الدور في غزة في الفترة التي ندرسها .

ومما يلفت النظر في هذه الدار وجود طابق أعلى فيها ، لان معظم دور غزة كانت من طابق واحد ارضي . ولهذا الامر دلالته . فلم تكن هناك من حاجة للتوسع عاموديا ، مما يدل على توافر الارض للتوسع أفقيا . وربما كان السبب في ذلك ان طبيعة الارض ومواد البناء لم تكن مهيأة لبناء طوابق عليا ، كما ان حجم الاسرة الواحدة ، والازدحام السكاني بصورة عامة ، لم يبلغا درجة كبيرة يتحتم معها بناء طوابق عليا . وبالاضافة الى ذلك فالمجتمعات المحافظة تتحاشى عادة الطوابق العليا خشية اشراف ساكنيها على جيرانهم ، وبالعكس . واقتصار معظم دور غزة على طابق ارضي أعطى للمدينة امتدادا أفقيا ، مع مراعاة ارتفاعها عن المناطق المحيطة بها بحوالي ثمانين مترا(٣)

وأصفر دار في غزة ، ورد ذكرها في الوثائق ، ضمت بيتا واحدا وساحة سماوية ، وكانت بمحلة السجاعية ، بخط المحكمة القديمة ، وبيعت بثمن قدره ٨٠٠ قرش(٤) .

---

(١) سجل غزة ، ص ٢٤٨ ، ٥ ص ٧٦/(٣ ايلول ٥٩)

(٢) سجل غزة ، ص ٦٠ ، ١١ ص ٧٤/(١ تشرين الاول ٥٧)

(٣) Baedeker, p. 158

(٤) سجل غزة ، ص ٤٢٤ ، قضية بدون تاريخ تقع بين قضيتين تاريخهما ٢٣ و ٢٤ ر ٧٧/(٩ تشرين الاول و ١٠ تشرين الاول ٦٠) . ونظرالتكرار هذه الحالة فسنشير الى تاريخ القضية حسب تاريخ سابقتها ، لان المفروض ان تكون قد سجلتبعدها ، بتاريخها نفسه ولكن يلاحظ ان تواريخ القضايا لم يكن متسلسلا ، أي انه لن يفيدنا ، حتىولو ذكرنا تاريخ القضية السابقة ، تاريخ القضية اللاحقة .

ولكن هذه لم تكن أرخص دار اذ بيعت دار بمحلة السجاعية ، بخط الشيخ محمد الطيار ، بثمن قدره ٥٥٠ قرشا ، وكانت مستخرجة من دار اخرى(١) . وفي الحالتين كانت الدار ، في الاصل ، قسما من دار اكبر .

ولبعض الدور دهليز(٢) ، اي دخلة طولانية تفصل الباب الخارجي عن ساحة الدار . والى جانب شيوع الايوان أو الليوان ، في الدور الكبيرة ، وجد الرواق ، ولكن بصورة أقل ، وهو ، على الغالب ، مسقوف ، مثل الايوان ، بالخشب ، ويختلف الرواق عن الايوان بطولانيته ، في حين يكون الايوان مربعا ، على الغالب ، او مستطيلا . ويلاحظ في دور غزة عدم وجود الاقبية أو المغر فيها ، واستخدمت هذه ، عادة ، لايواء الحيوانات ، أو لخزن الحبوب ، وعوضت عنها ، في الحالين ، البايكة والآبار .

ولا توجد اشارة في الوثائق الى أماكن تجمع المياه في الدور . وقد استخدمت كلمة بئر لمكان خزن المؤونة والفلال وذكرت الوثائق « ماء الاشتية النازل من السما »(٣) ، وذلك حين تقسيم دار ما وظهور خلاف حول مساره . ولكن لم يرد ذكر لمكان تجمع المياه ، وهل سمي ذلك بالبئر أو بغير ذلك . ويبدو ان الدور كانت تشرب من السواقي او من السبل خارجها . وربما وجد فيها ما يشبه الآبار لجمع مياه المطر (الاشتية) ، أو للوصول الى نبع ارضي . وكثرت في غزة ومنطقتها المياه الجوفية(٤) ، بدليل كثرة السواقي فيها ، والحزام الاخضر من الاشجار الذي احاط بها وتخللها . ونقل المياه من الخارج الى اماكن استخدامها كان يتم بواسطة القرب . وذكر ان شخصا حصل على اذن بنقل الف قربة ماء ، كل سنة ، من احدى السواقي ، الى جامع كاتب الاوليا في غزة ، لاستخدامها في الوضوء(٥) . ويبدو ان مياه هذه القرب ، بمعدل ثلاث قرب في اليوم ، دعمت ما يوجد محليا ، في الجامع ، من الماء ، الا اذا كان عدد المصلين في هذا الجامع محدودا لا يحتاج لاكثر من ثلاث قرب يوميا .

وخضعت معظم دور غزة الى التجزئة باستمرار ، سواء من ناحية الملكية ، حين كانت مشاعا ووجب تعيين أو فرز حصص الورثة ، أو من ناحية الواقع ، اذا ما رغب الورثة في أخذ حصصهم ، ومن هنا تقسيم الدور ، وخاصة اذا ما بيع قسم منها الى أناس من خارج الاسرة . وأقيمت جدران فاصلة ، في هذه الحالات ،

---

(١) سجل غزة ، ص ٥٠ ، ختام الحجة٧٣ /(٢١ آب ٥٧)

(٢) سجل غزة ، ص ٣٧ ، ٢٨ ل ٧٣/(٢١ حزيران ٥٧)

(٣) سجل غزة ، ص ٤٤ ، ١٤ ذ ٧٣/(٥ آب ٥٧) .

(٤) انظر : العارف ، ص ١٨٠ ، Baedeker, p. 159

(٥) سجل غزة ، ص ٣٨٠ ، ٢٥ م ٧٧/(١٣ آب ٦٠) .

وفتح باب آخر . وتم تقسيم الدور رغم ان الحصص فيها غير متكافئة ، وربما سهل هذا عملية التقسيم(١) ، وفي احدى الحالات كانت نسبة القسم الواحد الى الآخر عشرين قيراطا الى اربعة ، واشتملت حصة صاحب القراريط الاربعة على بيت ومطبخ وساحة سماوية ، مما يدل على كبر العقار(٢) . والخلاف الرئيسي الذي أثاره عادة تقسيم العقار ، دار حول صعوبة تقسيم ماء المطر ، وغالبا ما اتفق ان « يمر حسب عادته »(٣) .

والى جانب الحوش والدار ذكر البيت كعقار قائم بذاته . والبيت ، في الاساس ، كان جزءا من الدار ، وعمد الى اخراجه منها ، احيانا ، وبيعه بمفرده(٤) . وشاري البيت ، في هذه الحال ، كان ، في الغالب ، صاحب دار مجاورة له رغب في ضمه اليها . اما البيت ، كعقار مستقل ، فغالبا ما كانت له ساحة سماوية ، وشكل وحدة اصغر من الدار . ونسبة وجوده في غزة لم تكن بقليلة ، ولكنه كان أكثر في الريف منه في غزة(٥) ، مما يدل على ان الاوضاع المالية لقطاع من السكان لم تكن جيدة .

اما بالنسبة للقاعة ، فقد اشتملت بعض دور غزة على قاعة واحدة او اكثر ، ودل وجودها ، عادة ، على اتساع الدار وثراء صاحبها ، لانه غالبا ما استقبل زواره فيها . وعلى غرار البيت ، أمكن اخراج القاعة من الدار ، وجعلها عقارا قائما بذاته(٦) . وهناك أمثلة عن قاعات مستقلة ، وربما بنيت كذلك ، أو استخرجت من دور ، استخدمت للحياكة ، وكانت موزعة في انحاء غزة(٧) .

وكانت مواد البناء من الحجر والجير ، المعقودة ببعضها ، بالنسبة للجدران ، ومن الخشب بالنسبة للسقف . أما السلم ، الذي يصعد عليه الى السطح ، فكان ، عادة ، من الحجر . وفي الحالات النادرة التي وجد فيها طابق أعلى فقد بنيت جدرانه

---

(١) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٤٣ ، ١٣ ذ ٧٣ /(٤ آب ٥٧) ، ص ٤٤ ، ١٤ ذ ٧٣/(٥ آب ٥٧)

(٢) سجل غزة ، ص ١٢ ، ٢٣ ج ٧٣/(١٩ كانون الثاني ٥٧)

(٣) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٤٤ ، ١٤ ذ ٧٣ /(٥ آب ٥٧)

(٤) سجل غزة ، ص ٤٤٠ ، ٤ ج ٧٧/(١٨ كانون الاول ٦٠) ، وانظر ايضا : ص ٢٣ ، ٢٤ ب ٧٣/(٢٠ آذار ٥٧)

(٥) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ١٦٩ ، ١٩ ر ٧٥/(٢٦ تشرين الثاني ٥٨) ، ص ٢٠٤ ، ٢٥ ب ٧٥/(٢٨ شباط ٥٩) ، ص ٢٠٨ ، ٢٥ ب٧٥/(٢٨ شباط ٥٩) ، ص ٥٨٤ ، غاية ب ٧٧/(١١ شباط ٦١) .

(٦) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٣٣٥ ، ٢٧ ن ٧٦/(١٨ نيسان ٦٠) ، ص ٣٣٦ ، ٣ ل ٧٦ /(٢٤ نيسان ٦٠) .

(٧) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ١٣٢ ، ٣ 13 ٧٤/(١٥ حزيران ٥٨) ، ص ٢٥٢ ، ٩ ذ ٧٥/(١٠ تموز ٥٩) ، ص ٤٤٢ ، ٦ ج ٧٧ /(٢٠ تشرين الثاني ٦٠)

هو الآخر من الحجر والجير المعقدين ، وسقف بالخشب . وفي احدى الحالات اشترط بائع دار على المشتري الا يحدث على سطح الدار اي بناء الا بموافقته(١) ، ولعل سبب هذا الشرط رغبة البائع بتقاضي مبالغ اضافية ، في حال البناء على السطح ، أو ربما لان البائع يسكن ، فعلا ، في دار ، لصيقة بالدار التي باعها ويخشى ان يشرف الطابق الاعلى ، اذا ما بني ، على داره .

ولم تذكر المادة التي بنيت منها ارض الساحة السماوية في الدار الا اذا كانت من البلاط(٢) ، وهذا شيء متميز ، لان الغالب أن تبنى الساحة من الحجارة المرصوفة ، وليس في هذا الامر الشائع والمألوف من جديد يستدعي ذكره وزرعت في الساحة السماوية ، أو في جانب منها على الاقل ، أشجار متنوعة ، ذكرت في احدى الحالات بانها شجر نخل ورمان وسدر(٣) .

ويلاحظ في عمليات بيع العقارات عدم ورود ذكر لمساحة العقار ككل . وفي بعض الحالات ، عند تقسيم دار ما ، ذكرت مساحة الساحة السماوية بذراع البنا ، او الذراع الاسلامبولي(٤) .

وتنوعت طرق قبض ثمن العقار المباع ، فاما ان يتم ذلك في المحكمة ، وتستعمل عندئذ عبارة « الثمن مقبوض بالحضرة والمعاينة »(٥) ، أو عبارة « حالا مقبوضا »(٦) بيد البايع من المشتري ، واما ان يعترف البائع ، في المحكمة ، بقبض الثمن ، ويشار عندئذ الى ذلك « مقبوض بالاعتراف »(٧) . والبيع اما ان يكون باتا(٨) ، أي نهائيا ، لا رجعة عنه ، وان كان فيه غبن ، أو أن يكون بالوعد ، أي أن يتم دفع الثمن بعد فترة معينة ، ويبيح عندئذ البائع للمشتري استخدام العقار قبل الدفع . وحدث ايضا ان البائع قبض ثمن عقاره ، ولكن المشتري وعده برد العقار له ان جاءه بالثمن الذي اخذه بعد فترة ، وأباح البائع للمشتري استخدام العقار في هذه الفترة ، وسمي هذا « بيع وعد بالاباحة »(٩) . وفي هذا نوع من انواع الفائدة(١٠) . وذكر

---

(١) سجل غزة ، ص ٦ ، ١٧ ذ ٧٤/(١٩ تموز ٥٨) .

(٢) سجل غزة ، ص ٦٠ ، ١١ ص ٧٤/(١ تشرين الاول ٥٧)

(٣) سجل غزة ، ص ٤٣ ، ١٣ ذ ٧٣/(٣ آب ٥٧)

(٤) أنظر فيما يلي ، ص ٧٨

(٥) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٣٧ ، ٢٨ ل ٧٣ /(٢١ حزيران ٥٧)

(٦) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٣٧ ، ٢٩ ل ٧٣ /(٢٢ حزيران ٥٧)

(٧) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ١٠٤ ، ١٩ ج ٧٤/(٤ شباط ٥٨)

(٨) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٥٠ ، ختام ذ ٧٣/(٢١ آب ٥٧)

(٩) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٣٢ ، ٥ ن ٧٣ /(٢٩ شباط ٥٧) ، ص ٣٢٢ ، ١٢ ش ٧٦ /(٣ أيار ٦٠) ، ص ٤٣٤ ، ١٢ جا ٧٧/(٢٦تشرين الثاني ٦٠) . ص ٤٤٨ ، ١٦ ج ٧٧/(٣٠ كانون الاول ٦٠)

(١٠) انظر فيما يلي ، ص ٧٠ .

أحيانا ، في عملية البيع ان كلا من البائع والشاري ابرأ واحدهما الآخر من دعوى العذر والاغراء والغبن الفاحش والا رد القاضي عملية البيع بسبب ذلك(١) . واستخدمت عملية المقاصصة ، أي اقتطاع مبلغ بذمة البائع ، أو بذمة من يقبل به البائع ، للمشتري من اصل ثمن الشراء(٢) . وكثرت المقاصصة في المخالعة ، واشير اليها انها مقاصصة شرعية(٣) .

وحين شراء عقار ما ، ذكر اذا كان المشتري يشتري العقار بماله لنفسه دون مال غيره(٤) ، او انه يقوم بالشراء بالوكالة عن شخص آخر(٥) ، او جزئيا بماله وايضا بالوكالة عن غيره(٦) . كما ذكر احيانا (في دمشق آنذاك ذكر باستمرار) فيما اذا كان البائع قد آل اليه العقار المباع عن طريق الشراء أم الارث(٧) ، وفيما اذا كان يقوم بالبيع بطريق الوكالة(٨) ، أو بالاصالة عن نفسه وبالوكالة عن غيره في آن(٩) . وتم ايضا البيع والشراء بطريق الولاية عن قاصر(١٠) . ولهذه المعلومات أهميتها لانها تدلنا على طرق انتقال الملكية ، بالشراء أم بالارث ، وما يترتب على ذلك من اوضاع اجتماعية واقتصادية .

وذكر في معظم عمليات شراء العقارات التي تمت في عام ١٨٥٦/١٢٧٣ ـ ١٨٥٧ ، ومطلع العام التالي ، العبارة التالية : « بثمن قدره (كذا) وصرة مجهولة القدر مستهلكة بالمجلس »(١١) . وهذا يعني ان صرة طعام ، احضرها الشاري الى المجلس (مجلس عقد البيع)(١٢)في المحكمة ، كما يرجح ، قد استهلكت فيه من قبل الحاضرين، احتفالا بعملية الشراء . وفي حالات قليلة ، ذكر ان الصرة مقبوضة بالاعتراف(١٣) ، وقد

---

(١) سجل غزة ، ص ٦ ، ٢٧ جا ٧٣/(٢٣ كانون الثاني ٥٧) ، ص ١٤٦ ، غرة م ٧٥/(١١ آب ٥٨)

(٢) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٥ ، ٢٤ جا ٧٣/(٢٠ كانون الثاني ٥٧) ، ص ٤٤٩ ، ١٩ ج ٧٧/(٢ كانون الثاني ٦١)

(٣) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٩٩ ، ١٩ جا ٧٤/(٥ كانون الثاني ٥٨) ، وانظر فيما يلي ، ص ٤٥

(٤) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٣٧ ، ٢٩ ل ٧٣/(٢٢ حزيران ٥٧)

(٥) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٥٠ ، ختام ذ ٧٣/(٢١ آب ٥٧)

(٦) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٢٧ ، ١٤ ش ٧٣/(٩ نيسان ٥٧)

(٧) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ١٤٤ ، ١٧ ذ ٧٤/(٢٩ تموز ٥٨)

(٨) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٢١٧ ، ١٩ ن ٧٥/(٢٢ نيسان ٥٩) .

(٩) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٣٩٦ ، ٢٦ ص ٧٧/(١٣ ايلول ٦٠)

(١٠) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٢٥ ، ٤ ش ٧٣/(٣٠ آذار ٥٧)

(١١) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٣٧ ، ٢٩ ل ٧٣/(٢٢ حزيران ٥٧)

(١٢) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٧٧ ، ١٥ را ٧٤/(٣ تشرين الثاني ٥٧)

(١٣) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ١٩ ، ٧ ب ٧٣/(٣ آذار ٥٧) .

تعني انها استهلكت في غير ذلك المكان والتاريخ ، او ربما حصل وعد بها . وعدم ذكر الصرة في عقود البيع التي تمت في بقية عام ١٢٧٤ وما بعد ، ربما يدل على ان هـذه العادة قد بطلت ، أكثر من انها قد رسخت ولم تعد من ضرورة لذكرها ، لانه لا يعقل ان تكون قد بدأت قبل فترة قصيرة .

وروعيت شفعة الجوار بدقة في عمليات بيع العقارات وألغي البيـع ، لصالح الشفيع ، في عدد من الحالات(١) . وفي حال علم الشفيع بعملية الشراء ، وعدم مطالبته بذلك مباشرة (لم يرد ذكر لطول المهلة المعطاة للشفيع للمطالبة) ، فقد حقه بالمطالبة بالشفعة . وطلب القاضي عادة الى الشهود ، الذين عدلهم (اي زكاهم وشهد بصحة اقوالهم) آخرون ، اثبات حق الشفعة (٢) . وحق الشفعة لا يورث . فقد اشترت امراة ، لها ولاختها ، حصة شائعة في كرم ، في أواخر ربيع الثاني ١٢٥٢/ اواسط آب ١٨٣٦ ، وحين احتج على هذا الشراء وارث لكرم مجاور ، بعد أكثر من عشرين سنة ، في ٣ رمضان ٢٧/١٢٧٣ نيسان ١٨٥٧ ، بشفعة الجوار ، رفضت المراة التسليم للوارث بحق الشفعة ، لان والده من قبله لم يطالب بشفعة الجوار ، حين كان حيا ، وان جوار الابن لكرمها قد ورثه عن أبيـه . وقضى القاضي بـأن لا شفعة للابن لان الشفعة لا تورث ، ومنعه من معارضة المراة(٣) والاراضي الموقوفة لا تجري فيها الشفعة بالنسبة للعقارات المبنية عليها ، والتي هي ملك للافراد ، يتصرفون فيها بيعا وشراء ، لان الاساس هو الارض .

واستخدم حق التصرف في العقار ، فترة من الزمن ، تراوحت ، في اربعـة امثلة من وثائق غزة ، بين ثلاث عشرة سنة ، وما يزيد عن اثنتين وثلاثين سنة(٤) ، لمنع مالك العقار من المطالبة بعقاره من المتصرف به ، واعتبر المتصرف بالعقار بمثابة مالك له ، بعد ان ثبت تصرفه به ، هدما وبناء وغير ذلك ، وبعد ان ثبت لدى القاضي ، بافادات الشهود ، ان مالك العقار لم يعارض المتصرف بالعقار طيلة تلك الفترة . وتمتع وارث المتصرف بالعقار بحقوق مورثه ، في هذا المجال ، وضمت فترة تصرف المتصرف الى مدة تصرف الوارث ، وذلك لمنع المالك من المطالبة بعقاره ، نظرا لطول المدة مجتمعة ، لتصرف كل من المورث والوارث ، حتى ولو اثبت المالك انه تغيب عن

---

(١) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٩٠ ، ١٤ ر ٧٤ /(٢ تشرين الثاني ٥٧) ، ص ٢٢٦ ، ١٢ ذ ٧٥/(١٣ تموز ٥٩) .

(٢) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٨٩ ، ١٢ ر ٧٤/(١ كانون الاول ٥٧)

(٣) سجل غزة ، ص ٣١ ، ٣ ن ٧٣/(٢٧ نيسان ٥٧)

(٤) سجل غزة ، ص ٩٥ ، ٦ جا ٧٤/(٢٣ كانون الاول ٥٧) ، ص ٨٠ ، ١٩ را ٧٤/(٧ تشرين الثاني ٥٧) ، ص ١٣٤ ، ٢٤ ذا ٧٤/(٦ تموز ٥٨) ، ص ٢٨٨ ، ١٣ ص ٧٧/(٣٠ آب ٦٠)

البلدة في بعض الاوقات ولم يستطع معارضة المتصرف ، فالمهم انه علم بالامر ، ولم يحتج طيلة تلك المدة .

٣ ـ مظاهـر اجتماعيـة :

يمكننا التعرف على هوية معظم سكان الخطوط والمحلات المختلفة في غـزة ، ومكانتهم الاجتماعية والاقتصادية ، المتمثلة في حجم دورهم ، واتسـاع ملكيتهم ، وعدد أفراد أسرهم ، وكذلك التعرف على مدى تجمع ، أو انتشار الاسر المتقاربة في النسب ، او الاصول ، أو المذهب ، من خلال دراسة بيع الدور وشرائها ، كلها أو أجزاء منها ، وكذلك تقسيمها ، وتعيين حصص الورثة فيها . وطبيعي ان احصـاء كهذا لا يشمل جميع الدور ، ولكن تحديد موقـع الدور المباعة ، والمقسمة ، مـن جهاتها الاربع (لانه غالبا ما كانت الجهة المطلة على طريق سالك ، أو زقاق غـير نافذ ، يتممها عقار آخر ، كما ان أكثر من عقار واحد شكل الحدود في جهة ما) ، كفيل بذكر ثلاث دور ، على الاقل ، وأحيانا اربع ، أو أكثر ، بمقابل كل دار خضعت لعملية شراء أو مقاسمة وبذلك نضمن ذكر معظم دور الخط والحي ، وبالتالي المدينة ككل

وبالاضافة الى المعلومات ، التـي تزودنا بها الوثائـق ، بخصوص التركيب الاجتماعي والاقتصادي لسكان مدينة غزة وريفها ، وللمقيمين والمتوطنين فيها من النزلاء ، وخاصة من المصريين ، الذين كان عددهم كبيرا ، يمكننا معرفة حجم الاسرة ، ونسبة الاناث الى الذكور ، ومستوى الدخل ، وعمليات توظيف رأس المال والربح ، من دراسة ضبوط تركات المتوفين

ويلاحظ من مواقع الدور وأثمانها ان أي خط أو محلة لم يكونا مقتصرين على طبقة اجتماعية أو اقتصادية معينة . ونجد الدور ذات الاثمان العالية تجاور دورا ذات أثمان متدنية . ومع ذلك فهناك خطوط دورها أكثر تواضعا في الثمن ، بصورة عامة ، من دور خطوط أخرى مثلا ، دور خط مسجد الشيخ عثمان قوشقار ، بمحلة الزيتون ، اكثر ثمنا من دور خط جامع (أو مسجد) الشمعة . ودور الخط الاخير أكثر ثمنا من دور خط البطل ، علما بان الخطين الاخيرين هما ايضا من خطوط محلة الزيتون .

ويلاحظ في خطوط محلة الزيتون ان بعضها كثرت فيه الحواكير ، مثل خـط الكمالية ، مما يدل على وقوعها على اطراف المحلة المتاخمة لحدود المدينة ، وبعضها الآخر كثرت فيه الاحواش والبايكات ، مثل خط ساقية القيدة ، مما يدل على اصول ريفية لساكنيها ، وعلى علاقاتهم الزراعية .

وكثرت الخرائب في انحاء غزة(١) . وهناك خطوط تميزت في هذا المجال ، فعرف واحدها بخط الخرابة ، كما في خط الخرابة بمحلة الدرج(٢) ، وخط الخرابة بمحلة البرجلية(٣) ويفترض ان تكون هذه الخطوط اكثر فقرا من غيرها . وكثرة الخرائب ، بالنسبة لدور بكاملها ، او لاجزاء من دور مسكونة ، في مختلف انحاء غزة ، دليل ، من ناحية ، على ضعف النشاط العمراني ، ومن ناحية اخرى ، على الضيق الاقتصادي ، بالنسبة لبعض قطاعات السكان على الاقل . كما انه دليل على توافر الارض ، وعلى عدم وجود ضرورة لتوسع المساحة المعمورة في غزة ، ربما بسبب عدم ازدياد السكان بشكل كبير ، وبالتالي عدم وجود الحاجة لاشغال جميع مناطق السكن في المدينة

ولعل شيوع العقارات ، الذي يلاحظ بكثرة في ممتلكات غزة ، دليل على الصعوبات التي واجهت عملية بناء ، أو بيع ، عقار تهدم كله أو جزء منه ، وكثيرا ما قسمت بيوت كبيرة ، وحتى صغيرة ، بين الورثة(٤) ، كما سبق القول(٥) وهذا التفتت في الملكية اوجد دورا كبيرة الى جانب الصغيرة ، اذ نتجت عن ذلك محاولات لتجميع الملكية في مكان معين كأن يعمد صاحب دار الى شراء عدد من القراريط في دار مجاورة له ويضمها الى داره ، أو يطمح الى شراء بقية الدار ليجعل منها دارا اخرى ، الى جانب داره . ولم تكن هذه القاعدة مطلقة ، اذ كثيرا ما بيعت حصة من دار مشاع الى اشخاص اغراب عن المنطقة ، واحيانا عن المذهب ، مما يدل على ملكية صغيرة ومتسامحة تحرص على ايجاد مكان للسكن بالدرجة الاولى وقبل أي اعتبار آخر . وهذا الاقبال على شراء ، أو بيع ، الدور ، أو الحصص الشائعة فيها ، ربما يفسر الغياب الملحوظ لعمليات تأجير الدور او اجزائها ، بشكل فاق معه نسبة الايجارات التي قد لا تسجل في المحكمة الا في حالة خلاف ، وذلك بالمقارنة مع كثرة عقود الايجار في دمشق ، مثلا ، في الفترة ذاتها .

ويلاحظ كذلك ان العادة ، عند بيع عقار او جزء منه ، أن يسجل في المحكمة ، أي في حجة البيع او الشراء ، نوع ملكية الجزء المباع ، وهل انتقلت ملكيته لبائعه ، في الاصل ، عن طريق الشراء او الارث(٦) . ومن دراسة عقود البيع والشراء في سجل

---

(١) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٤٣١ ، ٧ جا ٧٧/(٢١ تشرين الثاني ٦٠) ، ص ٤٤١ ، ٤ ج ٧٧/(١٨ كانون الاول ٦٠)

(٢) سجل غزة ، ص ٦٥ ، ٢٣ ص ٧٤/(١٣ ايلول ٥٧)

(٣) سجل غزة ، ص ٤٤٩ ، ١٩ ج ٧٧/(٢ كانون الثاني ٦١)

(٤) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ١٣ ، ٢٣ ج ٧٣/(١٨ شباط ٥٧) ، ص ٢٤ ، ٢٧ ب ٧٣/(٢٣ آذار ٥٧)

(٥) انظر فيما سبق ، ص ٣١

(٦) انظر فيما سبق ، ص ٣٤

غزة الشرعي ، في فترة دراستنا ، يتبين لنا ان معظم اجـزاء الدور المباعة قـد استملكت عن طريق الارث ، وان مشتريها كانوا من الورثة . ونتج عن ذلك تجميع الملكية في يد واحدة ، والتخلص قدر الامكان من شيوع العقار(١) . كما بيع عدد من العقارات ، أو اجزاء منها ، بسبب وجود المسوغ الشرعي لبيعها ، وهو احتيـاج القاصرين ، من الورثة ، للنفقة ، او بسبب غرق التركة بالديون(٢) . ولعبت النساء دورا هاما في شراء العقارات ، او حصص منها ، لانهن تمتعن بثروة مجمدة ، كسبنها عن طريق ارث او نفقة ، ووظفنها بشراء العقارات او الحلي ، أو في الديون . كما انهن ادخرن المال ، بصورة عامة ، اكثر من الرجال(٣) .

ويلاحظ انه لم يكن هناك من محلة أو خط خاص بالمسيحيين في غزة في فترة دراستنا . فقد سكن هؤلاء في عدد من خطوط محلة الزيتون ، كما سكنوا في محلات اخرى ، مثل محلة الخضر ومحلة الدرج . وكان المسيحيون اقل سكنا في حـي السجاعية والبرجلية مثلا . وتواجد المسيحيين في خطوط ومحلات معينة ، اكثر من تواجدهم في خطوط ومحلات اخرى ، ربما يفسر بقلة نسبتهم العـددية الى باقي السكان(٤) ، الامر الذي لا يمكنهم من الانتشار بصورة متساوية في مختلف محلات غزة وخطوطها . ولم تكن امكنة عمل المسيحيين ملاصقة لمناطق سكنهم ، بل نجدهم يشغلون دكاكين في قصبة السوق الرئيسية ، في حي السجاعية مثلا . ولم تكن دور المسيحيين متقوقعة على بعضها ، في الخطوط والمحلات التي تواجدت فيها ، بـل جاورت دور المسلمين ، كما في المثال التالي : دار شايعة في خط (مسجد) الشيخ عثمان قوشقار ، بمحلة الزيتون ، اشترت فيها حبيبة بنت ابراهيم الخوري اربعة قراريط ونصف قيراط وربع قيراط ، البايع ولدها عبد النـور بن يوسف حديدة ، الثمن ١٥٠٠ قرش صاغ مقبوضة بالاعتراف ، حدها قبلة الزقاق الغير نافذ ، وفيه الباب ، وشرقا دار السيد محمد بن السيد مصطفى العلمي ومن يشركه ، وشـمالا حوش الحاج حسن بن الحاج أحمد البورنو ، وغربا دار ايوب بن الياس الحداد ، وكان للمشترية ومن يشركها حصـة بالدار(٥) ونلاحظ في عمليـات بيع وشراء العقارات ، أن ذلك لم يكن ضمن اطار الطائفة الواحدة ، بل شارك فيها ، كما في اية سلعة اخرى ، مسلمون ومسيحيون ، مما يدل على عدم تقوقع الطوائف في أمكنة

---

(١) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ١٩ ٧ ب ٧٣/(٣٠ آذار ٥٧) ، ص ٣١ ، ٤ ن ٧٣/(٢٨ نيسان ٥٧)

(٢) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ١٢ ، ١٥ ج ٧٣/(١١ كانون الثاني ٥٧) ، ص ٢٢٣ ، ١٠ ذا ٧٥/(١١ حزيران ٥٩)

(٣) انظر فيما يلي ، ص ٦٨

(٤) انظر فيما سبق ، ص ٢٦

(٥) سجل غزة ، ص ٣٨٧ ، ١١ ص ١١/(٢٩ آب ٦٠)

معينة ، وعلى اختلاط دورهم . وهناك أمثلة عن اشتراك الفريقين حتى في ملكية عقار واحد ، مثل الدار ، في محلة الزيتون ، بخط مسجد الوزيري ، التي اشترى فيها كل من الشقيقين ، موسى وخليل ، ولدي المعلم ايوب مخايل الرومي ، سوية بينهما ، اثني عشر قيراطا . وكان البايع حمودة بن الرحوم سليمان شبلاق ، الوكيل الشرعي عن الحرمة خديجة بنت المرحوم حسين شبلاق ، بثمن قدره ٣٦٠٠ قرش اسدي ، شركة الحرمة زبيدة أخت البائعة بحق الباقي . وحد هذه الدار قبلة دار ورثة المرحوم محمد ابو عاصي المناخلي ومن يشركهم ، وشرقا دار ورثة المرحوم مصطفى المجنون ، وشمالا الزقاق الغير نافذ وتمامه دار ورثة المرحوم درويش السوق ومن يشركهم ، وغربا الطريق السالك وفيها الباب(١) ثم استأجر يوسف ، احد المشترين ، من الحاج أحمد شبلاق ، وكيل الحرمة زبيدة بنت المرحوم حسين شبلاق فأجره الموكل المذكور نصف الدار المرقومة اعلاه ، شركة بها ، مدة خمس سنين ، باجرة قدرها ٣٠٠ قرش اسدي ، واذن له الوكيل بصرفها في عمارة الحصة المذكورة بمعرفته(٢) ويلاحظ من المثال السابق ، بالاضافة الى التسامح وانتفاء التكتل الطائفي ، ان الاجرة السنوية لنصف الدار ، التي عادلت ٦٠ قرشا ، تشكل نسبة ضئيلة من ثمن المأجور ، اذ تقدر بـ ١٫٦٦٦٪ من ثمنه البالغ ٣٦٠٠ قرش

ومما يدل على عدم رغبة المسيحيين في التقوقع او التكتل انهم لم يحاولوا شراء دور لمسلمين جاورت دورهم ، حين طرحت هذه الدور للبيع ، بل اشتراها مسلمون آخرون ، ولم يستغل المسيحيون شفعة الجوار لتملكها(٣) .

وهكذا ، فلم تكن في غزة ، في فترة دراستنا على الاقل ، محلة او خط خاصين بالمسيحيين ، حرصوا على حصر ملكيتهم فيها ، كما انهم لم يمتنعوا عن بيع العقارات للمسلمين أو شرائها منهم . وما ورد في مقال (غات) ، في عام ١٨٨٧ ، ومن نقل عنه ، من ان هناك حارة خاصة بالنصارى ، مما قد ينطبق على الفترة التي كتب عنها ، ليس هناك ما يؤكده في وثائق غزة الشرعية ، في فترة دراستنا(٤)

كما انه ليس من دليل ، في الوثائق الشرعية ، في الفترة التي درسناها ، على وجود حارة خاصة باليهود في غزة ، كما جاء في المقال المشار اليه ، ولعل ذلك قد حدث في فترة لاحقة للوثائق التي ندرسها ، والتي تقف عند عام ١٨٦١/١٢٧٧ . واذا صح ذلك فانه يعني ان هجرة مكثفة لليهود الى غزة قد تمت خلال حوالي خمس وعشرين سنة ، أي بين ١٨٦١ و ١٨٨٧ ، استوجبت فرزا طائفيا بين السكان . وجاء

---

(١) سجل غزة ، ص ٩٠ ، ١٤ ر ٧٤/(٢ تشرين الثاني ٥٧)

(٢) سجل غزة ، ص ٩٠ ، ١٥ ر ٧٤/(٣ تشرين الثاني ٥٧)

(٣) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٣١ ، ٤ ن ٧٣/(٢٨ نيسان ٥٧)

(٤) انظر فيما سبق ، ص ١٥

ذكر اليهود مرتين في وثائق غزة الشرعية التي استخدمناها ، وفي المرتين لم يكن هؤلاء اليهود من سكان غزة . ففي المرة الاولى اشارة الى شلوه اليهودي اليافي ، الـذي استأجر اوضة (غرفة) بخان الزيت في غزة ، محل الكمرك ، وضع فيها امتعته ودراهمه ، ثم قفلها وتوجه الى اسـكلة يافا . وعنـد رجوعه ادعى ان ممتلكاته في الاوضة سرقت ، واتهم اناسا حلفوا ان لا علاقة لهم بذلك . وعجز شلوه عن اثبات التهمة عليهم ، فمنع من معارضتهم(١) . والمرة الثانية حين اشترى الخواجة معتوق مسعد ، بطريق الوكالة الشرعية عن الحرمة رحيل بنت ساسون الجوهري البغدادي اليهودي ، بتاريخ ١٧ محرم ٢٧/١٢٧٥ آب ١٨٥٨ حصة من سبعة قراريط ونصف قيراط وربع قيراط وثمن قيراط وثلاثة أرباع ثمن قيراط في الدار الكائنة داخـل اسكلة يافا ، المعروفة بدار الكنفاني ، بخط حـارة اليهود(٢) . ففي الحالة الاولى كا نشلوه من يافا ، وفي الحالة الثانية لا نعرف مكان اقامة رحيل بالضبط ، وليست نسبة ابيها بالبغدادي بكافية للاستنتاج على ان مكان اقامتها كان في بغداد أو في غزة ، ولكن شراءها قسما من دار في يافا يدل على علاقتها بذلك البلد ان لم يكن على اقامتها فيــه واجراء البيع والشراء امام قاضي غزة ربما يفسر بان البائعين أقاموا في غزة ، أو ان وكيلهم ، على الاقل ، الذي أجرى عملية البيع ، كان من سكان هذه المدينة ومن المقيمين فيها . ولم يكن أمر تسجيل حجج البيــع في محكمة غـير محكمة المدينة التي يوجد فيها العقار المباع بالامر الممنوع ، بل كان ذلك شائعا آنذاك الى درجة استدعت اصدار أمر من والي القدس الى قاضي غزة بتاريخ ٢ جمادى الثاني ٧/١٢٧٥ كانون الثاني ١٨٥٩ ، أي بعد اربعة أشهر ونصف من صدور حجة البيع العائدة لرحيل ، طلب فيه التدقيق في عملية انتقال الاملاك ، وعدم تعاطي بيع أي عقار خارج منطقة القاضي « فبعد الآن اذا تعاطيتم عملا مخلا بهذه النظامات وانوجد حجة بيع وانتقال بعد الاعلان الذي حصل ليس مستوفيا النظام المقرر او حررتم حجة بيع محل واقعا بالقدس او في محل خارج نيابتكم فلا نقدر نصمت عن اجرى التربية اللازمة »(٣)

ولو نظرنا الى مجموع السكان في غزة لوجدنا انسجاما ومساواة في التعامل ، بين اتباع مختلف المذاهب . مثلا ، اعتمدت شهادات المسيحيين في المحكمة ، بالنسبة للمسلمين ، والعكس بالعكس . كما ان دور السكن ، كما لاحظنا ، اختلطت ببعضها . واستدان اتباع المذاهب المختلفة بعضهم من البعض الآخر ، وتشاركوا في اعمـال ومشروعات تجارية واحدة . ولم يعطل هذا التعايش بعض مظاهر التمييز ، التي كانت

---

(١) سجل غزة ، ص ١٣٣ ، ٣ ذا ٧٤/(١٥ حزيران ٥٨)

(٢) سجل غزة ، ص ١٤١ ، ١٧ م ٧٥/(٢٧ آب ٥٨)

(٣) سجل غزة ، ص ١٩٠ ، صورة امر من والي القدس الى نائب الشريعة بغزة ، بتاريخ ٢ ج ٧٥/(٧ كانون الثاني ٥٩)

شائعة آنذاك في الدولة العثمانية ، كأن يشار الى المسيحي بالذمي ، أو النصراني ، وان يلقب بالمدعو ، أو الخواجة ، وان تستخدم كلمة « ولد » حين نسبته ، وليس « ابن » التي كني بها المسلمون . اما كلمة « المعلم » ، التي اشير بها الى عدد من المسيحيين والمسلمين فيبدو انها كانت ذات مدلول حرفي ، تشير الى اتقانهم الحرفة ، وتعادلها كلمة « اوسطة » ، المحرفة من « استاذ » الفارسية الاصل . ولم يكن وجود المسيحيين طارئا في غزة بل كانوا من سكانها الاصليين بدليل اشارة الوثائق لاحدهم بانه من نصارة غزة .

ولم تشر وثائق غزة ، في فترة دراستنا ، الى المذاهب المسيحية المختلفة فيها . وهناك اشارة في احدى الوثائق الى بيع الحرمة مارية بنت روفايل القبطي دارا لها بمحلة الزيتون بغزة(١) . فاذا كانت كلمة « القبطي » تشير الى مذهبها ، فيعني ذلك ان اقباطا من مصر هاجروا ، مثل المسلمين ، الى غزة . وهناك اشارة الى ان صراف كمرك غزة كان زنون الارمني (وامين الكمرك جناب حمدي افندي) ، ولا نعلم الى اي مذهب مسيحي انتسب زنون(٢) . ولكن أمرا اصدره والي القدس الى قاضي غزة ، علمي زادة السيد مصطفى افندي ، بتاريخ ٢ جمادى الثاني ١٢٧٥/(٧ كانون الثاني ١٨٥٩) ، اشار الى وجوب التفحص عن هوية مشتري العقار ، وهل « هو من تبعة الدولة العلية أم لا وكيفية الوقوف على هذه الحقيقة يكون من راس الملة المنسوب اليها اعني ان كان من المسيحيين وورومي المذهب مثلا ام خلافه فيصير الاستعلام من رأس ملته ومتى اخذ الجواب انه من تبعة الدولة العلية وتبين محليا سلامة جميع ذلك المحل من المحذور ملكا وموقعا فعندها يصير الرخصة من الحكومة بتحرير حجة وسند البيع للمشتري كما يوافق اصول الشرع »(٣) . ونلاحظ ان الامر خص المسيحيين من اصحاب الملل ، ربما لعدم وجود غيرهم ، كما انه خص ذكر المذهب الرومي ، أي الارثوذكسي ، المعروف والمعتمد في الدولة العثمانية . واشار ضمنا الى وجود مذاهب اخرى ، ربما كانت هي المعنية بالامر الصادر ، لان طلب التأكد من ان المشتري يجب ان يكون من تبعة الدولة العلية يعني ان اناسا من غير هذه التبعة كانوا يشترون العقارات بشكل مخالف لاصول الشريعة . ولعل في هذا ما يدل على تهافت الاجانب على شراء العقارات في غزة ، وربما في غيرها .

وقد اكدت الدولة العثمانية ، في فترة التنظيمات ، وفي اعقاب صدور خط شريف همايون في عام ١٨٥٦ وقانون العقوبات الجديد في ١٨٥٨ ، على المساواة بين سكان الدولة ، بقطع النظر عن مذهبهم . ففي ٢٥ ذي الحجة ١٢٧٤/(٦ آب ١٨٥٨) ،

---

(١) سجل غزة ، ص ٢٦٨ ، ٣ ر ٧٦

(٢) سجل غزة ، ص ١٣٣ ، ٣ ذا ٧٤/(١٥ حزيران ٥٨)

(٣) سجل غزة ، ص ١٩٠ ، صورة أمر من والي القدس الى نائب الشريعة بغزة ، بتاريخ ٢ ج ٧٥/(٧ كانون الثاني ٥٩)

بعث والي القدس بأمر الى قائمقام غزة ، وكبار موظفيها ، يبلغهم بوجوب تطبيق المساواة العادلة بين جميع السكان « من كل صنف وتبعة ومن أي ملة ومذهب » ، عملابأوامر الدولة العثمانية(١) .

ولو استعرضنا تركات المتوفين في غزة ، في فترة دراستنا ، لوجدنا معلومات هامة تتعلق بالحياة الاجتماعية والاقتصادية فيها . وهناك بضع ملاحظات ، في هذا المجال ، يجدر ذكرها أولا . فالمعتاد ان تنظم ضبوط التركات ، في المدن الكبيرة ، من قبل قسام عربي ، أو بلدي ، فيما يتعلق بالمدنيين ، ومن قبل قسام عسكري ، فيما يتعلق بالعسكريين . ونظرا لوجود نائب قاض حنفي واحد ، وبالتالي محكمة واحدة في غزة ، فقد نظرت هذه المحكمة في تركات المتوفين بعامة والمعتاد ايضا ، كما في دمشق مثلا ، ان تذكر تركات كافة المتوفين ، على اختلاف مذاهبهم وثرواتهم واجناسهم ، في سجلات القسام ، التي اشير اليها بالمخلفات ، وذلك بشكل متتال ، وليس وفق ترتيب معين ، كأن يخصص سجل ، أو جزء منه ، للمتوفين من غير المسلمين ، أو للنساء ، او للريفيين . ورغم ان سجل الوثائق الشرعية في غزة ، الذي اعتمدناه ، ذكر مخلفات نساء توفين فيها ، فانه لم يذكر المتوفين في الريف التابع لغزة ، باستثناء حالتين ، احداهما لشخص توفي بقرية الدوايمة(٢) ، والاخرى لآخر توفي بخان يونس(٣) ، وكلاهما من موظفي كرنتينة غزة . اما الذين يحملون ، مثلا ، نسبة « الجبالي »(٤) او « الرملي »(٥) من المتوفين ، الذين ذكرت ضبوط تركاتهم ، فهم من سكان غزة الذين احتفظوا باصولهم الريفية في اسمائهم . ولم يرد في ضبوط المتوفين في سجل محكمة غزة ذكر للمتوفين من النصارى .

ومن الملاحظات الاخرى على ضبوط التركات ما جاء في المراسلة التي وجهها قاضي القدس « منلا افندي الديار القدسية » ، الى نائب القضاء في غزة ، بمناسبة تعيين هذا الاخير في منصبه ، حين أوكل اليه ، من جملة ما أوكل « تحرير التركات الغير جسيمة وتوزيعها بين مستحقيها بالفريضة الشرعية »(٦) . ولا نعلم هل هذا التقييد شيء جديد أم انه تذكير بقاعدة اهملها القاضي . فاذا طبقت هذه المراسلة بحذافيرها فهذا يعني ان قاضي غزة (نائب القضاء فيها) لم ينظر في التركات

---

(١) سجل غزة ، ص ١٤٥ ، ٢٥ ذ ٧٤/(٦ آب ٥٨)

(٢) سجل غزة ، ص ٧٢ ، ٤ را ٧٤/(٢٣ تشرين الاول ٥٧)

(٣) سجل غزة ، ص ٣١٠ ، ٢٣ ب ٧٦/(١٥ شباط ٦٠)

(٤) انظر : سجل غزة ، ص ٣١٧ ، ٢ ش ٧٦/(٢٥ شباط ٦٠) ، ص ٣٥٥ ، ٢٩ ذا ٧٦/(١٨ تموز ٦٠)

(٥) انظر : سجل غزة ، ص ٣٣٣ ، ٢٠ ن ٧٦/(١١ نيسان ٦٠)

(٦) سجل غزة ، ص ٨٣ ، صورة مراسلة ، بتاريخ غرة ربيع الاول ٧٤/(٢٠ تشرين الاول ٥٧) ، ص ٣٥٨ ، صورة مراسلة ، غرة ذي الحجة ٧٦/(٢٠ حزيران ٦٠)

الكبيرة ، التي يفترض ان أمرها قد أوكل الى قاضي القدس . ولا ندري ، في حال تطبيق ذلك ما اذا كان ضبط هـذه التركات قد سـجلت صورة عنه في سـجل محكمة غزة . ولا نعرف ، كذلك ، سقف التركة ، الذي لم يسمح لقاضي غزة بأن يتجاوزه ، أو بمعنى آخر ما هي حدود « التركات الغير جسيمة » ، التي سمح له بالنظر فيها . وبتفحص ضبوط التركات في سجل غزة الذي استخدمناه نجد ان أكبر تركة فيه بلغـت ٦٥٠٨٦ قرشا اسديا ، قبل حسم الرسوم والمصارف المترتبة على التركة(١) .

وبلغ عدد ضبوط التركات ، التي سجلت في سجل غزة الذي اعتمدناه ، ستة وخمسين ضبطا ، تاريخ أقدمهـا ٢٨ جمادى الاول ١٢٧٣/(٢٤ كانون الثانـي ١٨٥٧)(٢) ، وتاريخ احدثها حوالي منتصف جمادى الثاني ١٢٧٧/(اواخر كانـون الاول ١٨٦٠)(٣) ، وهي حدود السنوات التي يعالجها السجل . ومن مجموع التركات هذه ، خصت ثمان منها نساء توفين . واذا اعتبرنا ان عدد سكان غـزة قدر ، في فترة دراستنا ، بحوالي خمسة عشر الف نسمة ، فان وفاة ستة وخمسين منهم على مدى حوالي اربع سنوات يعتبر نسبة ضئيلة ، رغم ان معظم المتوفين كانوا مـن اصحاب الاسر . ولم تذكر الوثائق من توفي من القاصرين ، ولا بد ان نسبتهم كانت كبيرة . واذا صعب اتخاذ ضبوط التركات كمؤشر لمعرفة نسبة الوفيات بين السكان ، فان دراستها ، اذا ما اخذناها كعينة ، توصلنا الى نتائج اجتماعية واقتصادية هامة .

ويلاحظ في تركات الرجال الثمانية والاربعـين المتوفين أن اربعة منهم لم تذكر لهم زوجات ، أو أولاد على قيد الحياة ، حين توفوا . وربما كانوا غير متزوجين ، أو متزوجين ماتت زوجاتهم ، وان ستة منهم كانت لكل منهم زوجتان ، مما يدل على تدني نسبة تعدد الزوجات . كما انه لم ترد اية حالة بلغت فيها زوجات شخص واحد ، خلفن له أولادا وكن في عصمته حين وفاته ، أكثر من زوجتين ، وفي حالة واحدة كانت احدى الزوجتين قاصرة . وطبيعي ان الزوجات اللواتي طلقن ، دون ان يخلفن أولادا ، لم يذكرن ، لانهن لا يرثن ، في حين يذكر الاولاد من زوجة سابقة ، لم يشر الى اسمها ، لانها لم تكن في عصمة صاحب التركة حين وفاته .

ونلاحظ ان عدد الابناء البالغين ، مـن الجنسين ، للرجال المتوفين الاربعة والاربعين ، بلغ واحدا وخمسين (منهم ٢٩ من الذكور و ٢٢ من الاناث) ، وعـدد القاصرين بلغ تسعين (منهم ٤٤ ذكرا و ٤٦ انثى) ، اي ان مجموع الابناء ، من بالغين

---

(١) انظر : سجل غزة ، ص ٦٢ ــ ٦٣ ، ٥ را ٧٤/(٢٤ تشرين الاول ٥٧) .

(٢) سجل غزة ، ص ٤٢ وردت عدة ضبوط قبل ذلك ، أولها في الصفحة ١٥ وتاريخه ٢٥ ج ٧٣/(٢٠ شباط ١٨٥٧) ، والاخرى تقع ما بعد ٢٨ جمادى الاول ١٢٧٣

(٣) سجل غزة ، ص ٤٤٤

وقاصرين ، كان ١٤١ . وبذلك يكون وسطي ابناء الاسرة ثلاثة ، وهذه نسبة قليلة اذا ما أخذنا بعين الاعتبار الطبيعة الزراعية لسكان غزة ومنطقتها . ويتبين أيضا ان عدد الاناث بين الابناء الـ ١٤١ ، كان ٦٨ أنثى ، أي بنسبة ٤٨٪ ، ولكن نسبة الاناث بين مجموع القاصرين ، وهو ٩٠ ، بلغت حوالي ٥١٪ ، في حين بلغت من مجموع البالغين ، وهو ٥١ ، حوالي ٤٣٪ . وربما يفسر هذا التدني في نسبة الاناث بين البالغين بقلة الرعاية التي تمتعت بها الاناث ، حين كن قاصرات ، مما ادى الى ارتفاع نسبة الوفيات بينهن .

ونتج عن كثرة عدد الاناث بين ورثة المتوفين تجزئة الارث الى حصص اكثر مما لو كان العدد الاكبر ، من الورثة ، من البنين . وحدث مثل ذلك بالنسبة لتعدد الزوجات ، لان الثلث قسم بينهن مهما كان عددهن . واذا اعتبرنا ان المرأة عندما تتزوج لا تنفق على نفسها بل ينفق زوجها عليها ، حتى بعد طلاقها ، وذلك خلال عدتها الشهرية ، كما تشير عشرات الوثائق في غزة ، فانها على قلة حصتها في الميراث ، تدخر كمية لا بأس بها من المال ، وتوظف ذلك في ميادين مختلفة ، مثل شراء العقارات ، والحلي ، وعقد الديون ، بالدرجة الاولى لزوجها ، وأولادها ، ثم للآخرين .

ولعل أهم استنتاج ديموغرافي نصل اليه من دراسة التركات هو النسبة الكبيرة من الابناء القاصرين الذين خلفهم المتوفون ، والتي بلغت ٩٠ من اصل ١٤١ ، أي حوالي ٦٣٪ . ولو اضفنا الى عدد القاصرين في التركات الاربع والاربعين التي درسناها ، اربعة أجنة ، يتوقع ولادتها لدى بعض زوجات المتوفين ، لارتفعت هذه النسبة الى حوالي ٦٤٪ . ونستنتج من ذلك أحد أمرين : اما ان الزواج كان يتم في سن متأخرة نسبيا ، وهذا غير معقول ، بالنسبة للمعطيات الاخرى المعروفة في المجتمع الزراعي ، مثل حرص الاهل على زواج الابناء في سن مبكرة ، لاسباب اجتماعية واقتصادية ، او ان وسطي الاعمار بين الرجال كان متدنيا . ومهما كان السبب ، فان في ذلك دليلا على ان مجتمع غزة كان فتيا نسبيا . وطول اعمار الزوجات ، بالنسبة للازواج ، ربما يفسره صغر سنهن ، بالنسبة للازواج ، عند الزواج ، وقلة الاعمال المرهقة التي يقمن بها . كما ان من بقي منهن على قيد الحياة ، بعد وفاة أزواجهن ، يدل ايضا على مقاومتهن الطبيعية ومناعتهن ، حين كن صغيرات ، فبقين عندئذ على قيد الحياة .

ويمكننا ايضا ، من خلال الوثائق الشرعية ، معرفة النسب التقريبية للزواج والطلاق وايجاد خط بياني لها مرتبط بالاوضاع الاقتصادية . فقد اخذنا ، بصورة عشوائية ، عينة تقع ضمن فترة بين ٢٣ ذي الحجة ١٢٧٤/١٤ آب ١٨٥٧ ونهاية رجب ١٢٧٧/١١ شباط ١٨٦١ ، أي في حوالي واحد وثلاثين شهرا ، فوجدنا انه ذكر

فيها احدى وخمسون حالة زواج مقابل سبع وثمانين حالة طلاق . ورغم ما قد يكون في هذا من تكرار في الزواج ، أو في الطلاق ، بالنسبة لشخص واحد ، فان النسبة المقارنة تبقى ذاتها . وهذا يدل ، بوجه عام ، على تفكك في الاسرة . وفي حالات الزواج الاحدى والخمسين كانت الزوجة في ثلاث وثلاثين منها بالغة عند الزواج ، وقاصرة في الحالات الاخرى . واقل مهر بالنسبة للبالغة كان اربعمائة قرش ، وفي هذه الحالة كان الزوجان مصريين ، من نزلاء لواء غزة . واعلى مهر بلغ ١١٠٠٠ قرش ، وكان الزوج ابن أمير بدوي ، وهذا استثناء لان اعلى مهر بالنسبة لسكان غزة ، بلغ ٥٥٠٠ قرش . وبلغ متوسط مهر البالغة ، في العينة التي درسناها ، ١٦١٨ قرشا ، في حين بلغ متوسط مهر القاصرة ١٧٢٥ قرشا . ولم تقل نسبة المهر في الريف عنها في المدينة ، بصورة عامة ، مما يدل على مستويات اقتصادية متشابهة وتقاليد مالية متقاربة في الزواج وفي مختلف حالات الزواج شكل المقدم ، أو الحال ، من المهر نسبة تتراوح بين ٨٠ و ٩٥٪ من مجموع المهر . ويؤكد هذا الفائدة الاقتصادية من الزواج بالنسبة لاهل العروس ، كما انه يفسر سهولة الطلاق وعدم وجود رادع اقتصادي كبير له

ويلاحظ ، في العينة التي درسناها ، ان الزواج بين الاسر المتباعدة كان هو الغالب في حين كان الزواج بين الاقرباء أقل نسبة . وربما يفسر هذا الامر ، الذي يبدو غريبا ، بالنسبة لتقاليد الزواج ، وخاصة بين الريفيين ، أو بين من هم من اصول ريفية ، ان الزواج بين الاقرباء قد لا يسجل في المحكمة ، لان أي خلاف يحل عائليا . وقلما وردت حالات زواج بين سكان الريف وغزة . وكان الزواج في الريف ، بصورة عامة ، ضمن اطار القرية الواحدة ، وفي حالات أقل بين قريتين . كما ان الزواج بطريق البدل ، كأن يزوج رجل ابنته من شخص آخر مقابل زواجه من ابنة هذا الشخص ، كان معروفا ، وخاصة في الريف . أما بالنسبة للنزلاء المصريين ، سواء في غزة أم في الريف ، فغالبا ما تزاوجوا من بعضهم ، ويسهل معرفة ذلك من نسبة « المصري » التي لحقت باسمائهم ، مما ابقاهم كتلة متراصة وغريبة .

اما بالنسبة للطلاق في العينة التي درسناها ، فقد بلغت حالات الطلاق بالثلاثة احدى وثلاثين حالة من اصل سبع وثمانين ، والبقية كانت بالمخالعة . ومبادرة الطلاق بالثلاثة ، كما هو معروف ، تخص الرجل ، أما الطلاق بالمخالعة فأمره بيد الزوجة ، أو وكيلها ، الذي قد يكون والدها أو شخصا آخر ، ويتم بموافقة الزوج وارتفاع نسبة الطلاق بالمخالعة يفسر بسبب اقتصادي ، كأن تحاول الزوجة الحصول على مؤخر مهرها ، ونفقة عدتها ، ونفقة أولادها القاصرين ، ثم تتزوج من جديد في غالب الاحيان . ويستفيد والدها ، ايضا ، مرة ثانية ، من زواجها هذا . ولا يعطي الزوج موافقته ، في الطلاق بالمخالعة ، الا حين يسترد ما بذمة الزوجة او والدها ، أو وكيلها له . والمثال التالي يوضح ذلك : سألت الحرمة فطومة بنت عمرو ابو

عقبة زوجها ، الحاج احمد بن يوسف بلبل ، ان يخالعها من عصمته وعقد نكاحه على ١٢٠٠ قرش بذمتها له ، فاجابها لذلك ، وقال لها خالعتك من عصمتي وعقد نكاحي على ١٢٠٠ قرش بذمتك لي ، ثم دفعت له من ذلك ٥٤٠ قرشا ، وقاصصها بمؤخر صداقها ، وقدره ٢٠٠ قرش ، ونفقة عدتها ، وقدرها ٦٠ قرشا . والباقي لها بعد ذلك ، وهو ٤٠٠ قرش اسدي ، اذن لها ان تصرفه على ولده القاصر منها ، في مدة اربع سنوات ، كل سنة مائة قرش(١) . ولكن ، بعد اقل من شهرين ، تزوج الزوج ، الحاج احمد بن يوسف بلبل ، الحرمة فطومة ، مخلوعته سابقا ، بمهر قدره ٨٤٠ قرشا ، الحال منها ٦٤٠ قرشا ، والباقي ٢٠٠ قرش ، وهي التي زوجت نفسها على ذلك(٢) . ولا ندري اذا كان في الامر محاولة لتغطية شيء ما ، او ان اعادة الزواج اقتضتها ضرورات اقتصادية ، وربما شخصية .

وقد تمتعت المرأة ، في غزة وريفها ، بقدر كبير من الاستقلال في العمل . وكثيرا ما ظهرت في المحكمة بنفسها ، فيما يتعلق بزواجها وطلاقها ، وشرائها العقارات ، أو بيعها ، ووقفها الاوقاف ، وعقدها الديون والمطالبة بها . كما انها ظهرت في المحكمة كمدعية ومدعى عليها . ومع ذلك ، لم يرد اسم امرأة بين شهود الحال أو العدول في المحكمة . وطبيعي ان الوكيل ناب عن المرأة ، حين لم تحضر بنفسها ، واقتضى ذلك منه ان يأتي بالشهود لتأكيد وكالته عنها . وكان ظهور المرأة المسيحية في المحكمة الشرعية اقل من ظهور المرأة المسلمة ، نظرا لان زواجها او طلاقها لا يتمان في هذه المحكمة ، وناب عنها ، في الغالب ، وكيلها في قضايا البيع والشراء . ولم تميز المحكمة بين المرأة المسلمة والمسيحية من حيث اللقب والنسبة ، كما فعلت بالنسبة للرجال من الطرفين ، فكلتاهما وصفتا بالحرمة ، اذا كانتا متزوجتين ، واستعملت في نسبتهما لفظة « بنت » فلان .

ووجدت الجواري في غزة ، واختلفت الوانهن واثمانهن . مثلا ، جارية سمراء بيعت في تركة احمد عودة البطل بثمن قدره ٢٥٠٠ قرش(٣) ، واخرى سوداء ، اسمها أمان ، اعتقها مالكها قبل وفاته(٤) . وكان للنساء الثريات جوار او مملوكات اعتقنهن ابان حياتهن ، واوصين لهن بالمال بعد مماتهن(٥) . وعرفت الجارية ، قبل عتقها ، باسمها الاول فقط ، وبلونها ، واسم مالكها . واطلق على الجارية ، التي اعطيت حريتها ، لقب « معتوقة » أو « عتيقة » ، ونسبت الى معتقها ، كأن يقال

---

(١) سجل غزة ، ص ١٦٦ ، ٩ را ٧٥/(١٧ تشرين الاول ٥٨)
(٢) سجل غزة ، ص ١٦٦ ، ٥ جا ٧٥/(١١ كانون الاول ٥٨) .
(٣) سجل غزة ، ص ٣٦٤ ، ٢١ ر ٧٦/(١٨ تشرين الاول ٥٩)
(٤) سجل غزة ، ص ٤٠ ، ٢٨ ذا ٧٣/(٢٠ تموز ٥٧)
(٥) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٣٣٤ ، ٢٠ ن ٧٦/(١١ نيسان ٦٠) .

الحاجة حليمة عتيقة الحرمة السيدة الحاجة زينب(١) .

وكثر النزلاء الاغراب في غزة وريفها . واشير الى زاوية الهنود وخان زاوية الهنود في غزة ، في محلة البرجلية ، بخط سوق الفخار(٢) ، وربما يدل على تواجد الهنود في غزة وترددهم عليها للتجارة . وليس من دليل ، في الوثائق ، على توطن الهنود فيها ، او في ريفها ، اذ انهم لا يذكرون في عمليات بيع العقارات او شرائها ، ولا في وقائع الطلاق والزواج والوفيات . ولا ندري اذا كان قدوم الهنود الى غزة قد تم في الماضي البعيد او القريب ، واذا ما كان متصلا . ولكن نسبة الزاوية والخان اليهم ربما يدل على تواجد مستمر ، وان يكن غير مستقر .

وهناك اشارات الى وجود المغاربة في غزة وتوطنهم فيها . فقد ذكر استيفاء الحرمة حفيظة بنت المرحوم محمد آغا البرعصي المغربي مبلغا من المال من زوجها عبد الله بن المرحوم عبد الحفيظ آغا البرعصي المغربي(٣) . وذكرت دار الحاج هيبة المغربي بمحلة السجاعية ، بخط الشيخ محمد الطيار(٤) . ولا ندري الى أي مدى تواجد المغاربة في غزة وريفها ، وباية صفة : كمجاورين ، أم كعسكريين ، أم كتجار . ونستدل من لقب آغا ، بالنسبة للاسمين السابقين ، الصفة العسكرية التي غلبت على المغاربة المتواجدين بكثرة ، مثلا ، في بلاد الشام ، منذ القرن الثامن عشر ، اذ كانوا فيها جنودا وحراسا . والتواجد المغربي ، في بلاد الشام في العهد العثماني ، بدأ اساسا بهدف المجاورة والعلم ، ثم ازداد في المجال العسكري . وزواج المغاربة ، فيما بينهم ، كما في المثال السابق ، أمر له دلالته ، لان من طبيعة المغاربة ، في بلاد الشام ، الانطواء على انفسهم والتكتل في طوائف ، يحمل كل منها اسم منطقة في المغرب انتسب افرادها اليها ، مثل طائفة الفاسية ، والمراكشية ، والدراوية ، والتونسية ، والسوسية ، والجزائرية ، والطرابلسية . وترأس كل طائفة شيخ رعى مصالحها . وتراس الجميع شيخ المشايخ(٥) .

واشارت الوثائق الى طائفة النور في غزة ، وذلك بمناسبة مخالعة تمت بين امرأة وزوجها من النور(٦) . ويدل لجوء النور الى المحكمة الشرعية على تمسكهم

---

(١) سجل غزة ، ص ٣٢٤ ، ١٩ ن ٧٦/(١٠ نيسان ٦٠) .

(٢) سجل غزة ، ص ٢٠٢ ، ١٨ ب ٧٥/(٢١ شباط ٥٩) ، ص ٢٦٢ ، ٢ را ٧٦/(٢٩ ايلول ٥٩) ، ص ٣٠٤ ، ختام ج ٧٦/(٢٣ كانون الثاني ٦٠) ، ص ٣٦٦ ، ٢٧ ذ ٧٦/(١٦ تموز ٦٠) ، ص ٤٤٩ ، ٢٢ ج ٧٧/(٥ كانون الثاني ٦١)

(٣) سجل غزة ، ص ٢٢٤ ، ١٥ ذا ٧٥/(١٦ حزيران ٥٩)

(٤) سجل غزة ، ص ٣٩٤ ، ٢٣ ص ٧٧/(١٠ ايلول ٦٠)

(٥) انظر كتابنا : العرب والعثمانيون ، ص ٥١ – ٥٢

(٦) سجل غزة ، ص ١٢٦ ، ٨ ل ٧٤/(٢٢ ايار ٥٨)

بمبادىء الشريعة ، وعلى ترددهم الى غزة ، وربما على استقرارهم الجزئي او الكلي في المنطقة .

اما الفئة التي فاقت ما عداها ، من النزلاء الاغراب ، بعددها ، واستقرارها في غزة وريفها ، واشتراكها في الفعاليات الاقتصادية المختلفة ، ونشرها لكثير من المصطلحات التي أتت بها من بلدها الاصلي ، فهي المصريون . ولا عجب في ذلك نظرا لجوار لواء غزة لاراضي مصر ، وللعلاقة السياسية والاقتصادية والسكانية المستمرة بين المنطقتين . وكانت قلعة العقبة ، في فترةدراستنا ، تابعة « قضا مصر »(١) . وجاء في كتاب (بيديكر) ، من حوالي ١٨٩٠ ، ان غزة شبه مصرية ، وان الفطاء الذي استعملته نساؤها كان مشابها لفطاء سكان مصر(٢) .

وكثيرا ما استخدم المصريون محكمة غزة لتسجيل عقود بيع العقارات وشرائها في مصر ، بالاضافة ، طبعا ، الى استخدامهم اياها في تسجيل العقود المحلية . واشارت الوثائق الى كل مقيم من اصل مصري بالمصري ، مما سهل تمييز المصريين عن غيرهم . واشير احيانا الى البلد الام للمصري المتوطن في لواء غزة ، كأن يكون من دار قلعة نخل ، من اعمال مصر(٣) ، او من قرية الصالحية(٤) ، او غيرها . وكان عدد من المصريين القادمين الى لواء غزة من اصول بدوية ، واشير اليهم على انهم من عرب مصر ، وسميت بعض طوائفهم مثل « طايفة السعادين » و « طايفة الحواز » و « طايفة أكباد الفتاورة »(٥) .

ولم يحل المصريون في محلة او خط خاص بهم في غزة ، فقد تواجدوا ، مثلا ، في محلات الزيتون ، والبرجلية ، والسجاعية ، وتملكوا فيها(٦) . كما تزاوجوا ، احيانا ، مع السكان المحليين . ويبدو ان الوضع الاقتصادي للمصريين المقيمين في غزة لم يكن متميزا ، نظرا لشرائهم دورا في غزة باسعار متدنية(٧) .

ولا تتوافر معلومات مفصلة حول عمل المصريين المقيمين في لواء غزة . وقد اشير

---

(١) سجل غزة ، ص ٩٩ ، ١٦ جا ٧٤/(٢ كانون الثاني ٥٨)

(٢) Baedeker, p. 158

(٣) سجل غزة ، ص ١٧٣ ، ٣ ر ٧٥/(١٠ تشرين الثاني ٥٨)

(٤) سجل غزة ، ص ٢١٩ ، ١٣ ل ٧٥/(١٦ ايار ٥٩)

(٥) سجل غزة ، ص ١٣٠ ، ٢١ ل ٧٤/(٤ حزيران ٥٨)

(٦) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٢٣، ٢٤ ب ٧٣/(٢٠ آذار ٥٧) ، ص ٧٧ ، ١٥ را ٧٤/(٣ تشرين الثاني ٥٧) ، ص ١٧٣ ، ٣ ر ٧٥/(١٠ تشرين الثاني ٥٨) ، ص ٢٠٧ ، ٢٠ ش ٧٥/(٢٥ آذار ٥٩)

(٧) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٧٧ ، ١٥ را ٧٥/(٣ تشرين الثاني ٥٧) ، ص ٢٠٧ ، ٢٠ ش ٧٥/(٢٥ آذار ٥٩) ، ٢٠ ص ٧٥/(٢٩ ايلول ٥٨) ، ص ٢١٣ ، ٢٠ ش ٧٥/(١٥ آذار ٥٩) .

الى احدهم انه جندي(١) ، ولا ندري صفة الجندية آنذاك فقد اشير ، في احدى الوثائق ، الى شاب في غزة اخذ للنظام(٢) ، مما يدل على نوع من الخدمة الاجبارية في الجيش العثماني . ووصف مصري آخر في غزة بانه دقاق البارود(٣) . وهذه صفة اطلقت على اصحاب الزنود القوية ، الذين عملوا في دق البارود بمطارق طويلة القبضة تحاشيا لانفجار البارود . واشير الى آخر اقتنى ثلث دار بمحلة الزيتون في غزة بانه الاسطى(٤) . واذا كان مفهوم اللقب هنا حرفيا فانـه يدل على براعته في المهنـة .

وقد عمل بعض المصريين في كرنتينة غزة(٥) . وكان لهذه الكرنتينة ، التي اقيمت جنوبي غزة ، في منطقة عرفت باسمها (ضريبة الكرنتينا) ، ناظر ، ومدير ، واون باشي ، أي قائد عشرة(٦) . وذكر كتاب (بيديكر)(٧) وجود كرنتينا ، بجوار قلعة ، قرب العريش ، في منطقة الحدود مع مصر . ولا ندري ما اذا كانت هي ذاتها الكرنتينة التي اشارت اليها وثائق غزة الشرعية ، حين ذكرت ضريبة الكرنتينا ظاهر غـزة . ومما يرجح انها هي نفسها ان المفروض في الكرنتينا ان تكون في منطقة الحدود ، حيث يمكن عزل المصابين . كما ان مصطفى افندي اسطنبلي ، اون باشي كرنتينة غزة ، توفي في خان يونس ، القريبة من الحدود(٨)

وقد تواجد المصريون في ريف غزة . ومن القرى التي سكنوها زرنوقة ، خان يونس ، دير البلح ، يبنا ، وجولس . واشير الى المصريين المقيمين في هذه القرى على انهم من نزالها(٩) . وذكرت اسماء عدد منهم بمناسبة خلاف حول ملكية ثور ، او حمار ، او جمل . وبلغ من سماحة صدر قاضي غزة ، واهتمامه بتطبيق القواعد الشرعية في كل كبيرة وصغيرة ، ان احضرت هذه الحيوانات في المجلس ، او اكتفي بايقافها في بابه(١٠) .

---

(١) سجل غزة ، ص ١١٦ ، ختام ب ٧٤/(١٦ آذار ٥٨)
(٢) سجل غزة ، ص ٢٧٨ ، ٥ جا ٧٦/(٣٠ تشرين الثاني ٥٩)
(٣) سجل غزة ، ص ١٢٦ ، ١٥ ذا ٧٤/(٢٧ حزيران ٥٨)
(٤) سجل غزة ، ص ٤٣٢ ، ١٠ جا ٧٧/(٢٤ تشرين الثاني ٦٠)
(٥) سجل غزة ، ص ٣٨٧ ، ١٠ ص ٧٧/(٢٨ آب ٦٠)
(٦) سجل غزة ، ص ٣١٠ ، ٢٣ ب ٧٦/(١٥ شباط ٦٠)
(٧) Baedeker, p. 160
(٨) سجل غزة ، ص ٣١٠ ، ٢٣ ب ٧٦/(١٥ شباط ٦٠)
(٩) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٨٠ ، ١٩ را ٧٤/(٧ تشرين الثاني ٥٧) ، ص ٤١٣ ، ختام را ٧٧/(١٦ تشرين الاول ٦٠)
(١٠) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ١٣٠ ، ٢١ ل ٧٤/(٤ تموز ٥٨) ، ص ١٣٦ ، ٢٨ ذا ٧٦/(١٧ تموز ٦٠) ، ص ٤٥٦ ، ١٧ ب ٧٧/(٢٩ كانون الثاني ٦١) .

وغالبا ما تزاوج المصريون بين بعضهم ، سواء في ريف غزة أم في قراها ، مما ابقاهم كتلة متميزة لم تندمج كلية مع السكان المحليين الا بمرور الزمن ولم تكن نسبة الطلاق بينهم باقل من نسبتها بين السكان المحليين . وقلما لجأت المرأة المصرية الى تعيين وكيل عنها في القضايا التي رفعتها الى المحكمة ، بل كانت تظهر بنفسها في المحكمة .

والكتلة السكانية الرئيسية في ريف غزة ، مـن حيـث الاهمية السياسية والاقتصادية ، كانت البدو وسنستعرض الفعاليات الاقتصادية للبدو في بحث الاقتصاد ، ونكتفي هنا بالتعريف بهم وذكر مظاهر من حياتهم الاجتماعية مستشفة من خلال الوثائق الشرعية . فقد انقسم البدو ، في منطقة غزة ، الى قسمين رئيسيين : عربان بلاد غزة الصف القبلي ، او القبالي ، وترأسهم الشيخ عيسى ابن المرحوم الشيخ عايش الوحيدي الحسيني ، الذي لقب بشيخ مشايخ هؤلاء العربان ، وعربان بلاد غزة الصف الشمالي ، وترأسهم الشيخ حسين بن المرحوم الشيخ رباح الوحيدي الحسيني ، الذي لقب بشيخ مشايخ هؤلاء العربان(١) . ويبدو ان الشيخ حسن بن المرحوم الشيخ رباح الوحيدي الحسيني ، الذي كان احيانا الوكيل الشرعي عن اخيه الشيخ حسين(٢) ، قد حل مكانه كشيخ مشايخ عربان الصف الشمالي ، وذلك في الفترة الواقعة بين ٢٥ شوال ١٢٧٥/(٢٨ ايار ٥٩)(٣) ، حين ورد اسم الشيخ حسين ، شيخ مشايخ عربان بلاد غزة الصف الشمالي ، و ٢٥ شوال ١٢٧٦/(١٦ ايار ١٨٦٠)(٤) ، حين ورد اسم الشيخ حسن شيخ مشايخ هؤلاء العربان ، هذا اذا لم يخطيء كاتب الوثائق الشرعية بين اسمي حسين وحسن ، كعادته في كثير من الاحيان .

ويبدو من تسميات شيوخ عربان الصفين الشمالي والقبالي انهم انتسبوا الى اسرة واحدة ، هي الوحيدي او الوحيدات . ولا نعرف من أي وحيدات كان هؤلاء ، اذ ذكر العارف(٥) ان هناك وحيدات الترايين ووحيدات الجبارات ، ونسب الوحيدات اصلهم الى قريش وانتموا الى الحسين بن فاطمة الزهراء .

وورد كذلك ذكر عرب السواركة(٦) ، وموقعهم الى الشرق من غزة ، ربما في

---

(١) سجل غزة ، ص ٣٥ ، ٢٢ ل ٧٣/(١٥ حزيران ٥٧) ، ص ١٣٠ ، ٢٠ ل ٧٤/(٣ حزيران ٧٨) ، ص ٢٢١ ، ٢٥ ل ٧٥/(٢٨ آيار ٥٩)

(٢) سجل غزة ، ص ٣٥ ، ٢٢ ل ٧٣/(١٥ حزيران ٥٧)

(٣) سجل غزة ، ص ٢٢١

(٤) سجل غزة ، ص ٣٤١

(٥) عارف العارف ، بير السبع وقبائلها ، مطبعة بيت المقدس ، ١٩٣٤ ، ص ١٤٤

(٦) سجل غـزة ، ص ٧٨ ، ١٩ را ٧٤/(٧ تشرين الثاني ٥٧) .

منطقة بئر السبع(١) ، وهم غير عرب السويركة الى الجنوب منها(٢) . وذكر شيخ عرب القديرات ، واسمه الشيخ عوض بن المرحوم الشيخ سلامة ابـي رقيـق(٣) . ويشتق اسم عرب القديرات من قـدرتهم « على الطعن والنزال »(٤) ، وكانوا في الجنوب الشرقي من غزة ، الى الشرق من عرب العزازمة ، كما يظهر من المصـور الملحق بهذه الدراسة . كما ورد ذكر عرب بني ايوب(٥) ، وعرب وادي موسى(٦) . ولا نعلم اذا كان هؤلاء الاعراب قد شكلوا جزءا من عربان الصف القبلي او الصف الشمالي . والدليل انه وجد مشايخ عربان خارج نطاق نفوذ شيخي مشايخ الصفين القبلي والشمالي ان الاوامر التي ارسلها والي القدس الى المسؤولين في لواء غـزة اشارت الى « مفاخر القبايل والعشاير شيوخ مشايخ عربان الصف القبالا والشمالا ومشايخ العربان زيد عشيرتهم »(٧) . وقد اعتمدت الدولة العثمانية على معظم هؤلاء العربان في نقل المؤن ، وعلى الاخص الشعير والحنطة من غزة الى بندر معان لحساب قافلة الحج الشامي .

وقد التزم البدو باصول الشرع الاسـلامي فلجأوا الى محكمة غزة لفـض المنازعات بينهم وبين غيرهم(٨) ، او لابراء ذمتهم تجاه مالية الدولة(٩) . كما انهم سجلوا بعض عقود الزواج في محكمة غزة . فقد تزوج ، مثلا ، الشيخ عوض ابن المرحوم الشيخ سلامة أبي رقيق ، شيخ عرب القديرات ، أمونة البكر البالغ بنت المرحوم الشيخ احمد الشاعر اللهواني ، بمهر مقداره اربعة آلاف وخمسماية قرش اسدي ، الحال منها اربعة آلاف قرش ، والباقي يؤخر على الزوج لاقرب الاجلين ، زوجها على ذلك وكيلها السيد سلامة الهليس . وقبل الزوج المذكور لنفسه ذلك(١٠) . ولا نعلم تماما فيما اذا كان الشيخ احمد الشاعر اللهواني غزيا ، ولو ثبت ذلك لتأكد لدينا بعض علاقات الود ، لا العداء ، بين سكان غزة والبدو . ويؤكد هذا التزام مشايخ البدو بالشريعة حين سجلوا عقود زواجهم في محكمة غزة ، وكذلك شراء عدد منهم دورا لهم في غزة . وكان أعلى مهر سجل في محكمة غزة ، في فترة دراستنا ، هو مهر زواج الشيخ عيسى بن المرحوم الشيخ عايش الوحيدي الحسيني ، شيخ

---

(١) انظر حول عرب السواركة ، العارف ، بير السبع وقبائلها ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩

(٢) أنظر حول مواقع هؤلاء العربان المصور الملحق بهذه الدراسة

(٣) سجل غزة ، ص ١١ ، ١٦ ج ٧٣/(١١ شباط ٥٧) .

(٤) العارف ، بير السبع وقبائلها ، ص ١٢١

(٥) سجل غزة ، ص ٢٥٩ ، ٧ را ٧٦/(٤ تشرين الاول ٥٩)

(٦) سجل غزة ، ص ٢١٨ ، ١٥ ل ٧٥/(١٨ ايار ٥٩)

(٧) سجل غزة ، ص ٥٩ ، ٢٨ م ٧٤/(١٨ ايلول ٥٧) .

(٨) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٢١٨ ، ١٥ ل ٧٥/(١٨ ايار ٥٩)

(٩) سجل غزة ، ص ١٣٠ ، ٢٠ ل ٧٤/(٣ حزيران ٥٨) .

(١٠) سجل غزة ، ص ١١ ، ١٦ ج ٧٣/(١١ شباط ٥٧)

مشايخ عربان بلاد غزة الصف القبلي ، من أمينة البكر القاصر ابنة جناب عين الاغوات الشيخ عقيلة الحاسي (لعله شيخ بدوي) ، اذ بلغ احد عشر الف قرش ، الحال منها عشرة آلاف ، مقبوض بيد والد الزوجة . وقد زوجها على ذلك الشيخ حمود شقيقها الثابتة وكالته عن والدها عقيلة آغا(١) .

وكان الشيخ عيسى قد اشترى ، قبل زواجه هذا بحوالي ثلاث سنوات ، دارا من اكبر دور غزة ، بمحلة الخضر ، بخط حمام السمرة ، داخل بوابة الكجك ، بأعلى ثمن ذكرته الوثائق لاية دار ، ومقداره ثلاثة وثلاثون الفا وستمائة قرش ، قبضت في المحكمة بيد الشقيقين البائعين ، الشيخ عبد الله والشيخ عبد القادر ، ابني المرحوم الحاج صقر العايدي وكان هذان قد اشتريا عشرين قيراطا من هذه الدار من الشيخ عايش ، والد الشيخ عيسى ، الاصيل عن نفسه والوكيل عن ابنتي اخته ، كما اشتريا بقية القراريط ، وهي أربعة ، من شركاء الشيخ عايش ، بموجب حجج مؤرخة في رمضان وشوال ١٢٦١/(آب ـ تشرين الاول ١٨٤٥) . والذي يلفت النظر في هذه الدار انها ضمت ما لم تضمه دور غزة الاخرى ، لتتلاءم ، كما يبدو ، مع احتياجات ساكنها البدوي . فقد اشتملت على قاعة كبيرة بخيمتين ، وقاعة بخيمة واحدة ، الى جانب لواوين ، وبيوت وغيرها(٢) . ولم تكن هذه الدار اول تملك للشيخ عيسى في غزة ، فقد امتلك دارا ، بمحلة الزيتون ، بخط الخضر ، باعها بثمن قدره ستة آلاف وثمانية قروش ، قبل اربعة اشهر من شرائه الدار الاخرى(٣)

٤ ـ مظاهر اقتصـادية :

سنستعرض ، في هذا المجال ، من خلال ما ورد في الوثائق الشرعية ، مراكز الفعاليات الاقتصادية في غزة ، ونماذج من النشاطات الاقتصادية ، مثل مقومات الثروة والدخل ، وعمليات البيع والشراء ، والديون ، واسعار السلع والعقـارات والمقارنة بينها ، وكذلك الاقتصاد في الريف ، والعلاقة بينه وبين المدينـة . وننهي البحث بدراسة عن المقاييس ، والمكاييل ، والاوزان ، والنقود في لواء غزة .

وقد حفلت غزة ، بدليل اسماء الخانات والاسواق فيها ، بفعاليات اقتصادية مختلفة ، على مر العصور ، ولا عجب في ذلك ، لانها كانت على الطريق التجاري البري الوحيد الذي يربط بين بلاد الشام ، وما اتصل بها من تجارة الاناضول والعراق وفارس وما وراءها ، ومصر . كما ان قافلة الحج الشامي ، وهي بالضرورة قافلة

---

(١) سجل غزة ، ص ٤٠٤ ، ١٢ را ٧٧/(٢٨ ايلول ٦٠)
(٢) سجل غزة ، ص ١٢٩ ، ١٩ ل ٧٤/(٢ تموز ٥٨)
(٣) سجل غزة ، ص ١٠٤ ، ١٩ ج ٧٤/(٤ شباط ٥٨)

تجارة ايضا ، كثيرا ما سلكت الطريق الفزاوي ، في طريق عودتها ، حين كانت محملة بالبضائع من الحجاز . وأمّ غزة ، كذلك ، عدد من الحجاج ، قاصدين العقبة ، للالتحاق بقافلة الحج المصري(١) . يضاف الى ذلك موقع غزة ، في وسط منطقة زراعية غنية ، قريبة من البحر ومن البادية ، مما يجعلها سوقا لمنطقة واسعة تحيط بها . وكان لهذا الموقع التجاري الهام ، وتنوع الفعاليات الاقتصادية ، المحلية والدولية ، في غزة ، أثره الكبير في اشتهارها عبر العصور .

وقد ذكرت وثائق غزة الشرعية عددا من الخانات(٢) فيها تدل اسماؤها على انواع السلع التي تعاطتها . واشهر هذه الخانات ، بدليل ان جميع من زار غزة ذكره أول ما ذكر ، خان الزيت ، الواقع داخل غزة ، بمحلة الخضر ، بخط حمام السمرة . وكان من اوقاف آل رضوان(٣) ، الذين اشتهروا في حكم غزة ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر(٤) . وجاء في كتاب (بيديكر)(٥) ان خان الزيت يقع الى الجنوب الغربي من الجامع الكبير ، وان حارة الزيتون تقع الى الجنوب الغربي من هذا الخان . ولا ادل على اشتهار الزيت والزيتون في منطقة غزة من تسمية خان الزيت ومحلة الزيتون باسميهما . وهنالك خان الكتان ، ويقع داخل المدينة بمحلة البرجلية . وتسمى الخط ، حيث وجد ، باسمه (خط خان الكتان)(٦) ، نظرا لاهميته في تلك المنطقة . وذكر خان زاوية الهنود ، داخل غزة ، بسوق الفخار . ويقع هذا السوق بمحلة البرجلية ، وتسمى خط باسمه (خط سوق الفخار)(٧) . ويبدو ان هذا الخان كان لصيقا بزاوية الهنود ، مما جعله يعرف بها ، وقد ذكر (غات)(٨) زاوية الهنود ضمن قائمة الخانات ، مما يعني انها استخدمت خانا ، ولا ندري ما اذا كانت الزاوية قد استخدمت خانا في الفترة التي كتب فيها (غات) ، في عام ١٨٨٧ ، أم أن الخان الملاصق للزاوية الحق بها وتسمى باسمها ، أم ان (غات) قد اشار خطأ الى الزاوية على انها الخان . وقد ميزت الوثائق الشرعية ، في فترة دراستنا ، بين زاوية الهنود وخان زاوية الهنود .

ووجد في غزة خان الجمالي ، نسبة الى الحاج علي الجمالي ، بمحلة الزيتون ،

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ٦

(٢) انظر حول موقع هذه الخانات مخطط غزة ، الذي وضعه Gatt في عام ١٨٨٧

(٣) سجل غزة ، ص ١٢٩ ، ١٩ ل ٧٤/(٢ حزيران ٥٨)

(٤) انظر فيما سبق ، ص ٥

(٥) Baedeker, p. 159

(٦) سجل غزة ، ص ٢٨٥ ، ١٦ جا ٧٦/(١١ كانون الاول ٥٩) ، ص ٤٠٩ ، ٢١ را ٧٧/(٧ تشرين الاول ٦٠) ، ص ٤٥٢ ، ٢٨ ج ٧٧/(١١ كانون الثاني ٦١)

(٧) سجل غزة ، ص ٣٠٤ ، ختام ج ٧٦/(٢٣ كانون الثاني ٦٠) ، ص ٤٤٩ ، ٢٢ ج ٧٧/(٥ كانون الثاني ٦١) .

(٨) Gatt, p. 153

بخط الخضر(١) . وقد اشار اليه (غات)(٢) باسم خان الجمَّالة . واذا كانت نسبة الجمالي تدل على تعاطي امور الجمال فربما استخدم الخان لايواء الجمال ، التي نقلت عليها البضائع من غزة واليها(٣) . ونظرا لكثرة الجمَّالة ، فقد عرفت حارة باسمهم ، وهي حارة الجمالة ، بمحلة التفاح(٤) . ومن خانات غزة خان القهوة بمحلة السجاعية ، في سوقها(٥) . والجدير بالذكر ان قافلة الحج الشامي حملت القهوة (البن) من الحجاز ، التي اتاها من اليمن وغيرها ، الى الشام . ويبدو ان خان القهوة هذا كان لخزن القهوة وبيعها ، لا استهلاكها . ووجدت في غزة مقاه (قهوات) تقدم القهوة للجالسين . وهناك خط في غزة عرف بخط القهوة ، في محلة حكر التفاح(٦) كما وجد جامع ، ولعله في محلة حكر التفاح ، عرف بجامع القهوة(٧) ، مما يدل على اشتهار القهوة التي عرف الجامع بها . وهناك خط آخر ، يدعى خط القهوة ، بمحلة البرجلية(٨) ، وربما كانا خطا واحدا مر بمحلتي حكر التفاح والبرجلية .

وذكر (غات)(٩) خان الفلة ، وخان المعارف ، ووكالات ابو شعبان ، وابو خضرة ، وعلي ساق الله في غزة . واستخدام التعبير المصري « وكالة » للاشارة الى الخان دليل على الاثر المصري في المفردات السائدة في غزة . ولم تشر الوثائق الشرعية ، في فترة دراستنا ، الى هذه الاماكن ، اما لانه لم تعرض في محكمة غزة قضايا تستدعي ذكرها ، او لانها ، كلها او بعضها ، اوجدت في فترة الخمس والعشرين سنة التي فصلت بين فترة دراستنا والفترة التي كتب فيها (غات) وربما كانت تسميات قديمة لبعض الاماكن وقد تبدلت آنذاك .

ووجدت في غزة اسواق متخصصة ببيع منتجات معينة ، بعضها من الانتاج المحلي والبعض مستورد من ريف غزة او من الخارج . وكان للسوق قصبة ، اي ساحة ، تطل عليها الدكاكين . ومن هذه الاسواق سوق الفخار ، بخط الفخار ، بمحلة البرجلية . واشير اليه احيانا باسم سوق الفواخرية(١٠) . وبيعت في هذا

---

(١) سجل غزة ، ص ٧ ، ٢٩ جا ٧٣/(٢٥ كانون الثاني ٥٧) ، ص ٢٤٠ ، ٧ م ٧٦/(٦ آب ٥٩) .

(٢) Gatt, p. 153

(٣) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٤٤٣ ، ١٤ ج ٧٧/(٢٨ كانون الاول ٦٠)

(٤) سجل غزة ، ص ٩١ ، ١٥ ر ٧٤/(٣ كانون الاول ٥٧)

(٥) سجل غزة ، ص ٤٠٨ ، ١٩ را ٧٧/(٥ تشرين الاول ٦٠)

(٦) سجل غزة ، ص ١٠٨ ، غرة م ٧٤/(٢٢ آب ٥٧)

(٧) سجل غزة ، ص ٢٨٨ ، ٢٥ جا ٧٦/(١٠ كانون الاول ٦٠)

(٨) سجل غزة ، ص ١٠٨ ، غرة م ٧٤/(٢٢ آب ٥٧) ، ص ٣٧٩ ، ٢٥ م ٧٧/(١٣ آب ٦٠) ، ص ٤٤٨ ، ٢١ جا ٧٧/(٥ كانون الاول ٦٠).

(٩) Gatt, p. 153

(١٠) سجل غزة ، ص ٢٦٢ ، ٢ را ٧٦/(٢٩ أيلول ٥٩)

السوق المنتجات الفخارية ، التي صنعت في غزة في امكنة سميت بالفواخير . وذكرت الوثائق وجود خط ، بمحلة البرجلية ، عرف بخط الفواخير ، حيث تواجدت الفواخير بكثرة ، بعضها بجانب البعض ، كما في المثال التالي : « المشتري الحاج سلمان بن المرحوم اسماعيل الرايع البايع علي بن خليل القعوة المبيع ١٢ قيراط من اصل كامل في جميع الفاخورة الكاينة بمدينة غزة بمحلة البرجلية بخط الفواخير التي حدها قبلة فاخورة احمد عطا الله وتمامه فاخورة ابراهيم الشويكي ومن يشركه وتمامه حاكورة ابراهيم العيد وشرقا المسطاح التابع لها الداخل في المبيع ومنه التوصل وشمالا المشتري ومن يشركه وغربا كذلك المشتري الثمن ١٠٨٠ قرشا »(١) .

ولا نعلم اذا كان خط الفخار ، بمحلة البرجلية ، هو نفسه خط الفواخير ، ولكن مما لا شك فيه ان سوق الفخار ضم دكاكين بيع الفخار ، في حين صنع الفخار في الفواخير التي تجمعت في محلتين : في محلة البرجلية ، بخط الفواخير ، الذي يبدو انه امتد داخل غزة وظاهرها ، وفي محلة الدرج ، بخط مسجد الشيخ ظريف ، وكذلك في ظاهر هذه المحلة(٢) . واشتملت الفاخورة عادة على دواليب خشبية ، لصنع الفخار ، ومسطاح ، وهو عبارة عن ساحة واسعة مكشوفة لتجفيف الفخار فيها بعد صنعه(٣) . ويبدو ان غزة اشتهرت بصناعة الفخار نظرا لكثرة الفواخير فيها ، وتخصيص سوق لبيع منتجاتها . كما انها صدرت الفخار الى مناطق اخرى . وذكر ، مثلا ، تحميل الفخار على جمال ، ونقله الى القدس(٤) . واستمرت صناعة الفخار فيها رائجة ، كما يبدو ، الى درجة ان مصطفى الدباغ ذكر ان احد احياء غزة عرف بالفواخير(٥) ، ولكنه لم يعين تاريخ ذلك

ونظرا للحاجة الى الخبرة في صناعة الفخار ، وربما حرص اصحاب هذه الصناعة على حصرها باسرهم ، فاننا نلاحظ تخصص اسر معينة بها . ومن الاسر التي ذكرتها الوثائق في هذا المجال اسرة قعوة ، التي امتلك عدد من افرادها الفواخير ، ومنهم خليل بن قعوة ، واحمد قعوة ، وعلي بن خليل قعوة ، وموسى ابن خليل قعوة . ومن الذين امتلكوا الفواخير ، أو اجزاء منها ، من غير هؤلاء ، ابراهيم الشويكي ، خلف الاقرع ، محمد فلفل ، عبد ربه بن الحاج محمد الفداوي ، الحاج عبد الفتاح بن مصطفى المشهراوي ، الحاج سلمان بن المرحوم اسماعيل الرايع ، ابراهيم بن احمد الزنوتي ، ابو عبيد الازعر ، والحرمة أمون بنت صالح دغمش .

---

(١) سجل غزة ، ص ٤٣٤ ، ١٢ جا ٧٧/(٢٦ تشرين الثاني ٦٠)

(٢) سجل غزة ، ص ٣٢ ، ٥ ن ٧٣/(٢٩ نيسان ٥٧) ، ص ٧٠ ، ٣ را ٧٤/(٢٢ تشرين الاول ٥٧) ، ص ٩٥ ، ٦ جا ٧٤/(٢٣ كانون الاول ٥٧) ، ص ٤٤٩ ، ٢٢ ج ٧٧/(٥ كانون الثاني ٦١)

(٣) سجل غزة ، ص ٧٠ ، ٣ را ٧٤/(٢٢ تشرين الاول ٥٧)

(٤) سجل غزة ، ص ٤٤٣ ، ١٤ ج ٧٧/(٢٨ كانون الاول ٦٠)

(٥) ج١ ، ق٢ ، ص ١٠٠

ولا نعلم اذا كانت الحرمة امون مجرد مالكة ، بطريقة الشراء او الارث ، لفاخورة كاملة ، او جزء منها ، أم انها عملت فيها ايضا . وتدل كثرة المتعاملين بالفواخير ، ملكا او صناعة أو تسويقا ، على ان هذه الصناعة كانت رائجة .

ووجد في غزة سوق الاسكافية (الذين يعملون بصنع الاحذية) ، بمحلة السجاعية ، وتسمى الخط ، حيث موقع هذا السوق ، بخط الاسكافية (او السكافية)(١) وليس من الضروري ان يقتصر اي سوق حصرا على مهنة معينة ، وان يكن اتخذ اسمها . ففي خط الاسكافية ، مثلا ، ذكر لدكان صباغة)٢(. وفي غزة سوق الصوافين ، بمحلة السجاعية(٣) ، وسوق الغزل ، بمحلة السجاعية ايضا ، حيث تسمى خط باسمه (خط سوق الغزل)(٤) ، وسوق العطارين داخل غزة . ولم يعين مكان وجود السوق الاخير بالضبط ، ولكن ذكر ان ظهر هذا السوق كان مواجه الصبانة(٥) (ولعلها الصبانة ، أي المصبنة ، الرضوانية ، التي ذكرت بكثرة في الوثائق) . ولم يذكر (غات)(٦) ، في قائمة الاسواق التي ذكرها في عام ١٨٨٧ ، الاسواق المذكورة سابقا . ولا يعني هذا انها لم تعد موجودة في زمنه . وربما لم تثر اهتمامه ، أو ان اسمها تبدل ، أو ادمج بغيره ، او انها لم تعد مشهورة بالنسبة لاسواق اخرى

وذكرت الوثائق ، سوق السراجين ، بمحلة الزيتون(٧) ، وسوق الخضر ، داخل غزة(٨) . ولم يعين مكان وجوده بالتفصيل ، ولعله كان بمحلة الخضر . والملاحظ انه حين يشتهر سوق ما فان الوثائق لا تشير الى موقعه بالتفصيل ، مثل سوق السجاعية ، الذي غالبا ما اشارت اليه بالسوق داخل غزة . ووجد سوق للحمير ، وسمي خط باسمه (خط سوق الحمير) ، وكان بظاهر غزة ، الى الجنوب الغربي منها(٩) . وهناك سوق المسلخ ، داخل غزة ، بمحلة البرجلية ، كما يعتقد(١٠) ،

---

(١) سجل غزة ، ص ٢٩٣ ، ٤ ج ٧٦/(٢٩ كانون الاول ٥٩) ، ص ٣٩٩ ، ٢٨ ص ٧٧/ (١٥ ايلول ٦٠) ، ص ٤٣٣ ، ١١ جا ٧٧/(٢٥ تشرين الثاني ٦٠)

(٢) سجل غزة ، ص ٢٣٣ ، ١٨ ذا ٧٥/(١٩ تموز ٥٩)

(٣) سجل غزة ، ص ٣٧١ ، ٧ م ٧٧/(٢٦ تموز ٦٠)

(٤) سجل غزة ، ص ٩٩ ، ١٨ جا ٧٤/(٤ كانون الثاني ٥٨)

(٥) سجل غزة ، ص ٢٦٢ ، ٧ را ٧٦/(٣ تشرين الاول ٥٩)

(٦) Gatt, pp. 153-4

(٧) سجل غزة ، ص ١٤٤ ، ١٧ ذا ٧٤/(٢٩ تموز ٥٨) ، ذكر Gatt, p. 151 سوق السروجية ، ولعله نفسه

(٨) سجل غزة ، ص ٦ ، ٢٨ جا ٧٣/(٢٤ كانون الثاني ٥٧)

(٩) سجل غزة ، ص ٣٤٢ ، ٢٥ ل ٧٦/(١٦ ايار ٦٠) ، ص ٣٥٩ ، ٥ ذ ٧٦/(٢٥ ايار ٦٠)

(١٠) سجل غزة ، ص ٣٧٩ ، ٢٥ م ٧٧/(١٣ آب ٦٠) ، ص ٤٢٨ ، غرة جا ٧٧ /(١٥ تشرين الثاني ٦٠)

وربما بيعت في هذا السوق ذبائح المسلخ ، او انه سمي بذلك لوقوعه قرب المسلخ . اما المسلخ نفسه فكان بظاهر غزة ، بضريبة المسيل ، ويؤدي اليه زقاق عرف بزقاق المسلخ(١) . وذكرت الوثائق خط النحاسين ، داخل غزة ، دون ان تذكر المحلة التي وجد فيها(٢) ، ولعل التسمية جاءت من كثرة النحاسين في هذا الخط .

ويبدو ان السوق الرئيسي في غزة ، الذي لم يتخصص بسلعة معينة ، ولم يحدد بخط معين ، كان سوق السجاعية . واشتهرت ساحته ، المعروفة بالقصبة ، التي تطل عليها الدكاكين . والى جانب القصبة وجد ، بسوق السجاعية ، خط عرف بخط البازار ، مما يعني ان هذا السوق كان متشعبا(٣) . واشارت الوثائق الى السوق الفوقاني بمدينة غزة ، وكانت له قصبة(٤) . ولا نعلم سبب تسميتهبالفوقاني ، وبالنسبة لاي موقع سمي بذلك . ولعله تسمى بذلك لكونه يقع شمالي سوق السجاعية ، او ربما كان جزءا من سوق كبير اطلق على قسمه الاعلى تعبير السوق الفوقاني .

وكثرت في غزة اماكن الصباغة ، وتوزعت في انحاء متعددة من المدينة لتلبية حاجات المواطنين . واشير الى هذه الاماكن احيانا ، بالمصبغة ، واحيانا اخرى بدكان الصباغة ، وتصعب معرفة وجه الاختلاف بين التعبيرين . ويبدو ان لا فرق بينهما لانهما استخدما بمعنى واحد . ووجدت مصبغة في خط الاسكافية ، بمحلة السجاعية(٥) ، واخرى في خط جامع ابن عثمان ، بالمحلة ذاتها(٦) . وقد اوقف المصبغة الاولى صاحبها ، احمد بن علي المشهراوي ، على سبيل الى جانبها . وكانت المصبغة الثانية وقفا على جامع ابن عثمان . وذكرت مصبغتان اخريان بمحلة السجاعية : تملك احداهما عبد الرحمن زموا ومن يشركه ، وملك الاخرى عبد الرحمن زموا ايضا ، ونازعه في ملكية جزء منها السيدان يوسف السقا واخاه علي(٧) .

---

(١) سجل غزة ، ص ٤١٤ ، ٦ ر ٧٧/(٢٢ تشرين الاول ٦٠) ، ص ٤١٥ ، ٥ ر ٧٧/(٢١ تشرين الاول ٦٠)

(٢) سجل غزة ، ص ٢٥ ، ٢٧ ب ٧٣/(٢٣ آذار ٥٧) ، ص ١٠٨ ، غرة م ٧٤/(٢٢ آب ٥٧) .

(٣) سجل غزة ، ص ٧٧ ، ١٥ را ٧٤/(٣ تشرين الثاني ٥٧) ، ص ١٢٢ ، ٧ ن ٧٤/(١ ايار ٥٧) ، ص ١٩٣ ، ٢٥ ج ٧٥/(٣٠ كانونالثاني ٥٩) ، ص ٢٦٩ ، ٨ ر ٧٦/(٤ تشرين الثاني ٥٩) ، ص ٣٧٣ ، ٤ م ٧٧/(٢٣ تموز ٦٠) .

(٤) سجل غزة ، ص ٤٤٧ ، ١٥ ج ٧٧/(٢٩ كانون الاول ٦٠)

(٥) سجل غزة ، ص ٢٢١ ، ٥ ذا ٧٥/(٦ حزيران ٥٩) ، ص ٢٣٣ ، ١٨ ذا ٧٥/(١٩ حزيران ٥٩)

(٦) سجل غزة ، ص ٥ ، ٢٤ جا ٧٣/(٢٠ كانون الثاني ٥٧) ، ص ٢١٣ ، ١٩ ش ٧٥/(٢٤ آذار ٥٩) .

(٧) سجل غزة ، ص ٥٤ ، ١٥ ذ ٧٣/(٦ آب ٥٧)

وذكرت صبانتان (مصبنتان) في غزة : الصبانة الرضوانية داخل غـزة(١) ، وصبانة بمحلة البرجلية ، بخط بني عامر(٢) . ولا يوجد دليل قاطع على ان الصبانة الثانية كانت غير الاولى . ووجدت مشعرة في غزة(٣) ، ويبدو انها مكان لفزل شعر الماعز . واشارت الوثائق الى عدد من المعاصر في غزة ، ولكنها لم تذكر تخصص كل منها ، باستثناء واحدة بمحلة البرجلية ، بخط مسجد الشيخ عياد . وقد اشتملت على حاملين وفرن ومعجن واحواض وشمعة لتثبيت الاحجار ، وهي معدة لطحن السمسم ، وقد اشترى ثلثيها في ٢٥ جمادى الثاني ١٢٧٣/ ٢٠ شباط ١٨٥٧ ، السيد خليل بن المرحوم السيد محمد ابي خضرة من صاحبيهما بالتساوي الحاج احمد بن المرحوم الحاج خليل العشي والخواجة نقولا ولد جبران الطويل النصراني(٤) واذا صح القول ان معصرة الزيت عرفت باستمرار بالبـد ، الذي اشارت اليـه الوثائق في اماكن كثيرة ، فان المعاصر ، التي ورد ذكرها في الوثائق ، ولم تعـين هويتها ، كانت اما لطحن السمسم ، الذي استخرج منـه زيت السيرج ، كما في المثال السابق ، او لعصر العنب لاستخراج الدبس . والمعاصر التي اشارت اليها الوثائق هي التالية : معصرة اولاد الفزالي بمحلة السجاعية(٥) ، ومعصرة بدوي حتحت بمحلة السجاعية ، بخط الست رقية(٦) ، ومعصرة اولاد حتحت بمحلة السجاعية ، بخط جامع ابن عثمان(٧) ، ومعصرة اولاد مكي بمحلة الخضر ، بخط معصرة اولاد مكي(٨) ، ومعصرة اولاد القهوجي بمحلة البرجلية ، بخط سوق الحمام(٩) ، ومعصرة الحاج حسن بن المرحوم الحاج احمد البورنة (كتبت احيانا البورنو او البورنوا) ، بمحلة الزيتون ، بخط الشيخ عطية(١٠) .

وقد ذكر عدد من البدود التي يعتقد انها اختصت بعصر الزيت . وضـم البد المسطاح ، وهي الارض المكشوفة ، حيث يجمع الزيتون قبل عصره ، وحيث رصت وجففت بقايا الزيتون المعصور لتستخدم كوقود . وهناك بد لاولاد شرير بمحـلة

---

(١) سجل غزة ، ص ٢٦٢ ، ٧ را ٧٦/(٣ تشرين الاول ٥٩)
(٢) سجل غزة ، ص ١٤ ، ٢٤ ج ٧٣/(١٩ شباط ٥٧)
(٣) سجل غزة ، ص ٥٤ ، ١٥ ذ ٧٣/(٦ آب ٥٨)
(٤) سجل غزة ، ص ١٥ ، ٢٥ ج ٧٣/(٢٠ شباط ٥٧)
(٥) سجل غزة ، ص ٤ ، ٥، ١٥ ذ ٧٣/(٦ آب ٥٨)
(٦) سجل غزة ، ص ٤٥٥ ، ١٣ ب ٧٧/(٢٥ كانون الثاني ٦١)
(٧) سجل غزة ، ص ٥ ، ٢٤ جا ٧٣/(٢٠ كانون الثاني ٥٧) ، ص ٢١٣ ، ١٩ ش ٧٥/(٢٤ آذار ٥٩)
(٨) سجل غزة ، ص ٣٦ ، ٢٧ ذ ٧٤/(٨ آب ٥٨)
(٩) سجل غزة ، ص ٢٤٩ ، ٩ م ٧٦/(٨ آب ٥٩)
(١٠) سجل غزة ، ص ٣٧٢ ، ٧ م ٧٧/(٢٦ تموز ٦٠)

الزيتون(١) ، وبد آخر بمحلة الزيتون ، بخط البطل ، امتلك بعضه ، او كله ، آل مرتجا(٢) . واشير الى خربة البد بمحلة الزيتون ، بخط ساقية القيدة(٣) ، والى خربة بد آخر بمحلة الزيتون ، عرف ببد زايد(٤) ، والى خربة بد ثالثة بمحلة الزيتون ، بخط البطل(٥) . وليس غريبا ان جميع هذه البدود قد وجدت بمحلة الزيتون التي اقترن اسمها بهذا الانتاج . وهناك بد بنزلة المشاهرة ، بظاهر غزة(٦) ، وبد آخر ، بظاهر غزة ايضا ، من الجهة القبلية ، بجانب « حارت الزيتون » ، بخط البطل(٧) .

واشارت الوثائق الى خربة طاحون بمحلة الزيتون ، اشترى حوالي ثلثيها نصار بن الحاج سليمان يسين من اولاد الطحان . وهناك اشارة الى فرن بمحلة البرجلية ، بخط مسجد الشيخ عياد ، وكان في وقف الشيخ ذكري(٨) .

ولم تشر الوثائق الشرعية الى طوائف حرفية في غزة ، في فترة دراستنا . وليس ذلك بسبب عدم وجود هذه الطوائف ، بل ربما لان المحكمة الشرعية لم تعد آنذاك المرجع المسؤول عن النظر فيها ، بدليل ان واجبات قاضي غزة التي ذكر بها عند تعيينه لم تنص على النظر في قضايا الطوائف . والجدير بالذكر ان قضاة دمشق ، في الفترة ذاتها ، لم ينظروا في قضايا الطوائف الحرفية ، خلافا لما كان عليه الامر في القرون السابقة ، ابان الحكم العثماني ، وعهد الى مجالس اخرى بالنظر فيها . ومع ذلك ، وجدت اشارات الى وجود حرفيين في غزة ، مثل محمد بن قبيل ، دقاق البارود المصري(٩) ، وخليل بن ابراهيم البلعاوي الحداد ، الذي ذكر بمناسبة بيع دكانه المعدة للحدادة بمحلة الخضر ، بسوق الخضر(١٠) . كما جاء ذكر داود ولد مسعود النحاس الذمي(١١) ، ورمضان البيطار ، الذي اشترى من الخواجة سالم البصلة خمسة عشر الف مسمار(١٢) . وورد اسم الحاج مصطفى قصاب باشي

---

(١) سجل غزة ، ص ٢٤٧ ، ختام را ٧٣/(٢٨ تشرين الثاني ٥٦)
(٢) سجل غزة ، ص ٢٣٨ ، ٥ م ٧٦/(٤ آب ٥٩)
(٣) سجل غزة ، ص ٢٥٤ ، ٥ ص ٧٦/(٣ ايلول ٥٩)
(٤) سجل غزة ، ص ٢٠٣ ، ٢١ ب ٧٥/(٢٤ شباط ٥٩)
(٥) سجل غزة ، ص ١٦٢ ، ٢ را ٧٥/(١٠ تشرين الاول ٥٨)
(٦) سجل غزة ، ص ٤٩ ، ٢٨ ر ٧٣/(٢٦ كانون الاول ٥٦)
(٧) سجل غزة ، ص ٢٣٩ ، ٥ م ٧٦/(٤ آب ٥٩)
(٨) سجل غزة ، ص ٢٦٧ ، ختام را ٧٦/(٢٧ تشرين الاول ٥٩)
(٩) سجل غزة ، ص ١٢٦ ، ١٥ ذا ٧٤/(٢٧ حزيران ٥٨)
(١٠) سجل غزة ، ص ٢٣٨ ، ٣ م ٧٦/(٢ آب ٥٩)
(١١) سجل غزة ، ص ٣٥ ، ١٥ ل ٧٣/(٨ حزيران ٥٧)
(١٢) سجل غزة ، ص ٤٢٩ ، ٢٢ ر ٧٧/(٨ تشرين الثاني ٦٠)

الحج الشريف(١) . وذكر الصوافون بغزة ، وانهم ارباب خبرة ودراية بصناعة الصوف وشرائه(٢) .

وهناك قاعات اعدت للحياكة في غزة ، منها واحدة بمحلة السجاعية، بخط مسجد علي المغربي(٣) ، واخرى امتلكها محمد الاقرع ومن يشركه بمحلة البرجلية ، بخط بني عامر . وذكرت « القاعة المعدة للحياكة سابقا » ، بمحلة السجاعية ، بخط الحمام(٤) .

وفي اطار علاقات غزة التجارية مع العالم الخارجي ذكر استيراد الذرة من الاسكندرية اليها ، عن طريق البحر . وكانت الذرة معبأة بأكياس ، داخل كل كيس ٢٣ ربعا(٥) . وكان لتجار غزة وكلاء في الاسكندرية . كما انه تم استيراد الصوف من جدة الى غزة ، بواسطة أمين التجار في السويس ، واسمه جريس الظهر . وكان مصدر الصوف في جدة السيد يوسف بناجه ، وله أمين ، أي وكيل ، في غزة ، اسمه السيد احمد يوسف السقا . وكان السيد أحمد هذا أمينا ، في الوقت ذاته ، لتجار آخرين . وكان الصوف موجها ، في الاصل ، الى الحاج عمر زعيتر بنابلس ولكن هذا اذن لوكيله ، السيد احمد يوسف السقا ، ببيعه في غزة(٦) . وورد ذكر شراء خيول وبواريد من مصر وجلبها الى غزة(٧) وبالمقابل ، صدر الفخار ، من غزة الى القدس(٨) .

ويلاحظ في العمليات التجارية في غزة انتشار الديون بشكل كبير ، ودراسة هذه الظاهرة تلقي ضوءا هاما على البنية الاجتماعية والاقتصادية في غزة وريفها ، اذ يقتضي ذلك معرفة هوية المدينين والدائنين ومهنتهم ، على حد سواء ، ومقدار مداخيلهم . ويقودنا ذلك الى معرفة انواع الثروة ، وتوزعها بين الناس ، وكيفية توظيف الرساميل ، والعقلية التجارية التي حركت ذلك . واهم مصدر لمعرفة هذه التفاصيل هو ضبوط تركات ، أي مخلفات ، المتوفين . ولابد من الاشارة هنا الى انه ليس من الضروري ان تسجل كل تركة في سجل الوثائق الشرعية ، أي ان عددا من التركات لم يسجل بسبب عدم وجود خلاف حولها يستدعي عرضها على القاضي كما ان ضبط التركة لا يجري مباشرة بعد وفاة صاحبها بدليل ان حسين بن حمودة

---

(١) سجل غزة ، ص ٢ ، ٢٤ جا ٧٥/(٣٠ كانون الاول ٥٨)
(٢) سجل غزة ، ص ٢٩٤ ، ٧ ج ٧٦/(١ كانون الثاني ٦٠)
(٣) سجل غزة ، ص ١٣٢ ، ٣ ذا ٧٤/(١٥ حزيران ٥٨)
(٤) سجل غزة ، ص ٢٥٢ ، ٩ ذا ٧٥/(١٠ حزيران ٥٩)
(٥) انظر فيما يلي ، ص ٨٣
(٦) سجل غزة ، ص ٢٩٤ ، ٧ ج ٧٦/(١ كانون الثاني ٦٠)
(٧) سجل غزة ، ص ١٧٣ ، ٢٠ را ٧٥/(٢٨ تشرين الاول ٥٨)
(٨) سجل غزة ، ص ٤٤٣ ، ١٤ ج ٧٧/(٢٨ كانون الاول ٦٠)

الدباغة توفي في شهر ذي القعدة ١٢٧٣/ حزيران ـ تموز ١٨٥٧ ، في حين ان تاريخ ضبط متروكاته وبيعها ، كان في ٥ ربيع الاول ٢٤/١٢٧٤ تشرين الاول ١٨٥٧(١) . ويبدو أن هذا التأخير كان بسبب ثروته الكبيرة ، وضرورة حصرها ، وجمع ما أمكن من الديون التي كانت له بذمة الناس . ونجد ، بالمقابل ، ان التركة البسيطة ، التي لا مشكلة تقتضي تأخير ضبطها ، سجلت بعد وفاة صاحبها بوقت قصير ، مثل تركة مصطفى افندي اسطنبلي ، اون باشي كرنتينة غزة ، المتوفى بخان يونس في ١٠ رجب ٢/١٢٧٦ شباط ١٨٦٠ ، والتي سجلت في سجل محكمة غزة بتاريخ ٢٣ رجب ١٥/١٢٧٦ شباط ١٨٦٠(٢) . ولم يشر ضبط التركة ، في الغالب ، الى تاريخ الوفاة ، او الى مكان سكن المتوفي ، او عمله . ويمكن استنتاج مهنته من تفاصيل الادوات التي وجدت في دكانه ، ومن طبيعة الاعمال التي قام بها .

ونعرض فيما يلي نموذجا لهذه التركات يتمثل في ضبط تركة ابراهيم ابو ريالة الحداد(٣) : « بيان ضبط تركة ابراهيم ابو ريالة الحداد المنحصر ارثه في أولاده عبد القادر واحمد وعزيزة وشنن القاصرين عن درجة البلوغ ومحمد وعبد ربه وخديجة البالغين وفي زوجتيه هما الحرمة زينب بنت خليل ابو حمار وفاطمة البكر القاصرة بنت محمد كشكوا وذلك بحضور ومعرفة كل واحد من محمد البالغ المذكور الاصيل عن نفسه والمنصوب الآن من قبل مولانا الحاكم الشرعي على اخوته القاصرين المذكورين وبحضور عبد ربه ومحمد بن خليل ابو حمار الوكيل الشرعي عن اخته الحرمة زينب الزوجة المذكورة بشهادة وتعريف كل واحد من عبد الهادي الحداد وعبد ربه المذكور وبحضور محمد كشكوا ولي الزوجة الثانية وبحضور محمد الوصي وكيل خديجة البالغة بشهادة وتعريف كل واحد من محمد بن شاهين الخزامي وحسين بن نصار ابو تريا التعريف الشرعي وهو هذا كما يأتي بيانه بالمفردات .

ثمن عدة الدكان على عبد ربه ابن المتوفي ، ٧٠٠ (قرش) ، دين ثابت قِبل جبر العقاد الخاني بموجب سند ، ١٣٠٠ ، دين قبل سعودي واخيه طالب العقاد بموجب سند ، ٩٨٠ ، دين قبل ابراهيم عبد الدايم الخاني بموجب سند ، ٥٢٠ ، دين قبل الحاج حسن الراعي بموجب سند ، ١٣٥ ، دين قبل سعد الدين مرتجا بموجب (فراغ) ، ١٣٥ ، المجموع ٣٧٧٠ .

مصارف نافذة : تجهيز وتكفين ومصارف ، ١٥٠ ، مؤخر الزوجة ، ٢٠٠ ، رسم التركة ، ١٠٠ ، كتاب ، ٣٠ ، رسلية ، ٦ ، المجموع ٤٨٦ . الباقي ٣٢٨٤ .

خص الزوجة الحرمة زينب بحق قيراط ونصف قيراط ، ٢٠٥ر٥ (٥ تساوي

---

(١) سجل غزة ، ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٥ را ٧٤/(٢٤ تشرين الاول ٥٧)
(٢) سجل غزة ، ص ٣١٠ ، ٢٣ ب ٧٦/(١٥ شباط ٦٠) .
(٣) سجل غزة ، ص ١٦ ، غرة ب ٧٣/(٢٥ شباط ٥٧) .

نصف قرش اي ۲۰ مصرية) ، خص الزوجة الشابة فاطمة القاصرة بحق قيراط ونصف قيراط ، ٢٠٥ر٥ ، خص ولده عبد ربه البالغ استحقاقه ، ٥٢٢ر١٥ ، (١٥ مصرية من اربعين مصرية) ، خص ولده محمد البالغ بحق استحقاقه ، ٥٢٢ر١٥ ، خص عبد القادر القاصر بحق حصته ، ٥٢٢ر١٥ ، خص احمد القاصر بحق حصته ، ٥٢٢ر١٥ ، خص عزيزة القاصرة ، ٢٦١ر٧ (اي سبع مصريات) ، خص شنن القاصرة ، ٢٦١ر٧ ، خص خديجة البالغة ، ٢٦١ر٧ ، (المجموع) ٣٢٨٤ ، تحريرا في غرة رجب ١٢٧٣/(٢٥ شباط ١٨٥٧) .

ثم قضى مولانا الحاكم الشرعي لرسم طعام وشراب وكسوة عزيزة وشنن في كل يوم عشرة قروش فضة واذن لوصيهما المذكور في انفاق ذلك عليهما مياومة وقبل منه ذلك غرة رجب ٧٣ .

الشهود : عبد الهادي الحداد ، محمد شاهين الخزامي ، حسين نصار ابو تريا ، نصر الله محمد المفير ، محمد ابو حمار ، السيد حسين ابو سيدو ، يوسف الكاتب ، الفقير علي م (اي علي الجاعوني كاتب المحكمة الذي انتدب من قبل القاضي لضبط التركة وتوزيعها) » .

ولم تتعرض التركة الى العقارات التي خلفها المتوفي ابراهيم ابو ريالة الحداد . ونستدل عليها(١) من بيع الزوجة فاطمة القاصرة الى بقية الورثة حصتها ومقدارها قيراط ونصف قيراط مما يلي : جميع الدكان بخط النحاسين ، جميع الدار ، بمحلة الزيتون ، بخط مسجد الشمعة ، جميع الحاكورة ، بمدينة غزة ، بخط الكمالية . وقبضت عن حصتها هذه ٥٠٠ قرش . وهذا يعني ان ثمن كامل عقارات ابراهيم ابو ريالة الحداد يعادل ٧٩٢٨ قرشا . وبذلك يكون مجمل ثروته ، المنقولة وغير المنقولة ، ١١٢١٢ قرشا .

ومما يسترعي الانتباه ، اول شيء ، في تركة ابراهيم ابو ريالة الحداد ، وفي ضبوط التركات بصورة عامة ، ان الدولة لم تتقاض ضريبة على التركات . اما رسم التركة ، الذي اشير اليه احيانا برسم جناب الافندي (اي القاضي) ، فكان اجر القاضي . وهذا الرسم زهيد القيمة ، بلغ في ضبط تركة ابراهيم ابو ريالة ، الذي بلغت ثروته المنقولة ٣٧٧٠ قرشا ، مائة قرش ، اي بنسبة ٢٦ بالالف منها . ومن دراسة رسوم التركات الاخرى يتبين ان نسبة الرسم تراوحت بين ١٠ و ٢٦ بالالف . ولم تتبين لنا قاعدة ثابتة لحساب نسبة الرسم ، التي اختلفت من تركة الى اخرى .

ونلاحظ كذلك في ضبط تركة ابراهيم ابو ريالة ان ضبط التركة وتوزيعها تناول

---

(١) سجل غزة ، ص ١٧ ، ختام ج ٧٣/(٢٤ شباط ٥٧)

فقط الثروة المنقولة ، ولم يتطرق ، في هذه الثروة ، الى محتويات الدار التي كانت تباع في العادة في تصفية التركات . أما الثروة غير المنقولة فلم يتعرض لها ضبط التركة ، وبقيت مشاعا الى ان رغب احد الورثة بالحصول على حصته منها . والغالب في ضبوط التركات عدم ذكر الثروة غير المنقولة التي خلفها المتوفى الا في الحالات التي فاقت فيها قيمة ديونه مجموع ثروته فيعمد عندئذ الى بيع العقارات لتغطية كامل الديون ، او جزء منها ، اذا لم يف ثمنها بمبالغ الديون المترتبة على المتوفى . ومما يجدر ذكره أن وثائق غزة الشرعية اشارت الى متروكات المتوفى ، التي توزعها ورثته ، بالمنقول ، وهذا لا يشمل الممتلكات غير المنقولة « ما عدا العقار والجدار فانه باق بينهما على حاله وكل منهما له ان يتصرف فيه بقدر استحقاقه »(١) .

ويلاحظ ايضا في تركة ابراهيم ابو ريالة ان نسبة الاموال المنقولة الى غير المنقولة (٣٢٨٤ قرشا الى ٧٩٢٨ قرشا) بلغت ٤١ر٤ بالمئة ، وهي نسبة من السيولة المادية لا بأس بها من مجموع الثروة . واذا صح ان ابراهيم ابو ريالة كان حدادا ، بدليل ان كلمة « الحداد » ، كما يبدو ، لقب مهنته ، وليست نسبته ، وكذلك بدليل انواع الادوات المتعلقة بمهنة الحدادة التي وجدت في دكانه ، فان راسمال هذا الحداد ، البالغ ٧٠٠ قرش ، وهو ثمن عدة الدكان ، والذي يمكن اعتباره نواة الثروة ، يشكل توظيفا ضئيلا ، ولكن مربحا جدا ، للمال ، بالنسبة لكامل الثروة التي بلغ مجموعها ١١٢١٢ قرشا ، اي ان نسبة الربح بلغت حوالي ٧ر١٥٠١ بالمئة ، دون ان تدخل فيها نفقات معيشته واسرته . ومما يدل على ان ثروة ابراهيم ابو ريالة غير المنقولة كانت بكاملها من املاكه الخاصة ، ولم تكن جزءا من مشاع ، ان زوجته فاطمة القاصرة حين اخذت حصتها البالغة قيراطا ونصف القيراط احتسبت على اساس كامل العقارات التي ملكها زوجها ، وكان من الممكن الوصول الى قناعة اضافية بأن هذه الثروة غير المنقولة جناها ابراهيم ابو ريالة بنفسه ولم يرثها عن احد ، فيما لو كانت وثائق غزة الشرعية اكثر تفصيلا ، اي ان تذكر ، كما فعلت وثائق دمشق مثلا في الفترة ذاتها ، ان العقارات حصل عليها صاحبها بطريق الشراء لا الارث .

ان الثروة التي جمعها ابراهيم ابو ريالة الحداد ليست معيارا لحجم ثروات الحرفيين الآخرين . فثروات هؤلاء كما تظهر ضبوط تركات الحرفيين ، لم تبلغ حدود ثروة الحداد ابو ريالة . مثلا ، ثروة مصطفى المناخلي ، الذي كانت حرفته صنع المناخل وما يتعلق بها ، بلغت ٦٩٧ قرشا . وترتب على التركة ٥ر١٣٤ قرشا من المصاريف ، فيكون باقي الثروة ٥ر٥٦٢ قرشا(٢) . أما أسعد الخاني الاسكافي فلم

---

(١) سجل غزة ، ص ١٤٦ ، ٢٦ ذ ٧٤/(٧ آب ٥٨)

(٢) سجل غزة ، ص ٢٤٦ ، ٤ ص ٧٦/(٢ ايلول ٥٩)

يخلف سوى داره التي بيعت ب ١٢٠٠ قرش ، في حين بلغت ديونه ٢٤٦٢ قرشا . وقد وزع ثمن الدار ، بعد اقتطاع مبلغ ٤٧٫٥ قرشا مقابل رسوم ومصاريف المتوفى ، على اصحاب الديون . والذي حصل من هؤلاء على كامل حصته من الدين كان السيد خليل الشوى ، لان الدار كانت مرهونة لديه ، بطريق بيع الوعد ، لقاء مبلغ قدره ٤٥٧٫٥ قرشا(١) . وقدرت ثروة سالم الطحان ب ١٧٠٦ قروش ، وبلغت ديونه ٤٥٤٠ قرشا ، فوزعت الثروة على اصحاب الديون بنسب متفاوتة(٢) .

ويمكن تفسير ثروة ابراهيم ابو ريالة بالديون التي عقدها ، والتي لم تبرز في تركات الحرفيين الآخرين ، بل على العكس كانوا ضحيتها لانهم اغرقوا بالديون ، وما تضمنته من نسبة مرتفعة من الفائدة ، التي يبدو ان الدائنين تقاضوها ، مما ضاعفها عدة مرات . ولم تشر الوثائق الشرعية بالنص الى الفائدة او نسبتها ، في قضايا الدين ، لانها غير مقبولة شرعا ، ولكن اشير اليها احيانا ، بصورة غير مباشرة ، باصطلاح « مرابحة المال بالفائدة » ، كما في المثال التالي : بيان الذي قبضته الحرمة فاطمة بنت محمد الادهم من تركة ولديها عبد الخالق واحمد من يد شعبان بن الحاج احمد بسيسه ٢٠٠٠ درهم بالاضافة الى ١٠٠٠ مرابحة المال بالمعاملة وذلك عما خص عبد الخالق واخيه ، فاصبح المجموع ٤٠٠٠ . ومات عبد الخالق عن القدر المذكور وعنه ورثته والدته واخته شقيقته واخته لابيه واخوته لامه(٣) . ولا نعلم مقدار الفترة التي تمت فيها المرابحة ، ولكن نسبة المرابحة التي بلغت الثلث ، تعتبر فائدة كبيرة مهما كانت الظروف . وهناك مثال آخر يؤكد الفائدة ونسبتها المرتفعة ورد في ضبط تركة عبد الله بن علي الجبالي(٤) . فقد ذكر ان له جملة من الديون بلغت ٢٠٢٨٦ قرشا (من اصل ثروته البالغة ٢٢٢٦٣ قرشا) . واحد هذه الديون ، بذمة علي ابن بدر شعث ، بلغ مقداره ٣٢٥٠ قرشا . وحين حساب ما تبقى من الثروة للورثة نقص مبلغ الدين هذا ، الذي بذمة علي بن بدر شعث ، من ٣٢٥٠ الى ٥٥٣ قرشا ، لانه « صار دفعه قبل وفا الاجل وقطع زيادة الربح على قدر المدة » . ولا توجد هنا ايضا اشارة الى نسبة الفائدة ، او مدة وفاء الدين ، سواء الفعلية منها ، التي دفع مبلغ الـ ٥٥٣ قرشا على اساسها ، او النظرية ، التي توقع ان يصل اجمالي المبلغ فيها الى ٣٢٥٠ قرشا . ولكن يلاحظ ان مبلغ الـ ٥٥٣ قرشا ، الذي دفعه علي ابن بدر شعث ، لا بد وانه اكثر من اساس المبلغ الذي استدانه ، لانه يتضمن بعض الفائدة عن الفترة منذ استلامه المبلغ من المدين وحتى وفاء الدين ، وعلى هذا ، فان مقدار الدين ، الذي كان أقل من ٥٥٣ قرشا ، كان مقدرا له ان يبلغ ٣٢٥٠

(١) سجل غزة ، ص ٤٢٨ ، ٢٩ ر ٧٧/(١٤ تشرين الثاني ٦٠)
(٢) سجل غزة ، ص ٣٠٧ ، ٣ ب ٧٦/(٢٦ كانون الثاني ٦٠)
(٣) سجل غزة ، ص ٤٤١ ، ٤ ج ٧٧/(١٨ كانون الاول ٦٠)
(٤) سجل غزة ، ص ٣١٧ ، ٣ ش ٧٦/(٢٥ شباط ٦٠)

قرشا ، فيما لو استكمل كامل مدة اجل الدين ، وهذا دليل على فائدة مرتفعة جدا ، اي ان المبلغ الاساسي كان مقدرا له ان يتضاعف ست مرات تقريبا

ومن ثلاث واربعين تركة لرجال ، وردت تفاصيلها تامة في سجل وثائق غزة الشرعية (توجد ضبوط تركات اخرى لم تستكمل في السجل) ، نجد ان خمس تركات بلغت النفقات المترتبة على اصحابها اكثر من الثروة التي جمعوها ، من اموال منقولة وغير منقولة ، لذا اعتبرت هذه التركات مثقلة بالديون ودفعت نسبة معينة من الديون لاصحابها ، في هذه الحالات ، بقدر ما سمحت به الثروة . وقد بلغت هذه النسبة ، مثلا ، في تركة صالح الدويري ، خمسين قرشا لكل مائة قرش من الديون(١) . وفي حال عجز التركة عن مبلغ معين ، واقتدار الورثة على دفعه ، قسط المبلغ على الورثة ، كل على قدر حصته ، لصالح ارباب الديون(٢)

وادنى ثروة وردت في ضبوط التركات كانت لمحمد المصري ، سواق ساقية حمام السمرة بغزة (لعله كان يعنى بدفع المواد المتراكمة في ساقيتها ، وبالتالي تنظيفها) ، اذ بلغت ٥١ قرشا . وقد استهلكت بكاملها في مصاريف الوفاة ، وكان اولاد محمد المصري غائبين في مصر(٣)

ويلاحظ في التركات ان الثروات الكبيرة جمعت عادة من التجارة والزراعة وتوظيف المال في الديون ، وحتى من الاستدانة وتوظيف المال المستدان في اعمال رابحة . وسنستعرض اكبر ثلاث ثروات بين التركات . وكان أقلها ثروة درويش السيروان ، الذي تعاطى تجارة الاقمشة ، وعمل بالزراعة . وبلغ مجموع ثروته المنقولة ٣٦٣٥٨ قرشا ، منها ٧٢٨٦ قيمة موجودات دكانه ، و ٢٥٨٤ مجموع النقود المختلفة ، التي وجدت بالدكان ، و ٢٦٤٨٨ ثمن حبوب وحيوانات مختلفة . وبلغت مصاريفه ٢٤٨٥١ قرشا ، منها ٢١٧٨١ قيمة ديون ترتبت عليه . وبذلك بقي من ثروته ١١٥٠٧ قروش(٤) . ولم يتعرض ضبط التركة الى الممتلكات غير المنقولة . ومما يلفت الانتباه ان نسبة الديون الى مقدار الثروة (٢١٧٨١ الى ٣٦٣٥٨) بلغت حوالي ٦٠ بالمئة ، مما يدل على اهمية السيولة المالية وعدم اللجوء الى تخبئة المال على مقياس كبير ، وتعطيل الفعاليات الاقتصادية بالتالي . كما انه يدل على عقلية تجارية ناشطة عمدت الى الاستدانة وتوظيف المال بشكل مربح . ونستدل من ذلك ايضا ان الربح من المتاجرة فاق الربح الناتج عن فائدة الديون ، على كبر هذه الفائدة .

وفاقت ثروة درويش السيروان في الاهمية ثروة السيد عبد القادر بن صالح

---

(١) سجل غزة ، ص ٤٣٨ ، ٢٧ جا ٧٧/(١١ كانون الاول ٦٠)
(٢) سجل غزة ، ص ٤٠٠ – ٤٠١ ، ٨ را ٧٧/(٢٤ ايلول ٦٠)
(٣) سجل غزة ، ص ١٩٢ ، ٢٢ ج ٧٥/(٢٧ كانون الثاني ٥٩)
(٤) سجل غزة ، ص ١٦٤ – ١٦٥ ، ٩ را ٧٥/(١٧ تشرين الاول ٥٨)

الشوى ، اذ بلغت ٤٨٣٥٨ قرشا ، منها ١٩٠٠٧ وجدت نقدا بصندوقه ، و ١٢٣٠٠ قيمة ديون (منها ٦٩٩٤ بذمة اهالي قرية حتا) و ٨٦٥٠ ثمن حنطة وذرة وشعير . وبلغت مصاريفه ١١٩٦٤ قرشا ، منها ٧٠٨٥ ديون عليه للافراد ، و ٢٥٣١ قرشا مطلوبة منه للميري ، بمقابل زراعته في قريتي بيت طيما وبرير . وبلغ باقي ثروته ٣٦٣٩٣ قرشا(١) . ومن جديد ، نلاحظ ان الديون كونت نسبة كبيرة من توظيف المال ، بلغت ٢٥٫٤ بالمئة من اصل الثروة . ويمكن القول ان ثروة عبد القادر الشوى بنيت بمعظمها على سيولة نقدية بلغ مجموعها ٤٠٩٢٣ قرشا ، منها ١٢٣٠٠ ديون عقدها ، و ١٩٠٠٧ وجدت نقدا في صندوقه ، و ٧٠٨٥ ديون استدانها ، و ٢٥٣١ بذمته للميري ، وجميع ذلك من اصل ثروته البالغة ٤٨٣٥٨ ، أي بنسبة ٨٤٫٦ بالمئة . في حين ان الواردات الزراعية بلغت حوالي سدس ثروته فقط .

واكبر ثروة بين التركات في سجل غزة خصت السيد حسين بن السيد حمودة الدباغة وكان تاجر اقمشة في الاساس ، ووظف بعض امواله في الريف وقد بلغت ثروته ٦٥٠٨٦ قرشا ، منها ٣٦٠٨١٫٥ قيمة موجوداته (بما فيها ١٤٠٥٠ ثمن بقر في قرية دير سنيد وغيرها) ، والباقي ، وبلغ ٢٩٠٠٤٫٥ ديون بذمة الناس وكانت مصاريفه ٣٧٨٠ قرشا ، فيكون باقي التركة ٦١٣٠٦ قروش وزعت على الورثة(٢)

ويلاحظ ان نسبة الديون التي كانت للسيد حسين الدباغة بذمة الآخرين بلغت ٤٤٫٥ بالمئة من ثروته . واذا ما قارنا ذلك مع نسبة الديون التي عقدها كل من درويش السيروان وعبد القادر الشوى ، وعدد كبير آخر من اصحاب التركات في غزة ، تبين لنا الطابع الرأسمالي لثروة معظم الاغنياء في غزة ، ممن ذكرت اسماؤهم في الوثائق الشرعية . ولكثرة ما شاع أمر الدين بين الناس غصت صفحات الوثائق الشرعية بتعابير « دين » و « ديون » و « ديّانة » . وشاع كذلك استخدام تعبير « ان بذمته مبلغ كذا » بطريق الدين الشرعي .

ويلاحظ على الديون ، في غزة ، انها فردية ، بمعنى ان الدائن فرد ، وليس مجموعة افراد أو شركاء . ومعظم الذين استدانوا كانوا افرادا في الغالب . واختلف أمر ذلك في الريف ، حيث اعطيت الديون ، من قبل افراد في غزة ، الى بعض سكان قرية ما ، او كلهم ، بصورة جماعية . وكانت مسؤولية هؤلاء في وفاء الدين جماعية ايضا ، مما يدل على حاجة سكان الريف الجماعية للاستدانة ، وعلى اعمالهم الزراعية المشتركة ، ربما لانهم عملوا في الارض ولم يملكوها ، وعلى عدم ملاءة احدهم للاستدانة بمفرده . ولم نعثر على امثلة عن استدانة المال من الدولة . وقد عمد بعض

---

(١) سجل غزة ، ص ٩٧ ، ٥ جا ٧٤/(٢٢ كانون الاول ٥٧) . (اختلاف الجمع بقرش يفسر بحذف الكسور)

(٢) سجل غزة ، ص ٦٢ ، ٥ را ٧٤/(٢٤ تشرين الاول ٥٧)

الاغنياء ، كما في مثال عبد القادر الشوى ، الى تأخير دفع مال الميري للدولة ، وتوظيف ذلك في اعمالهم ، وكأنــه دين ، رغما عن الدولة ، ولكن بدون فائدة وهناك أمثلة عن ديون بذمة الافراد لجوامع غزة ، مثلا ، ورد في تركة عبد القادر الشوى دين بذمته الى مسجد السيد هاشم ، وقدره ٥ر٨٧ قرشا(١) . وورد في تركة حسن دلول وجود دين مقداره ٥ر٢٧٩ قرشا ، ثابت عليه لجهة جامع الخضر بشهادة محمد درويش وسلامة الهليس(٢) . والسؤال الهام الذي يطرح هنا : هل هذا الدين استدانة من مال الوقف العائد للمسجد ، أو بمعنى آخر ، هل لجأ نظار الوقف الى عقد الديون من مال الوقف ولفائدته ، أم ان الدين الذي كان بذمــة هؤلاء الافراد للجوامع هو لقاء مال الحكر المترتب على بعض ممتلكاتهم لفائدة هذه الجوامع(٣)

وعمد معظم الناس الى الاستدانة والادانة في آن معا . وغالبا ما كانت الديون زهيدة جدا ، اذ بلغت قرشا في اكثر من حالة(٤) . وهذا يدل على القيمة الشرائية للقرش ، وفي الوقت نفسه على قلة الدخل ، مما يعزز اهمية المبالغ الصغيرة ، وعلى اهتمام المحكمة بالنظر في أقل الديون ونستشف من ذلك ايضا درجة عالية من الالتزام بالحقوق المالية مهما صغرت . وكثرة المداينة دليل على حاجة الناس اليها ، وعلى ان الدين كان أمرا عاديا ولا غضاضة اجتماعية فيه ، كما انه كان وسيلة من وسائل توظيف المال والربح بأقل جهد . وتقيد الناس بوفاء الديون ، الا في الحالات التي ثبت فيها الافلاس (وفي هذه الحالات كان مجموع الثروة يقسط على الدائنين ويلتزم الورثة بوفاء الدين) ، يدل على مستوى متميز في الملاقات العامة ، وعلى احترام الالتزامات المالية ، وعلى فعالية القضاء في جعل الناس يحترمون عقود الدين ، لذلك قلما لجأ اصحاب الديون الى القضاء لاستيفاء ديونهم الا في حالات قليلة ، مثل حل تركة او افلاس صاحبها .

ونلاحظ من ضبوط التركات ان اسماء الدائنين لم تقتصر على افراد معينين ، اي ان الدائنين لم يكونوا قلة من المحترفين ، كما انهم لم يقتصروا على أسر معينة وشيوع الدين دليل على ان عددا كبيرا من الناس قد تعاطوه . ولم تكن للديون حدود مذهبية ، فقد استدان المسيحيون من المسلمين ، كما استدان هؤلاء من اولئك . ولجأ المسيحيون ، في الديون التي عقدوها فيما بينهم ، الى المحكمة الشرعية للفصل في الخلافات التي وقعت بينهم(٥) . ولكن المبالغ التي التزم بها المسيحيون ، كدائنين

---

(١) سجل غزة ، ص ٩٨ ، ٥ جا ٧٤/(٢٢ كانون الاول ٥٧)

(٢) سجل غزة ، ص ١٠١ ، غرة ج ٧٤/(١٧ كانون الثاني ٥٨)

(٣) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ١٦٣ ، ٨ را ٧٥ /(١٦ تشرين الاول ٥٨) ، انظر فيما يلي ، ص ٧٠

(٤) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٢٢٩ ، ٨ ذ ٧٥/(٩ تموز ٥٩)

(٥) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٣٦٦ ، ٢٨ ذ ٧٦/(١٧ تموز ٦٠)

ومدينين ، اذا ما قيست بالديون بين المسلمين ، بدليل ما ورد في ضبوط التركات التي درسناها ، كانت متواضعة الى حد كبير . وربما دل ذلك على عدم ثرائهم ، او عدم رغبتهم بالمغامرة بالمال ، واكتفائهم بما هم عليه . وحضر المسيحيون البيع العلني لتركات المسلمين ، واشتروا منها(١) .

واشتهرت النساء كدائنات ، وقلما ذكرن كمستدينات من الرجال ، اذ كن يستدن من بعضهن . ومن دراسة ضبوط التركات نجد ان الرجل استدان ، اول الامر ، من زوجته ، او زوجاته ، ومن بناته ، مثلما استدان من ابنائه . كما انه استدان من نساء أخريات . وتألفت ثروة النساء ، في الغالب ، من حلي متنوعة ، بالدرجة الاولى ، ومن نقود ، على اختلاف انواعها ومصادر ثرائهن ، في الغالب ، كان ارثا ، او وصية ، او مؤخر مهر ولا بد انهن عملن في بعض الاعمال ، مثل الزراعة ، وصناعة الالبان ، وقطف القطن وغزل خيوطه ووظفت النساء المال في الديون ، وشراء العقارات ، واحيانا شراء الماشية

ومن دراسة ثمانية ضبوط كاملة لتركات نساء توفين في غزة(٢) ، يتبين لنا ان ثروة أغناهن ، وهي زينب الرملي ، ويبدو أنها لم تكن متزوجة ، قد بلغت ٣٣٢٦٧ قرشا ، من ذلك ٩٣٥٢ قرشا قيمة حليها وانواع النقود الي وجدت لديها ، و ١٦٠٠٠ قرش دين عقدته لشخص واحد ، و ٥٠٠٠ قيمة حصص في عقارات ، ويعادل ذلك ٣٠٣٥٢ قرشا والمبلغ المتبقي من مجموع الثروة هو ثمن امتعة وممتلكات شخصية(٣) . والشخص المدين للسيدة زينب كان السيد احمد عودة ، ولا نعرف اكثر من ذلك عنه وكان للسيدة زينب معتوقتان اوصت لهما ببعض المال ، وهما الحاجة حليمة ومحبوبة

وتجاوز سكان غزة نطاق مدينتهم في عقد الديون ، فاستدان منهم الريفيون ، وقلما حدث العكس . ويدل هذا على تدفق رأس المال من المدينة الى الريف ، وتبعية الريف المالية للمدينة ، وعلى نمو الثروة في غزة عن طريق استثمار الريف واعطي الدين لقرية بكاملها او لجماعة منها(٤) . والى جانب الديون ، وظف سكان غزة جانبا من مالهم في الزراعة ، او في تربية الحيوانات في الريف(٥) .

---

(١) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٩٧ ، ٥ جا ٧٤/(٢٢ كانون الاول ٥٧)
(٢) انظر : سجل غزة ، ص ١٥ ، ١٧٨ ، ١٩١ ، ١٩٧ ، ٢١١ ، ٣٣٣ ، ٣٤٨ ، ٤١٢
(٣) سجل غزة ، ص ٣٣٣ ، ٢٠ ن ٧٦/(١١ نيسان ٦٠)
(٤) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٩٧ ، ٥ جا ٧٤/(٢٢ كانون الاول ٥٧)
(٥) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ١١٠ ، ١٤ ب ٧٤/(٢٨ شباط ٥٨) ، ص ١٦٥ ، ٩ را ٧٥/(١٧ تشرين الاول ٥٨) ، ص ٣١٧ ، ٣ ش٧٦/(٢٥ شباط ٦٠) ، وانظر فيما يلي ، ص ٧٦ .

ووصف الدين في الوثائق الشرعية بانه دين شرعي . وتم بموجب سند واذا ما دعت الحاجة فان صحة السند او عدمها يثبتها الشهود ، وتدعم باليمين(١) . واقتضى الامر ، في بعض الاحيان ، ايداع رهن لفاء الدين ، كأن ترهن حلي او عقار مثلا(٢) . ولجىء احيانا الى كفالة شخص لآخر لتأمين وفاء الدين(٣) . ولم يكن الدين باستمرار نقدا ، اي مالا يقدم للغير ، بل احيانا ، ثمن محاصيل ، او حيوانات ، او غيرها ترتبت بذمة شخص ، او مجموعة اشخاص ، وخاصة في الريف ، واعتبر هذا الثمن دينا شرعيا(٤) وكثيرا ما ذكر ان فلانا بذمته مبلغ من المال الى شخص آخر . وكلمة « بذمته » لا تشير دائما الى الدين الا اذا اقترنت بالعبارة التالية « بطريق الدين الشرعي » . وقد تعني ، بمفردها ، ان اصل مال الذمة ارث ، او مهر ، او قرض . ووصف القرض ، احيانا ، بانه قرض شرعي ولا ندري اذا كان القرض الشرعي تضمن فائدة واستخدمت كلمة « القرض » مرادفة لكلمة « القرضة » ، كأن يقال ان فلانا له بذمة فلان قرضة شرعية ، او ان يذكر انه وجدت في دكانه دراهم قرضة(٥) .

وحدد لوفاء الدين موعد اول او مؤجل ، في تاريخ معين ، كفرة شهر ، او يوم في شهر ، حدد على اساس رؤية هلال الشهر الذي يستحق فيه وفاء الدين . ويقتضي ذلك شهود اثبات لرؤية الهلال(٦) . وحين عجز شخص عن الوفاء بالدين ، وثبت انه معسر ، قسط المبلغ ، او الغي جزء منه . وطبيعي انه اذا كان للمدين عقار بيع لوفاء الدين . ولجىء في وفاء الدين الى نوع من بيع العقار ، تضمن ما يشبه الرهن والفائدة ، كأن يعد مشتري العقار بائعه ، الذي قبض الثمن ، انه ان جاءه خلال مدة معينة بنظير الثمن رد له المبيع . واباح البائع للمشتري ، في هذه الحال ، الانتفاع بالعقار ، سكنا او تأجيرا ، او ثمرا ، ما دام الثمن باق بذمته(٧) . وطبيعي

---

(١) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٨١ ، ٢٠ را ٧٤/(٨ تشرين الثاني ٥٧) .

(٢) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ١٩٧ ، ٧ ب ٧٥/(١٠ شباط ٥٩) ، ص ٤٢٨ ، ٢٩ را ٧٧/(١٥ تشرين الاول ٦٠) ، ص ٣٥٧ ، ٢٩ ذا ٧٦/(١٨ حزيران ٦٠)

(٣) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٦٢ ، ٥ را ٧٤/(٢٤ تشرين الأول ٥٧)

(٤) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ١١٠ ، ١٤ ب ٧٤/(٢٨ شباط ٥٨)

(٥) سجل غزة ، ص ٩٦ ، ١٢ را ٧٤/(٣١ تشرين الاول ٥٧) ، ص ١٦٤ ، ٩ را ٧٥/(٢٧ تشرين الاول ٥٨) ، ص ٢٨٣ ، ١٣ جا ٧٦/(٨ كانون الاول ٥٩)

(٦) سجل غزة ، ص ٤١ ، ٤ ذ ٧٣/(٢٦ تموز ٥٧) ، ص ٢٢٩ ، ٨ ذ ٧٥/(٩ تموز ٥٩)

(٧) سجل غزة ، ص ٤٤٨ ، ١٦ ج ٧٧/(٣٠ كانون الاول ٦٠) ، وانظر ايضا : ص ٣٢٢ ، ١٢ ش ٧٦/(٥ آذار ٦٠) ، ص ٤٠٨ ، ٢٠ را ٧٧/(٦ تشرين الاول ٦٠) ، ص ٤٣٤ ، ١٢ جا ٧٧/(٢٦ تشرين الثاني ٦٠)

ان هذا الانتفاع هو نوع من انواع الفائدة . وسمي هذا النوع من البيع « بيع وعد بالاباحة »(١) .

ومن مظاهر الحياة الاقتصادية الاوقاف ، من حيث ان مواردها استخدمت لاعاشة عدد كبير من السكان ، ارتبطوا اما بخدمتها ، او باقتسام مواردها ، حسب نوعية الوقف ، خيريا كان أم أهليا (ذريا) . كما ان الفائض من واردات الاوقاف الخيرية وظف ، عادة ، في شراء عقارات باسم الوقف(٢) . ونظرا لكثرة الجوامع ، والاماكن العامة الخيرية الاخرى ، مثل الزوايا والسبل والحمامات ، في غزة ، والعقارات التي اوقفت عليها ، والموارد التي اغدقت عليها ، فقد شغلت الاوقاف حيزا كبيرا من الثروة الاقتصادية .

واستخدمت كلمة « الحكر » للدلالة على اجرة الاراضي الموقوفة والمؤجرة ، والفعل منها « استحكر » ، أي استأجر ارض الوقف . وعرف ناظر الوقف ، الذي أجَّر الوقف ، « بالمحكر » . كما عرف مستأجر الوقف « بالمستحكر » . والشرط في الحكر « ان يكون فيه الحظ والمصلحة لجهة الوقف » ، وان يكون مساويا لحكر مثل الوقف ، أي ليس فيه غبن للوقف . واستدعي ، عادة ، الشهود لاثبات ذلك(٣) .

واشهر وقف اهلي في غزة ، في فترة دراستنا ، هو الوقف الرضواني ، نسبة الى الامير رضوان بن الامير مصطفى ابي شاهين ، الذي اشتهر في غزة في النصف الثاني من القرن السادس عشر(٤) . وكانت لهذا الوقف مقاطعات حتى داخل مدينة حلب الشهباء وفي ضواحيها . وعين افراد من آل رضوان ، وآل وفا العلمي ، وآل رباح الحسيني ، ابان فترة دراستنا ، نظارا على وقف آل رضوان(٥) . ويلي هذا الوقف في الاهمية وقف حسين باشا ابن مكي ، الذي كان حاكما على غزة ، ثم نقل منها واليا على دمشق في عام ١٧٥٧(٦) . وعين أفراد من أسرة مكي نظارا على هذا الوقف(٧) . وكثيرا ما كان الناظر هو نفسه المتكلم ، او المتولي ، على الوقف(٨) .

---

(١) سجل غزة ، ص ٣٣٦ ، ٤ ل ٧٦/(٢٥ نيسان ٦٠) ، وانظر فيما سبق ، ص ٣٣

(٢) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٤٤٣ ، ١٢ ج ٧٧/(٢٦ كانون الاول ٦٠) ، ص ٤٤٨ ، ١٧ ج ٧٧/(٣١ كانون الاول ٦٠)

(٣) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٢٩ ، ٢٣ ش ٧٣/(١٨ نيسان ٥٧) ، ص ٤٩ ، ٢٨ ر ٧٣/(٢٦ كانون الاول ٥٦)

(٤) انظر فيما سبق ، ص ٥

(٥) سجل غزة ، ص ٢٦٦ ، ١٩ را ٧٦/(١٦ تشرين الاول ٥٩) ، ص ٤٤٦ ، ٢٥ م ٧٧/(١٣ آب ٦٠)

(٦) انظر فيما سبق ، ص ٥

(٧) سجل غزة ، ص ٥٣ ، ٢٠ م ٧٤/(١٠ ايلول ٥٧)

(٨) انظر مثلا سجل غزة ، ص ٨٦ ، ١١ ر ٧٤/(٢٩ تشرين الثاني ٥٧) .

وذكرت الوثائق وظيفتي مشارف اول ومشارف ثان على الوقف ، الى جانب الناظر(١) . وعينت المراة ناظرة ومتولية على الوقف(٢) .

وكانت عمليات الايقاف ناشطة في غزة ، في فترة دراستنا ، من قبل الرجال والنساء ، على حد سواء ، ومالت كفتها لصالح الاوقاف الاهلية او الذرية . ولهذا الامر دلالته لانه يضمن بقاء الثروة في عقب الواقف ، واستفادة هذا العقب منها ما دام قائما والمعروف في العهد العثماني ، وخاصة منذ القرن الثامن عشر ، حين كثرت مصادرة الدولة للاغنياء ، ان عمد هؤلاء الى تحويل ممتلكاتهم الى وقف أهلي ، خشية مصادرة الدولة لها . وهكذا اوقف السيد حسين بن حمودة الدباغة ، صاحب اكبر ثروة منقولة ، كما رأينا ، ما ملكه من العقارات على ذريته ، وذلك قبل شهرين من وفاته(٣) . وجاز ان يوقف شخص بالوكالة عن آخر ، وبالاشتراك معه كما اوقفت الحصص الشائعة وقفا أهليا(٤)

والملاحظ في الاوقاف الاهلية في غزة ان النساء اوقفنها مثلما فعل الرجال ولكن اختلفت هوية المستفيدين منها ، بالنسبة للذكور والاناث من الذرية ، من وقف الى آخر وقد حصرت الاستفادة ، في الوقف الاهلي ، أولا بالواقف وحده ، طيلة حياته ثم توزع وارد الوقف بين ورثة الواقف ، بعد وفاته ، وفق ترتيب معين اختاره الواقف واثبته في شروط الوقف ففي احدى الحالات ، نص الواقف ان يوقف الوقف ، بعد مماته ، على اولاده واولاد اولاده (الخ) وذريتهم ، للذكر مثل حظ الانثيين(٥) . وفي حالات اخرى ، نص على ان يوقف الوقف ، بعد وفاة صاحبه ، على اولاده ، ذكورا واناثا ، بالفريضة الشرعية بينهم . وأفادت الانثى منهم ، مدة حياتها ، فاذا ماتت انتقل نصيبها لاختها الثانية ، وهكذا كل واحدة منهن ترث الاخرى الى ان يتوفين ، ثم من بعد ذلك على اولاد اولاده الذكور دون الاناث(٦) . وفي حالة اخرى ، اوقف الوقف على اولاد الظهور دون البطون ، واذا ماتت الانثى عن اولاد من ذرية احد الواقفين الذكور انتقل نصيبها لهم ، واذا ماتت عن اولاد من غير اولاد الواقف رجع نصيبها للوقف . ولكن اذا انقرض اولاد الظهور انتقل الوقف الى اولاد البطون(٧) واذا انقرضت ذرية الواقف ، من اولاد الذكور ثم اولاد الاناث ،

---

(١) سجل غزة ، ص ٥٥ ، ٢٢ م ٧٤/(١٢ ايلول ٥٧) ، ٢٥ م ٧٤/(٥ ايلول ٥٧)
(٢) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ١٢٨ ، ١٢ ل ٧٤/(٢٦ ايار ٥٨)
(٣) سجل غزة ، ص ٢٢ ، ٣ ن ٧٣/(٢٧ نيسان ٥٧)
(٤) سجل غزة ، ص ٤٢٢ ، ٢١ ر ٧٧/(٦ تشرين الثاني ٦٠)
(٥) سجل غزة ، ص ٩١ ، ١٥ ر ٧٤/(٣ كانون الاول ٥٧)
(٦) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٢٢ ، ٣ ن ٧٣/(٢٧ نيسان ٥٧) ، ص ٥٦ ، ١٩ م ٧٤/(٩ ايلول ٥٧)
(٧) سجل غزة ، ص ٤٢٢ ، ٢١ ر ٧٧/(٦ تشرين الثاني ٦٠)

تحول الوقف الى الحرمين المكي والمدني . واذا تعذر ذلك تحول للفقراء والمساكين من اهالي غزة . وفي حالات اخرى ، اعطيت الاولوية ، بعد انقراض ذرية الواقف ، الى مسجد عمرو هاشم في غزة ، أو الى فقراء غزة . ولم تتمتع ذرية الواقف ، عادة ، بكامل واردات الوقف ، لان جانبا منها رصد ، في الغالب ، على عمارة الوقف ، او على قراءات دينية في امكنة معينة . واشير الى حصص الورثة بالسهم وليس بالقيراط .

ويمكننا التعرف على جوانب متعددة من مستوى المعيشة في غزة ، في فترة دراستنا ، بعقد مقارنة بين وسطي اسعار العقارات ، واسعار الحاجيات ، واثمان الحبوب والحيوانات ، ومقادير الثروات ، بصورة عامة .

ولا نجد في الوثائق معلومات كثيرة عن ايجار العقارات ، ربما لان الاتجاه الغالب كان نحو ملكية العقار من قبل شاغله ، او ان عقود الايجار لم تثر خلافات حولها استدعت عرضها على القاضي . وفي احدى الحالات اجر نصف دار ، ثمنه ٣٦٠٠ قرش ، بستين قرشا في السنة ، أي ان نسبة الاجرة الى ثمن المأجور كانت بحدود ١٫٦٦ بالمئة . وبلغت اجرة دكان ٧٥ قرشا في السنة ، ولكن ثمن الدكان غير معروف ، ولا يمكن اجراء مقارنة بينها وبين الدار السابقة .

وقد لاحظنا سابقا ان اسعار الدور في غزة تراوحت بين ٥٥٠ و ٢٤٠٠٠ قرش . ولم ندخل هنا اعلى سعر لدار ورد ذكره في الوثائق والبالغ ٣٣٦٠٠ قرش لانه كان استثناء ، ولم ترد اسعار بينه وبين الرقم السابق . ولو اخذنا عينة من عشر دور ، ذات مواصفات مختلفة ، ولكنها تمثل نماذج شائعة ، وتقع في خطوط ومحلات مختلفة في غزة ، لوجدنا ان وسطي ثمن الدار هو ٣١٠٠ قرش . واذا اجرينا دراسة مماثلة بالنسبة للدكاكين لوجدنا ان وسطي ثمن الدكان حوالي ٢٢٥٠ قرشا . وعلى هذا ، فان الغزي المتوسط الحال بحاجة الى ٥٣٥٠ قرشا لشراء دار ودكان . ولم تكن لدوات العمل في الدكان مرتفعة الاسعار ، مثلا ، بلغ ثمن عدة دكان ابراهيم ابو ريالة الحداد ٧٠٠ قرش ، وبلغ ثمن عدة نول للحياكة ٢٤٠ قرشا . وليتزوج الغزي متوسط الحال كان بحاجة الى مهر يبلغ وسطيه ١٤٩٠ قرشا ، وذلك بالاستناد الى عينة من عشرة عقود زواج ، خمسة منها بامراة بالغ ، وخمسة بقاصر .

واذا ما درسنا عينة من عشر تركات لغزيين توفوا ، في فترة دراستنا ، وحسبنا ما بقي من تركتهم بعد اقتطاع ما ترتب عليهم من مصاريف ، لوجدنا ان وسطي باقي التركة هو ٧٢٥٣ قرشا ونستنتج من ذلك ان الفائض بين ما جناه الغزي المتوسط في حياته وما انفقه على المتطلبات الاساسية في حياته ، من دار ودكان وزواج ، هو ٤١٣ قرشا . ويصعب ان نستشف الربح او الخسارة في هذا المبلغ ، اذ يجب ان نأخذ بعين الاعتبار الجهد الذي بذله أثناء حياته وطبيعة عمله ، وكذلك الاسرة التي بناها . ولو استعرضنا قائمة تركات الرجال المتوفين في غزة ، على مدى اربع سنوات

(١٢٧٣ ـ ١٢٧٧ هـ) ، لوجدنا ان سبعة متوفين من اصل ثلاثة واربعين فاقت ديونهم ثرواتهم ، وربما امكننا الاستنتاج ان حوالي سدس السكان كانوا معسرين . لذا ، فالفزي المتوسط الذي وفر مبلغا قدره ٤١٣ قرشا كان من ضمن خمسة الاسداس من السكان غير المعسرين .

واذا اخذنا عينة من اسعار السلع المختلفة في غزة لامكننا التعرف على قيمة الانتاج ومعرفة تكاليف المعيشة بالنسبة لغيرها . ففي مجال المواد الغذائية كان وسطي سعر ربع(١) الحنطة اربعة قروش ، وربع الشعير ثلاثة ، وربع العدس اربعة ، وربع الذرة اربعة ، ورطل السمنة خمسة وعشرين ، ورطل الزبيب ثمانية ، ورطل اللوز الناشف خمسة ، ورطل العسل ثلاثة وعشرين ، ورطل الفول خمسة ، ورطل الدخان عشرة . وثمن جرة البرغل عشرة ، وجرة الشعيرية ثمانية عشر ، وجرة السيرج سبعين ، وجرة الزيت خمسين . وفي مجال الادوات المنزلية والملابس ، وهي مستعملة في الفالب ، لان اسعارها مبنية على بيع التركات ، فقد بلغ متوسط سعر الفراش خمسة وستين قرشا ، واللحاف الاطلس سبعين ، والمخدة ثمانية ، والطراحة خمسة وستين ، ومنقل الحديد ستة عشر ، والطنجرة النحاس المتوسطة اربعة وخمسين ، والصحن النحاس المتوسط خمسة عشر ، والصحن الرملي ، الذي غلب فيه الرمل على النحاس ، ثمانية ونصف ، والعباية الفزاوية ستين ، والفروة ستة عشر ، والجبة الجوخ ، وهي مستوردة المادة وربما الصنع ، مائة وثمانين ، والقنباز الابيض ثلاثين ، وكمر الصوف خمسة وعشرين ، والطربوش (وهو مستورد) اربعين ، والطربوش المغربي ستين . وبالنسبة للمواد النسيجية كان سعر رطل الفزل الابيض اثنين واربعين ، والاسود ستة وثلاثين ، والصوف سبعة ونصف ، وذراع الشيت قرشا ونصف ، وذراع الخام قرشا وربع . وبيعت جارية سمراء بـ ٢٥٠٠ قرش .

وكان متوسط ثمن عجل البقر خمسمائة قرش ، والبقرة ثلاثمائة ، والجمل ستمائة ، والحمار مائتين ، والثور مائة وخمسين وبلغ وسطي ثمن الفرد الطبنجة ثلاثين قرشا ، والبارودة خمسين ، والسيف عشرين .

ويصعب الحكم على هذه الاسعار كما هي ولو قارناها باسعار السلع ذاتها في فترات سابقة او لاحقة ، واخذنا بعين الاعتبار التبدلات في سعر القرش وقوته الشرائية لامكننا معرفة نسبة الفلاء او الرخص في فترة معينة . ومع ذلك يبدو ، من مقارنة اسعار هذه السلع واسعار العقارات ٢ ان تكاليف الحياة الاساسية ، من سكن وشراء مكان عمل ، او استئجارهما ، وكذلك الزواج ، كانت متدنية بالنسبة لاسعار السلع . فاجرة نصف الدار ، التي سبق ذكرها ، والتي بلغت ستين قرشا

---

(١) انظر حول الربع فيما يلي ، ص ٨٣ .

في السنة ، في حين كان ثمن هذا النصف ٣٦٠٠ قرش، واجرة الدكان التي بلغت خمسة وسبعين قرشا تبدو بخسة جدا اذا ما قورنت بسعر جرة زيت بيعت بخمسين قرشا ، رغم اشتهار الزيت وكثرته في منطقة غزة . ونستدل من ذلك على ان الذين تعاطوا الزراعة ، وهم الجزء الاكبر من سكان غزة ، كانوا في وضع احسن من غيرهم ، مثل اصحاب العقارات . وارتفاع اسعار الحيوانات المستخدمة في الزراعة والنقل (مثلا ، سعر جمل فاق سعر دار صغيرة) ، دليل على اهمية هذه الحيوانات بالنسبةللعاملين في الزراعة ، سواء في المدينة ام الريف ، ومن هنا الحرص عليها ، وكذلك سرقتها باستمرار ، ورفع الدعاوى الى المحكمة للنظر في ذلك . وارتفاع سعر الجمال يفسر الحالة المادية الحسنة للبدو ، والتي تمثلت بشراء احد امرائهم لاغلى دار في غزة ودفعه اعلى مهر على الاطلاق عند زواجه .

وتميز الريف التابع لغزة بحياة اقتصادية غلبت عليها الزراعة المتنوعة تبعا لتنوع الاراضي . فهناك البساتين والحواكير ، وتقع اما في المدينة او القرية ، او بجوارها المباشر . وتكثر فيها عادة السواقي لتزويدها بالمياه . وفي حين كان البستان متنوع الاشجار المثمرة والازهار ، ضمت الحاكورة اشجارا مثمرة متنوعة ، وخص فيها الصبر ، كما في العبارة التالية : « جميع صبر واشجار الحاكورة »(١) وقد تكون الحاكورة مقتصرة على اشجار التين او الصبر(٢) . وكثرت الكروم خارج غزة والقرى ، وزاد عددها على عدد الحواكير ، وتداخلت معها في احيان كثيرة . واذا لم يشر صراحة الى ان الكرم هو كرم زيتون ، فانه يضم اشجارا اقل تنوعا من الحاكورة ، يغلب عليها شجر التين والكرمة والزيتون مجتمعين واختلط بالكروم نوع آخر من الاراضي عرف بالمارس (جمعها موارس) ، وتعني الارض المعدة للحرث والزرع(٣) ، واشير اليها انها ارض كشف(٤) ، أي بدون اشجار . والمتعارف عليه ، كما ذكر لي ، ان المارس يمثل مساحة ارض مزروعة يحرثها زوج بقر في مدة تتراوح بين خمسة وعشرة ايام . واطلق ، احيانا ، تعبير « مارس » على الكرم ، كما في العبارة التالية : « الكرم الكائن بارض غزة المعروف بالمارس الشمالي بضريبة الرنجس .. والكرم المعروف بمارس جنيد الشمالي »(٥)

وجزئت اراضي الريف ، على انواعها ، اصطلاحا ، الى مناطق عرفت واحدتها بالضريبة . وحددت الاراضي بالنسبة اليها ، ولا نعلم معنى الضريبة بالضبط ، ولعلها وحدة ضريبية لتسهيل جباية الضرائب عنها . وكان لكل ضريبة اسم خاص

---

(١) سجل غزة ، ص ١٢ (مكرر) ، ١٥ ج ٧٣/(١٠ شباط ٥٧) .

(٢) سجل غزة ، ص ٤٥٧ ، ٢٧ ب ٧٧/(٨ شباط ٦١)

(٣) سجل غزة ، ص ٢٧ ، ١٣ ش ٧٣/(٨ نيسان ٥٧)

(٤) سجل غزة ، ص ٤٣٤ ، ١١ جا ٧٧/(٢٥ تشرين الثاني ٦٠)

(٥) سجل غزة ، ص ٤٣٩ ، ختام جا ٧٧/(١٤ كانون الاول ٦٠)

بها ، تماما كما كان للبستان او الحاكورة ، أو الكرم ، او الساقية ، اسم خاص به ، كما في المثال التالي : « جميع الكرم الكاين بأرض بيت لاهيا بضريبة عياضة المعروف بكرم مهابه »(١) . وذكر كرم الدخاخين وكرم الدلقوم بارض القرية ذاتها ولكن بضريبة اخرى .

وتخللت الاراضي الزراعية ، وخاصة منها البساتين والحواكير ، داخل غزة والقرى ، وفي اطرافها ، السواقي لريها . ووصفت احدى السواقي ، الموجودة بمحلة السجاعية ، بخط بوابت ابي كر ، المعروفة بساقية البهجة ، بانها اشتملت على « بير ماء وبركة معدة لجمع الماء ودولاب واخشاب وبايكة بثلاثة قناطر من الحجر وبيت مسقفين بالخشب وساحة سماوية ومن داخلها حوش مفروس به شجر نخل »(٢) . وخص شجر النخل بوجوده في السواقي(٣) . وبيعت الساقية كأية سلعة اخرى(٤) ، ولم تشر الوثائق فيما اذا كانت الساقية تسقي الارض القائمة عليها فقط أم تباع مياهها للاراضي الاخرى .

واحاطت بهذه الاراضي الزراعية ، وتخللتها احيانا ، اراض رملية ، اشير اليها بغليظ الرمل ، كما في المثال التالي : « الكرم بارض بيت لاهيا بضريبة الاجاير الذي حده قبلة غليظ الرمل »(٥) ، او المثال الآخر : « الكرم الكاين بارض غزة بضريبة البصاصي المعروف بكرم الخاني .. حده شرقا كرم ورثة حمد العكة وتمامه غليظ الرمل .. وغربا غليظ الرمل »(٦) . وامتدت الكروم ، في الواقع ، حتى ساحل البحر(٧) .

وتنوعت ملكية الاراضي وطرق التصرف بها ، فقد يباع كرم بكامله ، اي بارضه وشجره ، او قراريط منه ، او يباع شجره فقط ، كليا او جزئيا(٨) ، وينطبق ذلك على الحاكورة وغيرها من الاراضي المشجرة(٩) . وبيعت الساقية ايضا ، كليا

---

(١) سجل غزة ، ص ٣٩٣ ، ٢٢ ص ٧٧/(١٩ ايلول ٦٠) .
(٢) سجل غزة ، ص ١١ ، ١٣ ج ٧٣/(٨ شباط ٥٧)
(٣) أنظر مثلا : سجل غزة ، ص ٤٣٤ ، ١١ جا ٧٧/(٢٥ تشرين الثاني ٦٠) ، ص ٤٥٥ ، ١٥ ب ٧٧/(٢٧ كانون الثاني ٦١)
(٤) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ١١ ، ١٣ ج ٧٣/(٨ شباط ٥٧) ، ص ٤٠١ ، ٨ را ٧٧/(٢٤ ايلول ٦٠) ، ص ٤٥٥ ، ١٥ ب ٧٧/(٢٧ كانون الثاني ٦١)
(٥) سجل غزة ، ص ٤٣٠ ، ٢ جا ٧٧/(١٦ تشرين الثاني ٦٠)
(٦) سجل غزة ، ص ٤٢١ ، ١٩ ر ٧٧/(٤ تشرين الثاني ٦٠)
(٧) سجل غزة ، ص ٤٣٣ ، ١١ جا ٧٧/(٢٥ تشرين الثاني ٦٠)
(٨) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ١٨ ، ٧ ب ٧٣/(٣ آذار ٥٧) ، ص ٢٠ ، ١٢ ب ٧٣/(٨ آذار ٥٧) .
(٩) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ١٣ ، ٢١ ج ٧٣/(١٦ شباط ٥٧) .

او جزئيا . ويلاحظ ان السواقي كانت تكثر في مناطق معينة ، قرب بعضها البعض ، نظرا لتوافر الماء في تلك المنطقة ، كما في المثال التالي : « المبيع اربعة قراريط ونصف القيراط في جميع الساقية الكاينة داخل قرية دير البلح المعروفة بساقية القاعود التي حدها قبلة الطريق السالك وفيها الباب وشرقا حاكورة ورثة المرحوم ابو سمرة وشمالا ساقية الفاخورة بيد ابو بشير وغربا ساقية خبيزة بيد ابن جمعان البدوي ومن يشركه بثمن قدره ٤٠٠٠ قرش »(١) .

ويلاحظ ان معظم البساتين والحواكير والكروم والسواقي ، التي ورد ذكرها في الوثائق الشرعية ، تملكها افراد ، مسلمون ومسيحيون ، اقاموا في غزة او في القرى التابعة لها . وكان بعضها وقفا خيريا او اهليا . ولم يرد ما يفيد بتملك الدولة لهذه الاراضي الزراعية ، اي ما يثبت ان بعضها على الاقل كان اراض أميرية (ميرية) وذكر ان مشايخ قرية سمسم الاربعة تسلم كل منهم الربع في ارض البلد وتعهد بادارتها بالحرث والزرع وبدفع ما عليها لجهة مال الميري من مال وغلال وغيره ما عدا الزيتية فانها تخرج من ريع زيتون البلد عن الجميع منهم(٢) . ويبدو ان اراضي هذه القرية كانت من املاك الدولة . وجاء في ضبط تركة عبد القادر الشوى(٣) ان بذمته الى جهة الميري على شده (ذكرتها الوثيقة « شدده ») بقرية بيت طيما وقرية برير ، بالاشتراك مع آخرين ، مبلغا قدره ٢٥٣١ قرشا ، مقدرة على الواردات من الحنطة والشعير والذرة . ولم تشر الوثيقة فيما اذا كانت الاراضي التي استغلوها هي اراضي الدولة أم انه ترتب على وارداتهم منها هذا المقدار من الضرائب للدولة والشداد، في الشام، هو الذي يستغل الارض، ولا يملكها، ويستخدم فيها اناسا بالاجرة، كما انه يدفع ربع الغلال للمرابعين الذين يعملون معه . وعرف الذي حرث وزرع الارض في منطقة غزة بالحراث(٤) . وفي احدى الحالات اتفق صاحب ارض مع آخر ان يرسل هذا جماله واربعة حراثين ، ويقدم صاحب الارض حراثين اثنين والبذار من الشعير ، ويكون الزرع بينهما مناصفة . وفي وقت الحصاد يأخذ صاحب الارض البذار الذي وضعه من اصل المحصول ، ثم يقسم الباقي مناصفة(٥)

وقد استدان القرويون المال من سكان غزة لتمويل اعمالهم . كما وظف سكان غزة اموالهم في الريف ، سواء في الزراعة أم شراء الحيوانات(٦) . ونظرا لاهمية

---

(١) سجل غزة ، ص ٤٠٨ ، ٢٠ را ٧٧/(٦ تشرين الثاني ٦٠)

(٢) سجل غزة ، ص ١٠٥ ، ٢٦ ج ٧٤/(١١ شباط ٥٨)

(٣) سجل غزة ، ص ٩٧ ـ ٩٨ ، ٥ جا ٧٤/(٢٢ كانون الاول ٥٧)

(٤) سجل غزة ، ص ٤١٨ ، ١٢ ر ٧٧/(٢٨ ايلول ٦٠)

(٥) سجل غزة ، ص ٢٧٣ ، ٢٤ ر ٧٦/(٢٠ تشرين الثاني ٥٩)

(٦) انظر مثلا : ص ١٤٢ ، ٢١ ذ ٧٤/(٢ آب ٥٨) ، ص ١٦٥ ، ٩ را ٧٥ /(١٧ تشرين الاول ٥٨) ، ص٣١٧ ، ٣ ش ٧٦/(٢٥ شباط ٦٠) ص٤٠٢ ، ٢٦ ص٧٧/(١٣ ايلول ٦٠) .

الحيوانات في الزراعة فقد كانت مثار خلافات وتقاض ، كما سبق ، وعرفت بصفات خاصة ، مثل الجمل الاشقع الاصفر ، والثور الاسود المكوي .

وتملك القرويون في مناطق غير مناطقهم بواسطة الشراء او الارث ، واكثر ما تملكوا في غزة ، حيث عرفوا بنسبتهم القروية ، مثل الجبالي (نسبة الى جباليا) ، والحانوني (نسبة الى بيت حانون) ، والمجدلي او المجدلاوي (نسبة الى المجدل) ، والعبساني (نسبة الى عبسان) ، والسنيداوي (نسبة الى دير سنيد) . وتشير هذه النسبة الى اقامة اصحابها في غزة ، اي الى هجرة من الريف الى المدينة . وليس من دليل ، من خلال الوثائق ، على حجم هذه الهجرة ، او اسبابها ، او الفترات التي نشطت فيها او تضاءلت . ورغم ان نسبة الفزاويين الذين تملكوا في الريف ، او وظفوا أموالهم فيه ، كانت كبيرة ، فلم يترتب علـى ذلـك هجرة الفزاويين الى الريف . ووجدت في الريف اراض موقوفة على اماكن في غزة ، بنوعيها الخيري والاهلي(١) ، وقلما حـدث العكس ، أي أن توقف الاراضي والعقـارات في غـزة على أماكن في الريـف

وقد اسهم البدو ، في ريف غـزة ، بدور اقتصادي متنوع وهام . واشارت الوثائق الى نقلهم المؤن ، من شعير وحنطة ، من اشوان (جمع شونة) الميري في غزة الى بندر معان ، لتمويل قافلة الحج الشامي . وكان شيخ مشايخ عربان بلاد غزة الصف القبلي والصف الشمالي مسؤولا امام الدولة ، ممثلة بشخص ناظر اشوان الميري بغزة ، رستم آغا ، ومن بعده محمد آغـا البربار ، في فترة دراستنا ، وكذلك بشخص مأمور حملة الحج الشريف (لعله الموظف الذي يرافق المؤن ، او ربما أمير الحج الشامي الذي تسلمها) ، عن نقل المؤن الى بندر معان لاحتياجات قافلة الحج . وعهد شيخ المشايخ الى العربان التابعين له بنقل هذه المؤن ، التي بلغت كل سـنة عدة آلاف من الكيلات من الشعير ، بصورة خاصة ، الذي وصف بانـه نظيف وخال من التراب والحصا ، واقل من ذلك من الحنطة . وعبئت هذه الحبوب داخل خيش ذي عرى ، ونقلت على ظهور الجمال . وجرى اقرار شيخ مشايخ العربان ، او شيخ عربان آخر من غير هؤلاء(٢) ، بتسلم ذلك في محكمة غزة الشرعية(٣) . ونقل الشعير والحنطة بكميات كبيرة من لواء غزة لسد احتياجات قافلة الحج الشامي دليل على توفر وجودة هـذه الاصناف فيها .

---

(١) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٢٧ ، ١٣ ش ٧٣/(٨ نيسان ٥٧) ، ١٤ ش ٧٣ /(٩ نيسان ٥٧)

(٢) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٣٥ ، ٢٢ ل ٧٣/(١٥ حزيران ٥٧)

(٣) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٢٢١ ، ٢٥ ل ٧٥/(٢٨ أيار ٥٩) ، ص ٣٤١ ، ٢٥ ل ٧٦/(١٦ ايار ٦٠)

وباستثناء ما يمكن ان يستنتج من معلومات حول الزراعة في لواء غـزة ، من خلال ما زرع في البساتين والحواكير والكروم والموارس ، فلم ترد معلومات في الوثائق عن نوعية المنتجات الزراعية وكمياتها السنوية . واقتصرت المعلومات على ذكر كميات محددة منها ، وجدت في تركات المتوفين ، وعلى اسعارها .

وفيما يتعلق بالمقاييس ، والمكاييل ، والاوزان ، والنقود ، في لواء غزة ، فقد وجدت عدة انواع من كل منها . فبالنسبة للمقاييس استخدم ما سمي « ذراع البنا » (البناء) ، لقياس الاراضي داخل المدينة ، وكذلك ساحات الدور والاحواش . ويلاحظ ان المساحة الفارغة هي التي قيست ، وليس القسم المبني . وقسم الذراع الى اربعة وعشرين قيراطا ، وذكرت اقسامه النصف والربع ، وما عداها ذكر بالقراريط ، كما في الامثلة التالية : « قطعة ارض .. مساحتها شرقا بغرب ثلاثة اذرع وثلاثة قراريط من ذراع البنا كل ذلك فارغا بذراع البنا »(١) . وايضا « ساحة سماوية (في دار) بها بئر معد لخزين الاغلال التي ذرعها من الجهة القبلية شرقا بغرب اربعة اذرع وربع ومن الجهة الشرقية قبلة بشمال خمسة اذرع وعشرين قيراط من ذراع ومن الجهة الغربية قبلة بشمال خمسة اذرع كل ذلك فارغا بذراع البنا »(٢)
وذكر استخدام الذراع الاسلامبولي ، في غزة ، في الفترة نفسها ، لقياس مساحة الساحة السماوية في احدى الدور(٣) ولا ندري اذا كان الذراع الاسلامبولي هو نفسه ذراع البنا . ويلاحظ في الامثلة التي استخدم فيها ذراع البنا ان اطول جهة فيها لم تتجاوز احد عشر ذراعا واجزاء الذراع ، في حين ان الذراع الاسلامبولي ، في المثال السابق ، استخدم في قياس ساحة سماوية بلغ طول جهتها الشرقية ، قبلة بشمال ، ستة وعشرين ذراعا ونصف ذراع وربع ذراع وبلغ وسطها عشرة اذرع ، كل ذلك فارغا بالذراع الاسلامبولي . والذي يثير الاهتمام ويطرح امكانية التمييز بين الذراعين انهما استخدما في الوثائق في حوالي الوقت نفسه ، وفي صفحتين متعاقبتين (٤٣ و ٤٤) .

ولم يرد من ذكر لذراع البنا في كتاب « المكاييل والاوزان الاسلامية » لمؤلفه فالتر هنتس(٤) . وقد ذكر هنتس (ص ٨٩) ذراع المساحة ، التي كانت تساوي ٦٦ر٥ سم ، والذراع المعمارية (ص ٩٠) ، المعادلة لذراع النجار ، والتي عادلت ، في

---

(١) سجل غزة ، ص ٢٦٢ ، ٧ را ٧٦/(٤ تشرين الاول ٥٩)

(٢) سجل غزة ، ص ٣١ ، ٣ ن ٧٣/(٢٧ نيسان ٥٧) ، وانظر ايضا : سجل غزة ، ص ٤٤ ، ١٤ ذ ٧٣ /(٥ آب ٥٧) ، ص ٩٢ ، ١٧ ر ٧٤/(٥ كانون الاول ٥٨) ، ص ٤٣٢ ، ١٠ جا ٧٧/(٢٤ تشرين الثاني ٦٠)

(٣) سجل غزة ، ص ٤٣ ، ١٣ ذ ٧٣/(٤ آب ٥٧)

(٤) ترجمه عن الالمانية الدكتور كامل العسلي ، وهو من منشورات الجامعة الاردنية ، بدون تاريخ .

النصف الثاني من القرن التاسع عشر في مصر ٧٥ سم . اما الذراع الاستانبولية ، فقد ذكر هنتس (ص ٨٤) ، انها استخدمت في مصر لقياس الاقمشة ، وان طولها ، في القرن التاسع عشر ، كان ٦٨ر٥٧٩ سم . ولا يمكن الاخذ بأي من هذه التفسيرات ، بالنسبة لغزة ، الا بحذر شديد ، لانها تأثرت بمصر كما بالمناطق المجاورة من بلاد الشام . والجدير بالذكر ان الذراع النجاري استخدم في دمشق ، في الفترة نفسها تقريبا ، لقياس قطعة ارض خالية من البناء داخل دمشق(١) . وجاء في كتاب (بيديكر)(٢) ان الذراع المستخدمة ، ويقصد في سورية وفلسطين ، في حوالي ١٨٩٠ ، كان طولها ٦٧ر٧٥ سم

واستخدمت القصبة في غزة ، في فترة دراستنا ، لقياس الاراضي ، سواء أكانت حواكير أم اراض زراعية وذكرت اجزاء القصبة بانها النصف والثلث والربع ، وكان نوع القصب المستخدم هو القصب الحاكمي(٣) . واستخدم ، في الوثائق ، تعبير « تقصيب الارض » ، نسبة لاستخدام القصب في قياسها(٤) . وحين تقاس قطعة ارض ، او ساحة دا ر، او أي عقار ، سواء بالذراع او القصبة ، يبدأ القياس من الجهة القبلية ، مثلما يبدأ تحديد العقار من الجهة القبلية . وذلك ، كما يبدو ، للتبرك ، نظرا للاهمية الدينية للقبلة في التوجه نحو الاماكن المقدسة .

واستخدمت كلمتا « الذراع » و « القصبة » ، في غزة ، في مجالات ومعاني اخرى . فالذراع ، او الدراع ، او الدرع ، كما ورد احيانا ، قيس به القماش على انواعه(٥) . والذراع المستخدمة كانت من الحديد ، ولا نعلم طولها(٦) . ووجد في تركة بائع اقمشة ذراعان من الحديد قدر ثمنهما بثلاثة قروش(٧) ، وفي مناسبة اخرى باربعة قروش(٨) ولا نعلم اذا كان ذراع البنا او الذراع الاسلامبولي من الحديد

---

(١) سجلات محاكم دمشق الشرعية ، سجل رقم ٤٧٥ ، ص ١٠٧ ، ٢٢ ربيع الاول ١٢٧١/ (١٢ كانون الاول ١٨٥٤) .

(٢) Baedeker, p. XXX

(٣) سجل غزة ، ص ٤١٩ ، ١٣ ر ٧٧/(٢٩ تشرين الاول ٦٠) وقد ذكر هنتس (ص ٩٤ ـ ٩٥) ان القصبة الحاكمية سميت بذلك نسبة الى الحاكم بأمر الله الفاطمي ، وانها بعد عام ١٨٣٠ اصبحت تساوي ٥٥ر٣ مترا ولم يعين هنتس في أي مكان ساوت ذلك ولا ندري اذا كان هذا الطول ينطبق على قصب غزة الحاكمي في فترة دراستنا

(٤) سجل غزة ، ص ٢٦ ، ٢٠ ش ٧٣/(١٧ نيسان ٥٧) .

(٥) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ١٦٤ ، ٩ را ٧٥/(١٧ تشرين الاول ٥٨)

(٦) ذكر هنتس ، ص ٨٥ ـ ٨٧ ، ان ذراع الحديد ، كذراع البز ، استخدم في قياس الاقمشة ، وكان طوله في القدس ، في القرن التاسع عشر ، ٧٧ر٦٤ سم ولا نعلم اذا كان ذراع غزة في فترتنا قد شابهه في الطول

(٧) سجل غزة ، ص ٢٤١ ، ٢٣ م ٧٦/(٢٢ آب ٥٩)

(٨) سجل غزة ، ص ١٦٤ ، ٩ را ٧٥/(١٧ تشرين الاول ٥٨)

ايضا . واستخدمت كلمة « قصبة » ايضا للتدليل على اداة التدخين ، كأن يقال « قصبة دخان »(١) .

واستخدم القيراط لتقسيم الكل الى أجزاء بلغت اربعة وعشرين قيراطا . ومثلما قسم الذراع ، مثلا ، الى قراريط قسم العقار كذلك . وجزىء القيراط الى نصف وثلث وربع ، والى اجزاء اصغر من ذلك ، مثل ، الثمن والسدس والخمس ، وقسمت هذه بدورها الى اجزاء اصغر منها . واستخدم السهم للدلالة ، عادة ، على حصة في ارث اهلي ، كما في المثال التالي : « السيدة الحاجة عالمة بنت المرحوم بهرام بيك آل رضوان لها في جميع ريع الوقف الرضواني سهما كاملا من تسعة اسهم ونصف كونها من الذرية »(٢) . ولا نعلم بدقة مجموع الاسهم ، الذي شكل السهم جزءا منه ، وهل هو بعدد مجموع الورثة في مثال الارث .

وفي التعامل الزراعي في دمشق ، مثلا ، اعتبر السهم جزءا من مائة سهم ، وفي بعض مناطق الشام حاليا يقسم العقار الى ٢٤٠٠ سهم . ورغم ان وثائق غزة اشارت الى حدود كل عقار ، حين بيعه او وقفه ، وذكرت حصصه بالقراريط ، واحيانا قاست بعضه او كله بالذراع ، فانها لم تذكر كلمة « فدان » في قياس الاراضي وشاع في دمشق ، مثلا ، نوعان من الفدان : الروماني والخطاط(٣) .

وتنوعت المكاييل ، في غزة ومنطقتها ، في فترة دراستنا . فمنها الكيلة ، التي كيلت بها الحنطة والشعير . فقد نقل ، مثلا ، من شونة غزة في شوال ١٢٧٣/ حزيران ١٨٥٧ ، الى بندر معان ، لتموين الحج الشامي ، ١٨٦٤٠ كيلة شعير بالكيل المجيدي(٤) . ونقل من شونة غزة ، في جمادى الاول ١٢٧٦/كانون الاول ١٨٥٩ ، ١٠٩٩١ كيلة حنطة ، و ٢٢٩٩٢٫٢٥ كيلة شعير ، الى بندر معان للفرض نفسه(٥) ، مما يدل على ان الكميات الكبيرة كانت تقاس بالكيلة(٦) . وفي وثيقة اخرى وصفت الكيلة بانها مجيدي(٧) . ويبدو ان التسمية نسبة الى السلطان العثماني عبد المجيد

---

(١) سجل غزة ، ص ١٦٤ ، ٩ را ٧٥/(١٧ تشرين الاول ٥٨)

(٢) سجل غزة ، ص ٤٤٧ ، ٢١ م ٧٧/(٩ آب ٦٠)

(٣) انظر مقالنا : « Economic relations between Damascus and the dependent countryside, 1743 - 1771 », to be published in **Land, Population and Society**, ed. A. Udovitch, Darwin Press, Princeton, 1980.

(٤) سجل غزة ، ص ٣٥ ، ٢٢ ل ٧٣/(١٥ حزيران ٥٧)

(٥) سجل غزة ، ص ٢٨٦ ، ١٧ جا ٧٦/(٢٢ كانون الاول ٥٩) .

(٦) سجل غزة ، ص ٩١ ، ١٣ ر ٧٤/(١ كانون الاول ٥٧) ، ص ٢٨٦ ، ١٧ جا ٧٦/ (١٢ كانون الاول ٥٩) ، ص ٣٤١ ، ٢٥ ل ٧٦/(ايار ٦٠)

(٧) سجل غزة ، ص ٣٤١ ، ٢٥ ل ٧٦/(٦ ايار ٦٠)

(١٨٣٩ ـ ١٨٦١) ، وهذا يعني ان الكيلة المجيدية ، او الكيل المجيدي ، استخدما في عهده . ولا ندري ماذا كان وزن الكيلة او الكيل المجيدي ، فيما اذا عبئت قمحا ، او شعيرا ، او بمادة اخرى ، لان هذهالمواد يختلف وزنها من مادة الى اخرى وذكر هنتس (ص ٧٣) انه اصبح للكيلة في تركيا ، بعد عام ١٨٤١ ، قيمة موحدة تساوي ٢٧ر٣٥ لترا ، وهذا ما يعادل ٢٥ر٦٥٦ كغ من الحنطة . اما كيلة الشعير ، فيعتقد هنتس (ص ٧٢) انها وزنت ٢٢ر٢٥ كغ . وقد جاء في كتاب (بيديكر)(١) ، في حوالي ١٨٩٠ ، ان الكيلة في سورية عادلت مدين ، اي ٣٦ لترا ، وهذا ما يعادل ٢٦ر١٨٧ كغ

وذكرت الوثائق نصف كيلة(٢) ، ولكننا لم نجد اشارة الى ربع كيلة . وهناك اشارة الى ان الكيلة قسمت الى اربع وعشرين وحدة ، كما ورد ، مثلا ، حين تقدير ضرائب الميري في غلال الحنطة والشعير والذرة(٣) ، وقد اشارت الوثيقة الى هذه الوحدة بحرف (ط) ، وهذا الحرف يشار به ، عادة ، الى كل من القيراط والرطل ومن جمع اعداد هذه الوحدات من الحبوب ، نلاحظ ان كل اربع وعشرين وحدة ، اي (ط) ، اعتبرت كيلة، اضيف عددها الى عدد الكيلات بجانبها وهكذا ، فمن الممكن ان الكيلة قسمت الى اربعة وعشرين قيراطا ، او انها قسمت الى اربعة وعشرين رطلا . ونحتاج الى امثلة اخرى لنتمكن من الاخذ بتفسير او آخر

ان حصر الكيلة بالكيل المجيدي يعني ان هناك انواعا اخرى من الكيل ، يفترض ان تختلف احجامها ، وبالتالي اوزانها ، لذا فالكيلة حجم نسبي ، والكيل متعدد الحجوم . ووجدت اختلافات في المقادير ، وبالتالي في الوزن ، حتى ضمن الكيل من نوع معين مثلا ، هناك كيل مجيدي مسح(٤) ، أي على مستوى الاطراف وهناك كيل عرم من غير هز ولا لبد(٥) . ونتساءل فيما اذا كان الكيل العرم من غير هز يضم اكبر كمية ممكنة ، والمفترض ان الكيل العرم بعد الهز يستوعب كمية اكبر

وذكر المد كمكيال في غزة ومنطقتها ، وقدر بانه يساوي نصف كيلة(٦) . وكان المد في غزة ، مثل الكيلة ، مجيديا ، كما ورد ذلك في المثالين التاليين : « قبض وتسلم

---

(١) Baedeker, p. XXX

(٢) سجل غزة ، ص ٢٨٦ ، ١٧ جا ٧٦/(١٢ كانون الاول ٥٩)

(٣) سجل غزة ، ص ٩٨ ، ٥ جا ٧٤/(٢٢ كانون الاول ٥٧)

(٤) سجل غزة ، ص ٢٢١ ، ٢٥ ل ٧٥/(٢٨ ايار ٥٩)

(٥) سجل غزة ، ص ١٣٠ ، ٢٠ ل ٧٤/(٣ حزيران ٥٨)

(٦) وقد تأكدت هذه النسبة ، اي ان كل مدين يعادلان كيلة ، في كتاب Baedeker, p. XXX الذي وضع حوالي عام ١٨٩٠ ، أي بعد حوالي ثلاثين سنة من الوثائق الشرعية التي استخدمناها ، مما يدل على ان نسبة المد الى الكيلة كانت ثابتة في تلك الفترة .

ووصله .. من محمد آغا الحلبي مأمور حملة الحاج الشريف الشامي ثمانية وعشرون الف مد وستماية مد شعير بالمد المجيدي كيل عرم من غير هز ولا لبد عنها اربعة عشر الف كيلة شعير وثلاثماية كيلة مجيدي داخل الف وماية وثمانية وثلاثون زوج خيش اسود ونصف زوج خيش »(١) . و « قبض وتسلم ووصله من شونة زخاير الميري بمدينة غزة تسعة وثلاثون الف واثنتين وسبعون مد شعير مجيدي عنها تسعة عشر الف وخمسماية وستة وثلاثون كيل شعير بالمد المجيدي »(٢) ويلاحظ من المثال الاول ان زوج الخيش الاسود استوعب ١٢ر٥٦ كيلة مجيدية من الشعير ، أو ٢٥ر١٢ مدا مجيديا من الشعير ، وهو ما يفترض ان يكون قد حمل على ظهر جمل واحد واذا كان المد المجيدي في غزة معادلا للمد المصري ، الذي قدر في عام ١٢٥٦/١٨٤٠ — ١٨٤١(٣) ، بانه يعادل رطلا وسبع وثلث سبع رطل ، فان زوج الخيش الاسود استوعب ٣٩ر٤٦ رطلا من الشعير بالرطل المصري والى جانب الخيش الاسود استخدم الخيش الاسمر ويبدو انه كان اكثر استيعابا من الخيش الاسود فقد وضعت ٥٠٧٠ كيلة مجيدي من الشعير داخل ٣٦٩ زوج خيش اسمر جديد بعراها وخوايطها(٤) ، أي ان الزوج من هذا الخيش استوعب ١٤ر٠١ كيلة مجيدي من الشعير ومع ذلك ، فلم يستخدم الخيش ، سواء منه الاسود أم الاسمر ، كمكيال بحد ذاته

وعملية الكيل لم تكن منحصرة بالكيلة ، لان اي مكيال آخر وجب كيل محتواه ، فالحنطة ، مثلا ، كيلت ، الى جانب الكيلة ، بالصاع ، او بالربع ، ولكل منهما حجم معين يكال بكيل معين ، كأن يقال « صاع بكيل قرية المغار »(٥) ، او ربع « بكيل السوق »(٦) . وهذا يعني ان هناك صاعا يكال بغير كيل قرية المغار ، وربعا يكال بغير كيل السوق ، مثلما كيلت الكيلة بغير الكيل المجيدي .

وقد استخدم الصاع في منطقة غزة كمكيال ، وكانت تكال به انواع الحبوب ، وحتى الزيتون(٧) وذكر هنتس (ص ٦٣) ، ان الصاع عادل ٣ر٢٤ كغ ولكنه لم

---

(١) سجل غزة ، ص ١٣٠ ، ٢٠ ل ٧٤/(٣ حزيران ٥٨)

(٢) المصدر السابق

(٣) انظر : مخطوطة تحرير الدرهم والمثقال ، والرطل والمكيال ، وبيان مقادير النقود المتداولة بمصر على مقتضى ما حدد بدار الضرب سنة ١٢٥٦ ، تأليف مصطفى الذهبي الشافعي ، نشرها الاب انستاس ماري الكرملي البغدادي ، في كتابه : ، النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ٧٥ — ٨٦ ، انظر ، ص ٧٨

(٤) سجل غزة ، ص ٣٤١ ، ٢٥ ل ٧٦/(٦ ايار ٦٠)

(٥) سجل غزة ، ص ٤٣٣ ، ١١ جا ٧٧/(٢٥ تشرين الثاني ٦٠)

(٦) سجل غزة ، ص ١٧٢ ، ٢٥ را ٧٥/(٢ تشرين الثاني ٥٨)

(٧) سجل غزة ، ص ١٦٥ ، ٩ را ٧٥/(١٧ تشرين الاول ٥٨)

يعين المكان والزمان حيث بلغ وزنه ذلك المقدار .

وكان الربع اكثر شيوعا من الصاع في كيل الحبوب في منطقة غزة والتسمية نسبة الى ربع المد(١) ، اي ان وزن الربع ، الذي ساوى ٥ر٤ لترا ، عادل ٢٧٣ر٣ كغ ويجب ان نأخذ هذا بتحفظ بالنسبة لانواع الحبوب ، التي اختلفت احجامها ، وبالتالي اوزانها . واذا ما قارنا بين سعر ربع من الحنطة وسعر صاع منها ، في فترة واحدة ، اوجدنا ان سعر ربع الحنطة راوح بين ثلاثة وخمسة قروش ، حسب نوع الحنطة ونظافتها (مقدار الحصا والتراب فيها) ، والسعر الوسطي اربعة قروش ، في حين ان سعر صاع الحنطة كان حوالي عشرة قروش ، مما يدل على ان الصاع اكبر من الربع ، وربما بلغ ضعفه او اكثر(٢) وطبيعي ان المقارنة بين اسعار الربع والصاع والمكاييل الاخرى ، للتوصل الى مقارنة بين احجام هذه المكاييل ، يجب ان تتم بحذر وبدقة كبيرة ، نظرا لاختلاف نوعية كل سلعة ، ونظافتها ، ومواصفاتها الاخرى ، كأن يكون العدس ، مثلا ، صحيحا او مجروشا ، وان تكون الحنطة معروقة او عادية وكذلك يجب الاخذ بعين الاعتبار ان تكون المقارنة في الاسعار في موسم واحد يتساوى فيه العرض والطلب ، بالنسبة لمختلف انواع الحبوب المراد مقارنة اسعارها

وكان هناك كيالة محترفون يتقاضون اجورا على كيل الحبوب وتقاضى كيال الشعير ، مثلا ، خمسة وعشرين قرشا على كيل الف ربع من الشعير(٣) ، علما بان وسطي ثمن ربع الشعير كان ثلاثة قروش(٤) . ولا نعلم ان كان هناك كيالون لكل مادة ، كما قد توحي به عبارة « كيال الشعير »

ومن المكاييل الاخرى « الحمل » ، وهو ما يحمل على ظهر حيوان النقل . ولم ترد معلومات كثيرة حول الحيوان ، الذي حملت عليه الاحمال عادة . فقد عهد الى مشايخ البدو بنقل كميات كبيرة من كيلات الشعير والحنطة من شونة غزة الى بندر معان ، والمفهوم انها نقلت على الجمال(٥) ، وان الخيش الاسود او الاسمر استخدم لنقلها وكانت الاشارة الى « زوج الخيش » ، مما يعني ان كل زوج وضع على ظهر جمل ، ولكن « الحمل » كمكيال أمر آخر ففقد اشارت الوثائق ، مثلا ، الى حملين من الحنطة ، يضمان اربعة وستين ربعا ، سعرهما ٣٢٠ قرشا ، بذمة مصطفى

---

(١) Baedeker, p. XXX

(٢) سجل غزة ، ص ١٦٥ ، ٩ را ٧٥/(١٧ تشرين الاول ٥٨) ، ص ٩٧ ، ٥ جا ٧٤/(٢٢ كانون الاول ٥٧)

(٣) سجل غزة ، ص ١٦٥ ، ٩ را ٧٥/(١٧ تشرين الاول ٥٨)

(٤) انظر فيما سبق ، ص ٧٣

(٥) انظر مثلا : سجل غزة ، ص ٣٥ ، ٢٢ ل ٧٣/(١٥ حزيران ٥٧)

سلمان للمتوفى عبد القادر بن صالح الشوى(١) وهذا يعني ان حمل الحنطة تألف من اثنين وثلاثين ربعا ، وان سعر الربع خمسة قروش . واشير في تركة اخرى ، بعد عام من تركة الشوى ، الى حملين من الحنطة ضما اربعة وستين ربعا ، بسعر ستة قروش الربع(٢) . واذا اعتبرنا ان الربع وزن ٣٫٢٧٣ كغ ، فان وزن حمل الحنطة عادل ١٠٤٫٧٣٦ كغ . ونظرا لان حمل الجمل قد قدره (هنتس ، ص ٢٧) ب ٢٥٠ كغ ، فان هذا الحمل الذي عادل ٣٢ ربعا ، يبدو انه حمل على حيوان اضعف من الجمل ، مثل البغل او الحمار

واستخدم الحمل كمكيال بالنسبة لغير الحبوب ، مثلا ، جاء ذكر حمل ملح بيع بخمسين قرشا(٣) ، واحمال صوف استوردت من جدة ، بطريق السويس ، الى غزة وبلغ عدد هذه الاحمال ٢٢ حملا ، وزنها ٢٢٧ رطلا ، أي ما يعادل ١٠٫٣١٨ رطلا للحمل الواحد ، وبيع الرطل منها في غزة بسعر ٧٫٥ قرشا(٤) وذكر الكيس كمكيال ، بمناسبة استيراد عدد من اكياس الذرة من الاسكندرية الى غزة ، وداخل كل كيس ١٣ ربعا من الذرة(٥) ، أي ما يعادل ٤٢٫٥٤٩ كغ

وذكرت الطبة كمكيال ، بالنسبة للحبوب ، واختلف مقدارها حسب الكيل الذي كيلت به ، مثلا ، تواسط الحاضرون الصلح على ان يدفع المدعى عليه محمد ابن الحاج عودة الله ، من اهل قرية تل الترمس ، الى المدعي خليل بن علي القاطوع ، من أهالي قرية الشيخ مونس ، ثماني طبات ذرة بكيل قرية تل الترمس(٦) ومعنى ذلك ان الطبة يمكن ان تقاس بكيل آخر ولم نجد ما يساعد على التعريف بالطبة ونسبتها الى الكيلة ، او الصاع ، أو الربع ولكنها تدل ، من معناها ، على ان الكيل الذي كيلت به كان يفرغ على الارض ، اي « يطب » على وجهه ، لافراغ محتوياته، والكمية تكون « طبة » . وتصف الطبة الى جانب اختها ، ثم تعد فرادى ، ويكون مجموعها ، مثلا ، ثماني طبات

واستخدمت الجرة كمكيال ، بالنسبة لعدد من الحبوب والسوائل وكان سعر جرة الشعيرية ، مثلا ، في حوالي رجب ١٢٧٥/ شباط ١٨٥٩ ، ١٧٫٥ قرشا ، وجرة البرغل ١٠ ، وجرة المفتول (برغل مفتول مع طحين) ١٦٫٢٥(٧) وكانت

(١) سجل غزة ، ص ٩٧ ، ٥ جا ٧٤/(٢٢ كانون الاول ٥٧)
(٢) سجل غزة ، ص ١٦٥ ، ٩ را ٧٥/(١٧ تشرين الاول ٥٨
(٣) سجل غزة ، ص ٤٥٧ ، ٢٥ ب ٧٧/(٦ شباط ٩١) .
(٤) سجل غزة ، ص ٢٩٤ ، ٧ ج ٧٦/(١ كانون الاول ٦٠)
(٥) سجل غزة ، ص ٣٦٠ ، ١٥ ذ ٧٦/(٤ تموز ٦٠)
(٦) سجل غزة ، ص ٤١٨ ، ١٢ ر ٧٧/(٢٨ تشرين الاول ٦٠)
(٧) سجل غزة ، ص ٢٠٠ ، ٢٠ ش ٧٥/(٢٥ آذار ٥٩)

قيمة جرة السيرج ، في غرة جمادى الثاني ٢٦/١٢٧٦ كانون الاول ١٢٥٩ ، ٧٠ قرشا(١) وبلغت قيمة جرة الزيت ، في التاريخ السابق ، ٦٣ قرشا ، وبيعت جرة زيت ونصف رطل زيت ، في التاريخ نفسه (وفي التركة نفسها) بسعر ٦٦ر٥ قرشا ؛ مما يعني ان سعر رطل الزيت بلغ سبعة قروش ، وان جرة الزيت وسعت تسعة أرطال

وذكرت الوثائق عددا من الاوزان استخدمت في غزة ومنطقتها ، وكان ابرزها ، واكثرها استخداما ، الرطل وورد ذكر نصف الرطل ، وتلته الاوقية (جمعت أواق) ، ثم الدرهم وذكرت احدى الوثائق « درهمين حرير » ، في تركة احد المتوفين ، مما يدل على اهمية هذه الكمية الصغيرة ووجد ميزان خاص لوزن الحرير ، عرف بميزان الحرير(٢) . ولم يرد في الوثائق ما يفيد عدد الاواق في الرطل ، أو عدد الدراهم في الاوقية والمعروف آنذاك في مصر(٣) ان كل ١٢ أوقية عادلت رطلا ، وان الاوقية تألفت من ١٢ درهما ونظرا لاختلاف هذه القيم ، في الزمان والمكان ، يصعب علينا معرفة ماذا كانت تعادل في غزة في فترة دراستنا

واستخدم المثقال ، عادة ، لوزن الذهب واللؤلؤ وبلغ وزنه في مصر ، في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، درهما ونصف(٤) وفي عام ١٢٥٦/١٨٤٠ — ١٨٤١ قدر بدرهم وثلاثة اسباع الدرهم ، وبذلك يساوي الدرهم سبعة اعشار المثقال ، أي ان كل عشرة دراهم تساوي سبعة مثاقيل وقسم المثقال ، في مصر ، الى عدد من الحبات بلغ عددها ستة آلاف حبة(٥) واستخدم الدرهم ، عادة ، لوزن الفضة

وذكرت الوثائق انواعا كثيرة من النقود الفضية والذهبية ، وغيرها ، المتداولة في غزة ، واسعارها ، في فترة دراستنا واستخدم تعبير « دراهم » للدلالة على النقود بصورة عامة ، كما نقول « بها امتعته ودراهمه »(٦) وقصد بالدراهم ، احيانا ، القروش ، كما في التعبير التالي ، الذي ورد في ضبط احدى التركات : « دراهم نقدي بيد السيد محمد عابدين ، ٩ر٥ قرشا »(٧)

---

(١) سجل غزة ، ص ٣٠١ ، غرة ج ٧٦/(٢٦ كانون الاول ٥٩)

(٢) سجل غزة ص ٦٢ ، ٥ ر٧٤/(٢٤ تشرين الاول ٥٧

(٣) انظر : هنتس ، ص ١٩ — ٢٠ ، ٣٠ — ٢٧ ، وانظر :
E. W. Lane, An Account of the manners and customs of the Modern Egyptians, 5th ed., London, 1860, p. 572.

(٤) انظر : Lane, p. 572

(٥) الذهبي ، نشر الكرملي ، ص ٧٦

(٦) سجل غزة ، ص ١٣٣ ، ٣ ذا ٧٤/(١٥ حزيران ٥٨)

(٧) سجل غزة ، ص ٣٣٣ ، ٢٠ ن ٧٦/(١١ نيسان ٦٠)

وكانت الوحدة النقدية الاكثر تداولا هي القرش (كتب احيانا الفرش) الفضة الاسدي . اما انواع العملات الاخرى ، من محلية واجنبية ، فضية وذهبية ، قديمة وحديثة ، فكانت موجودة بوفرة ، ولكنها كانت اقل تداولا ، وعمد الى تخزينها ، واكثر ما ورد ذكرها في التركات . وتسمية القرش بالاسدي مشتقة من اصل هولاندي ، حيث ظهرت صورة الاسد على العملة الهولاندية(١) . وقد استخدم نوعان من القرش في غزة ومنطقتها : قرش اسدي صاغ وقرش جرك ، وكلاهما من الفضة . وجاء في كتاب (بيديكر)(٢) ان القرش الصاغ تعاملت به خزينة الدولة ، في حين استخدم القرش الجرك في التجارة والشؤون العامة ، وان الفرق بينهما بنسبة ٢٠ الى ١٨ وقد اشارت وثائق دمشق الشرعية ، في فترة دراستنا ، وفي معاملات البيع والشراء بين الافراد ، الى « قرش فضة صاغ ميرية » ، مما يدل على القيمة الرسمية لهذا القرش(٣) . وبالنسبة للوثائق الشرعية في غزة فالتعبير الذي شاع استخدامه فيها ، في قضايا البيع والشراء ، هو قرش اسدي ، او قرش . ولا ندري هل الاشارة هنا الى القرش الصاغ الرسمي (الميري) او الى القرش الشائع الجرك ومما يجعلنا نميل الى الاخذ بالمعنى الثاني ما ورد في احدى القضايا ، في سجل محكمة غزة ، من ان امرأة قبضت من زوجها مبلغا قدره من المعاملة الجرك او الجارية تسعة آلاف قرش وستماية قرش يعدل كل قرش اربعين فضة مصرية(٤) وجاء في وثيقة اخرى ان الثمن بلغ ١٥٠٠ غرش اسدي عملة جرك(٥) ، وفي مناسبة ثانية ان الثمن بلغ ٨٥٠ غرش جرك مقبوضة بالحضرة(٦) ونستشف من هذا ان القرش الجرك كان شائع الاستخدام في غزة

وتقسيم القرش الى اربعين (قطعة) فضية مصرية (اختصرت احيانا الى فضة او مصرية) سهل امور التعامل النقدي كثيرا . واشير الى قطعة الفضة ، في غير غزة ، باسم « بارة » احيانا . ففي قضايا الطلاق ونفقة العدة ، والحضانة ، وفرض رسوم الطعام والشراب للمطلقة ، او للقاصرين ، استخدمت قطع الفضة المصرية لتحديد المبلغ الذي تراوح بين ٣٠ و ٨٠ قطعة فضة مصرية يوميا ولم تكن هذه القطع من الفضة الصرف اذ خلطت بالنحاس(٧) واطلق على قطعة الفضة المصرية ، في

---

(١) Raymond, I, 20; H. Bowen and H. A. R. Gibb, **Islamic Society and the West**, Vol. 1, in 2 parts, 1951, 1957, ii, 50.

(٢) Baedeker, p. XVIII - XIX.

(٣) انظر مثلا سجلات دمشق الشرعية ، سجل رقم ٤٢١ ، ص ١٨٠ ، ١٦ رجب ١٢٦٦/ (٢٨ ايار ١٨٥٠)

(٤) سجل غزة ، ص ٢٢٤ ، ١٥ ذا ٧٥/(١٦ حزيران ٥٩)

(٥) سجل غزة ، ص ٢٤٤ ، ٢٧ ص ٧٦/(٢٥ ايلول ٥٩)

(٦) سجل غزة ، ص ٢٥١ ، ٨ ص ٧٦/(٦ ايلول ٥٩)

(٧) Lane, p. 572

الاصل ، اصطلاح « نصف فضة »(١) . ونظرا لتدني قيمتها وجد منها قطع بخمسة ، وعشرة ، وعشرين فضة . واشير ، في كتابة الارقام ، الى اجزاء القرش باشارات متعارف عليها ، فالنصف علامته (ـ) ، والثلث (ر) ، والربع (/) ، والنصف والربع معا (ـر) واشير الى عدد قطع الفضة المصرية ، خارج هـذه النسب ، كما يلي : (٥) ، أي خمس قطـع فضة مصرية مثـلا ، عشرة قروش ، ونصف قرش ، وخمس قطع فضة مصرية (مصاري) ، تكتب كالتالي (٥ ـ ١٠) .

ومن قطع النقود الفضية التي ورد ذكرها في وثائق غـزة الشرعية الريـال المجيدي ، الذي اختصر احيانا الى المجيـدي(٢) ، والتسمية نسـبة الى السلطان العثماني عبد المجيد ومن اقسام الريال المجيدي نصف المجيدي وربع المجيدي وكلمة « ريال » مشتقة ، في الاساس ، من الريال الاسباني(٣) وقدر « الكرملي »(٤) الريال المجيدي على انه يساوي ٨٠٠ بارة ، او عشرين غرشا تركيا صاغا ، او ثلاثة وعشرين غرشا تركيا شركا (اي جرك) وذكر ايضا ان وزن الريال المجيدي ١٢٥ قيراطا(٥) وكان سعره في دمشق ، في فترة دراستنا ، ٢٢ر٥ قرشا(٦)

واشارت وثائق غزة الى نقد عرف بالفرنك(٧) ، وجاء في كتاب (بيديكر)(٨) انه من الفضة ، وكان سعره في دمشق ، في فترة دراستنا ، اربعة قروش وخمسة مصاري(٩) . واستخدمت العملة المصرية الفضية من القروش في غـزة في فتـرة دراستنا. فقد شريت دار فيغزة بهذا النوع منالقروش المصرية(١٠). وذكر الكرملي(١١) ان القرش المصري عملة فضية ، وان وزنه هو ٧ر٥ من القراريط

وشاع في غزة استخدام ريال فرانسة عامود(١٢) ، وكان سعره ٣٢ قرشا . واذا

---

(١) المصدر السابق ، وانظر بحثنا : ثورات العساكر في القاهرة في الربع الاخير من القـرن السادس عشر والعقد الاول من القرن السابع عشر ومغزاها ، دمشق ، ١٩٦٩ ، ص ٦

(٢) سجل غزة ، ص ٩٦ ، ١٢ ر ٧٤/(٣٠ تشرين الثاني ٥٧)

(٣) انظر : الكرملي ، ص ١٧٤

(٤) ص ٩٤ — ٩٥

(٥) المصدر السابق ، ص ٨٥

(٦) سجلات دمشق الشرعية ، سجل رقم ٤٩٤ ، ص ١١٣ ، ختام محرم ١٢٧٤/(٢٠ ايلول ١٨٥٧)

(٧) سجل غزة . ص ٢٤١ ٢٣ م ٧٦/(٢٢ آب ٥٩

(٨) Baedeker, p. XXIX

(٩) سجلات دمشق الشرعية ، سجل رقم ٥١٠ ، ص ٤ ، ١٤ جمادى الثاني ١٢٧٦/(١٠ كانون الثاني ١٨٦٠)

(١٠) سجل غزة ، ص ١٣٢ ، ٥ ذا ٧٤/(١٧ حزيران ٥٨

(١١) ص ٨٥

(١٢) سجل غزة ، ص ٢٣٠ ، ١٤ ذا ٧٥/(١٥ تموز ٥٩)

كان مخزوقا فسعره ٣١ر٥ قرشا(١) .وهذا الريال هو ، في الاساس ، ريال ماريا تيريزا(٢) . واشير اليه بلقب ابو مدفع ، في غير غزة(٣) . اما في دمشق فأشير اليه بعامود ، وكان سعره فيها ، في فترة دراستنا، ٢٧ر٧٥ قرشا(٤) . ووجد ريال فرانسة شوشه (٥) . واشارت وثائق دمشق المعاصرة اليه باسم ريال شوشه او شوشه ، واختلف سعره ، في دمشق ، بين عامي ١٢٧٤ و ١٢٧٦ هجرية ، اذ هبط من ٢٦ر٥ قرشا الى ٢٥ر٧٥ قرشا(٦)

واستخدم في غزة ريال سينكو (وذكر ايضا باسم سينكوا ، وسنكو ، وشنكو) ، والكلمة مشتقة من الكلمة الايطالية خمسة(٧) . وكان سعره في غزة ٢٦ قرشا(٨) وسعره في دمشق في ١٢٧٤ هـ ٢٤ر٢٥ قرشا ، وفي ١٢٧٦ هـ ٢٤ر٥٠ قرشا(٩) وفي غزة ايضا ريال منون ، وسعره ٢١ قرشا ، ومنه نصف منون ، وسعره ١٠ر٥ قرشا(١٠) . ولا نعلم وجه التسمية. وفيها كذلك نقد من نوع ناقشلي(١١) ، والتسمية لنقش عليه(١٢) ، وربما هو نفسه منقشلي ، الذي كان سعره ٤ قروش(١٣) ووجد نقد مفرد ، وسعره ٣ر٥ قروش(١٤) ، ونقد بوزلي(١٥) ، اشار اليه الكرملي(١٦) باسم بوزلك ووجد نقد من نوع نصف وزري ، وسعره ٣ قروش(١٧) ، ونقد نافلي وسعره ٤ر٧٥ قروش(١٨) ، وربع زريفة ، استخدمت لتحميل الحلق بها ، ولعلها

---

(١) سجل غزة ، ص ١٦٥ ، ٩ را ٧٥/(١٧ تشرين الاول ٥٨)
(٢) Raymond, I, 24, 25 n
(٣) Lane, p. 573
(٤) سجلات دمشق الشرعية ، سجل رقم ٥١٠ ، ص ٤ ، ١٤ جمادى الثاني ١٢٧٦ /(١٠ كانون الثاني ١٨٦٠)
(٥) سجل غزة ، ص ١١٨ ، ١١ ش ٧٤/(٢٧ آذار ٥٨)
(٦) سجلات دمشق الشرعية ، سجل رقم ٤٩٤ ، ص ١١٣ ، سجل رقم ٥١٠ ، ص ٤
(٧) الكرملي ، ص ١٤١
(٨) سجل غزة ، ص ١٦٥ ، ٩ را ٧٥/(١٧ تشرين الاول ٥٨) ، ص ٢٤١ ، ٢٣ م ٧٦/(٢٢ آب ٥٩)
(٩) سجلات دمشق الشرعية ، سجل رقم ٤٩٤ ، ص ١١٣ ، سجل رقم ٥١٠ ، ص ٤
(١٠) سجل غزة ، ص ١٦٥ ، ٩ را ٧٥/(١٧ تشرين الاول ٥٨)
(١١) سجل غزة ، ص ١١٨ ، ١١ ش ٧٤/(٢٧ آذار ٥٨
(١٢) الكرملي ، ص ١٨٧
(١٣) سجل غزة ، ص ١٦٥ ، ٩ را ٧٥/(١٧ تشرين الاول ٥٨)
(١٤) المصدر السابق
(١٥) سجل غزة ، ص ١١٨ ، ١١ ش ٧٤/(٢٧ آذار ٥٨)
(١٦) ص ٨٥
(١٧) سجل غزة ، ص ١٩١ ، ١٦ ج ٧٥/(٢١ كانون الثاني ٥٩)
(١٨) المصدر السابق

من الذهب(١)، ونقد حميدي(٢) ، وغازي قديم ، وسعره ٥ر٤ قروش(٣) . ويبدو ان هذا الغازي كان من الفضة لان الغازي القديم الوازن من الذهب كان سعره في دمشق ، آنذاك ، ٣٧ قرشا(٤)

ووجد في غزة ، في فترة دراستنا ، نقد نحاسي عرف بالفنس(٥) وقد ذكره (بيديكر)(٦) في كتابه وعرف هذا النقد في دمشق ، وكان سعره فيها ، في عامي ١٢٧٤ و ١٢٧٦ هـ ، ٥ر١٩ قرشا(٧) ووجد نقد نحاسي آخر في غـزة ، اعتبر قديما ، في الوثائق ، وهو الزلطة(٨) والتسمية من السلافية (Zoloto, Zolata) (٩) وكانت تساوي ثلاثين بارة ، او ثلاثة ارباع القرش

وكثرت انواع النقود الذهبية ، العثمانية والاوربية ، في غزة ، في فترة دراستنا . ومن هذه النقود العثمانية الجهادي ، ومن انواعه جهادي قديـم ، وسعره ١٠٥ قروش(١٠) ، وجهادي به نقص، وسعره حوالي ١٠٩ قروش(١١) . ولا ندري ما اذا كان الجهادي ، الذي به نقص ، نوعا من العملة ، أم ان الجهادي ، في هذا المثال بالذات ، كان ناقصا قليلا ووجد جهادي يابس ، وكذلك نصف جهادي جديد ، سـعره ٤٠ قرشا(١٢) وقد ذكر الكرملي(١٣) ان تسمية هـذا النقد بالجهادي ، نسبة الى الجهاد ، واشـار الى وجود جهادي من الفضة(١٤) ، وكان سعر الجهادي الصحيح الوازن في دمشق ، في عام ١٢٧٦ هـ(١٥) ، ١١٢ قرشا ، ونصف جهادي طري ٥٠

---

(١) سجل غزة ، ص ٤٢٧ ، ٢٨ ر ٧٧/(١٣ تشرين الثاني ٦٠) ، ص ٣٤٨ ، ١٣ ذا ٧٦/(٢ حزيران ٦٠) ، وقد اشير اليها انها مـن الذهب وعرفت في دمشق في حوالي عام ١٨٣٩ ، انظـر Jean-Paul Pascual, « Une neige à Damas au XIXe Siècle », Bulletin d'Etudes Orientales, t. XXVIII (1975), pp. 57 - 81, voir p. 60.

(٢) سجل غزة ، ص ١١٨ ، ١١ ش ٧٤/(٢٧ آذار ٥٨)

(٣) سجل غزة ، ص ٣٣٣ ، ٢٠ ن ٧٦/(١١ نيسان ٦٠)

(٤) سجلات دمشق الشرعية ، سجل رقم ٥١٠ ، ص ٤

(٥) سجل غزة ، ص ١١٨ ، ١١ ش ٧٤/(٢٧ آذار ٥٨)

(٦) Baedeker, p. XXIX

(٧) سجلات دمشق الشرعية ، سجل رقم ٤٩٤ ، ص ١١٣ ، سجل رقم ٥١٠ ، ص ٤

(٨) سجل غزة ، ص ٤٢٧ ، ٢٨ ر ٧٧/(١٣ تشرين الثاني ٦٠)

(٩) الكرملي ، ص ١٧٥ ، Bowen and Gibb, ii, 54

(١٠) سجل غزة ، ص ١٩١ ، ١٦ ج ٧٥/(٢١ كانون الثاني ٥٩)

(١١) سجل غزة ، ص ٣٣٣ ، ٢٠ ن ٧٦/(١١ نيسان ٦٠)

(١٢) سجل غزة ، ص ١٤٢ ، ٢١ ذ ٧٤/(٢ آب ٥٨)

(١٣) ص ١٧٢

(١٤) ص ٩٦

(١٥) سجلات دمشق الشرعية سجل رقم ٥١٠ ، ص ٤

قرشا ، ونصف جهادي يابس ٣٩ قرشا . واختلفت تسميات الجهادي هـذه في دمشق ، في فترة دراستنا ، عن تسمياته واسعاره فيها في عام ١٨٣٩ ، وما حول ذلك ، حين اشير فيها الى جهادي قديم وجهادي جديد(١)

ومن النقود الذهبية في غزة المحبوب ، ولعله مختصر من زر محبوب ، والتسمية مشتقة من كلمة « زر » الفارسية ، وتعني الذهب ، وكلمة « محبوب » العربية (٢) واشارت وثائق غزة الى تداول محبوب اسلامبولي فيها(٣) . ووجدت ، في غزة ، قطعة نصف محبوب ، وبسعرها ٢٠ قرشا(٤) . ووجد نقد ذهبي باسم خيري ، وسعره ٣٠ قرشا(٥) ووجدت خيريات نواقص ، سعر واحدتها ٢٩ر٤ قرشا(٦) وكان في التداول قطعة ربع خيري(٧) ، وسعرها حوالي ٧ قروش(٨) واشارت وثائق غزة الى نقد خيري قديم(٩) . ولم يرد ذكر الخيري بين فئات المعاملة في دمشق في قائمتين من عامي ١٢٧٤ و ١٢٧٦ هـ(١٠) ووجدت في مصر ، حوالي فترة دراستنا ، خيرية مصرية(١١)

واشارت وثائق غزة الى نقد ذهبي من نوع ربع عدلي ، وسعره ٦ قروش (١٢) وقد وجد نقد عادلي في دمشق في حوالي ١٨٣٩(١٣) ، ولم يرد له ذكر فيها ، في عامي ١٢٧٤و١٢٧٦ هـ(١٤) . ووجد في غزة ايضا نقد فندقلي ذهبي(١٥) ويقول الكرملي(١٦) ان هذا النقد هو نفسه البندقلي ، نسبة الى البندقية وكان سعر قطعة فندقلي

---

(١) Jean-Paul Pascual, p. 60

(٢) انظر الكرملي ، ص ١٧٥ ، ١٨٤ ، Raymond, I, 20, 30 - 33, Bowen and Gibb, ii, 55 n. 7

(٣) سجل غزة ، ص ١١٨ ، ١١ ش ٧٤/(٢٧ آذار ٥٨

(٤) سجل غزة ، ص ٢١١ ، ١٣ ش ٧٥/(١٨ آذار ٥٩)

(٥) سجل غزة ، ص ١٤٢ ، ٢١ ذ ٧٤/(٢ آب ٥٨

(٦) سجل غزة ، ص ٣٣٣ ، ٢٠ ن ٧٦/(١١ نيسان ٦٠)

(٧) سجل غزة ، ص ٤٢٧ ، ٢٨ ر ٧٧/(١٣ تشرين الثاني ٦٠)

(٨) سجل غزة ، ص ٣٤٨ ، ١٣ ذا ٧٦/(٢ حزيران ٦٠) ، ص ٣٩٢ ، ٢٠ ص ٧٧/(٧ ايلول ٦٠)

(٩) سجل غزة ، ص ١١٨ ، ١١ ش ٧٤/(٢٧ آذار ٥٨

(١٠) سجلات دمشق الشرعية ، سجل رقم ٤٩٤ ، ص ١١٣ ، سجل رقم ٥١٠ ، ص ٤

(١١) كرملي ، ص ١٤١ ، cf. Lane, pp. 572 - 3

(١٢) سجل غزة ، ص ٣٤٨ ، ١٣ ذا ٧٦/(٢ حزيران ٦٠

(١٣) Jean-Paul Pascual, p. 60

(١٤) سجلات دمشق الشرعية ، سجل رقم ٤٩٤ ، ص ١١٣ ، سجل رقم ٥١٠ ، ص ٤

(١٥) انظر حول الفندقلي : Raymond, I, 30 - 31; Bowen and Gibb, ii, 55

(١٦) ص ٢٣

صحيح في غزة ٦٠ قرشا(١) ووجد منه نصف فندقلي وربع فندقلي . وهذه الاخيرة كانت اكثر شيوعا ، وسعرها ١٥ قرشا . ووجد ربع فندقلي سادة ، سعره ١١ قرشا(٢) . ولم يرد ذكر الفندقلي في دمشق في قائمتين من عامي ١٢٧٤ و ١٢٧٦ هـ ووجد في غزة ما عرف بنصف جنزيره ، ولعلها من الذهب ، وسعرها ٢٠ قرشا(٣) .

واستخدمت في غزة ، في فترة دراستنا ، عدة ليرات ذهبية ، منها الليرة المجيدية ، نسبة الى السلطان عبد المجيد ، وسعرها ١٢٠ قرشا(٤) وكان سعرها في دمشق في ١٢٧٤ هـ ١١١ قرشا ، وفي ١٢٧٦ هـ ٥ر١١١ قرشا(٥) . ووجدت الليرة المسكوبية ، وسعرها ١٣٠ قرشا ، في حين كان سعرها في دمشق في ١٢٧٤ هـ ٥ر٩٧ قرشا ، وفي ١٢٧٦ هـ ١٠٠ قرش(٦) . ووجد كذلك ليرة بنيتوا او بنيته ، وسعرها ١٠٥ قروش ، ونقد ذهبي عرفت وحدته باسم مجر (جمعها مجرات) ، وسعرها ١٢٠ قرشا ، ولعله ليرة ، لانه ذكر بين الليرات الاخرى . وورد ذكر مجر شباك ، وسعره ٦٠ قرشا(٧) ووجد المجر في دمشق في عام ١٢٧٦ هـ وسعره ٥ر٥٦ قرشا . والملاحظ ان وثائق دمشق ، المعاصرة لفترة دراستنا ، اشارت الى ليرات ذهبية اخرى لم يرد ذكرها في سجل غزة ، مثل الفرنساوية (سعرها ٥ر٩٥ قرشا في ١٢٧٤ و ٥ر٩٨ في ١٢٧٦ هـ) ، والانكليزية (سعرها ١٢٠ في ١٢٧٤ هـ و ١٢٤ في ١٢٧٦ هـ) ، والمصرية (سعرها ١٢٥ في ١٢٧٤ هـ و ١٢٦ في ١٢٧٦ هـ) ، وليرة ممدوحي (سعرها ٨٠ في ١٢٧٧ هـ) ، ودبلون (سعرها ٤٠٠ قرش في ١٢٧٦ هـ) ، وقرانيصة (سعرها واحد في ١٢٧٤ هـ و ١٢٧٦ هـ ، ومقداره ٥ر٥٧) ، وقرانيصة مربع (سعرها ٢٥٠ قرشا في ١٢٧٦ هـ)(٨) .

---

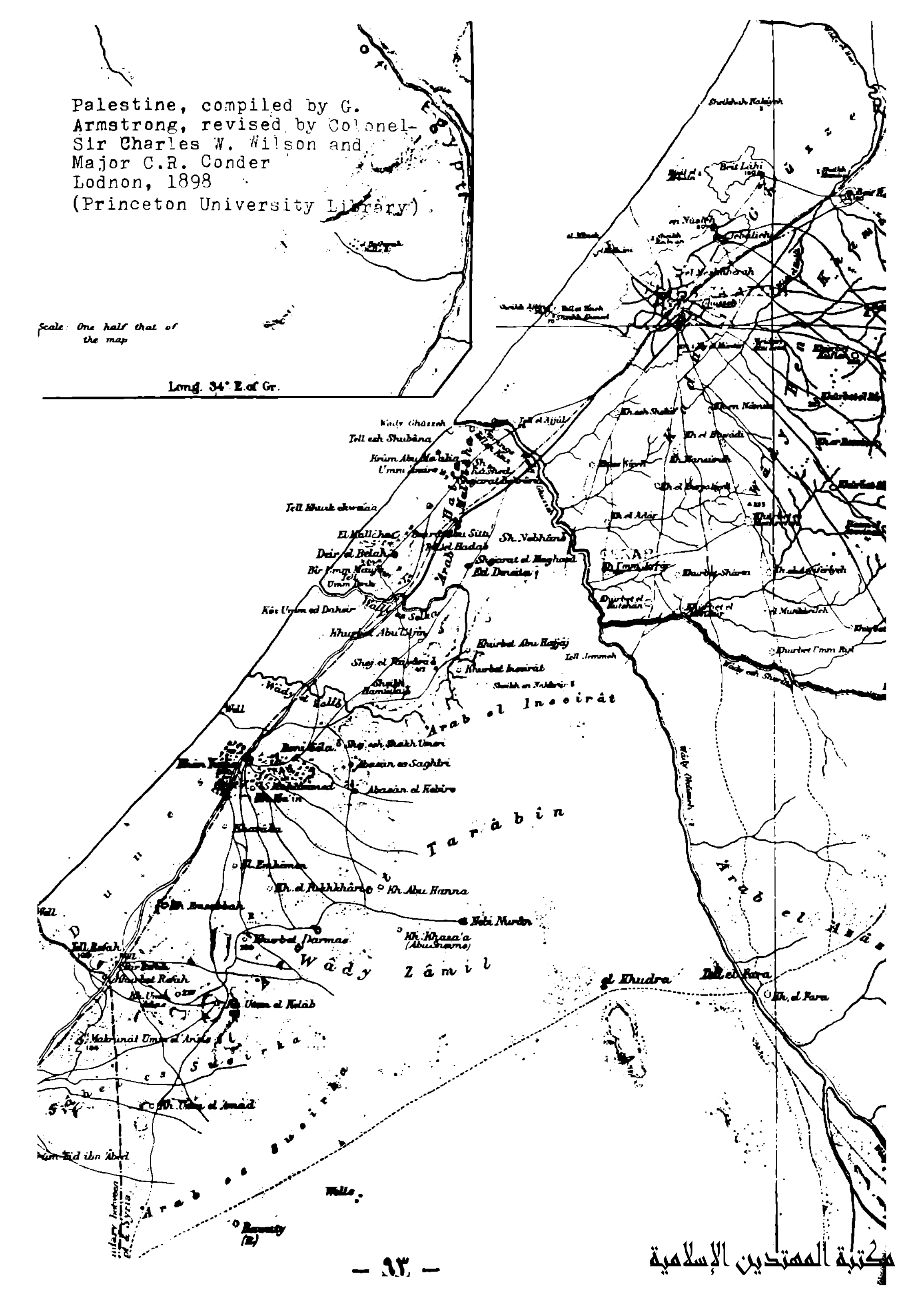
(١) سجل غزة ، ص ٣٣٣ ، ٢٠ ن ٧٦/(١١ نيسان ٦٠) .
(٢) سجل غزة ، ص ٣٤٨ ، ١٣ ذا ٧٦/(٢ حزيران ٦٠)
(٣) سجل غزة ، ص ١٦٥ ، ٩ را ٧٥/(١٧ تشرين الاول ٥٨)
(٤) سجل غزة ، ص ١٦٥ ، ٩ را ٧٥/(١٧ تشرين الاول ٥٨)
(٥) سجلات دمشق الشرعية ، سجل رقم ٤٩٤ ، ص ١١٣ ، سجل رقم ٥١٠ ، ص ٤
(٦) المصدران السابقان .
(٧) انظر حول هذه الليرات الذهبية والمجر في غزة ، سجل غزة ، ص ١٤٢ ، ٢١ ذ ٧٤/(٢ آب ٥٨) ، ص ١٦٥ ، ٩ را ٧٥/(١٧ تشرين الاول ٥٨) ، ص ٣٣٣ ، ٢٠ ن ٧٦/(١١ نيسان ٦٠) .
(٨) سجلات دمشق الشرعية ، سجل رقم ٥٠٠ ، ص ٧٤ ، ١٠ ربيع الثاني ١٢٧٧/(٢٦ تشرين الاول ٦٠)

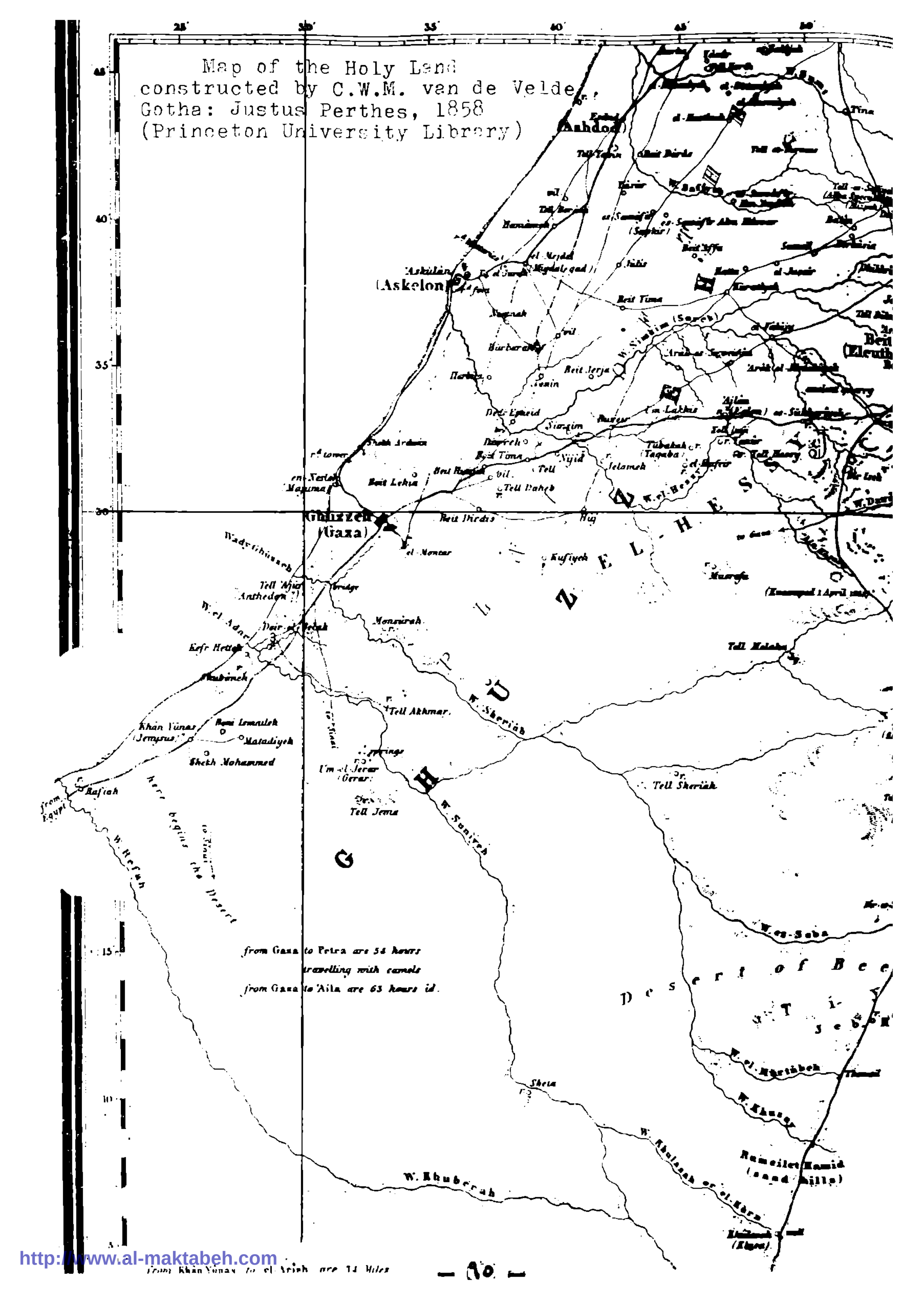
تصويب :

ص ٣ ، س ٥ ، تضاف ، بعد كلمة « اللغة » ، عبارة : ويضم حوالي ٣٧٤٥ وثيقة .

ص ١٣ ، هامش (٣) (1941) تصبح (1841)

ص ١٤ ـ هامش (١) ص ١٥ ، ١٦ ، ٢٤


Palestine, compiled by G. Armstrong, revised by Colonel-Sir Charles W. Wilson and Major C.R. Conder Lodnon, 1898 (Princeton University Library).
Scale: One half that of the map
Long. 34° E. of Gr.
Tell esh Shubâna
Deir el Belah
Sh. Nebhân
Khurbet Abu Hajjaj
Tell Jemmeh
Khurbet Inseirât
Arab el Inseirât
Wâdy Ghuzzeh
Abasân es Saghîri
Abasân el Kebîre
Tarâbin
Kh. Abu Hanna
Nebi Nurân
Kh. Khaza'a (Abu Sneime)
Wâdy Zâmil
Khurbet Rafah
Tell Rafah
Kh. Umm el Kelâb
Kh. Umm el 'Amad
el Khudra
Tell el Fara
Kh. el Fara
Arab es Sueirka
Wells
Beit Lahi
Tell el 'Ajjûl
Sheikh Ajlîn
en Nuseirât
Tell Umm Jerâr
Kh. Umm Jerâr
Khurbet Umm Rijl
Wâdy esh Sheri'ah
Wâdy Ghuzzeh
El Mallâha
Bir Umm Naujeh
Krûm Abu Ma'alia
Tell Khusk shwaiaa
Shajarat el Maghard
Shaj. el Rafa
Kh. Ihsabbah
Khurbet Darmas
Kh. el Fukhkhâri
Kh. el Abwâdi
Kh. el Mansirah
Gaza
Mahrûnat Umm el 'Arais
Um Eid ibn Abed
Arab el Ahaiwât
Wady Rafa
Duns



Map of the Holy Land
constructed by C.W.M. van de Velde
Gotha: Justus Perthes, 1858
(Princeton University Library)
Ashdod
Askalan
(Askelon)
el-Mejdel
Beit Tima
W. Simsim (Sereb)
Barbara
Beit Jerja
Herbia
Deir Esneid
Simsim
Bureir
Um Lakkis
Tubakah
(Taqaba)
Nijid
Jelameh
Beit Hanun
Beit Lehia
Tell Dahab
Beit Durdis
Huj
Ghuzzeh
(Gaza)
el-Muntar
Kufiyeh
Tell Ajjul
(Anthedon?)
bridge
Dair el-Belah
Kefr Hettah
Khan Yunas
(Jenysus?)
Beni Suheileh
Sheikh Mohammed
Rafiah
from Egypt
W. Refah
here begins the Desert
to Sinai
Tell Akhmar
W. Sheriah
Tell Sheriah
Um el Jerar
(Gerar)
Tell Jema
W. Suniyeh
Tell Meleha
Muweileh
W. es-Seba
Desert of Bee
W. el Murtabeh
W. Khurar
W. Khubeirah
W. Khulasah or el Kara
Sheta
Rumeilet Hamid
(sand hills)
from Gaza to Petra are 54 hours
travelling with camels
from Gaza to 'Aila are 63 hours id.
from Khan Yunas to el Arish are 14 Miles
25'
30'
35'
40'
45'
50'

ثورات العساكر في القاهرة

في الربع الأخير من القرن السادس عشر والعقد الأول من القرن السابع عشر

ومغزاها

١ ـ الوقائع
٢ ـ الأسباب
٣ ـ المغزى

١ ـ الوقائع :

بدأت أولى ثورات العساكر السباهية[1] في القاهرة في ٢ شوال ١٤/٩٩٧ آب ١٥٨٩ ، ثم تتالت ، بشكل متقطع ، حتى قضي عليها في عام ١٦٠٩ ٠ وقد حدثت الثورة الأولى في عهد حاكم مصر العثماني اويس باشا (٩٩٤ ـ ١٥٨٦/٩٩٩ ـ ١٥٩١) ، وهاجمه العساكر الثائرون ، وهو في الديوان ،

١ ـ يشير اليهم المؤرخون المحليون غالباً باسم « اسباهية » ٠ اما ان هذه الثورة هي اول ثورات العساكر السباهية فقد اشار الى ذلك كل من : احمد شلبي ، اوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات ، مخطوط في جامعة Yale في الولايات المتحدة الاميركية ، رقم Landberg 3 ، الورقة ٧ ب ، وايضاً مخطوط مجهول المؤلف والعنوان عن تاريخ مصر من ١٤٥٣/٨٥٧ الى ١٧٠٩/١١٢٠ ، المكتبة الوطنية في باريس، رقم Arabe 1855 الورقة ٣٥ ا ٠

فهرب مــن وجههم ، ولكنهم اقتحموا بيته ، وسرقوا أنفس ما فيه ، وقتلوا ثلاثة من أتباعه • كما اقتحموا بيت قاضي القضاة ، أي القاضي الحنفي الرومي بمصر الملا أحمد أفندي الأنصاري ، وقطعوا رأس آغــا طائفة الجاويشية • وفي ٤ شوال / ١٦ آب قبض الثائرون على اثنين من القضاة ، وقطعوا رأسيهما في اليوم التالي ، وعلقوهما بالجميزة التي بالرميلة • واعتدى العساكر المتمردون على الحوانيت في القاهرة ، وهاجموا بيوت الأكابر وأصحاب المناصب من أولاد العرب (أي السكان المحليين)[١] بالسلاح ، وأخذوا منهم ما يريدون • وهرب بعض الأعيان ، ومن بينهم أمير الحاج المصري •

---

١ - استعمل تعبير « أولاد العرب » في كتابات المؤرخين المحليين المعاصرين وفي الأوامر العثمانية، منذ القرن السادس عشر ، للدلالة على السكان العرب المحليين ، تمييزاً لهم عن العثمانيين الذين عرفوا محلياً أحياناً بالعثمانيين ، وأحياناً بالتركمان ، وغالباً بالأروام (بسبب احتلالهم مناطق الروم ، أي البيزنطيين ، ما وراء طوروس والفرات ، التي كان يحتلها قبلهم البيزنطيون ، أصحاب مذهب الروم الأرثوذكس ، ثم سلاجقة الروم الذين ، مثل العثمانيين ، لصقت بهم صفة البلاد) ؛ انظر حول مفهوم روم وأروام الشروح والمصادر المذكورة في كتابنــا :
The Province of Damascus, 1723-1783, Khayats, Beirut, 1966, p. 7 n. 1.
وأيضاً تمييزاً لهم عن المماليك الذين أشار اليهم المؤرخون المصريون ، أمثال ابن أياس ومحمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، باسم الأتراك ، أو الشراكسة ، أو الغز • وكان المؤرخون المحليون ، سواء في بلاد الشام أو في مصر ، يشيرون الى البدو باسم عرب ، عربان ، أو اعراب • انظر : مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، الورقة ٥١ أ ، حيث ذكر في أحداث سنة ١٠٦٧/١٦٥٦-١٦٥٧ أنه أخرج في القاهرة « مــن البلكات السبع جميع أولاد العرب من المصريين والشاميين » ؛ ويذكر مخطوط (مجهول المؤلف) وعنوانه : زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر المحروسة ، المتحف البريطاني بلندن ، رقم Add. 9972 الورقة ٩ ب عن هذا الحادث أن التحقيق تناول « أولاد العرب جميعاً » ، ثم يقول بعد ذلك « أولاد عرب وشوام » وذلك لتبيان هوية الشاميين • وكلا المصدرين يعنيان بتعبير أولاد العرب السكان العرب المحليين • أنظر حول ورود تعبير أولاد العرب Evaldi Arab في الأوامر العثمانية في القرن السادس عشر كتــاب :
U. Heyd, *Ottoman documents on Palestine, 1552-1615*, Oxford, 1960, pp. 48. n. 2, 55 n. 6.
وانظر تعليقنا على ارتباك Heyd في تفسير هذا التعبير والمزج بينه وبين بدو ، مع شروحنا على ذلك في كتابنا *The Province of Damascus*, p. 7. n. 1

ومما يلفت النظر في أعمال الثائرين اعتداؤهم على الأعيان وأصحاب المال من السكان المحليين ، من قضاة وأصحاب مناصب وتجار ، ونهب ما أمكن من المتاع والمال منهم ، لأن العامل الاقتصادي ، كما سنرى ، كان أساساً في ثورتهم ٠ وصبّ الثائرون نقمتهم خاصة ضد أولاد العرب فطالبوا بمنعهم من الانتساب الى الطوائف العسكرية ومن استخدام المماليك البيض ٠

وقد اجتمع قاضي القضاة والدفتردار وغيرهما من كبار موظفي الدولة ، بما في ذلك قادة العساكر الطائعين ، في ٨ شوال/ ٢٠ آب ، في مدرسة السلطان حسن بالقاهرة ، وحذّروا العساكر من عاقبة أعمالهم ، ولكن بدون جدوى ٠ واضطر اويس باشا الى اصدار أمره الى قاضي القضاة بمنح العساكر الثائرين ما يريدون ، بعد أن أخذوا ابن اويس باشا رهينة حتى ينالوا مطالبهم ٠ وحين تمّ لهم ذلك ، هدأت ثورتهم[1] ٠ فما هي مطالبهم ؟

---

١ ـ يراجع حول هذه الأحداث : محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، التحفة البهية في تملك آل عثمان الديار المصرية ٠ مخطوط في المكتبة الوطنية في فيينا ، رقم Cod. Arab. 925, A. F. 283 ، الأوراق ، ٤٧ أ ـ ٤٨ أ ؛ المؤلف نفسه ، الكواكب السائرة في أخبار مصر والقاهرة، المتحف البريطاني بلندن، رقم Add. 9973 ، الأوراق ٢٠ ب ـ ٢١ أ ؛ المؤلف نفسه ، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية ، مخطوط في دار الكتب المصرية بالقاهرة ، برقم تاريخ ١٩٢٦ ، الأوراق ، ٦١ أ ـ ٦٢ ب ؛ المؤلف نفسه ، النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية ، مخطوط في دار الكتب المصرية ، برقم ٢٢٦٦ ، الأوراق ، ٢٩ أ ـ ٣٠ أ ؛ وانظر أيضاً : محمد البرلسي السعدي الدمياطي ، بلوغ الأرب برفع الطلب ، مخطوط في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة ، برقم تاريخ ٨١ ، ويوجد فيلم مصوّر عنه برقم ٢٦ ، في معهد احياء المخطوطات العربية، التابع لجامعة الدول العربية في القاهرة، الأوراق، ٥ ب ـ ٨ ب ؛ أحمد شلبي، ٧ ب ـ ٨ أ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٢٥ أ ـ ٣٥ ب ؛ محمد ابن عبد المعطي الاسحاقي ، أخبار الأول فيمن تصرّف في مصر من أرباب الدول ، القاهرة ١٣١٥ هـ ، ص ١٣٩

بالاضافة الى مطالبة العساكر الثائرين بوضع بعض القيود الهامة على نشاط أولاد العرب ، فقد طالبوا ، قبل كل شيء ، بالسماح لهم بأخذ الطلبة (جمعها ، كما في المصادر المعاصرة ، طلب أو مطالب) ، وهي مبالغ من المال كانوا يفرضونها على الفلاحين وأصحاب الأطيان في الريف ، ويأخذونها لأنفسهم دون وجه شرعي[1] • وأصبحوا يضاعفون هـذه المبالغ كلما لمسوا القوة في أنفسهم • وكانوا ، مثلا ، يأتون الى كاشف احدى الكشوفيات ، ويطلبون منه أن يكتب لهم على احدى النواحي مبلغاً من المال ، بحجة أن أحد الاشخاص اشتكى على شخص آخر ، أو على مجموعة مـن الأشخاص ، في الناحيـة المذكورة ، بمبلغ من المال ، فيضطر الكاشف ، ازاء قوتهم ، أن يكتب لهم ما يريدون ، بالاضافة الى حق الطريق ، ويعني هذا اجرتهم الخاصة ، لقيامهم بالتبليغ والتنفيذ[2] ، ويأخذون المبالغ كلها لهم • وقد حدث ان بلدة بالمنوفية ، تخص المؤرخ محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، كان مقرراً عليها من الضرائب في السنة مائة الف نصف (أي نصف فضة ، وهذا تعبير عامي اسـتخدم للدلالة على البارة المتداولة آنئـذ في

ـ يقول محمد بن أبي السرور البكري الصديقي : « والغالب أن جميع ما يقع من مثل ذلك لا أصل له بل الجميع لا أصل له فهذا معنى الطلبة » ، ويذكر ذلك في جميع مؤلفاته السابقة ، انظر ، على سبيل المثال ، التحفة البهية ، ٥٥ ب ؛ وانظر أيضاً حول معنى الطلبـة **Stanford J. Shaw,** ***The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt, 1517-1798*, Princeton, 1962, pp. 89 f.**

سيذكر هذا المصدر باختصار كما يلي : ***Ottoman Egypt, 1517-1798***

٢ ـ انظر حول هذا الأمر : **Shaw, *Ottoman Egypt, 1517-1798*, pp. 87 f.**

مصر)[١] ، ولكنها غـرّمت بالطلبة ضعف هذا المبلغ[٢] ٠

واذا ما تفحصنا هوية العساكر الثائرين وجدنا انهمكانوا من السباهية (الفرسان) المتمركزين في الأقاليم ٠ وكانوا مزيجاً مـن طوائف التفنكجية (Tüfenkciyye) ، والجنليـّان (Gönüllüyan) ، والمماليك الشراكسة (Çerakise) ، وتشتق كلمة تفنكجية من تفنكجي ، أي حامل البندقية ، وتعني كلمة جنليـّان المتطوعين ، ثم حوّرت الى جمليان ، بالنسبة الىجملي، أي صاحب جمل ، نظراً لاستخدام أفرادها الجمال ٠ وقـد دخل أفراد هاتين الطائفتين الى مصر ، برفقة السلطان سليم الأول العثماني حين فتحها عام ١٥١٧ ٠ أما طائفة الشراكسة فقد تأسست عام ١٥٢٤ من المماليك الموالين المقيمين فيمصر ٠ وعهد الى أفراد هذه الطوائفالثلاث من السباهية بمهام توطيد الأمن في الأقاليم ، وحمايةالفلاحين ، ومساعدة الكشاف فيجمع الضرائب ٠ ويخضع أفراد هـذه الطوائف حين وجودهم في القاهرة الى سلطة أغا طائفة الجاويشية[٣] ٠ وربما يفسّر ذلك قتل العساكر ، في الثورة السابقة ، لأغا الجاويشية حين شقوا عصا الطاعة في القاهرة ٠

---

١ - انظر *Ibid.* p. 65 n. 169 : وانظر ايضاً : الاسحاقي ، ١٤٢

٢ - انظر : محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٥٥ ب - ٥٦ آ ، الكواكب السائرة ، ٢٦ ب - ٢٨ آ ، المنح الرحمانية ، ٨١ ب - ٨٢ آ ، النزهة الزهية ، ٣٨ آ - ٣٨ ب

٣ - انظر حول هذه الطوائف : **Shaw**, *Ottoman Egypt, 1517-1798*, pp. 196 f.
وايضاً للمؤلف نفسه *Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution*, Harvard, 1964, pp. 89 f.

٣ - سنذكر المصدر الأخير باختصار كما يلي : *Ottoman Egypt*

ويبدو ان زمام المبادرة في ثورات العساكر هذه كان بيد المماليك السباهية ، بدليل أن محمد بن أبي السرور البكري الصديقي قد وصف الثائرين بأنهم من الغز [١] ، وهذا تعبير أطلق على المالك في مصر في العهد العثماني[٢] . ويذكر أيضا ان المماليك ، بازدياد نفوذهم في مصر في العهد العثماني قد تكاثر انتسابهم الى طائفتي التفنكجية والجنليّان ، حتى اقتصرت تقريباً عضوية هاتين الطائفتين عليهم في القرن الثامن عشر[٣] . وقد أطلق على محمد باشا (حاكم مصر من ١٦٠٧ الى ١٦١١) الذي قضى على ثورات العساكر السباهية في مصر في عام ١٦٠٩ ، كما سنرى بعد قليل ، لقب قول قران (Kul Kiran) ، أي محطم المماليك[٤] . مما يدل على اشتهار المماليك بين الثائرين ، واعتبار القضاء على الثائرين قضاء بالدرجة الاولى على نفوذ المماليك الذين سيطروا بينهم . ولعل هذا ما يفسّر كره الثائرين لاولاد العرب ومعارضتهم لهم في استخدام المماليك البيض والانتساب الى الطوائف العسكرية ، خوفاً من مقاسمتهم نفوذهم وامتيازاتهم . والجدير

---

١ ـ يذكر هذا في جميع مؤلفاته ، انظر مثلا : التحفة البهية ، ٥٥ ب ، والمنح الرحمانية ، ٨١ ب .

٢ ـ انظر : P. M. Holt, *Egypt and the Fertile Crescent, 1516-1922* London, 1966, p. 76 n. 1.

وانظر ايضا : A. N. Poliak, *Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the Lebanon, 1250-1900*, London, 1939, p. 54 n. 10.

٣ ـ انظر : Shaw, *Ottoman Egypt*, p. 89 (76).

٤ ـ انظر حول هذا اللقب : أحمد شلبي ، ١٠ ب ؛ ومخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ٣٩ آ ؛ وانظر أيضا : *Holt, Egypt and the Fertile Crescent*, p. 74.

بالذكر ان استيراد المماليك البيض الى مصر كان يرفد أحياناً ، في حالة عدم سدّهم الحاجة المحلية ، باستيراد مماليك سود من افريقية • وكثيراً ما كان يدبّ العداء بين المماليك البيض والمماليك السود[١] ؛ ومن هنا ، كما يبدو ، اقتصار مطالبة العساكر الثائرين بمنع أولاد العرب من استخدام المماليك البيض فقط لانهم من أبناء جنسهم •

وقد أدّى تخاذل اويس باشا أمام العساكر المتمردين ، بعد أن حاول الفتك بهم[٢] ، الى ازدياد نفوذهم ، خاصة وانه اضطر الى تلبية مطالبهم • وبلغت جرأة العساكر حداً كبيراً في أول رجب ١٠٠٦/٧ شباط ١٥٩٨ ، في عهد حاكم مصر الشريف محمد باشا (١٠٠٤ـ١٠٠٦/١٥٩٦ـ١٥٩٨)، حين جمعوا جموعهم من سائر الأقاليم ، واعترضوا طريق هذا الباشا ، قرب قلعة القاهرة ، وأطلقوا النار عليه ، فهرب والتجأ الى القلعة ،وأصبحت السلطة الفعلية بيدهم • « وبطلت أحكام الوزير المذكور وصار الحل والعقد لطايفة الاسباهية »[٣] • وقتل العساكر الثائرون بعض كبار الأمراء والموظفين والاعيان ، ممن كانوا يعارضون مصالحهم ، وتتبعوا أولاد العرب ، وقتلوا كل من وجدوه منهم « يتزيا بزي

١ - أنظر حول ذلك : D. Ayalon, "Studies on al-Jabarti I, Notes on the transformation of Mamluk Society in Egypt under the Ottomans", *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, Vol. III. Part 3, Oct. 1960, pp. 310 f.

٢ - يصفه محمد بن أبي السرور البكري الصديقي بان له « إلتفات لعسكر مصر فقامت نفوسهم لذلك وهجموا عليه » ، أنظر ، مثلا ، من مؤلفاته : التحفة البهية ، ٤٧ آ ، والنزهة الزهية ، ٢٩ ب •

٣ - مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٣٧ آ ، واحمد شلبي ، ٩ آ ؛ وانظر أيضاً : الاسحاقي ، ١٤٣

الاروام » ، على حد تعبير محمد بن أبي السرور البكري الصديقي[١] ، وربما يقصد بذلك الذين أصبحوا منهم عساكر وموظفين عثمانيين ، أي أرواماً[٢] ، في محاولة من العساكر ، كما يبدو ، للحيلولة دون تسرّب أولاد العرب الى الطبقة الحاكمة[٣] .

وتكرر تحدي العساكر السباهية لحاكمي مصر التاليين : خضر باشا (١٠٠٦ ـ ١٠١٠/١٥٩٨ ـ ١٦٠١) وعلي باشا السلحدار (١٠١٠ ـ ١٠١٢/١٦٠١ ـ ١٦٠٣) ، وقتلوا عدداً من كبار الموظفين . ويبدو ان العساكر حاولوا أن يسبغوا على تمردهم بعض الشرعية ، لكسب عطف الرأي العام ، فنصبوا أنفسهم مدافعين عن حقوق الدولة والشعب ، واتهموا بعض أعوان خضر باشا بالتلاعب بالشونة (أي عنبر المؤن السلطانية) ، كما اتهموا علي باشا السلحدار بالتلاعب بأسعار القمح وبأنه سبب الغلاء .

وبلغت جرأة العساكر المتمردين ذروتها حين قتلوا حاكم مصر ابراهيم باشا ، في الاول من جمادى الاولى ١٠١٣/٢٥ ايلول ١٦٠٤ ، فعرف ، تبعاً لذلك ، بالمقتول . وكان مهتماً بازالة الطلبة والتجسس على العساكر المتمردين للقضاء عليهم ، ففاجأوه وهو في شبرا ، من ضواحي القاهرة ، وقتلوه ، ثم طافوا برأسه ، ورأس أمير آخر قتلوه ، في شوارع القاهرة ، وعلقوهما في باب زويلة « كما يفعل بأقل الناس » ـ على حد

---

١ ـ التحفة البهية ، ٥٠ آ ، الكواكب السائرة ، ٢٣ آ ، النزهة الزهية ، ٣٢ ب .

٢ ـ يتضح هذا من تعبير محمد بن أبي السرور البكري الصديقي في : المنح الرحمانية ، ٦٧ آ ـ ٦٧ ب .

٣ ـ محمد البرلسي ، ١٠ آ .

تعبير محمد بن أبي السرور البكري الصديقي • وكان ذلك امعاناً منهم في التحدي • ثم نصبوا قائم مقام مكانه ، وكأنهم بذلك أصحاب السلطة الوحيدون في مصر •

وكان وقع هذه الأحداث قوياً لدى سلطات استانبول ، فعهدت الى محمد باشا الكرجي الخادم بولاية مصر ، وبالتفحص عن أصل الطلبة ، وملاحقة قتلة ابراهيم باشا • وتمكن محمد باشا ، خلال مدة حكمه من ٢٨ تشرين الاول ١٦٠٤ الى ١٦ تموز ١٦٠٥ ، من قتل عدد كبير من المتمردين ، واعتمد على مساعدة البدو في مطاردتهم • وتختلف الروايات حول عدد من فتك بهم ، فيذكر محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ان القتلى بلغوا مائتين[١] • ويذكر كل من أحمد شلبي وصاحب «زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر» انهم كانوا حوالي ثلاثمائة[٢] • ومهما يكن ، فلم يقض على جميع العساكر المتمردين ، واستمر بالتالي التمرد ، لان قصر عهد محمد باشا ، كما يبدو ، لم يتح له ذلك •

ولا شك ان البطش بهذا العدد قد أضعف المتمردين ، ومكّن ذلك حاكم مصر اللاحق محمد باشا (١٠١٦ـ١٠٢٠ /١٦٠٧ ـ ١٦١١) ، من القضاء نهائياً على تمردهم ونفوذهم في شهر ذي القعدة ١٠١٧/شباط ١٦٠٩ وابطال الطلبة • وكان محمد باشا ، وهو في طريقه من الاسكندرية الى القاهرة

---

١ ـ انظر مثلا : التحفة البهية ، ٥٣ آ ، الكواكب السائرة ، ٢٤ ب ، المنح الرحمانية ٧٨ آ ، النزهة الزهية ، ٣٥ ب •

٢ ـ انظر على التوالي : ١٠ ب ، ٤ ب ؛ وانظر ايضاً : مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ٣٨ ب •

لاستلام منصبه ، ترد اليــه الشكاوى من الاهلين ضد الظلم « والطلب » ، وقــد عقد في ١٥ صفر ١٠١٦/١١ حزيران ١٦٠٧ ديواناً في القاهرة ، ضمّ الصناجق ، أصحاب النفوذ المتصاعد ، وممثلين عن الطوائف العسكرية · وندّد بالموقف السلبي لهؤلاء الزعماء من مقتل ابراهيم باشا ، وأبرز خطأً سلطانياً بمعاقبة القتلة · وأعقب خطواته هــذه بقتل بعض الكشّاف الفاسدين من حكام الاقاليم وبابطال الطلبة ، وبدأ بتعبئة القوات الموالية للبطش بالعساكر المتمردين · وكان هؤلاءقد أثارتهم اجراءاتمحمد باشا ، ولاسيما أوامره بازالة الطلبة ، فعقدوا العزم على الدفاع عن مصالحهم ، وتنادوا الى الاجتماع عند مقام أحمد البدوي في طنطا ، حيث تحالفوا على عدم رفع الطلبة وعلى قتل الزعماء المؤيدين للباشا ، وعينوا من بينهم سلطانا ووزراء · ويدل هــذا على جرأة الثائرين ومحاولتهم تقويضالسلطة العثمانية من أساسها ، وربما كانت وراء ذلك مطامع سياسية مملوكية استغلت الثورة لاهدافها · وزحف الثائرون نحــو القاهرة ، بعد أن اقتسموا حاراتهــا لنهبها ، وروّعوا سكان القرى التي مروا بها أثناء سيرهم ·

واستعد محمد باشا ، من ناحيته ، لملاقاة الثائرين ،وحشد العناصر المواليــة والطائعة من صناجق وجاويشية ومتفرقة وانكشارية وعزب ومرتزقة من اللاوند ، كما أنه استنجد ببعض قبائل البدو · وخرجت هذه القوات من القاهرة ،يحمل معظمها البنادقوتصحبها المدافع ، في ٩ ذيالقعدة ١٠١٧/١٤ شباط ١٦٠٩ ، واصطدمت ، في اليوم التالي ، بالثائرين في الخانقاه ، في ضواحي القاهرة · وقد هزم الثائرون ، وكان

من بينهم جماعة ليسوا من العساكر اندسوا في صفوفهم ،وقتل نحو خمسين من هـؤلاء كما قتل عدد كبـير من قادة وأفراد العساكر الثائرين ، ونفي حوالي من ثلاثمائة الى أربعمائة منهم الى اليمن ٠ وبلغ مجموع ما قتل من الثائرين ، حسب احدى الروايات[1] ، في عهـد كل من محمد باشـا الكرجي الخادم (١٦٠٤ ـ ١٦٠٥) ، وعهد محمد باشا الحالي أكثر من ثلاثمائة متمرد ، ونفي مثل هذا العدد الى اليمن ٠ وفي رواية أخرى[2] انه قتل ، في عهد هذين الحاكمين ، أكثر من أربعمائة متمرد ، ونفي مثل هذا العدد الى اليمن ٠

ويعلق محمد بن أبي السرور البكري الصديقي في مؤلفاته على هذا الانتصار بقوله : « وهو في الحقيقة الفتح الثاني لمصر في الدولة الشريفة العثمانية أيّدها الله تعالى » ٠ ويدل هذا القول على مدى النفوذ الذي تمتّع به الثائرون ، وعلى خطورة عملهم في تنصيب سلطان من بينهم ٠ كما يدل على أهمية فرض الهيبة العثمانية لا ضد الثائرين فحسب ، بل ضـد عناصر مملوكية طموحة ، كما لو أن فتحاً عثمانياً جديداً قد حدث ٠ وقد وضع محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، بهذه المناسبة ، مؤلفا صغيراً أسماه : « تفريج الكربة بدفع الطلبة » ولا يعرف مكان وجوده الآن ٠ وقيل شعر كثير يطرى عمل محمد باشـا الذي أصبح يعرف لدى المؤرخين المحليين بالالقاب التالية :

---

١ ـ هذه رواية محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، أنظر التحفة البهية ٥٣ آ ، ٥٤ ب ـ ٥٥ ب ، الكواكب السائرة ، ٢٤ ب ، ٢٦ آ ـ ٢٦ ب ، المنح الرحمانية ، ٧٨ آ ، ٨٠ ب ـ ٨١ ب ، النزهة الزهية ، ٣٥ ب ـ ٣٨ آ

٢ ـ يشترك في ذكرها كل مـن : أحمد شلبي ، ١٠ ب ، ١١ آ ، مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٣٨ب ، ٣٩ب ، انظر أيضاً : زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر ، ٤ب ٠

« معمّر مصر » ، و « مبطل الطلبة بعد أن استحيل ابطالها » ، وبلقب « قول قران » ، بالتركية ٠

وقد استغل محمد باشا انتصاره على الثائرين والغاءه الطلبة فأدخل عدداً من الاصلاحات الادارية ، ونظم أمر الالتزام والرزق ، بنوعيها العسكري والديني ، وهي مدفوعات خاصة ، نظّم العثمانيون اعطاءها للمستحقين[١] ٠ وتفحّص صكوك التزام المرتزقة ، وكلما رأى صكاً قديماً ، أو لا قيمة قانونية له ، أعاده الى الدولة ٠ كما انه الغى العمل بدفتر الشراكسة الذي فيه ضبط الارزاق، والذي كان قد الغي العمل به سابقا ، بعد أن أعاد المماليك وغيرهم استخدامه ليستفيدوا من امتيازاتهم القديمة٠وحصر العمل بموجب دفتر التربيع الذي أحلّه العثمانيون محلّ دفتر الشراكسة في ٩٣٣/١٥٢٦ ـ ١٥٢٧[٢] ٠ وخص محمد باشا اليوم الثامن والعشرين من كل شهر موعداً لصرف رواتب العساكر والموظفين ، وأمر بدفع الرواتب بكاملها ، وذلك لتحاشي تذمر أصحابها ٠ وقد أتاح طول حكم محمد باشا في مصر ، الذي تجاوز السنوات الاربع ، الفرصة له للقيام بهذه الاجراءات الهامة[٣] ٠

---

١ ـ أنظر حول الرزق : تاريخها وانواعها : Shaw, *Ottoman Egypt, 1517-1798*, pp. 45-50, *Ottoman Egypt*, p. 115 (155).

٢ ـ أنظر ٠ أحمد شلبي ، ٤ آ : مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٣١ آ ؛ الاسحاقي ١٣٦

٣ ـ أنظر حول الأحداث السابقة منذ مطلع القرن السابع عشر : محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٥٠ آ ـ ٥٨ ب ، الكواكب السائرة ، ٢٢ آ ـ ٢٨ ب، المنح الرحمانية ، ٦٧ ب ـ ٨٥ آ ، النزهة الزهية ، ٣٢ ب ـ ٤٠ ب ؛ المؤلف نفسه ، الروضة المانوسة في أخبار مصر المحروسة ، مخطوط في دار الكتب المصرية بالقاهرة ، برقم تاريخ ٢٢٦١ ، الأوراق ، ٢٣ ب ـ ٢٦ آ ؛ محمد البرلسي ، ١١ آ ـ ٦٠ ب (نهاية المخطوط) ؛ أحمد شلبي ، ٩ آ ـ ١١ آ ؛ مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ٣٧ آ ـ ٣٩ ب ؛ الاسحاقي ، ١٤٣ ـ ١٥١ ٠

٢ ـ الأسـباب :

يتبين لنا من تفحّص الاسـباب التي أدّت الى ثـورات العساكر في مصر ان هناك أسباباً عامة ، عسكرية واقتصادية ، تتعلق بوضع الامبراطورية العثمانية ككل ، وأسباباً خاصة تتعلق بولاية مصر بالذات ٠

لقد بدأ الضعف العسكري العثماني يظهر للعيان ، بشكل واضح ، في أعقاب وفاة السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦) ٠ وكانت فتوحاته وأمجاده قد طغت على بذور الضعف والفساد في الدولة وحجبتها ، لفترة ، عن معظم العيان٠ وفي عهد السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ ـ ١٥٧٤) تجمّدت حدود الامبراطورية العثمانية ، وأخذت بالتقلص التدريجي بعد ذلك [١] ٠ وانعكس أثر ذلك على تطـور الدولة ككل ، لا سيما وان الدولة العثمانية قد ازدهرت على الفتح ، وخاصة

---

١ ـ انظر حـول ذلك : B. Lewis, The *Emergence of Modern Turkey*, London, 1961, pp. 24-29; Holt, *Egypt and the Fertile Crescent*, pp. 52-57; E. Creasy, *History of the Ottoman Turks*, reprinted by Khayats, Beirut, 1963, pp. 156-223; H.A.R. Gibb and H. Bowen, *Islamic Society and the West*, Vol. I, in 2 parts, London, 1951, 1957, see I. i. 91-94.

وانظر ايضاً : مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٧ آ ـ ١٢ آ : مخطوط مجهول المؤلف (انظر حول ذلك كتابنا : بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت ، ١٥١٦ـ١٧٩٨ ، الطبعة الثانية ، دمشق ١٩٦٨ ، ص ٤٢٩) بعنوان : تحفة الاحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، مكتبة جامعة Yale ، بالولايات المتحدة الاميركية ، برقم Landberg 229 ، الاوراق ٧٧ آ ـ ٨١ آ ٠

الغزو ضد أعداء الدين . وقد ظهر ضعف الدولة في شخصيات السلاطين أنفسهم ، فانسحبوا بالتدريج من المساهمة الفعلية في قيادة الجيش وفي الادارة ، وانقطعوا الى حياة القصر الخاصة ومؤامراته[١] .

ومن مظاهر ضعف الدولة ازدياد نفوذ الانكشارية ، ففسد نظامهم ، وطمع المسلمون الاحرار في التجند في صفوفهم للتمتع بامتيازاتهم . وأهملت الدفشرمة (جمع الشبان من البلقان لادخالهم الجيش) ، بالتدريج ، حتى بطلت في الربع الثاني من القرن السابع عشر . وازداد تمرد الانكشارية بعد انتساب السكان المحليين الى صفوفهم ، ومارسوا كثيرا من التعسف في الولايات بشكل أرهق أهلها لكثرة ما ابتزوه منهم من مال[٢] .

وكان قد رافق اعتماد الدولة ، بشكل متزايد ، على الانكشارية ، منذ النصف الاول من القرن الخامس عشر ، اهمال الاعتماد على الجند الاقطاعي بالتدريج ، وانحط بنتيجة ذلك نظام الاقطاع . وكان تأثير ذلك حاسما بالنسبة للحياة الاقتصادية في الدولة ، لان الجندي الاقطاعي وان لم يعد قادراً على مجابهة الجندي الاوربي الاحسن تدريبا ، فقد غدا وجوده ، بالنسبة للاستقرار وحسن الانتاج في الريف ، أمراً ضرورياً . وهكذا ، فان ضعف الجندي الاقطاعي أتاح المجال لظهور عناصر مدنية مقربة من السلطات الحاكمة ، استطاعت أن تسيطر على جزء كبير من الريف وتستثمره لصالحها . وكانت

---

١ ـ أنظر : Gibb and Bowen, I. i. 37

٢ ـ انظر : *Ibid.* pp. 180 f.

تتصرف في أراضي الدولة إمّا بأخذها كاقطاع ان وجد ـ وقد تضاءل أمر هذا بالتدريج ـ أو بالتزام ضرائبها • وقد شاع نظام الالتزام ، بشكل كبير ، في أراضي الدولة بعد انحطاط الاقطاعات وأصحابها ، وصاحب ذلك كثير من التلاعب بأراضي الدولة ، وظهرت قوى محلية ثائرة تستمد سلطتها من التزام الضرائب أو دعم المتلزمين ، وتقوم بابتزاز الأموال من الفلاحين • وقد أفقر الريف ، نتيجة لهذه المساوىء ، واندثر كثير من القرى بسبب هجرة أصحابها منها • وكان ذلك ملحوظاً منذ عهد السلطان سليمان القانوني[١] •

ونتج عن تكاثر عدد الجنود الانكشارية وعدد الموظفين الذين يتقاضون المرتبات ، بعد أن تضاءل الاعتماد على الجنود والموظفين الاقطاعيين ، ان ازداد ارتباك الاقتصاد العثماني • ومما زاد في تناقص واردات الدولة افقار الريف ، نتيجة التلاعب بنظام الالتزام وعدم توفر الأمن ، ثم فساد كبار الموظفين الذين عمّت الرشوة بينهم •

وتأثر اقتصاد الدولة العثمانية أيضا بنقص واردات الضرائب التي كانت تفرض على بضائع الشرق الاقصى المارة في أراضيها ، إذ انه بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، في الربع الأخير من القرن الخامس عشر ، أصبح بعض هذه البضائع يصدّر مباشرة الى أوربا ، عبر هذا الطريق ، وأحياناً يعاد تصديره من أوروبا الى الدولة العثمانية • وبالرغم من أن قسماً كبيراً من بضائع الشرق الاقصى بقي يمر في القرن السادس عشر عبر موانيء البحر الاحمر وميناء البصرة الى

١ ـ انظر : *Lewis, Emergence*, p. 32, n. 19

أوروبا ، الا ّ أن هذا تناقص بمرور الزمن ، نظراً لازدياد تهديد أمن القوافل التجارية البرية ونمو قوة الامبراطوريات الاوربيـة الغربية في الشـرق الاقصى · وخسرت الدولـة العثمانية ، وولاية مصر بصورة خاصة ، من جراء ذلك ،موارد مالية كبيرة ·

وقد نتج عن العوامل السابقة ضغط على النقد العثماني، ولـم تستطع موارد الدولة من المعادن سد ّ الحاجة المتزايدة للنقد · وتصادف في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، والأزمة النقدية مستفحلة ، ان تدفقت الفضة والذهب الى بلاد البحر الابيض المتوسط من العالم الجديد ـ أمريكا ـ ، وذلك بواسطة الاسبانيين · فارتبك النقد العثماني ، تبعاً لذلك ، وانهارت قيمة وحدته الفضية وهي الاقجة (أو الأسبر) · وارتفع سعر الذهب ، وقل ّ وجوده بسبب ازدياد قيمته بالنسبة للفضة · ولم تجد محاولة الدولة العثمانية تخفيض سعر الاقجة عام ١٥٨٤ في القضاء على الأزمة النقدية وغلاء أسعار المعيشة · واستفحل انهيار النقد ، وصـدرت عملات جديدة في القرن السابع عشر ، وانهارت قيمتها بدورها[١] ·

والذي يهمنا من هذا الانهيار الاقتصادي وانخفاض قيمة النقد انعكاس ذلك على سلوك الموظفين والعسـكريين الذين يتقاضون المرتبات · فقد عمد الموظفون الى قبول الرشـوة للتعويض عن انخفاض قيمة مرتباتهم[٢] ، واستشرت هـذه

١ ـ انظر حول ذلك : *Ibid.*, pp. 27-33; Gibb and Bowen; I. ii, 51 ff; F. Braudel, *La Mediterrannée et le Monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Paris, 1949, pp. 391-394, 417-420.

٢ ـ انظر مثلا : محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٤٦ ب ، قارن مع ٤٦ آ ·

العادة لانعدام مراقبة الدولة · وعبّر العساكر عن سخطهم لانهيار القيمة الشرائية لمرتباتهم ، بطريقتهم الخاصة ، أي بالثورات وفرض ابتزاز المال بالقوة · وهكذا قام العساكر بثورات وفتن في اليمن ومصر وبلاد الشام · وشجعهم على ذلك ضعف الهيبة العثمانية بصورة عامة · وقاسى الشعب في الولايات العربية ، كما في غيرها ، من ظلمهم ·

ومما تجدر ملاحظته أن ثورات العساكر هذه بدأت ، بالنسبة للولايات العربية ، في مناطق الاطراف ، في اليمن مثلا ، حيث هدّد الزيديون السلطة العثمانية ، وانتقلت ، بعد ذلك ، باتجاه الداخل ، فعمّت مصر وبلاد الشام · وقد ظهرت أولى آثار الضائقة الاقتصادية بين العساكر العثمانيين في اليمن · وكانت هذه الولاية العثمانية من نوع ساليانلي (Saliyaneli) [١] ، أي ان موظفيها ، بما فيهم العساكر ، يعطون مرتبات سنوية ، وليس اقطاعات ، لقاء خدماتهم · وحدث في أوائل الستينات من القرن السادس عشر ان انخفضت القيمة الشرائية للعملة الفضية في اليمن ، بسبب غلبة النحاس فيها ، وذلك بالنسبة « للدينار »[٢] الذهبي السلطاني الذي كانت تدفع الرواتب على أساسه ، وارتفعت أسعار الحاجيات ، تبعاً لذلك · ويذكر قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي ، صاحب « البرق اليماني في الفتح العثماني » ، الذي

---

١ ـ انظر : Gibb and Bowen, I. i. 147, 148, n. 3 .

٢ ـ هكذا وردت في كتابات المؤرخ المحلي قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي ، وربما كانت تسمية محلية للنقد الذهبي العثماني المعروف آلتون وسمياً باسم شريفي او اشرفي ، ولدى التجار الاوربيين باسم سلطاني ، انظر : Gibb and Bowen, I. ii. 50, n. 12

عاصر هذه الاحداث ، انالسكة قد تلفتوان « الدينار الذهب السلطاني ··· هو الآن في الروم بستين عثمانياً ، وفي مصر بثمانين عثمانياً ، وصار في اليمن بثلثمائة عثمانياً ، ولا زال يتزايد ··· الى أن صار الدينار الذهب بألفين من العثامنة ، وكان ذلك سبباً لخراب العسكر وفقرهم ، فصار الذي له مائة عثماني علوفة في كل يوم ، يأخذ في الشهر ثلاثة آلاف عثماني ··· فيصرف له في الديوان عن الثلاثة آلاف عثماني دينار واحد ونصف » ، وهذا ، على حد قول قطب الدين المكي ، « لا يفي بثمن القهوة التي يشربها ، فضلا عن سائر حوائجه وضرورياته ، فشرعوا في ظلمالرعايا لضيق معاشهم ، وصارت الحكام تتغافل عن انصاف الرعايا من العسكر ، لعلمهم بشدة ضرورة العسكر ، الى أن دهكوا الرعيـــة وأضعفوها » ·[1] ويقول قطب الدين المكي في مكان آخــر « وضعفت علوفاتهم بهذه الدراهم الســكة التي صــارت الفلوس النحاس خيراً منها »[2] · ونتج عــن ذلك أن ضعف العساكر في اليمن عن القتال ، ولجأوا الى الامام مطّهر الزيدي ، كبـير الزعماء المحليين ، الذي استغل ذلك للثورة على العثمانيين · فكلفت الدولة أحد ولاتها المشهورين ، سنان باشا ، باخضاع الثائرين الزيديين في اليمن ، وتمّ لسنان باشــا ذلك في الفترة بين ١٥٦٩ و ١٥٧١ ، ووصف قطب الدين المكي هذا الانتصار بأنه الفتح الثاني العثماني لليمن[3] ·

١ ـ البرق اليماني في الفتح العثماني ، تحقيق حمد الجاسر ، دار اليمامة ، الرياض ١٩٦٧ ، ص ١٢٨ـ١٢٩ ، وانظر ايضا ص ١٥٩ـ١٦٠ ·

٢ ـ المصدر السابق ١٩٠ ·

٣ ـ الفتح الأول كان في ٩٤٥/١٥٣٩ ؛ انظر : البرق اليماني في الفتح العثماني ، ص ٢٠٩ وما بعدها ؛ وانظر ايضا : محمد بن أبي السرور البكري الصديقي ، التحفة البهية ، ٤٥ آ ، الكواكب السائرة ، ١٩ آ ؛ أحمد شلبي ٦ ب ؛ الاسحاقي ، ١٣٧ ·

وتأثرت ولايـة مصر ، بدورها ، مـن الازمة النقدية وانعكس ذلك على سلوك الموظفين فيها • والسؤالان اللذان يطرحان : ما هو مدى تأثر العملة النقدية في مصر بالازمـة النقدية العامة ، ولماذا ثار العساكر السباهية دون غيرهم ؟•

بدأت قيمة العملة النقدية في ولايـة مصر بالاختلال ، بشكل ملحوظ ، في عهد الحاكم العثماني علي باشـا الصوفي (١٥٦٤ ـ ١٥٦٦) ، حين بدأت دار ضرب النقود في مصر تمزج كمية من النحاس ، أكثر من المعتاد ، مع العملة الفضية، فانهارت قيمتها تبعاً لذلك ، وضجّت الرعايا • ويعلق محمد بن أبي السرور البكري الصديقي على ذلك بقوله : « •••• ولا زال يختل نظـام المعاملة الى يومنا هـذا »[1] ، أي فترة النصف الاول مـن القرن السابع عشـر التي عاصرهـا الصديقي[2] • وسواء كان أمر تزييف العملة قد تمّ برغبة الكسب من قبل علي باشا الصوفي أو الذين تعهدوا دار الضرب في عهده ، فان هذا الامر يدل على ارتباك عام في قيمة النقد ، بدليل انه استشرى بعد ذلك •

وحدث في مصر عام ١٥٨٤ ، قبيل ثورة العساكر السباهية بحوالي خمس سنوات ، ان انخفضت قيمة البارة الفضية ، المعروفة محلياً بنصف فضة[3] ، وذلك بمقدار النصف • وقد تمّ هذا في نفس الوقت الذي انخفضت فيه قيمة الأقجة الفضية

---

١ ـ انظر : التحفة البهية ، ٤٣ آ ، الكواكب السائرة ، ١٧ ب ـ ١٨ آ ، المنح الرحمانية ، ٤٧ آ ـ ٤٧ ب ، النزهة الزهية ، ٢٤ ب •

٢ ـ انظر حول تاليف محمد بن أبي السرور البكري الصديقي كتبه التاريخية : التحفة البهية ، ٤٠ آ ، الكواكب السائرة ، ١٥ آ ، النزهة الزهية ، ٢١ ب •

٣ ـ انظر فيما سبق ، ص ٦ •

العثمانية بالمقدار ذاته ، بالنسبة لقيمة النقد الذهبي الأجنبي المتوفر محلياً والنقد الذهبي العثماني المعروف بالشريفي ، وارتفعت بنتيجة ذلك تكاليف المعيشة ، وحدثت ثورات بين الجند أصحاب الرواتب حتى في قلب العاصمة استانبول[١] ٠

وفي حين أن عساكر اليمن انهارت قوتهم إثر انهيار قيمة مرتباتهم ولجأوا الى الامير مطّهر الزيدي ، نجد أن العساكر السباهية في مصر استغلوا قوتهم العسكرية فعمدوا الى فرض الطلبة وابتزاز الاموال ، واستفحلت شرورهم خلال سنوات قليلة من انهيار قيمة البارة المصرية مما أدّى الى ازدياد تذمر السكان ، وحاولت الدولة التدخل بشكل جدي على يد اويس باشا فثاروا ضده ٠

أما السؤال الآخر : لماذا ثار العساكر السباهية دون غيرهم ، فيمكن الاجابة عليه بالتعرف على الاسباب الخاصة بمصر التي أدّت الى اعطاء هؤلاء الجنود السباهية ، وغيرهم من العساكر ورجال الادارة ، المرتبات لقاء أعمالهم ، عوضاً عن الاقطاعات ، ذات القيمة الاقتصادية الاكثر استقرارا ثم التعرف على قيمة مرتبات هؤلاء العساكر السباهية ٠

كانت ولاية مصر ، أشبه بولاية اليمن ، من نوع ساليانلي ٠ ولعل أحسن تفسير لعدم تطبيق العثمانيين نظام الاقطاع في أراضي مصر هو رغبتهم في الحيلولة دون استغلال المماليك منحهم الاقطاعات مجدداً لتوطيد نفوذهم[٢] في ولاية

---

١ ـ انظر : Gibb and Bowen, I. ii. 51-52

٢ ـ انظر ايضاً : Stanford J. Shaw, 'Landholding and land-tax revenues in Ottoman Egypt', in, P.M. Holt, (ed.) *Political and Social Change in Modern Egypt*, London, 1968, p. 92; Stanford J. Shaw, "The Land law of Ottoman Egypt (960/1553) : a contribution to the study of landholding in the early years of Ottoman rule in Egypt', *Der Islam*, Band 38/1-2, 1962, pp. 111-112.

غنية وبعيدة نسبياً عن متناول السلطة المركزية كولاية مصر، فأبقتهم أصحاب مرتبات يعتمدون ، مع غيرهم من الموظفين ، على خزينة الدولة ، وما يرتبط بذلك من خضوع مباشر لها • ولكن أصحاب المرتبات هؤلاء لم يعدموا الوسيلة للكسب ولفرض نفوذهم ، مستفيدين من ضعف السلطة العثمانية •

وكان أفراد الطوائف السباهية الثلاث ، منذ الايام الاولى للحكم العثماني في مصر ، أقل الطوائف العسكرية راتباً وأكثرها استعداداً للثورة[١] • فلا عجب اذاً أن يستغل هؤلاء العساكر قوتهم وسلطتهم في الريف ، حيث رقابة الباشا العثماني – في فترة ضعف الدولة – شبه منعدمة أو نائية في أحسن الظن، لاستثمار الفلاحين ، وأن يثوروا عندما وجدوا الفوائد التي بدأوا يجنونها مهددة بالزوال •

ولم يكن انهيار حال العساكر في اليمن وثورة السباهية في مصر حادثين منعزلين بل شكلا جزءاً من ظاهرة عامة في التمرد العسكري في الدولة العثمانية • ولم تكن بلاد الشام بأحسن حظاً اذ روّع المتسلطون من الانكشارية أصحاب المرتبات مناطقها الريفية الغنية • ويذكر لنا المؤرخ الدمشقي المعاصر شرف الدين موسى الأنصاري إرتفاع أسعار المواد الغذائية في دمشق على الرغم من استيراد القمح وتوفره في الأسواق ، وذلك بسبب انهيار قيمة النقد ، الى جانب عوامل طبيعية أخرى[٢] • وقد استغل انكشارية دمشق ، منذ أواخر

---

١ – انظر : Shaw, *Ottoman Egypt, 1517-1798*, pp. 196 f. , *Ottoman Egypt*, 89 (76).

٢ – شرف الدين موسى الأنصاري ، نزهة الخاطر وبهجة الناظر ، مخطوط في الظاهرية ، برقم ٧٨١٤ ، الأوراق ، ٣٣٥ أ – ٣٣٥ ب ، ٣٣٨ أ ، ٣٣٩ أ ، ٣٤٠ أ ، ٣٤١ أ – ٣٤٢ ب ، ٣٨٥ ب ، ٣٨٨ ب •

القرن السادس عشر ، هذا الوضع فتماطوا التجارة والربا ، ومدوا نفوذهم الى ولاية حلب الغنية حيث كانت تذهب طائفة منهم كل سنة للخدمة ، وأحيانا لفرض خدمتّها ، في تحصيل أموال الميرى من قرى الولاية • واستغل أيضا انكشارية دمشق دعوة الدولة لهم لقتال الامراء الثائرين شمالي حلب ، في هذه الفترة ، لتوطيد نفوذهم هناك • ومارسوا كثيراً من الظلم وابتزاز المال من الفلاحين حتى ضجّ الناس منهم • واضطر ولا حلب لقتالهم واخراجهم من الولاية بالقوة[1] •

وبالرغم من انتشار التمرد العسكري في عدد من الولايات العربية ، بما في ذلك بغداد والبصرة منذ الربـع الاول من القرن السابع عشر ، فقد تميزت ثورات العساكر السباهية في ولاية مصر ، دون غيرها ، بغلبة العنصر المملوكي فيها • فما هو مغزى ذلك بالنسبة للصراع على النفوذ بينهم وبين أولاد العرب ؟



١ ـ أنظر حول ذلك كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ص ١٥٤ ، ١٨٦ ـ ١٨٩ •

٣ ـ المغزى :

يتضح مغزى ثــورات العساكر في مصر لدى تعرفنا على العناصر المتميزة بين المحكومين وعلاقتها بعضها مع بعض • وكان هؤلاء يتألفون من السكان المحليين (أولاد العرب) ، بما في ذلك البدو (العرب ، العربان ، أو الاعراب) ، ومن المماليك الذين كانوا يكنون العداء للحاكمين العثمانيين ولأولاد العرب على حد سواء • وبالمقارنة مع بلاد الشام مثلا نجد أن الصورة هناك أقل تعقيداً لان المحكومين اقتصروا على عنصر متجانس نوعاً ما من السكان المحليين ، ولم توجد بينهم طائفة قوية ذات مصالح تدافع عنها مثل المماليك • واذا كانت بعض الاسر المملوكية قد بقيت في الشام ، في غزة مثلا ، اثر انهيار السلطنة المملوكية ، فقد تلاشى نفوذها تدريجياً بعد ذلك ، واندمجت مع الســكان المحليين • وغني عن القول ان معظم المماليك في الشام قد انسحبوا ، اثر الفتح العثماني ، الى مصر ، مركز قوتهم الرئيسي ، حيث بقوا يرفدون بمماليك جـدد طيلة العهد العثماني مما أبقاهم طائفة متميزة ، ومن هنـا تعقد الصراع السياسي في مصر •

ان هذه الصورة العامة من الصراع على النفوذ بين فئات القوة في مصر تشكل خلفية أساسية لمحاولتنا فهم مغزى ثورات العساكر • وتلفت النظر في هذه الثورات ظاهرتان : الاولى ،

بروز العنصر المملوكي فيها وصراعه مع الحاكمين العثمانيين، والثانية ، معاداة الثائرين لاولاد العرب ومعارضتهم لهم في دخول الجيش العثماني واستخدام المماليك البيض •

ولم تكن ثورات العساكر هـذه أول محاولة يقوم بها العنصر المملوكي للتعبير عن نفوذه ومطامعه فقد قام المماليك بأكثر من ثورة في أعقاب الفتح العثماني ، ولكن ثورتهم الآن كانت أول تمرد مملوكي على نطاق واسع يحدث بعد أكثر من نصف قرن مـن الهدوء اثر صـدور القانون نامـه في ٩٣١/١٥٢٤ ـ ١٥٢٥ •

واذا ما استعرضنا النفوذ المملوكي منذ الفتح العثماني وجدنا أن ذلك تعاظم ، أو بالاحرى استمر ، في ولاية خاير بك على مصر • وعاد المماليك ، في عهده ، الى الخدمة العسكرية وأنفقت عليهم الجامكية (المرتبات) • وبلغ الأمر أن استخدموا في قمع بعض الانكشـارية الذين تمردوا على أوامر السلطان سليم الأول[1] • وسـمح لكبـار الموظفين المماليك بالاستمرار في وظائفهم في الكشوفيات وامارة الحاج[2] وغـير ذلك مـن الوظائف الهامة • واذا بدا أن قسماً كبيراً من المماليك قـد أيّد العثمانيين ، أو استمر في الوظائف الادارية والعسكرية في عهدهم ، فان قسماً آخر منهم ، ضمّ بعض هؤلاء المؤيدين في الظاهر ، كان يبطن الحقد على العثمانيين وينتهز الفرصة للثورة عليهم •

---

١ ـ انظر : محمد بن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الأجزاء ٣ـ٥ ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٠ـ١٩٦٣ ، الجزء ٥ ، ٢٣٨ ، ٢٥٥ـ٢٥٧ •

٢ ـ المصدر السابق ، جزء ٥ ، ٢٩٥ ، ٣١٧ ، ٣٥٥ ، ٣٩٤ ، ٤٠٧ ، ٤٧٧ ، ٤٨٨ •

وقد قامت أولى الثورات المملوكية على العثمانيين في مصر في عام ١٥٢٢ ، إثر وفاة خاير بك • وكانت الثورة بزعامة اثنين من كبار الموظفين المماليك : اينال السيفي كاشف الغربية وجانم السيفي كاشف البهنسا والفيوم وأمير الحاج • وكانت صيحة الثائرين مملوكية تقليدية : « لن نترك المملكة لهؤلاء الترك الذين لا يعرفون ملاقاة الفرسان »(١) • وفي هذا تعبير واضح عن كراهية ، بل احتقار ، المماليك الفرسان للعثمانيين حملة البنادق • وقد قضى العثمانيون على الثورة ، وقتل أو هرب زعماؤها • ولكن العثمانيين لم يغتنموا الفرصة لابادة المماليك • واستمر كثيرون منهم يتمتعون بنفوذ كبير في مصر ، وخاصة في الجيش والادارة •

وفي أواخر عام ١٥٢٣ حانت فرصة أخرى استغلها المماليك الناقمون للتعبير عن سخطهم على العثمانيين • فقد تمرّد حاكم مصر العثماني أحمد باشا (ومن هنا لقب فيما بعد بالخائن) ، على السلطة المركزية في استانبول بسبب طموحه ، وأيضا بسبب تآمر الدولة عليه ، وأعلن نفسه سلطانا • وكان في طليعة مؤيديه المماليك • ولكن الدولة العثمانية سرعان ما قضت على ثورته(٢) • وأدخلت عقب ذلك تنظيمات ادارية وعسكرية هامة ، بموجب القانون نامه ودفتر التربيع الذي نظّم الاستفادة من الرزق ، فتوطدت السلطة

---

١ - انظر حول هذه الثورة كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ص ١٣٨-١٤٠ •

٢ - المصدر السابق ، ١٤٠ - ١٤٣ •

العثمانية ، وحيل ـ لفترة ـ دون استغلال المماليك للأنظمة القديمة التي بقي كثير منها سائداً منذ الفتح العثماني .

وبلغت السلطة العثمانية شأوا كبيراً من القوة ، في عهد السلطان سليمان القانوني ، وانعكست هذه السلطة على الادارة العثمانية في الولايات ، فسيطرت عليها بالقوة والارهاب وبما طبقته من قوانين .

واستمرت هيبة الدولة قائمة في مصر الى ما بعد وفاة السلطان سليمان القانوني بقليل . وبدأت اذ ذاك عوامل الضعف العسكري والاقتصادي تعمل عملها ، فقامت الثورات، ومن جملتها ثورات العساكر السباهية في مصر . وعاد المماليك، من جديد ، للظهور كعنصر ثائر . ولا أدل على طموح هؤلاء الثائرين وعمق تحديهم للعثمانيين من اعلانهم سلطاناً من بينهم ، وتسميتهم الوزراء ، واقتسامهم حارات القاهرة للسيطرة عليها . وتشبه حركة التحدي هذه ما سبق ان قام به أحمد باشا الخائن ، ومن قبله جان بردى الغزالي والي دمشق الذي استغل فرصة وفاة السلطان سليم الاول في ١٥٢٠ ليعلن انفصاله عن العثمانيين وارتداده الى المملوكية ، وسمّى نفسه سلطاناً ، ثم قتل(١) . وقد تمكنت السلطة العثمانية ، بعد أن استنفرت جميع قواتها ، من القضاء على العساكر الثائرين في عام ١٦٠٩ . ومرة أخرى لم يقض العثمانيون على وجود المماليك ولم يمنعوا استيرادهم الى مصر . واذا كان

---

١ ـ أنظر تفاصيل هذه الثورة وانعكاساتها على مماليك مصر في المصدر السابق ، ص ١٢٠ ـ ١٢٤ ، ١٢٨ ـ ١٣٠ ، ١٣٧ ـ ١٣٨ .

قد قضي الآن على تمرد الطائفة المملوكية السباهية ، فان الموظفين الاداريين من المماليك بقوا يتمتعون بسلطة كبيرة في امارة الحاج والكشوفيات والدفتردارية وغيرها ٠

وما لبث المماليك أن عادوا ، بعد ذلك ، الى الاشتهار السياسي والعسكري ، من خلال رتبة الصنجقية ، وبرز بينهم زعيم طائفة الفقارية رضوان بك الفقاري الذي أمر ، في حوالي ١٦٣٠ ، بوضع نسب له (قهر الوجوه العابسة بذكر نسب الجراكسة من قريش)[١] يتفق مع مركزه كأمير للحاج المصري ، ومع ازدياد النفوذ الذي بلغه المماليك ٠ وبالرغم من الضربة التي وجهت للطائفة الفقارية ، وبالتالي للمماليك ورتبة الصنجقية ، في عام ١٦٦٠ من قبل السلطة العثمانية[٢] ، فقد استمر نفوذ المماليك يتزايد ببطء الى أن بلغ الذروة في عهد علي بك بلوط قبان (Bulut Kapan) ، أي قابض الغمام[٣] ٠ ولم يقض على نفوذ المماليك نهائياً حتى ظهور محمد علي باشا الالباني ، في الربع الاول من القرن التاسع عشر ، وذلك بعد أن أضعفتهم الحملة الفرنسية ٠ ولم يستفد الجناح الآخر من المحكومين ، أي أولاد العرب ، من زوال منافسيهم المماليك في الوصول الى السلطة السياسية ، اذ حلّ الالبانيون محل المماليك وتمتعوا بقوة منظمة وبسلطة أكبر ٠

والظاهرة الثانية التي تسترعي الاهتمام في ثورات

---

١ ـ أنظر الدراسة التالية الهامة لهذا النسب : P.M. Holt, "The Exalted lingeage of Ridwan Bey", *BSOAS*, XXII. 2 (1959), pp. 221-230.

٢ ـ أنظر كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ص ٢٦٧ـ٢٧٩ ٠

٣ ـ المصدر السابق ، ص ٤٠١ـ٤٠٩ ، يعرف علي بك هذا عادة بلقب الكبير ٠

العساكر السباهية هي معاداة الثائرين لأولاد العرب ومعارضتهم لهم في دخول الجيش العثماني واستخدام المماليك البيض • وهذا يعني أن أولاد العرب قد بدأوا يتسربون الى الطوائف العسكرية العثمانية ويتمتعون بامتيازاتها ، مما أثار حقد العساكر ، وخاصة المماليك الذين ازداد عداؤهم لأولاد العرب نظراً لاستخدام هؤلاء المماليك البيض • ولتبيان الدور الذي بدأ يلعبه أولاد العرب الى الحدّ الذي أثار حقد الثائرين ، ولتوضيح أصول العداء بين المماليك وأولاد العرب يحسن استعراض العلاقة بين هذين الفريقين منذ الفتح العثماني •

لم يتبدل وضع أولاد العرب ، من الناحية السياسية ، اثر الفتح العثماني ، اذ حلّ حاكم غير عربي مكان حاكم آخر غير عربي • واستغل البدو تبدّل السلطة فحاولوا التمرد على التنظيمات المملوكية السابقة ، وعلى محاولات العثمانيين فرض سيطرتهم عليهم • ولعبوا دوراً هاماً في دعم ، أو التخلي عن دعم ، الثائرين الاوائل على العثمانيين : اينال السيفي وجانم السيفي ، وأحمد باشا الخائن • واعترف العثمانيون بامرة بدو هوارة الاشداء في الصعيد ، واستمر الامر كذلك حتى الربع الاخير من القرن السادس عشر حين عين حاكم عثماني للصعيد مركزه جرجا • أما بالنسبة للقبائل الاخرى في أقاليم الشرقية والغربية والبحيرة ، فقد عمد العثمانيون الى فرض سيطرتهم عليهم بضرب قبيلة بأخرى ، أو زعيم بآخر ضمن القبيلة الواحدة ، وباجراءات تنظيمية أخرى[1] •

---

١ - انظر : المصدر السابق ، ص ١٢٣-١٢٨ •

وأصبح وضع أولاد العرب ، بصورة عامة ، أكثر تعقيداً ، عقب الفتح العثماني ، لانهم دخلوا في صراع مع طائفة المماليك التي سعت لاسترداد سلطتها من العثمانيين وابقاء أولاد العرب أدنى مرتبة منها ، كما كان الأمر زمن السلطنة المملوكية • وهكذا حاول المماليك ، بدافع من سيطرتهم السابقة واستمرار نفوذهم العسكري والاداري في العهد العثماني ، أن تكون لهم اليد العليا محليا كخطوة أولى في توطيد سلطتهم ، ومن هنا شدة عدائهم لازدياد نفوذ أولاد العرب •

ونلحظ هذا العداء في العلاقة بين جناحي المحكومين منذ أن حاول المماليك استعادة نفوذهم عقب الاحتلال العثماني • ونرى في ولاية خاير بك المملوكي كيف قتل المملوكان اينال السيفي وجانم السيفي اثنين من مشايخ بدو البحيرة ، من آل مرعي ، ثأرا لتسليمهما السلطان المملوكي طومان باي الى العثمانيين[1] • ونرى أيضا كيف عمد خاير بك ، أثناء ولايته ، في عام ١٥١٩/٩٢٥ ، الى تعيين أمير الحاج المصري من المماليك بعد أن شغل هذا المنصب في السنتين السابقتين موظفون محليون[2] • واستمر تعيين المماليك أمراء للحاج بعد ذلك • ويدل هذا الامر على عودة المماليك لاشغال الوظائف الهامة وابعاد السكان المحليين عنها •

---

١ ـ انظر : ابن اياس ، جزء ٥ ، ٢٩٥ـ٢٩٦ ؛ أحمد بن زنبل الرمّال ، مخطوط عن مصر ، نسخة المكتبة الوطنية في ميونيخ ، رقم Cod. Arab. 411 ، الورقة ١٣٧ ب •

٢ ـ انظر كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ص ١٣٠ـ١٣١ •

وقد رضخ المحكومون ، من مماليك وأولاد عرب ، في ولاية مصر ، كما في غيرها من الولايات العربية في عهدالسلطان سليمان القانوني ، لقوة العثمانيين التي تجلّت عليا وخارجيا • وتوالى على ولاية مصر في فترة القوة هذه ولاة مشهورون ، مثل سليمان باشا الخادم الذي اشتهر بحملاته في المحيط الهندي ، وسنان باشا صاحب الحملات الناجحة في اليمن • وكانت انتصارات الجيوش العثمانية في العراق واليمن وسواحل افريقية الشرقية ، في سواكن ومصوع ، وفي البلقان بصورة خاصة ، وما تلا ذلك من اقامة الزينة ، بهذه المناسبات ، في الولايات تذكيراً مادياً بقوة الدولة وجبروتها وعاملا على زرع الخوف منها وتقديم الطاعة لها •

وحين بدأ الضعف يستفحل في الدولة العثمانية ، بعد عهد السلطان سليمان القانوني ، استغل ذلك أولاد العرب في ولاية مصر ، وحاولوا ، كما حاول اسمياؤهم في الشام ، الانتساب الى الطوائف العسكرية ، بعد أن اختلت أنظمتها ، للاستفادة من امتيازاتها • وتلا ذلك صراع على النفوذ بين المماليك وأولاد العرب •

ولتوضيح الصعاب التي وضعها المماليك أمام العرب في مصر ليحولوا دون ازدياد نفوذهم ، يمكننا أن نقوم بمقارنة مع ما حدث في ولاية الشام ، في هذه الاثناء ، من انتساب أولاد العرب الى الطائفة الانكشارية • ففي عام ١٥٧٧ وجّه السلطان العثماني فرمانا الى والي الشام يأمره فيه بأن يعين في الوظائف التي تشغر بين الانكشارية أفرادا من أصل رومي

وليس مـن المحليين أو الغرباء . ولكن دخول غير الاروام طائفة الانكشارية لم يتوقف بصدور هذا الفرمان ، بل ازداد شدة ، وسرعان ما سيطر أولادالعرب في ولايةالشام على طائفة الانكشاريةحتىأصبحت تعرف ، تبعاً لذلك ، فيحوالي منتصف القرنالسابع عشر ، باسم الانكشارية اليرلية (أيالمحلية)نسبة لهم . واضطر السلطان أن يرسل طائفة أخرى من الانكشارية عرفت بالقابي قول ، لدعم نفوذه[١] . وفي ولاية حلب حيث امتنعت الطائفة الانكشارية على السكان المحليين ، نظراً لقوة النفـوذ العثماني ووقوع حلب على طريق الجيوش العثمانية المتوجهة الى الجهة الفارسية ، عبّر السكان المحليون عن ازدياد نفوذهم بانتسابهم الى طائفة الاشراف . ومن هنا كثرة عدد الاشرافيفحلب (مما اقتضىتزوير بعضهم الانساب)،وصراعهم المستمر مع الانكشارية[٢] .

وحين حاول أولاد العرب في مصر الانتساب الى الطوائف العسـكرية ، كمتنفس لقوتهم ولحمايـة مصالحهم في الوقت نفسه ، وقف المماليك حجر عثرة في سبيلهم ، وحالوا دون ازدياد نفوذهم عسكرياً . ويذكر في مطلع النصف الثاني من القرن السابع عشـر كيف تكتل العساكر السباهية (الذين ازدادت سيطرةالمماليك عليهم) مع أقوى طائفتين عسكريتين: الانكشارية والعزب ، في محاولة لاخراج أولاد العرب مـن الطوائف العسكرية . وحدثت ، بنتيجة ذلك ، فتنة كبيرة في

---

١ ـ انظر كتابنا : *The Province of Damascus*, 27-33

٢ ـ أنظر كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ٨٦ـ٨٧ .

الطوائف العسكرية السبع من عزل وتولية ونفي وغير ذلك[١]. ونستدل من هـذا على استمرار أولاد العرب في محاولاتهم الانتساب الى الطوائف العسكرية وعلى اشتداد معارضة المماليك واتساعها ضدهم .

وفي أعقاب القضاء على نفوذ الطائفة الفقارية في مصر عام ١٦٦٠ وانتعاش السلطة العثمانية في عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي ، في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، شدّد العثمانيون من قبضتهم ضد ازدياد النفوذ المحلي[٢] ، وأرسلوا أمراً الى مصر في شوال ١٠٧١ حزيران ١٦٦١ باخراج أولاد العرب من الطوائف العسكرية[٣] .

وبانتهاء هـذه الطفرة من القوة العثمانية في عهـد آل كوبريلي ، في أواخر القرن السابع عشر ، اشتد الانحطاط في السلطة العثمانية ، واستغل ذلك المماليك الذين اشتهروا كثيراً في مصر في القرن الثامن عشر وأصبحوا حكامها الفعليين ، وطغوا على نفوذ أولاد العرب .

وبزوال سلطة المماليك في الربع الاول من القرن التاسع عشر لم يستفد أولاد العرب سياسياً من القضاء على منافسيهم التقليديين ، رغم ما أبرزوه من قوة وما قاموا به من ثورات شعبية ضد الفرنسيين ، لان أسرة محمد علي الالباني حلّت

---

١ - مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ٥١ آ ؛ وانظر ايضاً : زبدة اختصار تاريخ ملوك مصر ، ٩ ب .

٢ - قضوا في أواخر الخمسينات من القرن السابع عشر على ثورة حسن باشا في حلب وعلى تمرد زعماء الانكشارية في دمشق . انظر كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ١٩٢-١٩٣ .

٣ - مخطوط باريس ، رقم Arabe 1855 ، ٥١ ب ؛ أحمد شلبي ، ٢١ آ .

محلّ المماليك ومحلّ العثمانيين عملياً • وقد استخدم الحكام الالبانيون أولاد العرب في الجيش ، ولكن حيــل بينهم وبين الوصول الى أعلى الرتب العسكرية • وأدى ذلك الى مقاومة العساكرمن أولاد العرب ، بقيــادة الضابط أحمــد عرابي المصري ، السيطرة التركية ـ المملوكية على الجيش• وكممثل لاولاد العرب في صراعهم الطويل ضد المتسلطين الأغرابأبرز أحمد عرابي هويته العربية ـ المصرية في اسمه(١) •

آذار ١٩٦٩

عبد الكريم رافق

كلية الآداب ـ جامعة دمشق

★

١ ـ انظر : J. M. Ahmad, *The Intellectual origins of Egyptian nationalism,* London, 1960, p. 25.

مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر

د . عبد الكريم رافق

استاذ في قسم التاريخ بجامعة دمشق

لعب الجيش العثماني دورا هاما في الامبراطورية العثمانية ، سواء في تدعيم سلطتها او في تقويض اركانها ، وتالف من انواع من الجند ، منها السباهية (الفرسان) ، الذين منحوا الاقطاعات ، والانكشارية (المشاة) ، اصحاب المرتبات . وبالاضافة الى هاتين الفئتين ، برزت في بلاد الشام ، وفي غيرها من الولايات ، قوات مرتزقة استخدمها الثائرون على الدولة ، منذ مطلع القرن السابع عشر ، ثم اعتمدتها الدولة نفسها ، منذ القرن الثامن عشر ، حين تقاعست القوات النظامية عن دعم سلطتها . وادت الحاجة للقوات المرتزقة الى كثرة اعدادها ومصادر تجنيدها وتنوعها .

واستغل السكان العرب في بلاد الشام انهيار انظمة الجيش العثماني فتسربوا الى عدد من وحداته ، وصبغوها بالصبغة المحلية ، ففدت تخدم المصلحة المحلية ، باكثر من المصلحة العثمانية .

ونتج عن هذا الاندماج آثار اقتصادية واجتماعية ، ايجابية وسلبية . وتعالج هذه الدراسة الوحدات العسكرية العثمانية في بلاد الشام ، وكذلك نماذج من طرق القتال التي اعتمدتها هذه القوات ، وانواع الاسلحة التي استخدمتها ، ومصادرها ، كما تعالج جاهزية القوات القتالية ومدى فعاليتها ، ونشاطاتها الاقتصادية والاجتماعية .

١ ـ القوات العسكرية :

أ ـ الانكشارية : اقام العثمانيون في مراكز الولايات والقلاع فرقا من

الانكشارية للدفاع عنها . والتسمية مشتقة من الكلمتين التركيتين (Yeni çéri) ، وتشيران الى الفرق الجديدة تمييزا لها عن الفرق القديمة من الفرسان (السباهية) ، أصحاب الاقطاعات . وقد حرفت الكلمة التركية بالعربية الى ينيجرية ، وشاعت على انها انكشارية . وكان السباهية من الفرسان ، اما الانكشارية فمشاة . ونظرا لعدم تعرض بلاد الشام ، بعد احتلال العثمانيين لها ، الى عدوان خارجي، فقد انصرف الانكشارية فيها الى تعاطي الاعمال التجارية مما شجع التجار المحليين على الانخراط في صفوف الانكشارية ، للافادة من امتيازاتهم . وقد وجه السلطان العثماني في ٤ جمادى الاول ٩٨٥ ٢٠ تموز ١٥٧٧ فرمانا الى والي دمشق يأمره فيه ان يعين في الوظائف التي تشغر في طائفة الانكشارية ، اناسا من الروم (أي من العثمانيين) ، وليس من المحليين والاغراب ، كما كان يحدث ، وذلك في محاولة للحفاظ على الصبغة العثمانية للانكشارية ، وبالتالي لتأمين الانضباط في صفوفهم وتوجيه ولائهم للمصالح العثمانية وليس للمصالح المحلية . ولكن الفرمان لم يطبق بحزم ، واستمر المحليون والاغراب ينتسبون الى صفوف الانكشارية . وانعكس هذا الانتساب في الاسماء غير التركية التي بدأت تظهر بين أسماء الانكشارية . وابدت هذه العناصر غير الرومية ميلا لابتزاز المال من الاهلين ، وروعت سكان الريف في ولاية حلب الغنية ، حيث ذهبت فرقة منهم كل سنة لمساعدة جباة الضرائب (الملتزمين) في جمع الاموال ، او لممارسة ذلك بانفسهم ، مما اضطر والي حلب ، في اواخر القرن السادس عشر ، الى طردهم بالقوة (١) .

وتميزت العلاقة بين طائفة الانكشارية في دمشق والسلطة

---

١ - انظر محمد الامين المحبي ، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ، ٤ اجزاء ، القاهرة ، ١٢٨٤/١٨٦٩ (تصوير مكتبة خياط ، بيروت ، ١٩٦٦) ، ج ٢ ، ١٢٩ ، ج ٣ ، ١٥٦ ، ٢٩٩ ، ٤١٧ - ٤١٨ ، ٤٢٧ - ٤٢٨ ، ج ٤ ، ٤٤٩ - ٤٥٠ ؛ محمد خليل المرادي ، سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ، ٤ اجزاء ، بولاق ، ١٣٠١ (تصوير مكتبة المثنى ، بغداد ، ١٩٦٦) ، ج ١ ، ١٦٦ ، ج ٢ ، ٦٣ ؛ كامل الغزي ، نهر الذهب في تاريخ حلب ، ٣ اجزاء ، حلب ١٩٢٢ - ١٩٢٦ ، ج ٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٩ ؛ محمد راغب الطباخ ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٧ اجزاء ، حلب ، ١٩٢٣ - ١٩٢٤ ، ج ٣ ، ٢١٩ .

العثمانية الممثلة بالوالي ، ولقبه الباشا ، بالقوة او بالضعف ، حسب موقع كل منهما . فحين كانت السلطة المركزية قوية ، كما في عهد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ - ١٦٤٠) ، بطش بزعماء الانكشارية المتمردين . وفي الفترة التي تلت عهد السلطان مراد الرابع اضطرت الدولة للاعتماد على زعماء انكشارية دمشق في قيادة قافلة الحج الشامي الى الحجاز ، وعينتهم بهذه المناسبة ، حكاما على واحد أو أكثر من صناجق ولاية الشام ، حيث احتفظوا بالقوات التي وضعت تحت تصرفهم لحماية الحج فيها ، وحيث جمعوا الضرائب (الميري) لتمويل القافلة . وقد تم ذلك نظرا لضعف او زوال الامراء المحليين من حكام صناجق ولاية الشام الذين عهد اليهم ، قبل ذلك ، بإمارة الحج . ولكن قضاء فخر الدين المعني الثاني ، امير جبل لبنان ، اثناء توسعه ، على هؤلاء الامراء او اضعافهم ، جعل الدولة ، بعد الفراغ الذي احدثه قتلها لفخر الدين في عام ١٦٣٥ ، تلجأ لتعيين الانكشارية امراء للحج لان المبادرة السياسية على ولاية الشام انتقلت الى القوى المتواجدة في دمشق . وملأ الانكشارية بعضا من هذا الفراغ .

وادى ازدياد نفوذ الانكشارية وبروز زعماء مشهورين من بين صفوفهم ، مثل كيوان ، وعلي بن الارناؤوط وحسن التركماني (ذكر مثلا ان افراد اسرة حسن التركماني شكلوا مع اتباعهم حوالي ربع عدد الانكشارية في دمشق (١)) الى تأليب الدولة عليهم ، بعد ان ايدوا والي حلب ، ابازه حسن باشا ، في ثورته على الدولة في عام ١٠٦٧/١٦٥٦ - ١٦٥٧ ، فالتفتت اليهم ، بعد القضاء على ثورة حسن باشا ، المعروفة بالحسنية ، وبطشت بزعمائهم في عام ١٠٦٩ / ١٦٥٨ - ١٦٥٩(٢) . وابدت الدولة آنذاك ، على اكثر من صعيد ، نشاطا ملحوظا في عهد الوزراء

---

١ - المحبي ، ج ٣ ، ٤٣٧ ؛ المرادي ، ج ٢ ، ٦٣ .

٢ - المحبي ، ج ٢ ، ٧٨ - ٧٩ ، ٤١٨ ، ج ٤ ، ٣١١ ؛ محمد بن جمعة ، الباب الرابع والسبعون في ذكر الباشات والقضاة بدمشق المحمية (من) زمن مولانا السلطان سليم خان عليه الرحمة والرضوان ، مخطوط في مجموعة برلين ، برقم 9785 we. II, 418 انظر الاوراق ، ١٤ ب - ١٥ ب ، وهذه النسخة اكمل من النسخة الاخرى في مجموعة برلين ، برقم 9785 Spr. 188 التي نشرها د. صلاح الدين المنجد في كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ١٩٤٩ ؛ وانظر : الطباخ ، ج ٣ ، ٢٦٨-٢٧١ .

العظام من آل كوبريلي (١٦٥٦ ــ ١٦٧٦) . وارسلت فرقا انكشارية جديدة الى دمشق ، تميزت بالولاء للادارة المركزية ، وعرفت بالقابي قول (ابي عبيد الباب ، وهو باب السلطان) ، وتمركزت في القلعة وعلى السور وعند ابواب المدينة . واخرجت الطائفة الانكشارية اليرلية من هذه المراكز واوكل اليها نظريا حراسة منازل الحج . وهكذا اصبح في دمشق طائفتان انكشاريتان : الانكشارية اليرلية ، اي المحلية ، التي اصبح معظم افرادها من السكان المحليين ، والانكشارية القابي قول ، التي بقي ولاؤها للادارة المركزية(١) . وكانت القابي قول ترفد، بين الفترة والاخرى ، بفرق جديدة لتدعيم ولائها للادارة المركزية. وزاد هذا الامر في عدائها للانكشارية المحلية التي كانت تهتم بمصالحها. ومما ازم العلاقة بين الطائفتين ان الباشا استخدم القابي قول للبطش بزعماء اليرلية ، كما ان محاولة بعض افراد القابي قول دخول ميدان التجارة المحلية اكسبهم عداء اليرلية الذين احتكروا هذه التجارة . وعرفت اليرلية بدولة دمشق نظرا لتسلطها في المدينة ، فيما عرف القابي قول بدولة القلعة . وكان تاريخ دمشق بين عامي ١٦٦٠ و ١٨٢٦ (سنة الغاء الانكشارية) حافلا بالصراع بين الطائفتين .

ولو استعرضنا اسماء الطائفة الانكشارية التي تسرب اليها المحليون والاغراب بالتدريج الى ان سيطروا عليها ، لوجدنا ان هذا التسرب قد انعكس في اسماء زعماء الانكشارية . فحين مدت الطائفة الانكشارية في دمشق سيطرتها الى ريف حلب في أواخر القرن السادس عشر ، برز بين زعمائها آق يناق ، قره يناق ، خدا وردي ، وحمزة الكردي . وتمثل هذه الاسماء العناصر الغريبة ، من تركمانية وكردية ، التي سيطرت على طائفة الانكشارية . وحين بطش بهؤلاء الزعماء برز بعدهم اخرون مثل حسن التركماني ، علي بن الارناؤوط ، كيوان ، وعبد السلام المرعشي . وفتكت الدولة بهؤلاء الزعماء ايضا، وبرزت في اعقاب ذلك، بعد عام ١٦٦٠، عناصر محلية دمشقية في زعامة الانكشارية مثل صالح اغا ومحمد اغا من آل صدقة ، وسليمان اغا وموسى اغا من آل الترجمان ، وخليل آغا طالو .

---

(١) انظر تفاصيل اخرى عن ذلك في كتابنا :
The Province of Damascus, 1723 - 1783, Beirut, 2nd edition, 1970, pp. 26 - 35.

وبعد حوالي قرن من ذلك سيطر الدمشقيون بكثافة على الانكشارية البرلية التي أخذت تدافع عن مصالحهم ضد الولاة العثمانيين الظالمين وضد القوات الغريبة التي استخدمها هؤلاء لكبحهم . وذكر الاخباري الدمشقي حسن الشهير **بابن الصديق** ، في مؤلفه : « **غرايب البدايع وعجايب الوقايع**»(١)، الذي أرخ فيه لعام ١١٨٥/١٧٧١ ـ ١٧٧٢ ، حين غزت قوات علي بك المملوكي، حاكم مصر، دمشق ، الاسماء التالية بين أصحاب الرتب العليا في طائفة الانكشارية البرلية : فارس العضم ، أحمد العضم ، حسين ومحمد القطيفاني ، اسماعيل البكري ، علي خير ، حسن الحواصلي ، علي الحيدري ، محمد وعلي أقبيق ، عمر القباني ، احمد شحادة ، محمد السقباوي ، اسماعيل البيطار ، محمد بكداش ، أمين شيخ السروجية ، علي وحسين وصالح الشاويش ، ياسين ومحمد الصواف ، حسن شبيب ، ابراهيم عابدون ، مصطفى الدوجي ، بكر ميرو ، عبد الله سكر ، ومصطفى السقباوي . وكان معظم هؤلاء من كبار تجار الحبوب في حي الميدان وحي سوق ساروجا ، معقلي الانكشارية البرلية في دمشق . وكان أغا الانكشارية انذاك يوسف بن جبري .

ولم يحدث مثل هذا التطور ، على مستوى تسرب العناصر المحلية الى الطائفة الانكشارية والسيطرة عليها ثم ارسال طائفة انكشارية اخرى ، في ولاية حلب اذ بقيت طائفتها الانكشارية ممتنعة على سيطرة العناصر المحلية ، نظرا لقرب حلب من مركز السلطنة ووقوعها بمتناول قواتها ، ومرور القوات العثمانية فيها في طريقها الى الجبهة الصفوية ، مما زاد في فرض النفوذ العثماني فيها . ولكن سكان حلب لم يعدموا منظمة محلية لابراز نفوذهم من خلالها ، وبالتالي للدفاع عن مصالحهم ، فقام الاشراف، بقيادة نقيب الاشراف ، بالدفاع عن المصالح المحلية ضد العثمانيين الممثلين بالانكشارية . ومن هنا الاصطدامات الدامية بين الاشراف والانكشارية في حلب(٢) ، وأهمية الدور الذي لعبه أشراف حلب الى درجة حيّرت معها الباحثين بقوتهم وكثرة اعدادهم . ولا يعني هذا ان الاشراف لم يكن لهم وجود أو نفوذ في دمشق ، ولكنهم لم يلعبوا دورا سياسيا وعسكريا بارزا

١ ـ مخطوط في مجموعة برلين ، برقم 9832. We II. 417 ، انظر ظهر الغلاف الاول والورقة ١ ب .

٢ ـ انظر مثلا الموقعة المروعة عند جامع الاطروش في رمضان ١٢١٢ \ شباط ١٧٩٨ التي ذهب ضحيتها مئات من الاشراف ، الطباخ ، جـ ٢ ، ٣٧٠ ـ ٣٧٢

فيها ، كما فعل نظراؤهم في حلب ، لان سكان دمشق وجدوا في الطائفة الانكشارية البرلية متنفسا لقوتهم . ودعم اشراف دمشق وشبان الحارات الانكشارية البرلية في الدفاع عن المصالح المحلية التي كانت القاسم المشترك بينهم . واشارت المصادر المحلية الى تجمع القوى هذا باسم ابناء دمشق .

واختلفت التقديرات حول عدد الانكشارية في الشام ، وقد ذكر ان عدد انكشارية دمشق ، حين ثار حاكمها جان بردي الغزالي على العثمانيين في عام ١٥٢٠ ، قد بلغ مائة وخمسين بما فيهم من فقهاء وصوفية(١) . وقدر عدد الانكشارية القابي قول ، حين ارسلوا الى دمشق في عام ١٠٦٩ / ١٦٥٨ ـ ١٦٥٩ ، بالفين(٢) في حين ذكر مصدر آخر انهم ثلاثمائة(٣) . وفي عام ١١٨٤/١٧٧٠ ـ ١٧٧١ قدر عدد القابي قول بالفين(٤) وكان عدد البرلية آنذاك الفين وسبعين بالاستناد الى قوائم اسمائهم التي دفعت الرواتب على اساسها(٥) . ولكن هذه القوائم لا تعتبر مقياسا صحيحا للعدد الفعلي ، نظرا لان الرواتب كانت تصرف للاطفال والمسنين ، وحتى للمتوفين . وقدر انكشارية حلب في تلك الفترة بثلاثة الى اربعة الاف(٦) .

ب ـ **السباهية** : تصرف العثمانيون ، بعد فتحهم بلاد الشام ، باراضي الدولة (الاراضي الاميرية) التي آلت اليهم من السلطنة المملوكية ، فاعطوا معظمها على شكل اقطاع بانواعه الثلاثة : الخاص ، ويقدر وارده بما يزيد على مائة الف اقجة (وحدة نقدية فضية) ، واعطي الى افراد الاسرة المالكة وكبار الموظفين أو الحق بمناصب الولاة وغيرها لينفق من وارده على أصحابها ، والزعامت ، ويزيد وارده عن عشرين الف اقجة ،

---

١ ـ محمد بن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، جزءان ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٤ ، جـ ٢ ، ١٢٤ .
٢ ـ ابن جمعة ، مخطوط برلين رقم (٩٧٨٥) ، الورقة ، ١٥ ب .
٣ ـ المحبي ، جـ ٤ ، ٣١١ .
٤ ـ حسن بن الصديق ، الورقة ، ٢٨ ب .
٥ ـ المصدر السابق ، الورقة ، ١١٠ ب .

6. Archives Nationales (Paris), Affaires Etrangères, B' 94 : Alep, 16 avril 1777.

واعطي للضباط، والتيمار الذي قدر وارده باقل من عشرين الف اقجة ووزع على افراد الجيش من الفرسان السباهية ليكون معاشا لهم . وما زاد عن حاجة الفرسان من الواردات جندوا به الاتباع . وعرف مجموع افراد هذا الجيش الذي أعطي الاقطاع ، من نوعي زعامت وتيمار ، بالسباهية . وكان هؤلاء اقدم فرق الجيش العثماني . ولم يكن الاقطاع العسكري بالشيء الجديد اذ شاع امره منذ عهد السلاجقة بغية ربط المقاتل بالارض ليدافع عنها اذ لم تكن له آنذاك من قضية ، عصبية أو دينية ، ليتعلق بهـا .

ويلاحظ من تفحص قوائم السباهية في بلاد الشام في القرن السادس عشر ان معظمهم كان من اصل كردي أو مملوكي . وعرف قائد السباهية بآلاي بك . ووجد الاي بك في كل صنجق (وحدة ادارية يرفع صاحبها الصنجق اي العلم امامه) من صناجق الولاية . وجاء في مجموعة القوانين (قانون نامه) التي صدرت في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ــ ١٥٦٦) ، التي قسمت بموجبها بلاد الشام ، ان عدد القوات السباهية في كل من ولايات الشام وحلب وطرابلس ، هو ٥٠٠ر٥ (١) وذكر الكاتب عيني علي العثماني ، وتنطبق الارقام التي اوردها على الربع الاخير من القرن السادس عشر ، ان عدد السباهية في الولايات الثلاث قد بلغ ٢٦٣ر٨(٢) ولو اضفنا الى هذا الرقم عدد السباهية في ولاية الرقة التي تبعت ، جغرافيا وتاريخيا ، بلاد الشام لاصبح عدد السباهية في بلاد الشام ٤٢٩ر١٠ من مجموع قدره ٥٣٥ر١٢٠ للامبراطورية بكاملها(٣) . وقد ذكر بول ريكو ، سكرتير السفير الانكليزي في استانبول ابان سلطنة محمد الرابع (١٦٤٨ ــ ١٦٨٧) ، ان عدد السباهية في ولايات الشام وحلب وطرابلس والرقة بلغ ٧٧٦ر٧(٤) وينطبق هذا على الفترة التي

1. Evliya Efendi (Chelebi), **Narrative of Travels**, Translated from Turkish by Joseph von Hammer - Purgstall, 2 vols., 1834, 1846, vol. *I*, pt. i; pp. 101 -102 .

2. Ayn-i Ali, **kavanin-i al-i Osman**, in M. Belin « Du Régime des fiefs militaires dans l'Islamisme », **Journal Asiatique**, XV (1870), pp. 273-278.

3. **Ibid.**

4. Ricaut (Rycaut), **Histoire de l'état présent de l'Empire Ottoman**, 2 vols., Cologne, 1676, vol. II, pp. 14 - 21.

سبقت عام ١٦٦٠ التي استحدثت فيها ولاية رابعة في بلاد الشام هي ولاية صيدا .

وطبيعي ان عدد السباهية النظري لا ينطبق معالواقع لانمحظورهم الرئيسي تعلقهم بالارض الى درجة انهم تهربوا من الخدمة العسكرية .وقد سمحت الدولة لهم بدفع مال البدل لقاء الخدمة . وذكر م. جيراردان في مذكراته بتاريخ ١٦٨٧ ان عدد السباهية الفعلي لولايات دمشق وحلب وطرابلس بلغ ١٤٠٠(١) .

ونتج عن تقلص عدد السباهية ان استعادت الدولة الاقطاعات التي شغرت ، ولم تعطها لسباهية جدد . وانعكس ذلك على تقلص دائرة الدفترأميني التي كانت تعنى بشؤون الاقطاع،فضغطت وظائفها ونفقاتها.

وعهد الى السباهية بالمحافظة على القلاع في طريق الحج ، وذلك قبل أن يعهد الى الانكشارية اليرلية في عام ١٦٦٠ بهذه المهمة . ولم تكن لهم واجبات محددة بعد ذلك . واستعين بهم في وقت الازمات ، واستثير حماسهم الديني ، لا واجبهم العسكري ، في القتال ، مما يدل على تدني كفاءتهم واهميتهم العسكرية . وادى دفعهم البدل النقدي (٢) الىتضاؤل اهميتهم العسكرية .

ج ـ القوات المرتزقة : حين كانت السلطة العثمانية قوية في بلاد الشام ، كما في غيرها . في القرن السادس عشر ، لعبت القوات النظامية دورا هاما في تدعيم هذه السلطة واخضاع الشعوب لها . وعندما ساءت الاوضاع الاقتصادية في الدولة العثمانية ، بدءا من النصف الثاني من القرن السادس عشر ، انخفضت قيمة العملة ، واثر ذلك على أصحاب المرتبات ،ومنهم الجنود ، فلجأوا الى الابتزاز وفرض الضرائب لتعويض القيمة المنهارة لمرتباتهم . وحين حاولت الدولة منعهم عن ذلك تمردوا عليها . وهكذا حدثت سلسلة

---

1. Belin, « Du Régime », J.A. XV (1870), pp. 290 - 291.

٢ ـ محمد خليل المرادي ، مطمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد ، مخطوط في المتحف البريطاني بلندن ، برقم Or. 4050 الاوراق ، ٢٤ أ ، ٢٤ ب .

من الثورات العسكرية في مختلف الولايات العربية بدءا من مناطق الاطراف في اليمن ، ومرورا بمصر وبلاد الشام والعراق ثم شمال افريقية وسرعان ماحذا الامراء المحليون حذو العساكر في التمرد والثورة على الادارة العثمانية ، وتمثل ذلك في بلاد الشام بثورتي علي باشا جانبلاط في منطقة كلس ـ حلب ، في العقد الاول من القرن السابع عشر ، وفخر الدين المعني الثاني في جبل لبنان في الثلث الاول من ذلك القرن . واتسعت قاعدة التحدي والثورة على العثمانيين في القرن الثامن عشر فبلغت القواعد الشعبية في الارياف والمدن . ونظرا لتفكك الجيش العثماني الرسمي ، من سباهية وانكشارية ، خولت الدولة الولاة استئجار قوات مرتزقة لمساعدتهم في تصريف شؤون الدولة . ولجأ الامراء المحليون بدورهم الى استئجار هذه القوات لدعم سلطتهم في وجه الدولة . ووجدت انواع متعددة لهذه القوات المرتزقة على مر الزمن وأهمها :

١ ـ **السكبان** : وكانوا اول من برز من هذه القوات في بلاد الشام ، وذلك في خدمة علي باشا جانبلاط ، الامير الكردي الذي ثار في منطقة كلس ـ حلب في عام ١٦٠٥ ، وحاصر دمشق في العام التالي ، ثم قضت عليه الدولة ، وفي خدمة حليفه الثائر امير جبل لبنان فخر الدين المعني الثاني (١٥٩١ ـ ١٦٣٥) .

وكلمة سكبان فارسية الاصل تتألف من مقطعي سك وتعني الكلب ، وبان وتعني الحامي . والسكباني في الاصل « يحمل البندقية على ظهره ويقود الكلب في ساجوره ويمشي أمام الامير أو الكبير ، حين يسير الى الصيد »(١) ثم اطلقت الكلمة على الذين يبيعون خدماتهم القتالية لقاء المال . وسكمان التركية تحريف لكلمة سكبان .

ولا يعرف المكان الاصلي للسكبان . ويقول فون هامر انهم خليط من الناس من كل البلدان(٢) ويستفاد من عبارات متعددة للاخباري ـ

---

١ ـ الحسن البوريني ، تراجم الاعيان من ابناء الزمان ، صدر منه جزءان ، تحقيق د . صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٧ ، ١٩٦٣ ، انظر : جـ ٢ ، ٢٥٩ .ولم يتم تحقيق هذا المخطوط .

2. Joseph von Hammer - Purgstall, Histoire de L'Empire Ottoman depuis son origine jusqu'a nos jours, 18 vols., trad. de l'allemand par J.J. Hellert, Paris, 1835 - 43, XI, 398 - 9, XII, 402.

المترجم الدمشقي الحسن البوريني (المتوفى عام ١٦١٥) ان السكبان في بلاد الشام من اصل رومي ، اي من المنطقة الواقعة ماوراء طوروس والفرات ، وانهم ظهروا في بلاد الشام لاول مرة في صنجق نابلس ، التابع لولاية الشام ، وذلك في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، في خدمة الوالي العثماني الذي استخدمهم لاخضاع سكان نابلس (١) . ثم شاع استخدامهم ، في الربع الاول من القرن السابع عشر ، من قبل الامراء الثائرين في بلاد الشام . وقد وصف السكبان بانهم متمرسون في فنون القتال (٢) .

واستفيد من السكبان في بلاد الشام في حماية القلاع وفي الخدمة كمشاة وفرسان (٣) . وسمح احيانا للمتزوجين منهم بايواء أسرهم في القلاع . وحين استخدم احد الامراء اعدادا جديدة منهم اشير الى هؤلاء بانهم الطائفة الجديدة ، بينما اشير الى القدامى منهم بالطائفة القديمة . وتألف السكبان من فرق متعددة يقود كلا منها قائد برتبة بلوك باشي . وكانت أعداد السكبان كبيرة اذا ماقورنت باعداد القوات المرتزقة الاخرى . وذكر أن فخر الدين المعني الثاني كان فيخدمته منهم ، بعد معركة عنجر في ١٦٢٣ التي اسر فيها والي دمشق مصطفى باشا ، حوالي ثلاثة آلاف (٤) . واستخدم منافسه ، يوسف باشا سيفا ، والي طرابلس، مثل هذا العدد (٥) . وذكر البوريني انه كان في خدمة علي باشا جانبلاط عشرة آلاف من السكبان (٦) .

ويبدو أنه لم يكن للسكبان قائد أعلى ، بل قادة فرق ، بلوكباشية ، اختير أحدهم أحيانا ليكون قائدا لهم برتبة سردار . واشير الى المرتبات التي تقاضوها بالعلائف (مفردها علوفة) ، ودفعت شهريا . وأعطي

---

١ ـ البوريني ، جـ ٢ ، ٢٥٩ .

٢ ـ المصدر السابق ، جـ ٢ ، ٢٨٤ .

٣ ـ احمد الخالدي الصفدي ، تاريخ الامير فخر الدين ، تحقيق اسد رستم وفؤاد افرام البستاني ، بيروت ، ١٩٣٦ ، ص ٣١ ـ ٣٢ ، ٥٢ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ٨٩ ، ١٢٩، ١٤٨ .

٤ ـ الصفدي ، ١٥٢ .

٥ ـ البوريني ، جـ ٢ ، ٢٨٤ .

٦ ـ المصدر السابق ، جـ ٢ ، ٢٧١ .

السكبان ، بالاضافة الى ذلك ، اعطيات ، دعيت بخشيش ، وتجاوزت احيانا قيمة مرتبهم . وذكر ان من عادة كل فرقة من السكبان ان تجمع الغنائم على حدة ، ومن ثم تبيعها ، ويقتسم أفرادها ثمنها (١) . واذا لم يسيطر مستاجر السكبان عليهم فسرعان ماينقلبون الى فوضويين يروعون السكان المحليين ، وخاصة سكان الريف (٢) .

٢ ـ **اللاوند** : استخدمت هذه التسمية في الاصل للبحارة ، وذلك تحريفا لكلمة « ليفانتينو » التي اطلقت من قبل البنادقة على الشرقيين (من المشرق أي الليفانت) الذين استخدموا في اسطولهم . واطلق العثمانيون على بحارتهم الاوائل تسمية لاوند (Levend) التياستعاروها من البنادقة وحرفوها بدورهم . وعندما تمرد هؤلاء البحارة من اللاوند ، وسرحوا ،واستبدلوا باخرين ، اطلقت الكلمة على المتمردين ، ثم عرفبها المرتزقة الذين باعوا خدماتهم (٣) .

وكان اللاوند من الفرسان بصورة رئيسية،وجندوا ، مثلالسكبان، من بلاد الروم . و فيالقرن الثامن عشر اقترن اسم اللاوند في دمشق بالاكراد ، ومن هنا القوات التي عرفت آنذاك بلاوند الاكراد (٤) . وذكر اللاوند ، الى جانب السكبان ، في خدمة فخر الدين المعني الثاني .

وتراس اللاوند قائد عرف بالاغا ، واقاموا في دمشق في خان عرف بخان اللاوند نسبة لهم . وقامت الدولة العثمانية بعدة محاولات في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، للقضاء عليهم . وتمكن من افلت منهم من الالتحاق بخدمة محمد باشا العظم والي دمشق (١٧٧١ ـ١٧٨٣) واحمد باشا الجزار والي صيدا (١٧٨٥ ـ ١٨٠٤) .

---

١ ـ الصفدي ، ١٥٢ .

٢ ـ سجلات محاكم حلب الشرعية ، سجل رقم ١٠ ، ص ١٩ ، الوثيقة ذات التاريخ ١٤ رجب ١٠٣٣/ (٢ ايار ١٦٢٥) ، سجل رقم ٣٢ ، ص ٢٨٥ ، الوثيقة ذات التاريخ ٢٩ ربيع الاول ١٠٩٩ / (٢ شباط ١٦٨٨) .

3. - H. A. R. Gibb and H. Bowen, **Islamic Society and the west**, Vol. 1, 2 parts. London, 1950, 1957, L. i. 98,99.

٤ ـ احمد البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ، ١١٥٤ ـ ١١٧٥ هـ ، تحقيق د . احمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣٢ ، ١٩٨ .

واستخدم ولاة دمشق اللاوند في حملاتهم العسكرية . كما ان اللاوند كثيرا ما اشتبكوا مع قوات منافسة لهم مثل الدالاتية والمغاربة واليرلية(١) .

٣ ـ **الدالاتية** : مفردها دالاتي ، وهي مشتقة من الكلمة التركية (Deli) وتعني الاهوج او الطائش . وعرفت هذه القوات بالدالاتية بسبب اندفاعها وطيشها . واستخدمت أول الامر من قبل والي روميلية في مطلع القرن العاشر الهجري اي السادس عشر الميلادي . ودب الفساد في صفوف الدالاتية في القرن الثامن عشر ، وجندوا انذاك من اتراك الاناضول والكرواتيين والبوسنيين والعرب . وعرف قائدهم بلقب دلي باشي . وكان لهم في دمشق ، على غرار اللاوند والمغاربة ، خان خاص بهم عرف بخان الدالاتية .

واعتمد ولاة الشام على الدالاتية في حملاتهم وفي حماية قافلة الحج، واستخدموهم كذلك في كبح اليرلية . ولم يؤمن جانب الدالاتية باستمرار، وكثيرا ماروعوا الاهلين ، وتسببوا في الفساد الاخلاقي في دمشق (٢) .

٤ ـ **التفنكجية** : تعني هذه الكلمة حملة (التفنك) اي البارودة ، ومعظمهم من المشاة . وقد اشتهروا في بلاد الشام في القرن الثامن عشر ، وكان يقودهم التفنكجي باشي . ولا تعرف بالتأكيد المناطق التي جند منها التفنكجية . ويلاحظ ان التفنكجي باشي في عهد والي دمشق أسعد باشا العظم (١٧٤٣ ـ ١٧٥٧) كان بغداديا(٣) ، كما ان التفنكجية انحازوا الى جانب البغدادية والموصلية في صراعهم مع الاكراد في دمشق(٤) ، مما يوحي باصل مشترك بين الطرفين .

وقد عهد الى التفنكجية باقامة الامن في دمشق ، كما انهم كلفوا في اوقات الازمات بمهام عسكرية خارج دمشق . وكانوا ، على وجه العموم، اكثر انضباطا ، واقل تمردا ، من القوات العسكرية الاخرى ، ولكنهم كانوا أقل اهمية عسكرية منها .

---

١ ـ المصدر السابق ؛ ابن الصديق ، الورقة ، ٤٧ آ .

٢ ـ البديري ، ص ٨٧ ، ٩٦ ، ١٠٦ ؛ ابن الصديق ، الاوراق ، ٤١ آ ، ٤٢ ب .

٣ ـ ميخائيل بريك ، تاريخ الشام ١٧٢٠ ـ ١٧٨٢ ، تحقيق قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٣٠ ، ص ١٤ ـ ١٥ .

٤ ـ البديري ، ١٢٨ .

٥ - **المغاربة** : كانت هذه القوات من المشاة بصورة عامة ، وقلة منها من الفرسان . وقد جندوا ، بوجه عام،من الجزائر وتونس . وتواجد المغاربة في بلاد الشام قبل الحكم العثماني بوقت طويل ، ويذكر ان زاوية للمغاربة بنيت في دمشق في عام ٨٠٢/١٣٩٩ - ١٤٠٠ ، مما يدل على أن جالية مغربية وجدت فيها ، كما وجد مثل ذلك في القدس وطرابلس . وذكر الشيخ عبد الغني النابلسي زيارته في القدس لجامع المغاربة ، وذلك في ربيع الاول ١١٠٥\تشرين الاول - تشرين الثاني ١٦٩٣ (١) .

ومما تجدر ملاحظته انه وجد سبع طوائف من المغاربة في دمشق في القرن الثامن عشر ، راس كل طائفة منها شيخ مسؤول أمام شيخ المشايخ ، وهو رئيس المغاربة الاعلى في دمشق . واسماء هذه الطوائف هي : الفاسية ، الجزائرية ، السوسية ، التونسية ، الطرابلسية ، الدراوية والمراكشية . وعمل المغاربة المقيمون في بلاد الشام حراسا في الخانات والحارات والاسواق ، ومراقبين في البساتين والحقول المجاورة. وكان شيوخ الطوائف وعلىراسهم شيخ المشايخ ، مسؤولين أمام السلطات العثمانية عن سلوك افراد طوائفهم . والعسكريون من المغاربة خضعوا لآغا المغاربة ، واذا ماتركوا الخدمة العسكرية اصبحوا في عهدة شيخ الطائفة التي ينتمون اليها (٢) .

ومع أن المغاربة اقاموا في بلاد الشام بغية المجاورة أو طلب العلم او التجارة ، فان تواجدهم كطائفة عسكرية لها شأنها ، ولعبت دورا هاما في بلاد الشام في القرن الثامن عشر ، يثير الاهتمام ويستلزم التفسير . فمن الصحيح أن ازدياد اعتماد الولاة في ذلك القرن على القوات المرتزقة ادى الى ازدياد أعداد هذه القوات ، ولكن التدفق المستمر للمغاربة الى المنطقة آنذاك لا يوازيه تدفق اية قوات اخرى ، والسؤال لماذا تدفق المغاربة الى بلاد الشام وكيف استخدموا فيها .

---

١ - عبد الغني النابلسي ، كتاب الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز ، مخطوط في مكتبة جامعة كيمبردج ، برقم 300 Q q ، انظر الورقة ٩٤ آ .

٢ - انظر حول هذه الطوائف وتنظيماتها : سجلات محاكم دمشق الشرعية ، سجل ٥٩ ، ص٢٢ ، الوثيقة ذات التاريخ ١٠ رمضان ١١٤١ \ (٩ نيسان ١٧٢٩) . وانظر كذلك : محمد بن طولون ، اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الكبرى ، تحقيق محمد احمد دهمان ، دمشق ، ١٩٦٤ ، ص ١٠٢ هامش ١ .

ان تدفق المغاربة الى بلاد الشام في القرن الثامن عشر ، عن طريق صيدا بصورة رئيسية ، يدل على انهم اتوها عن طريق البحر . ويتفق هذا مع اشتهار المغاربة كغزاة بحر . وليس هناك مايدل على أن جميع قوات المغاربة كانت من أصول مغربية . وكثيرا ماضمت اسرى حرب من جنسيات مختلفة ، ولكن عناصرها الرئيسية وقياداتها كانت مغربية . ويفسر توافر هذه القوات الاضافية في المغرب ، وخاصة الجزائر ، باسلوب التجنيد الذي اتبعه داي الجزائر اذ كان يرسل سفنه كل خمس أو ست سنوات الى المشرق ، وخاصة الى ازمير وقرمان على الساحل الغربي للاناضول ، لتجنيد القوات منها . ولم يسمح في الجزائر لابناء هؤلاء المجندين (الذين عرفوا بالكولوغلي) بالانتساب للجيش الا في حالات خاصة . وهكذا وجد عدد من أبناء المجندين العاطلين الذين تطلعوا خارج الحدود الى فرص العمل . ونظرا لاصولهم الشرقية والحاجة الى خدماتهم في بلاد الشام ، حيث انعدم الامن في القرن الثامن عشر ، فقد توجهوا الى تلك البلاد ليبيعوا خدماتهم ، كما توجهوا الى مصر حيث استخدمهم علي بك المملوكي في جيشه(١) .

وقد وجد للجنود المغاربة خان خاص بهم في دمشق عرف بخان المغاربة . واشركهم الوالي في حملاته وفي حماية قافلة الحج . وكثيرا ما اصطدمت قوات المغاربة في دمشق باللاوند والقابي قول وأحيانا بالوالي نفسه .

ولم يقتصر استخدام قوات المغاربة على ولاة دمشق،بل استخدمهم امير جبل لبنان وظاهر العمر . ووجد المغاربة ، في أكثر من مناسبة في جبهتين متقاتلتين ، كما حدث مثلا ، حين هاجمت قوات علي بك دمشق في حزيران ١٧٧١ وكان في صفوفها مغاربة ، كما وجد مغاربة ضمن القوات المدافعة عن دمشق .

---

١ ـ انظر حول أوضاع التجنيد في الجزائر :

Venture de Paradis, Alger au XVIIIe Siècle, ed. E. Fagnan, Alger, 1889, pp. 57 - 98.

وانظر ايضا كتابنا : The Province of Damascus, pp. 39 - 41

د - **القوات الرديفة المحلية :** تشتمل هذه القوات ، بصورة رئيسية ، على المجندين من القرى والمدن والقبائل البدوية . ومما تجدر ملاحظته أن الزعماء المحليين ، مثل المعنيين والشهابيين وآل سيفا وآل عساف وآل الحرفوش وآل علم الدين والمتاولة والزيادنه وغيرهم ، اعتمدوا ، بالدرجة الاولى ، على دعم اسرهم ، وأبناء مذهبهم ، ومؤيديهم من الحزبين القيسي أو اليمني . ولكن مثل هذا التأييد لم يقو على مجابهة الجيوش العثمانية المنتظمة ، لان صاحب الاسرة ، بعد بضعة ايام من القتال مع الامير ، تنتهي فيها مؤنته ، كان يهتم بالعودة الى اسرته وأرضه . ولذلك عمد الزعماء المحليون الذين استمروا في الحكم فترات طويلة نسبيا الى استغلال موارد مناطقهم واستئجار القوات المرتزقة لدعم سلطتهم .

واشير الى قوات الدعم المحلية باسم العشير . واذا ماساهمت منطقة ما بقواتها الى جانب أمير ما عرفت هذه القوات باسم المنطقة التي خرجت منها ، مثل الشوافنة ، نسبة الى الشوف(١) . ولم تكن مثل هذه القوات لتتلقى مرتبات من الامير الذي دعمته ، واقتصر عطاؤه لها على اعطيات مالية أو عينية لتكريمها ، وكانت تدعمه لاسباب اسروية أو حزبية أو غيرها .

وقد عمد الولاة العثمانيون الى تجنيد القوات من بين الفلاحين ، وطالبوا سكان القرى بتقديم المؤونة والمرتبات لهم . وذكر ان والي دمشق في صيف عام ١٧٤٣ ، بعد انقضاء موسم الحصاد كما يبدو ، امر القرى المجاورة لدمشق بتقديم عشرة انفار كل منها ، ليساهموا في اقامة النظام والامن في المنطقة(٢) . وبعد ثلاثة اعوام ، وفي الصيف ايضا ، امر والي دمشق القرى حتى حدود معرة النعمان ، بتقديم خمسة عشر نفرا كل منها ، والتكفل بتموينهم ، لمساعدته في حملته على جبل لبنان(٣) .

---

١ - الصفدي : ٣٥ ، ٣٨ ، ٥٣ .

٢ - البديري ، ٤٢ .

٣ - المصدر السابق ، ٩٧ .

وفي الحالات الطارئة استنفر سكان المدن ، وحملوا السلاح للدفاع عن مدينتهم ، أو عن قافلة الحج ، اذا ماتعرضت الى عدوان (١) . وكثيرا مالعب شباب الاحياء والحرفيون ، وهم من اصحاب الباس ، دورا هاما في الدفاع عن بلدهم . وكانوا يحملون السلاح ، بمعرفة الدولة ، لانها كانت مستضعفة في القرن الثامن عشر وغير قادرة على حماية السكان المحليين .

ولعب البدو ، وكان يشار اليهم بتسميات عرب واعراب وعربان ، دورا هاما في بلاد الشام في العهد العثماني . فقد سيطروا على المنطقة الواقعة شرقي خط يمتد من حلب الى العقبة . وتسربت القبائل الصغيرة الى داخل المناطق الزراعية ، فمنها مااستقر ومنها ماهدد الاستقرار والزراعة ، اما القبائل الكبرى فكان مجالها بادية الشام . وقد سيطرت مجموعةقبائل الموالي في البادية في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ثم حلت مكانها ، منذ مطلع القرن الثامن عشر ، مجموعة قبائل العنزة التي قدمت من الجزيرة العربية ، بسبب زيادة السكان فيها، وقلة الموارد الاقتصادية ، وضعف قبائل الموالي مما شجع العنزة على مهاجمتهم . وكان للحركات الموسمية للقبائل دور هام في ممارسة الضغط على السكان الريفيين وعلى السلطات العثمانية . ففي الربيع، حين تنتشر القبائل من وسط البادية الى الاطراف ، تبعا لانتشار الكلأ ، كانت تضغط على القبائل الصغيرة المتواجدة على اطراف البادية ، فتقوم هذهبالتسرب الى الداخل ، مما يضر بالزراعة ويؤدي الى اصطدامها بالمزارعين .

وقلما تحالف البدو مع السلطات العثمانية ، وكثيرا ما ثاروا على هذه السلطات أو دعموا الثائرين عليها . ولجأ العثمانيون ، في محاولة منهم لتطبيع البدو ، الى الاعتراف بزعامة كبيرهم شيخا أو اميرا للبدو في المنطقة التي يسيطر عليها ، واسبغت الدولة عليه الاعطيات والتكريم لتنفيذ سياستها بواسطته . وكثيرا ماتحكم البدو بخطوط المواصلات ، وخاصة منها طريق الحج والطرق التجارية التي تربط بلاد الشامبالعراق ومصر ، ولهذا وجب على الدولة ان تتعامل معهم بكل حذر .

وكثيرا ماعمد الامراء المحليون الى طلب دعم البدو لسلطتهم ، كما فعل ، مثلا ، ظاهر العمر ، الذي سيطر في منطقة صفد ـ طبرية ، في

---

١ ـ المصدر السابق ، ٢٠٥ ـ ٢٠٧ ؛ ابن الصديق ، الاوراق ، ٤٦ ب ـ ٤٧ آ .

الربع الاول من القرن الثامن عشر ، ثم مد سلطته على عكا وحيفا ، ومعظم فلسطين ، وانشأ امارة عربية ، خضعت اسميا للعثمانيين ، واستمرت حتى مقتله في عام ١٧٧٥ . وقد اعتمد على قبائل بني صخر وبني صقر والسردية وغيرها ، وتزاوج معها لتدعيم حكمه .

ومن القوات الاخرى التي لعبت دورا هاما في بلاد الشام المماليك الذين بلغ استخدامهم الذروة في عهد والي صيدا احمد باشا الجزار. وكان الجزار مملوكا في الاصل ، واصطنع جيشا من المماليك ليدعم بهم سلطته . وبعد وفاته في ١٨٠٤ خلفه أحد مماليكه سليمان باشا ، في حكم ولاية صيدا . ولا علاقة لمماليك الجزار بالمماليك الذين اشتهروا آنذاك في مصر او في بغداد ، سوى بالاسم وطرق التجنيد والتدريب . وكانت كل كتلة منهم مستقلة عن الاخرى . ولكن مما يلفت الانتباه سيطرة هؤلاء المماليك الاغراب ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، في كل من مصر وبلاد الشام والعراق ، مما يدل على ضعف السلطات العثمانية ، الامر الذي اتاح لهؤلاء المغامرين الاغراب من المماليك التحكم في هذه الاقطار(١) .

٢ ـ الامكانات العسكرية للقوات العثمانية في بلاد الشام :

لاتوجد معلومات دقيقة حول مستوى تدريب هذه القوات . ونظرا لكون انضباطها وفاعليتها القتالية متدنيين ، فمن الممكن القول إن تدريبها ، كان هو الاخر ، ضعيفا في أحسن الحالات . يضاف الى ذلك أن عددا من غير المؤهلين ، من المسنين والاطفال ، انتسبوا الى طائفة الانكشارية للتمتع بالمرتب (٢) . كما ان القلاع التي يفترض ان يتم التدريب فيها لم تكن مراكز عسكرية بالمعنى الصحيح ، اذ اصبحت مراكز تجارية للعسكريين والمدنيين على حد سواء . ومع ذلك ، اقيمت الاستعراضات العسكرية قبيل التوجه الى الحملات ، كما حدث ، مثلا ، في ساحة

---

١ ـ للحصول على معلومات اكثر حول المماليك في هذه الاقطار ، انظر كتابينا : بلاد الشام ومصر ، ١٥١٦ ـ ١٧٩٨ ، دمشق ، ط٢ ، ١٩٦٨ ، والعرب والعثمانيون ١٥١٦ ـ ١٩١٦ ، دمشق ، ١٩٧٤ .

٢ ـ انظر ، مثلا ، ابن الصديق ، الاوراق ، ٢٥ ب ، ١١٠ ب .

المرجة بدمشق ،او بمناسبة سفر قافلة الحج .

وتوزعت القوات الانكشارية على فرق اطلق على احداها بالتركية « اورطه » واحيانا « اوضه » ، اي غرفة ، نظرا لاقامة الاورطة في غرفة ، اي مهجع . وبسبب الفوضى التي اصبحت عليها الاورطة في أواخر عهد الانكشارية ، فقد أطلقت لفظة الاورطة على مجموعة من الاشرار العابثين بالنظام . وانتظم السباهية الفرسان في فرقة اطلق عليها الآي ، وتراسها الالاي بك ، في حين عرف قائد الانكشارية بالاغا .

وانتظم الجنود وراء حامل العلم ، اي البيرق ، وعرف هذا تبعا لذلك بالبيرقدار ، واشير الى جماعته اختصارا بالبيرق . واختلف عدد القوات التي تالف منها البيرق ، من مكان الى آخر ، ومن زمن السلم الى زمن الحرب . وذكر ان عدد البيرق في دمشق في النصف الاول من القرن الثامن عشر ، كان حوالي خمسين شخصاً (١) ، في حين ذكر ان عدده ، في النصف الثاني منه ، بلغ عشرة انفار (٢) .

واستخدم الجنود ، اثناء الحملات ، الطبول والابواق ، كما هتفوا بالشعارات الدينية المناسبة ، وباسم السلطان أو الامير ، لتحريض الفعالية القتالية واستثارة النخوة لدى الافراد .

وادى عدم تعرض بلاد الشام الى عدوان خارجي ، بعد احتلال العثمانيين لها ، الى تقاعس القوات العثمانية فيها . كما أن تسرب السكان المحليين الى الطائفة الانكشارية،التي عرفت باليرلية ، تبعا لذلك، جعل هذه القوات تدافع عن مصالحها المحلية بأكثر مما تدافع عن مصالح الدولة . ولهذا لم تكن للانكشارية الدمشقية ، مثلا ، رغبة بقتال فخر الدين المعني الثاني الذي ثار على الدولة . ونتج عن عدم تقيد الانكشارية اليرلية بالاوامر العثمانية الى ظهور فئة من بينهم ، تمردت حتى على

---

١ ــ محمد بن كنان ، الحوادث اليومية من تاريخ احدى عشر والف ومية ، جزءان مخطوطان ، مجموعة برلين ، الارقام : 9479. we. II. 1114, 9480, we. II. 1115 :

انظر : ج ١ ، الورقة ، ٧٢ ب .

2 - C. F. Chasseboeuf, Comte de volney, Voyage en Egypte et en Syrie, ed. J. Gaulmier, Paris, 1959, p. 236.

رؤسائها ، وعرفت بالزرب أو الزرباوات ، كما اشار اليهم احمد البديري الحلاق . والتسمية تركية ذات أصل يوناني (zorba) ، تعني الفوضوي .

ولم تكن القوات المرتزقة باحسن تنظيما ، أو طاعة ، أو فعالية عسكرية من القوات الاخرى ، بل مجرد ارقام للاخافة اكثر منها للنصر . وكان همها الرئيسي الحصول على أجورها وما تتوقعه من غنائم . وحين هاجمت قوات علي بك المملوكي ، بقيادة محمد بك ابي الذهب ، دمشق، واستولت عليها في ٨ حزيران ١٧٧١ ، لمدة عشرة ايام ، اخرجت القوات المرتزقة ، التي استؤجرت للدفاع عنها ، الى ساحة المعركة بالعصا ، وسرعان ماارتدت لتنهب أحياء دمشق(١) .

ولم تكن هذه القوات الوحيدة التي تهمها الغنائم . فقد عمد بعض ولاة دمشق الى توقيت حملاتهم على المتمردين في الريف التابع لهم اثناء فترة الحصاد ، في محاولة مدروسة للاستيلاء على الغلال وبيعها لحسابهم وليس لفرض استراتيجي صرف في تدمير موارد العدو(٢) .

ولم يكن تنوع القوات العثمانية مصدر قوة لها ، ولم تتنافس فيما بينها بشكل بناء ، أو تتبارى في اثبات قدرتها . وقد اوجد هذا التنوع منافسة مميتة بين الفئات العسكرية الى درجة ان الاختلاف والاقتتال كثيرا ما وقعا بين هذه الفئات اثناء خروجها في الحملات ، مما عطل فعاليتها (٣) . ولم تكن فكرة الوطن والوطنية قد ظهرت بعد ، اذ أن هذه المفاهيم قد شاعت في القرن التاسع عشر . كما ان فكرة الجهاد لم تكن واردة هي الاخرى نظرا لان اعداء الدولة ، من ثائرين ومتمردين ، كانوا هم أيضا مسلمين،واكثر ماوصم به اعداء الدولة انهم خوارج . واستحثت السلطات العثمانية الجنود والشعب للدفاع عنها باسم الطاعة لله ورسوله والسلطان العثماني،وافلحت هذه الدعوى في حث السكان على نجدة قافلة

---

١ ـ انظر تفاصيل ذلك في مخطوط : حسن الشهير بابن الصديق ، غرايب البدايع وعجايب الوقايع .

٢ ـ انظر مثال ذلك البديري ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٥ ؛ بريك ٥٤، ٤٩ ، ٤٩ .

٣ ـ انظر نماذج من ذلك في ابن الصديق ، الورقة ، ١٧ ب ، ٤٢ ب .

الحج حين تعرضها للمخاطر . وغالبا مانشر محمل الحج لينضوي المتطوعون تحته لانقاذ القافلة . ولكن طاعة الشعب لم يسهل الحصول عليها لشن الحملات العسكرية ، وحين تعرض افراد الشعب للقتل . ونلاحظ ان الدولة ، في فترة القوة ، في القرن السادس عشر ، كانت تأمر فتطاع ، ثم قامت ثورات العساكر والامراء ضدها في القرن السابع عشر ، وانتشرت الثورات في القواعد الشعبية في القرن التالي . ولم تعد الدولة العثمانية ، بفساد ادارتها ، وولاتها ، وجيشها ، تستقطب ولاء السكان المحليين ، فعمد هؤلاء الى الانتماء لمنظماتهم الشعبية ، كالنقابات الحرفية وتنظيمات شباب الاحياء ، ونقابات الاشراف ، وغيرها للدفاع عن مصالح الشعب ضد الظلم والابتزاز الذي مارسة الموظفون العثمانيون .

٣ ـ اسلحة القوات العثمانية في بلاد الشام :

استخدم تعبير « ذخيرة » ، في بلاد الشام للدلالة على مؤونة الجيش، من قمح وشعير وبقسماط (الواح من الكعك الجاف) وغيره . واستخدمت آنذاك الكلمة التركية « جبخانة » للدلالة على السلاح ومستلزماته .واشير الى البندقية (وهي مشتقة من كلمة بندق الذي شابهه الرصاص باستدارته) بالكلمة التركية تفنك ، وعرف حاملها بالتفنكجي . واستخدمت ، احيانا ، كلمة بارودة ، أو بارود ، للدلالة على البندقية . وعرف حامل البندقية بالبواردي او باختصار ، بارود. اما البارودي فهو صانع البارود والبندقية وبائعهما . واستخدم تعبير (بندقجي) لصانع البندق ، والبندقية ، وبائعهما . واشير الى قنبلة المدفع ، وهي اما من الحجر او الحديد ، باسم قنبرة او قلة (جمعها قنابر وقلل) ، وعرف صانعها بالهواويني ، لاستخدامه الهاون في صناعتها . وكان الغرض منها هدم ما تقع عليه .

وتنوعت الاسلحة التي استخدمتها القوات العثمانية في بلاد الشام ، وتراوحت من الخنجر الى مدفع الميدان الذي جرته الحيوانات. واشتملت على الفاس ، والبلطة ، والدبوس ، بالاضافة الى السيوف ، على أنواعها ، والرماح . ومن الاسلحة النارية الطبنجة (واستخدم هذا التعبير التركي بالعربية ايضا) ، والبارود الطويل ، وهو بندقية ذات نصل طويل ، استخدمت ، كما يبدو ، في بلاد الشام ، في النصف الثاني

من القرن الثامن عشر ، من قبل التفنكجية . ولم تفد التروس في صد الاسلحة النارية ، لان هذه كانت تثقبها (١) . ومع ان البدو استخدموا الاسلحة النارية ، فان سلاحهم التقليدي ، المقلاع ، كان شديد الفعالية لحذقهم في استعماله . وكانوا عادة يربطونه على خصورهم .

وفي معارك المواجهة والالتحام تخلى العساكر ، في العادة ، عن اسلحتهم النارية ، لعدم توفر الوقت لحشوها واشعال فتيلها ، واستخدموا السيوف . والسيف الجيد كان ذا قيمة عالية ، وقدر ثمنه بضعف قيمة البندقية(٢) . ولا غرابة ان الدولة كانت تقدمه لكبار القادة حين تكريمهم ، على العادة القديمة . ويدل هذا على احترام السيف لدى العرب والمسلمين،على حد سواء،منذ ان كان الفرسان عماد الجيش. ورغم ان العثمانيين بنوا امجادهم العسكرية وكسبوا فتوحاتهم بحسن استخدامهم للسلاح الناري ، الذي لم يجارهم اعداؤهم ، من صفويين ومماليك ، في استخدامه ، بقي السيف يتمتع بتكريم كبير لديهم(٣) .

وكان على الفرسان ، الذين استخدموا السلاح الناري ، ان يترجلوا

---

١ ـ كامل الغزي ، جـ ٣ ، ٢٨٣ ؛ ابن الصديق ، الورقة ، ١٠ أ .

٢ ـ سجلات محاكم دمشق الشرعية ، سجل ٥٧ ، ص ٧ ، الوثيقة ذات التاريخ ١ ذي الحجة ١١٣٥ / (٢ ايلول ، ١٧٢٣) ، ص ٨ ، الوثيقة ذات التاريخ ١٦ ذي القعدة ١١٣٥ / (١٨ آب ١٧٢٣) .

٣ ـ نذكر بهذه المناسبة الحادثة التي جرت بين الامير المملوكي كرتباي والسلطان سليم الاول العثماني ، عقب احتلال العثمانيين مصر ، ومثول كرتباي الاسير امام السلطان سليم ، قال كرتباي لسليم : « انت اتيت لك عساكر من اطراف الدنيا من نصاري ومن روم وغيرها وجئت بهذه الحيلة التي تحيلت بها الافرنج لما ان عجزوا عن ملاقاة عساكر الاسلام وهي هذه البندقية التي لو رمت بها امراة لقتلت بها كذا كذا انسانا ونحن لو اخترنا الرمي بها ما سبقتنا اليه ولكن نحن قوم لانترك سنة نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) وهي الجهاد في سبيل الله بالسيف » ، انظر : احمد بن زنبل،(الرمال) ، (تاريخ مصر) ، مخطوط في المكتبة الوطنية في ميونيخ ، برقم Cod. Arab. 411 ، الورقة ، ٤٥ آ .

ليحسنوا استخدامه (١) . وفي اواخر الخمسينات من القرن الثامن عشر، ادخل عبد الله باشا الجتهجي نوعا خفيفا من المدافع ، عرف بالشواهي ، حمل على ظهر الجمال ، واستخدمه عنصر راكب واحد . ومن مميزات هذا السلاح ادارته بسهولة الى الجانبين ، مما اعطى مرونة في التسديد (٢) .

واستخدمت المدافع ، التي ترمي عادة القنابر الحجرية او المعدنية، فى تهديم اسوار المدن والقلاع ، او في نسف المتاريس في الشوارع ، او في قذف تجمعات العدو . واثناء حصار المدن كانت تدعم الاسوار من الداخل بالخشب والحجارة والتراب . ومع ذلك ، لم تقو هذه على الصمود في وجه المدافع الجيدة (٣) .

ولم تكن جميع المدافع في حالة جيدة ، كما انها لم تستخدم جميعها بمهارة . ومثال ذلك المدفع الذي اخذ من قلعة صيدا واستخدمه العثمانيون في حصار قلعة ارنون ، الخاضعة لفخر الدين المعني الثاني، وكان « كبره خارج عن الفهم وفي حال وصوله ضربوا به مرتين وانفزر وتعطل امرهم حيث انكسر » (٤) . وتبدو قلة المهارة في استخدام المدافع في محاولة محمد بك ابي الذهب ، قائد القوات المملوكية ، اخضاع قلعة دمشق ، التي بقيت موالية للعثمانيين ، بعد احتلال المماليك المدينة في ٨ حزيران ١٧٧١ . فمن تسع وعشرين قنبرة اطلقتها مدافعه على القلعة اصابتها خمس قنابر فقط اصابات مباشرة . ويصف ابن الصديق ذلك بقوله « ضرب قنبرة على القلعة علة الى الجو ووقعت بيت الترجمان فضرب الثانية فوقعة في القباقبية وضرب الثالثة وقعة في حارة اليهود فضرب الرابعة فوقعة بيت القطب ... (ثم عاد) .. فأمر الطوبجي ان يضرب القنابر بالليل فضرب خمسة وعشرين قنبرة

---

١ ـ الصفدي ، ١٨٧ ، انظر وصفا للبندقية ، ووزنها ، وحشوها ، وطريقة التسديد بها في اواخر الخمسينات من القرن السابع عشر في كتاب :

Jean de Thévenot Relation d'un voyage au Levant, 3 vols., Paris 1664. Vol. I, p. 138.

٢ ـ البديري ، ص ، ٢١٨ ، ابن جمعة ، تحقيق المنجد ، ٨٢ .

٣ ـ ابن الصديق ، الورقة ، ٤٦ آ .

٤ ـ الصفدي ، ١٦٠ ـ ١٦١ .

منها ثلاثة في القلعة وستة وقعوا في الخندق وثنتين وقعوا في الامـوي وواحدة بيت مروان بيك وواحدة بيت السيد احمد ابن زميته وواحدة وقعت في حنك البوابة شيت باب البريد وواحدة وقعت قبال بيت ابـن القباني في طريق السلطاني » (١) . وذكر أيضا ان عثمان باشا الكرجـي والي دمشق ، الذي كان في يافا عند غزو قوآت علي بك المملوكية لبلاد الشـام في ١٧٧١ ، تراجع عنها باتجـاه دمشق ، ورمى بمدفعين كانـا بصحبته في بئر لان ثقلهما اعاق سرعة تراجعه (٢) . وعندما لم تكن هناك من حاجـة لاستخدام المدافع فانها وضعت في القلعـة . ولم يقتصـر استخدام المدافع على القتال اذ كانت تطلق ، بدون قنابر ، في المناسبات ، كاعـلان صوم رمضان ، او للاحتفال بنصر ، او لاعلان قدوم زائر كبير او انباء سارة . ويشار الى النار هذه بأنها « شنك » ، وهي محورة عن التركية « شنليك » .

ولم يسمح للقوات النظاميـة بحمل سلاحها الا في اوقات الحرب . اما القوات المرتزقة فحملت سلاحها معها ، لانها كانت تبيع خدماتهـا . وبازدياد فوضى القوات وعدم الامن ، في القرن الثامن عشر ، حملت معظم القوات سلاحهـا معها . وبلغ الامر ، في ذلك القرن ، ان الحرفيـين حملوا السلاح(٣) ، للدفاع عن انفسهم ازاء انعدام الامن . وتسابق الناس آنذاك لاقتناء السلاح وحمله .

وكانت شحنات الاسلحة والذخيرة تصل بلاد الشام من اوروبا ، وخاصة ايطاليا ، او من استانبول ، بطريق البحر ، وذلك اما للاستعمال المحلي ، او لنقلها الى الجبهة مع بلاد فارس . كما انه جرى تصنيـع بعض الاسلحة محليا . ومن الاسلحة المصنعة محليا السيوف وغيرهـا من السلاح الابيض ، ومستلزمات الخيول ، من نعـال ومسامير وغيرها ، وكذلـك البنادق . واستخرج الحديد من امكنة متعددة في بلاد الشام ، وخاصة في جبل لبنان (في البترون ، وكسروان ، والمتن ، وعكار) ، وكذلك في حوران ، قرب عجلون ، وفي جبل الاقرع ، وضواحي حلب . وكانت صناعة الحديد في لبنان ناشطة جـدا في القرن التاسـع عشر ،

١ ـ ابن الصديق ، الاوراق ، ٥٨ آ ـ ٥٨ ب .
٢ ـ المصدر السابق ، الورقة ، ١٧ ب .
٣ ـ البديري ، ٢٢٤ .

ونافست الحديد الاجنبي (١) . وقد استورد الى بلاد الشام ، في القرن السادس عشر ، الفولاذ الهندي ، على شكل قضبان ، واستخدمته طائفة الخناجرية والسيوفية في حماه (٢) . وبادخال الحديد السويدي الى بلاد الشام في القرن التاسع عشر اصيب الانتاج المحلي بضربة كبيرة .

وقبيل استغلال مناجم الفحم في بلاد الشام ، ابان حكم محمد علي باشا الالباني (١٨٣١ — ١٨٤٠) ، استخدمت الاشجار في صهر الحديد واستخراجه . ولجأ امير جبل لبنان ، بشير الثاني الشهابي (١٧٨٨ — ١٨٤١) ، الى السخرة ، أي مصادرة الناس بالقوة وبدون اجرة ، لتشغيلهم في انتاج المعادن .

وعرف صانع البنادق والرصاص (البندق) في دمشق باسم البندقجي ، وكان يقوم بعمله سرا في منزله خوفا من السلطة . ويباع البارود في دكاكين متفرقة في انحاء المدينة ، وليس ، كما يمكن الظن ، في سوق السلاح . ووجود هذا السوق سابق على استخدام السلاح الناري في العهد العثماني . وكان في الاصل يبيع الاسلحة المعدنية البيضاء ، كالسيوف والرماح والخناجر وغيرها . ولم يمكن بيع البارود فيه نظرا لامكانية اشتعاله وسرعة انتشار ناره وانفجاره ، ولهذا توزعت دكاكين بيعه على انحاء المدينة ، عند بواباتها ومداخلها الخارجية ، حيث يتلقف اصحاب الدكاكين البارود من القرويين الذين يأتون به الى المدينة لبيعه .

ويبدو ان صناعة البارود لم تكن ممنوعة على الشعب ، لان استخدام البارود لم يقتصر على الاسلحة . فقد استخدم في المقالع والاعياد ، كما ان ملح البارود استخدمه الصياغ في اعمالهم . وتجري صناعة البارود في الريف على اسس بدائية موغلة في القدم . ونتج عن

---

١ — عيسى اسكندر المعلوف ، دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف ، بعبدا ، ١٩٠٧ — ١٩٠٨ ، ص ، ١٣ ، ٥١٣ — ٥١٤ ؛ الاب لويس شيخو ، « المناجم في الدولة العلية » ، مجلة المشرق ، جزء ٥ (١٨٠٢) ، ص ٧٧١ — ٧٧٢ ؛ الاب هنري لامانس ، المعادن في لبنان ، المشرق ، جزء ٨ (١٩٠٠) ، ص ٩٢٤ — ٩٢٥ .

٢ — انظر : عبد الودود محمد يوسف ، « طوائف الحرف والصناعات » ، مجلة الحوليات الاثرية ، دمشق ، ١٩ (١٩٦٩) ، ص ٩٩ .

ابواء الاغنام ، وخاصة الماعز ، في الكهوف في الشتاء ان تفاعل بولها مع الحجر الكلسي ، وتشكل عن ذلك ، بفعل الحرارة التي تصدر عن هذه الحيوانات ، طبقة من نترات البوتاسيوم على جدران وارض الكهف . وعندما تكون الرطوبة والحرارة عالية ، فان سمك هذ الطبقة يبلغ عدة سنتمترات ، ويمكن رؤيتها متدلية في الكهوف ذات الجدران العالية. وتجمع هذه المادة ، ثم تنقى ، عن طريق وضعها في اوعية خشبية ، توضع في حلل ممتلئة بالماء ، ثم تعرض للشمس او للتسخين ليصار الى فصل الاوساخ عن نترات البوتاسيوم . وتعادالعملية اكثرمن مرةللحصول على مادة نقية عرفت بملح البارود ، وتوضع ، من ثم ، في أوعية خشبية.

ولصناعة البارود يمزج ملح البارود بمسحوق الفحم ، الذي يستحصل عليه بصورة افضل من شجر الصفصاف ، وبكمية من الكبريت، الذي كان يستخرج بكميات جيدة من منطقة راس العين ومن مغارة شحيرة ، شمال شرقي تدمر . وتكون نسبة هذه المواد الممزوجة : ٧٥ ، ١٥ ، ١٠ بالمئة على التوالي (١) . وتختلف النسب وفق نوعية البارود المراد انتاجه واهداف استخدامه . ويخلط المزيج ببعض الماء ، لتحاشي الانفجار . ثم يدق ، بواسطة مطارق خشبية طويلة ، مثبتة على نابض ، لتمكين الدقاقين من ان يكونوا على بعد مناسب خشية اي انفجار. ودقاق البارود ، بزنوده القوية ، مشهور في الادب الشعبي (٢) . ثم يمد المزيج على شراشف ، ويجفف ، متحولا الى قطع صغيرة ومسحوق ، وهو مايعرف بالبارود . وينخل البارود بعد ذلك ، فالناعم منه يستعمل في البنادق ، والاكثر خشونة في المقالع او الحاجات الاخرى . وللتأكد من جودة البارود يوضع القليل منه في راحة اليد ويشعل ، فان احترق

---

١ - انظر حول هذه النسبة : مجلة المقتطف ،المجلد الثاني (١٨٧٧) ، ص ٤٧ .
وقد ذكر الرحالة بوركهاردت ، الذي وصف عملية صناعة البارود في قرية شعرا ، في حوران ، التي زارها في عام ١٨١٠ ، ان المقادير هي بنسبة : جزء من الكبريت ، مقابل خمسة ونصف من ملح البارود ، وجزء من فحم الصفصاف . انظر وصفه :
J. L. Burckhardt, **Travels in Syria and the Holy Land**, London, 1822, pp. 114, 250.

٢ - تفضل الاستاذ شفيق الامام ، محافظ متحف التقاليد الشعبية في قصر العظم بدمشق ، فافادني بهذه المعلومات القيمة . فله جزيل شكري ، وتقديري لعلمه .

الى الاعلى فهو جيـد ، وان احرق اليد فهو رديء .

وقـد وجدت كهوف عـدة في مختلف مناطق بـلاد الشام أوت اليها الاغنام والماعز ، كتلك المتاوجدة مثلا في مناطق حلب ، حمـاه ، صيدنايا ، معلولا ، رنكوس ، حوران ، جبل الدروز . ووجد في حمـاه ، حيث تكثـر الاغنـام ، مصنـع رسمي لانتاج البارود تأسس في عهـد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦)، وعمل فيه ستون عاملا في فترة اوجه ، واستخـدم انتاجه في تموين قلاع حماه وحلب وطرابلس وارواد. وقدر انتاجه قبل عام ١٥٩٢ بواحد وخمسين قنطارا في العام ، ثم تناقص عـدد العمال والانتاج في اواخر القرن السادس عشر . وذكر ان احمـد باشا الجزار ، في نهاية القرن الثامن عشر ، طلب كميات من بارود حماه لاستخدامها في القتال ضد نابليون بونابرت (١) .

وجاء في رواية الرحالة بوركهاردت الذي زار بلاد الشـام في العقد الثاني من القرن التاسع عشر ، ان عدة قرى في حوران زودت دمشق بالبارود ، منها قرية شعرا التي ارسلت سنويا لدمشق مائة قنطـار . وذكر بوركهاردت أيضا ان منطقة اللجاه كانت تنتج البارود الذي بيـع في دمشق وعكا وطبرية (٢) .

وذكر ان مصنعا لانتاج البارود قد وجد في دمشق في النصـف الثاني من القرن الثامن عشر لسد حاجـات الانكشارية(٣) . ووجـدت طائفة (نقابة) لاصحاب حرفة البارودية في دمشق آنذاك(٤) . ومـن

---

١ ـ انظر حول مصنع بارود حماة : عبد الودود يوسف ، « صناعـة البارود في حماة في القرن السادس عشر » ، مجلة الحوليات الاثرية (دمشق) ، مجلد ١٨ ، ص، ٦٧-٨٢ ؛ وانظر للمؤلف نفسه : « ارتباط لواء حماة بمقاومة حملة نابليون علـى مصر وسورية » ، مجلة الحوليات الاثرية ، مجلد ١٧ ، ص ، ٣٤-٦٨ .

(٢) انظر : Burckhardt, pp. 115, 214.

٣ ـ فخري البارودي ، مذكرات البارودي ،جزءان،دمشق ، ١٨٥١- ١٩٥٢ ،ج١،٩٠.

٤ ـ انظر مقالنا :

« The law - Court registers of Damascus with special reference to craft corporations during the first half of the eighteenth century », dans **Les Arabes par leurs archives (XVIe - XXe)**, par J. Berque et D. Chevallier, éditions du CNRS, Paris, 1976, pp. 141 - 159.

الممكن ان افرادها عملوا في انتاج البارود والبنادق ، التي شاع اقتناء الناس لها في القرن الثامن عشر . وفرضت الدولة في منطقة حمص على القرويين ، في أوائل ذلك القرن ، ان يقدموا لها بندقية عن كل فدان ، في محاولة منها لجمع السلاح واقامة الامن في الريف(١) .وكانالتجار الاجانب يزودون السكان المحليين بالبنادق . وقد اتهم التجار الفرنسيون بتزويد ظاهر العمر بالبارود والرصاص (٢) .

٤ ـ النشاطات الاقتصادية والاجتماعية للقوات العثمانية :

قام الانكشارية في بلاد الشام بنشاطات اقتصادية متنوعة ، فتعاطوا الربا ، وانتسبوا الى الحرف ، وعينوا كملتزمين لجمع الضرائب ، أو مساعدين للملتزمين ، كما عينوا متولين وناظرين على الاوقاف ، وشغلوا وظيفة المحتسب ، وعملوا في مصلحة الجمرك في حلب . وسيطروا ، في حلب ايضا ، على طائفة القصابين التي كانت تتمتع بثروة كبيرة ، كما عين احد افرادهم هناك شيخا لطائفة الصاغة . وعلى غرار معاصريهم من الاعيان ، اتخذ الانكشارية المماليك ، مما يدل على اهمية ثروتهم ومكانتهم الاجتماعية . وأهم عمل قام به الانكشارية في حلب اعطاء القروض للسكان ، بما فيهم اليهود والفرنجة . ونشطوا في هذا المجال في الريف حتى حدود سلقين وحارم التابعتين لولاية حلب . واستخدم الفلاحون بعض هذه القروض في تسديد الضرائب للدولة . وكثيرا ما اعطى الانكشارية الفلاحين القمح والشعير بموجب قروض عقدوها معهم . ومقابل ذلك رهن الفلاحون الارض او غلالها حتى ايفاء ديونهم ، واشير الى هذا الدين في سجلات المحاكم الشرعية بانه دين شرعي . وكانت مدته عادة من ثمانية الى عشرة اشهر ، يمكن تمديدها . وغالبا ما استملك الانكشارية اراضي الفلاحين الذين قصروا في الوفاء بديونهم . ونظرا لاتساع مجال نشاطهم الاقتصادي ، عمد الانكشارية الى استئجار

---

١ ـ انظر : مذكرات احد ابناء حمص عن حمص (او تاريخ مدينة حمص ١١٠٠ ـ ١١٣٥/ (١٦٨٨ ـ ١٧٢٢) ، مخطوط في الجامعة الاميركية ببيروت ، برقم ٩٥٦ ، انظر : ص ٣٥٣ . وقد حقق هذا المخطوط السيد عمر العمر ونال عليه شهادة الماجستير في تاريخ العرب بالحديث والمعاصر من جامعة دمشق في عام ١٩٧٦ .

2 - Affaires Etrangères, Mémoire B' 420 : Istanbul, 1 mai, 1743.

الخانات في حلب ، كما وظفوا اموالهم باستئجار البيوت والاراضي والمنتجات ، وكذلك الطواحين (١) .

ونتج عن انشغال الانكشارية بالقضايا الاقتصادية عزوفهم عن القيام باي نشاط عسكري على ساحات المعارك ، ولهذا كانوا يماطلون في السفر في الحملات ، واذا ما سافروا تلكأوا في القتال وانسحبوا . ويلاحظ ان نشاط الانكشارية الاقتصادي في الريف بدأ يتضاءل منذ حوالي منتصف القرن السابع عشر بسبب فقر الريف ، واندثار عدد كبير من القرى نتيجة ابتزاز الانكشارية لاموال سكانها ، وكثرة تعدي البدو عليها. وتمركز نشاط الانكشارية في القرن الثامن عشر في المدن بصورة رئيسية ، فاحتكروا الحبوب ومواد غذائية اخرى . وفي دمشق سيطر الانكشارية اليرلية على حي الميدان الذي يعتبر الشريان الاقتصادي لدمشق وعنبر حوران والذي كانت تمر فيه قافلة الحج الشامي حيث تزود بالمواد الغذائية وتحصل على احتياجاتها الاخرى ، مثل وسائل النقل . ومن هنا كثرة بايكات الجمال في ذلك الحي . وحاول الانكشارية القابي قول ، بدورهم ، الانتساب الى الحرف والقيام بنشاط اقتصادي ، مما اثار حفيظة اعدائهم اليرلية ، وزاد من العداء بين الفريقين .

اما القوات المرتزقة فكانت عنصر فوضى وارباك للحياة الاقتصادية بسبب ابتزازهم المال من سكان المدن والارياف على حد سواء ، وكذلك عبثهم باقتصاد الريف حين طردهم من المدن بعد انتهاء خدمتهم فيها . وكثيرا ما تعاضدت فئات السكان المحليين لمجابهة هذه القوات وطردها ان امكن .

ونتج عن اندماج الانكشارية بالسكان المحليين ان كثيرا من الانكشارية تزاوجوا مع هؤلاء السكان ، واقاموا في بلا دالشام ، واصبح عدد منهم ومن ابنائهم من علمائها المشهورين . ولكن صورة الفوضى التي رسختها القوات العثمانية في نفوس الاهلين دامت لفترة طويلة . واصبحت كلمة انكشاري مرادفة لفوضوي حتى ما بعد القضاء على الانكشارية في الامبراطورية العثمانية في عام ١٨٢٦ على يد السلطان محمود الثاني .

---

١ ـ تغص سجلات المحاكم الشرعية في حلب ودمشق باخبار النشاط الاقتصادي للانكشارية .

وقد تعاظمت النتائج السلبية لتواجد القوات العثمانية في بلاد الشام ، من الناحية الاجتماعية ، في القرن الثامن عشر ، بسبب ضعف رقابة الدولة عليها ، وفاقت جميع ايجابيات وجودها . ويذكر ان امير الحج الشامي عين ، في القرن السادس عشر والنصف الاول من القرن السابع عشر ، من بين الامراء المحليين ، الذين كانوا حكاما لصنجق أو اكثر من صناجق ولاية الشام ، وهذا يعنى انه اقام والقوات التي وضعت تحت تصرفه لحماية قافلة الحج في مركز حكمه خارج دمشق . وحين حان موعد خروج الحج اتى مع قواته الى قبة الحج خارج دمشق ، وتسلم الامارة دون أن تدخل قواته دمشق وتزعج اهلها . وحين اضعف هؤلاء الامراء المحليون وقضى على بعضهم بنتيجة حروب فخر الدين المعني الثاني لهم ، عمدت الدولة الى تعيين انكشاريين من دمشق أو موظفين عثمانيين امراء للحج ، وعهدت اليهم بحكم صنجق او اكثر في ولاية الشام ، كما كان الامر بالنسبة للامراء المحليين . وحين لم يعين الانكشاري او الموظف ، امير الحج ، حاكما لصنجق اقام في دمشق مع القوات التي خصصت احماية القافلة . واصبح الحال كذلك حين بدء بتعيين ولاة دمشق امراء للحج في الربع الاخير من القرن السابع عشر . ونتج عن الظلم الذي مارسته هذه القوات ، ومعظمها مرتزق غريب ، في دمشق ، ان طلب كبير علمائها ، جد الاسرة المرادية ، مراد المرادي ، من السلطان العثماني « برفع امارة الحج عن دمشق وعودها الى حكام القدس وعجلون وتلك البلاد كما كان الامر في الزمن السابق لاضمحلال حال دمشق بسبب ذلك فان دمشق من حين صارت امارة الحج عليها زال رونقها وكثر الظلم بسبب ذلك فيها وزالت محاسنها وعمت الشدائد بها »(١) . وبالفعل رفع السلطان الامارة عن دمشق وعين اميرا تلك السنة ، ١١٠٢/١٦٩٠ ، شريف مكة المعزول يحيى بن بركات ، واعطاه حكم صنجق القدس ، حيث اقامت قواته . ولكن مهاجمة البدو للقافلة تحت امرته ، وعزل يحيى ، في اعقاب ذلك ، اعاد الامارة الى دمشق حيث بقيت طيلة الحكم العثماني لان واليها تسلم امارة الحج باستمرار .

ونتج عن تواجد الجنود في دمشق باعداد كبيرة لحماية الحج، وبقائهم فيها بعد ذلك ، اضطراب الحياة الاجتماعية نظرا لضعف هيبة الدولة

١ ـ انظر : المرادي ، مطمح الواجد ، الورقة ، ٣٧ ب .

العثمانية . والى جانب ظهور الزرباوات في صفوف اليرلية الذين روعوا الاهلين وزعمائهم ، فقد تكاثر وجود الجنود المرتزقة ومعظمهم من الفوضويين . وكثرت (بنات الخطا) ، تبعا لذلك، برفقتهم . ووصف احمد البديري الحلاق في مذكراته اخبارهن وما سببنه من انهيار في الاخلاق العامة . ومن اسباب تكاثر (بنات الخطا) هؤلاء ، الضائقة الاقتصادية التي شملت دمشق في القرن الثامن عشر والتي ادت الى حوادث متعددة من الانتحار ، إما لضيق ذات اليد او حزنا على انهيار الاخلاق العامة .

وكانت نتيجة الصراع بين القوات العثمانية ، بعضها مع بعض ، وتعديها على السكان المحليين ، وعجز السلطات الحاكمة عن توفير الحماية للسكان ان عمد هؤلاء الى منظماتهم الشعبية ، مثل الانكشارية اليرلية والطوائف الحرفية ، ونقابات الاشراف ، ومشايخ الحارات ، وابناء البلد ، للدفاع عنهم . ولكثرة ما اعتاد السكان على رؤية المظالم فقدوا الحس بالعدل . وقد ذكر البديري في احداث عام ١١٦٢/١٧٤٨ ، بمناسبة عزل قاضي دمشق العثماني ، « ولما كان لاياكل الرشوة ولا يميل في دعوى مالت اهل الشام عليه مع زوجته حتى سعوا بعزله »(١) . وفي مناسبة اخرى وصف الاخباري الدمشقي موقف سكان دمشق من واليهم عبد الرؤوف باشا (١٨١٧ ـ ١٨٣١) بقوله : « ومن عدله الزايد طمعت فيه أهل الشام »(٢) .

---

١ ـ البديري ، ١٣٢ .

٢ ـ ميخائيل الدمشقي ، تاريخ حوادث الشام ولبنان ، ١٩١٧ ـ ١٢٥٧ / ١٧٨٢ ـ ١٨٤٢ ، تحقيق لويس معلوف ، بيروت ، ١٩١٢ ، ص ٤٩ .

مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام
في العهد العثماني

د . عبد الكريم رافق

كلية الآداب ـ جامعة دمشق

لعبت الطوائف الحرفية دوراً هاماً ، في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والادارية ، في بلاد الشام ، في العهد العثماني . وقد انتظم قسم كبير من السكان ، وبخاصة في المدن ، في الطوائف الحرفية ، سواء في مجالات الانتاج ، ام الخدمات ، أم التسويق . وظهر حديثاً كثير من الجدل حول نشاة الطوائف الحرفية وبنيتها ودورها في التاريخ العربي والاسلامي (١) . وقد لاحظ الرحالة العربي ابن بطوطة حين زار امارات الغزاة التركمان في الاناضول ، في النصف الاول من القرن الرابع عشر ، انتشار منظمات الاخية ، التي انتظم فيها الصناع والتجار ، وامتزجت معها تقاليد الفتوة (٢) .

وقد بلغت الطوائف الحرفية درجة كبيرة من التنظيم ، في الولايات العربية، إبان الحكم العثماني . ولعبت دوراً رئيساً على اكثر من صعيد . وحين تدفقت البضائع الاوربية ، في اعقاب الثورة الصناعية ، الى الاقطار العربية ، في القرن التاسع عشر ، فاست البضائع المحلية من منافستها . واثر ذلك في إضعاف الطوائف الحرفية .

انواع الطوائف الحرفية

لم تكن الطوائف الحرفية متساوية في العدد ، او متشابهة في النوعية ، في مختلف مدن بلاد الشام ، في جميع الفترات ، في العهد العثماني ، وذلك بسبب اختلاف كل مدينة عن الاخرى من حيث نشاطها الاقتصادي ، محلياً ودولياً . وتتميز حلب بعدد الطوائف وانواعها وتفرعاتها ، كما تدلنا الوثائق الشرعية ، نظراً لتنوع نشاطاتها الاقتصادية وغناها .

ولم تكن هناك من استمرارية في أنواع الطوائف في مدينـة ما ، فبعض الطوائف انقرض او تضاءل شأنه بتناقص الحاجة الى منتجاته . كما أن بعض الطوائف ازدهر وكثرت أنواعه نظراً لازدياد الحاجة اليه . وكمثال على الحال الاولى نذكر انـه حين شـاع استخدام القوالب في صنـع الطواقي (وربما كان المقصود الطرابيش) ، ظهرت طائفة الطواقية الذين يشتغلون الطواقي بالقوالب في دمشق ، في الربع الاول من القرن الثامن عشر ، وبطلت ثلاث طوائف مقابل ذلك هي طائفة الطواقي الزربا ، وطائفة الزربابية ، وطائفة طواقي المخمل (٣) . وكمثال على الحال الثانية نذكر ازدياد شأن الطائفة التي عنيت بالتبغ وأنواعه ، اثر إباحة التدخين من قبل مفتي دمشق الشيخ عبد الغني النابلسي في الرسالة التي وضعها وعنوانها . الصلح بين الاخوان في حكم إباحة الدخان (٤) .

وتتحكم نوعية المصادر ومدى توافرها ، في مقدار معرفتنا لتطور الطوائف الحرفية في قطر ما او فترة ما . ففي مصر ، مثلاً ، يمكن مقارنة ما كتبه الرحالة العثماني أوليا جلبي ، في رحلته (سياحة نامة) التي قام بها في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، وما قدمه من تفصيلات واحصاءات عن الطوائف الحرفية في مصر ، مع الدراسة المفصلة التي قام بها الفرنسيون لهذه الطوائف ابان حملة نابليون بونابرت على مصر عام ١٧٩٨ ، وضمنوها في المؤلف المشهور « وصف مصر » (٥) . اما في بلاد الشام فلا توجد مثل تلك الدراسات التي وضعت عن مصر ، ولهذا وجب الاعتماد على المعلومات المبعثرة في سجلات المحاكم الشرعية . وهناك وصف مفصل ودقيق للصناعات الشامية ، في القرن التاسع عشر ، في « قاموس الصناعات الشامية » (٦) . وبلغ عدد الصناعات التي وردت في هذا القاموس ٤٣٥ صنعة ، بعضها تضاءل شأنه ، وبعضها جديد محدث . وهناك وصف عام وموجز للطوائف وعمليات الشد فيها ، كتب في الربع الاخير من القرن التاسع عشر (٧) .

وقد تميز التنظيم الحرفي ، في بلاد الشام ، بالتخصص وتوزيع العمل . فهناك طوائف عنيت بالانتاج ، واخرى بالخدمات ، او بالتسويق . ونورد فيما يلي الطوائف التي عثرنا على معلومات عنها في سجلات المحاكم الشرعية ، في بعض الفترات ، من كل من حلب ودمشق . ولا تشمل القائمة كافة الطوائف الموجودة فعلاً ، لان الوثائق الشرعية ذكرت فقط الطوائف التي لجأت الى المحكمة لتنصيب شيخ لها ، او عزله ، او لتسوية منازعات ضمن الطائفة ، او بينها وبين الطوائف الاخرى ، او بينها وبين السلطة والسكان . ولم ندخل في قائمة الطوائف اسماء الصناعات التي أوردها « قاموس الصناعات الشامية » لان هدفنا دراسة

الطائفة كمنظمة حرفية . واتبعنا الترتيب الابجدي للطوائف في القائمة التالية . ويمكن تمييز طوائف الانتاج والخدمات والتسويق من خلاله .

وقد ذكرت سجلات المحاكم الشرعية التي اعتمدناها من حلب ودمشق ، من القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، ما يقارب من مائة وثلاث وستين طائفة هي : الأبارين ، الأديين ، الأساكفة ، الأشجية ، الاقسماوية (أو البقسماوية) ، الالاجاتية ، الامشاطية ، البارودية ، بائعي البن ، بائعي جلال الخيل (الجليلاتية) ، بائعي السختيان الملون ، بائعي العبي ، بائعي لحم الجاموس ، بائعي النعال ، البزورية ، البساتنة ، العكامة ، البغالة ، البقارين ، البقالين ، البكسمادية ، البوابجية ، البوزجية ، البياطرة ، التجار جلابي النحاس ، الترابين (الترابة) ، التكجية ، التوتنجية ، الجراكسية ، الجرامين ، الجمالين ، الحبالين ، الحدادين ، الحريريين ، الحصرية ، الحلاقين (أحياناً الحلاقين والجراحين) ، الحلوانية ، الجمالين ، الحمامية ، الحوارين ، الحواصلية ، الحياك ، خبازي الافرنجي ، خبازي الحصا ، خبازي المعروك ، الخبازين ، الخرامين ، الخردجية ، الخشابين ، الخضرية ، الخفافين ، الخفافين الأروام بحلب ، الخفافين من ابناء العرب بحلب ، الدباغين ، دباغي الحور ، الدجاجاتية ، الدخانية (بائعي السمك المدخن) الدقاقين (للحنطة) ، الدقاقين (للقماش) ، الدلالين ، دلالي العفص ، دلالي الخام الكلزي ، الدلالين ، رامي البخور ، الرواسين ، الزجاجيين ، الزراميزية ، الزربابية ، السختيانية ، السراجين (السروجية) ، السرفجية ، السعاة ، السقايين ، السكاكينية ، السماسرة ، السمرجية ، السنبوسكيين (تذكر احياناً مع الطباخين والشوايين) ، السيورية ، السيوفية (احياناً مع السكاكينية ، والقواسين ، والخناجرية ، والتروسية) ، الشدودية ، الشعارين ، الشلاحين ، الشماعين (للشحمة) ، الشوايين ، الصابونية ، الصافرجية ، الصباغين ، صباغي الازرق ، صباغي الاحمر ، صباغي الالوان غير الازرق ، الصرماياتية ، الصناديقية ، الصياغ ، الطباخين ، الطحانين ، طحاني الجلب ، طحاني الخاص ، الطوافة ، الطواقية ، طواقي المخمل ، العباجية ، العباياتية ، العتالين ، العجانين ، العرقجية (أو العرقيانية) ، العطارين ، العقادين ، العلافين ، العناياتية ، الغرابلية والمناخلية ، (صناع الغرابيل والمناخل) ، المغربلين ، فتالي الحرير ، فتالة الحرير العنداري ، الفتالين بالدولاب الكبير ، الفرايين ، الفواخرية ، قازنجيان ، القاوقجية ، القصابين (او اللحامين) ، القصارين ، قطاعي النعل ، القطانين ،

القلاشينية ، القلفات ، القنوية ، القهوية ، القوافين ، الكميكاتية ، الكلاسين ، الكوايين ، الكونجية ، الكيالين ، اللبابيدية ، اللحفيين ، محمصي البن ، المخملجية ، المخومين للسروج ، مداحي الرسول وحكوية السير النبوية ، المدادين ، المرجلية ، المروبصين ، المزيكين ، المسالخية ، المسامرية ، المسلاتية ، المطافجية ، المماريكة ، المعاصرية ، (لعلها المعصرانية ، واختصت بعصر السمسم ، وربما اطلقت الكلمة نفسها على من يعصر الزيتون ويعمل الدبس) ، المقومين ، المعمارية ، الملقية ، المنجدين ، النجارين ، النحاتين ، النحاسين ، النشارين ، النشواتية ، النصالين ، نعالي البوابيج ، نقاشي الجيث ، النهودية ، الوتارين .

ويلاحظ في قوائم الطوائف هذه انها تغطي قسماً كبيراً من انواع الطوائف ولا تشكل بحال مسحاً عددياً لها (٨) . ومع ذلك فاذا ما قارنا هذا العدد التقريبي للطوائف المتواجدة في حلب ودمشق مع عدد الطوائف التي احصاها اوليا جلبي في القاهرة في زيارته لها حوالي عام ١٦٦٠ والمقدر ب : ٢٦٢ طائفة ، وكذلك مع عدد الطوائف التيأحصاها الفرنسيون في القاهرة في عام ١٨٠١ والمقدر ب : ١٩٣ طائفة (٩) ، لوجدنا أن بلاد الشام قد تمتعت بنسبة لابأس بها من التنظيم الحرفي .

ويلاحظ ايضاً في الطوائف المذكورة انه يصعب تحديد نسبة الطوائف المعنية بالانتاج الى الطوائف المعنية بالتسويق ، لان بعضها قام بالعملين معاً ، كما في طائفة الحبالين . وادى هذا الازدواج في العمل الى منازعات بين الفريقين (١٠) . اما طوائف الخدمات فبعضها واضح الحدود يسهل فرزه كالدلالين والحمالين والعتالين والقنوية والكوايين ، وبعضها ما يجمع بين اعمال الخدمات والتسويق أو الانتاج ، مثل الخاناتية ، والمنجدين ، واللحفيين .

ويصعب ، بالاستناد الى المصادر المتوافرة ، معرفة عدد الافراد الذين شكلوا الطائفة الحرفية ، الا في بعض الحالات النادرة ، مثلاً ، بلغ عدد طائفة النحاتين في دمشق في أواخر عام ١٦٨٩ سبعاً وعشرين نحاتاً (١١) . وطبيعي ان هذه الطائفة لا تمثل الا نسبة ضئيلة من الطوائف . ولو اتيح لنا معرفة عدد افراد الطوائف الحرفية لامكننا معرفة نسبة الذين يعملون في الانتاج الى الذين يعملون في الخدمات او التسويق ، والطوائف الحرفية التي كانت في طريق الازدهار أو الانقراض ، والطبقات الاجتماعية المرتبطة بها ، وبالتالي السمات الاساسية لحياة البلد الاقتصادية . ومع ذلك ، يمكننا ، بالاعتماد على تركات

المتوفين من الحرفيين ، معرفة مدى ازدهار حرفهم ، واوضاعهم العائلية ، وحجم اسرهم (١٢) .

ومما يلاحظ على الطوائف الحرفية التي درسناها غياب اسماء النساء بين اعضائها ، وكذلك غياب طوائف خاصة بالنساء . ومن الطبيعي ان النساء ، سواء في المدن أم في الارياف ، قمن بأعمال حرفية هامة ، مثل قشر القطن ، وغزله ، او حبك حبال القش لصنع الحصر . ولا نعلم فيما اذا انتظمت النساء ضمن طوائف خاصة بهن ولم يتيسر الاعلان عنها نظراً للحياة المغلقة التي كن يعشنها . وفي مثال من حلب بتاريخ ٥ صفر ١٦/١٠٣٧ تشرين الاول ١٦٢٧ عين القاضي للمدعوة فطمة بنت الشيخ محمد نصف حصة من قسم الشحم المعد لعمل الشمع الشحمي تاخذه من المسلخ ، اسوة بافراد طائفة الشماعين الذين يشتغلون الشمع الشحمي . وتم ذلك بحضور شيخ طائفة الشماعين ، الذي امره القاضي بان يعطي المراة حصتها يوماً بيوم ، كما هي عادة الشماعين بحلب (١٣) . وليس في النص ما يوحي بان فطمة كانت عضواً في طائفة الشماعين. كما ان ما اعطي لها كان نصف حصة ، في حين ان الشماع كان يأخذ حصة كاملة.

ولم يقتصر استعمال كلمة « طائفة » على التنظيم الحرفي اذ اطلقت ايضاً على طائفة دينية ، كما في شيخ طائفة اليهود ، او على جماعة من المقيمين الاغراب، كما في شيخ طائفة المغاربة ، أو طائفة عسكرية ، كما في طائفة عسكرية حلب . واستعملت الكلمة ، في مجالات اخرى ، لتدل على فئة اجتماعية تحترف الاخلال بالأمن ، كما في طائفة اشقياء العرب (اي البدو) وقطاع الطرق ، وطائفة الحرامية والسراق ، او طائفة السراقين . وفي مثال عن الطائفة الاخيرة ان امراة اتهمت اخرى بسرقة اثني عشر قرشاً من جيبها في سوق الاروام بدمشق وانها التصقت بها وشقت الجيب . واعترفت المتهمة ، امام القاضي ، انها من طائفة السراقين وتتخذ ذلك حرفة ودأباً (١٤) .

التركيب البنيوي للطائفة الحرفية

راس الطائفة الحرفية شخص عرف عادة بالشيخ ، وقد اختاره أعضاء الطائفة ، واقر اختياره ونصبه القاضي الشرعي الذي اصدر حجة بالواقعة سجلت في سجلات المحكمة . والعبارة التي استخدمت في السجل بهذه المناسبة تذكر ان القاضي نصب (فلانا) شيخاً ومتكلماً على الطائفة (الفلانية) . وكلمة « متكلم » تعني أن صاحبها يتكلم في مصالح الطائفة (١٥) . وفي بعض الحالات

اطلق على شيخ الطائفة الحرفية لقب باشي ، كما في طائفة القصابين التي عرف رئيسها بالقصاب باشي ، واحياناً بالشيخ ، وفي طائفة المعمارية التي عرف رئيسها بالمعمار باشي . واطلق على رئيس طائفة الدباغين لقب اخي بابا ، واحياناً بابا . وكلمة اخي مشتقة من العربية اخ التي اطلقت في الاناضول ، في مطلع التاريخ العثماني ، كما ذكر ابن بطوطة ، على الحرفي ، وجمعها الاخية . اما كلمة بابا فقد استخدمت في الاناضول ، في النصف الاول من القرن الثالث عشر ، للدلالة على الواعظ التركماني الشعبي .

والذين رافقوا الشيخ الى المحكمة ، حيث نصبه القاضي رسمياً ، كانوا في الغالب من المعلمين أو الاساتذة أو الاسطاوات في الطائفة ، وهم الذين أشير اليهم احياناً باختيارية الطائفة . ويلاحظ ان بعض مشايخ الحرف ورثوا المشيخة عن أبائهم او اخوتهم ، ومع ذلك وجب عليهم الحصول على موافقة اختيارية الطائفة باختيارهم للمشيخة ، وقام القاضي بتنصيبهم رسمياً . ووجب على الشيخ أن يكون ملماً باصول الحرفة ، واذا تبين انه غير ملم بذلك أمكن لاعضاء الطائفة عزله رغم حسن اخلاقه . وقد طلب جماعة من طائفة الدباغين بدمشق من القاضي الموافقة على عزل شيخ طائفتهم السيد محمد بن السيد احمد البابا « لأنه ليس له خبرة في أحوال الدباغة وليس له وقوف على معرفة الكار وليس له قدرة على تعاطي أمور البابوية » وان ذلك سبب خللاً في مهنتهم . وقد تنازل السيد محمد عن البابوية ، اثر ذلك ، واختار افراد الطائفة بابا غيره نصبه القاضي (١٦) .

واشترط كذلك في شيخ الطائفة ان يكون رجل دين ، مستقيماً ، قادراً على اداء المشيخة ، صالحاً لها ، وان يكون الاعضاء راضين به . وأشير ، حين شغر منصب الشيخ ، الى أن المشيخة كانت محلولة بسبب وفاة الشيخ السابق ، او عزله ، أو عجزه عن القيام بأمور المشيخة ، أو فراغه عنها برضاه . ويتم الفراغ في المحكمة . وفي بعض الحالات عين شيخ الطائفة ، التي شغرت مشيختها ، بموجب براءة سلطانية . واذا ما ثبت للقاضي صحة البراءة نصب صاحبها في المشيخة (١٧) .

واذا ما عارضت فئة من الحرفيين راي الاكثرية في اختيار الشيخ ، او خشي من قيام مثل هذه المعارضة ، اتفق الحرفيون المجتمعون في المحكمة على « أن من خالف منهم يفعل معه الحقارة بما يستحق ، اتفاقاً مقبولاً » (١٨) . وامكن للطائفة الحرفية أن ترفض تعيين شيخ لها ، كما حدث بالنسبة لطائفة المسالخية في حلب عام ١٦٠٨/١٠١٧ ، حين ادعت ان العادة القديمة الا يكون

عليهم شيخ لان في تعيين الشيخ عليهم ظلماً لهم ومخالفة للعادة القديمة . ولما تأكد القاضي من صحة ذلك منع ان يكون شيخ لهم بدون رضاهم (١٩) .

وفي الحالات التي وجد فيها شيوخ فرعيون لتجمعات حرفية في صوايح (احياء) حلب ، مثلاً ، مثل السقطية ، والمدينة ، وتحت القلعة ، والبياضة ، وبانقوسا ، وباب النيرب ، وباب النصر ، او في سوق فرعي ، كما في سوق العطارين ، او سوق الصابون ، فان اختيار شيخ الطائفة الفرعي كان يتم من قبل حرفيي طائفته المحليين ، ولكن تنصيبه في المحكمة يتم بحضور شيخ الطائفة الرئيسية أو قائم مقامه (٢٠) .

وليس من دليل على ان الشيخ تقاضى مرتباً من الطائفة . وكان يعيش في الغالب ، من عمله . ولكن هناك بعض الامتيازات المادية التي تمتع بها ، فقد ذكر ان طائفة المسالخية بدمشق التي كانت تابعة (يمقا) لطائفة القصابين دفعت لشيخ طائفة القصابين كل سنة عشرين قرشاً لقاء مال المشيخة (٢١) .

واختير شيخ الطائفة عادة من بين كبار الحرفيين في الطائفة الذين اطلق على واحدهم لقب استاذ (أو استاد) ، وهي كلمة فارسية الاصل ، حورت احياناً الى كلمة اسطه . واشير اليه ايضا بكلمة معلم العربية . ونظراً لاهمية هذا اللقب في المراتب المهنية ، ضمن الطائفة الواحدة ، فقد عرف اصحابه به . ومعلم الحرفة هو الذي يحق له اقامة مشغل خاص به يعمل فيه الصناع والاجراء .

ويأتي بعد الاستاذ ، أو المعلم ، في المرتبة المهنية ، الصانع . ولا نعلم فيما اذا كانت هناك مدد زمنية لابد للصانع من أن يلتزم بها قبل ان يرتقي الى مرتبة الاستاذ ، او المعلم ، ام أن اجادته المهنة ، بقطع النظر عن المدة ، هي وحدهــا الكفيلة بالانتقال به الى الرتبة العليا . ويبدو أن هناك استثناءات قد تدل على الالتزام بالتدرج المهني واجادة المهنة ، أو على انهيار القواعد المهنية ، اذ ذكر القدسي أن « من الصناع من يشد في النهار ذاته صانعاً ومعلماً » (٢٢) .

وشكل الصناع العدد الاكبر في الحرفة بالمقارنة مع عدد المعلمين والاجراء. وكانوا عماد العمل في الحرفة ، وتقاضوا أجراً عليه . وحاول المعلمون تأخير ترقيتهم الى رتبة معلم لتحاشي منافستهم لهم ، لانه يحق عندئذ للصانع الذي أصبح معلماً أن يكون له مشغله الخاص به . وكان على المعلم ان يدفع اجرة دكانه ومصروفها ، بما في ذلك تصليح عدة الشغل، ولا يخص الصانع من ذلك شيء(٢٣) .

وفي أسفل السلم المهني يأتي المبتدىء او الاجير ، وهو عادة بالغ . وكان استخدامه يتم من قبل المعلم ، بموجب عقد رسمي ، والمثال التالي يوضح ذلك: استاجر السيد محمد الحلبي الطباع ، لدى القاضي الشافعي بدمشق ، ابن اخيه البالغ ، عبد الرحمن ، فاجره نفسه باذن الحاكم ليشتغل عنده في صناعة الطباعة ، لعقدين كاملين ، مدة كل منهما ثلاث سنوات ، تبدأ في يوم العقد . وكان اجر عبد الرحمن اليومي ست قطع فضة مصرية ، اربعة منها يحتفظ بها المستاجر السيد محمد الحلبي لتغطية نفقات عبد الرحمن من ماكوله ومشروبه وزينته وسائرلوازمه التيلابد منها ، والمصريتانالباقيتانتدفعانالىعبد الرحمن. وتم العقد بحضور والد عبد الرحمن (٢٤) . وفي مثل آخر بقي الاجير في عمله مدة خمس سنوات ، ودفع له ، بالاضافة الى نفقاته اليومية ، مصريتان يومياً (٢٥) .

وهناك اشارات الى وجود رئيس أعلى للطوائف هو شيخ المشايخ ولكن وثائق المحاكم الشرعية قلما اشارت الى وجوده الفعلي وممارسة صلاحياته . وقد ذكر المحبّي (٢٦) ان السيد محمد بن السيد محمد كمال الدين بن عجلان الدمشقي الميداني الشافعي ، المتوفى عام ١٠٠٤/١٥٩٦ ، كان شيخ مشايخ الحرف . ولكنه اهتم ، كما يبدو ، باقامة الذكر بانتظام اكثر من عمله كحرفي . ويقول المحبّي : « وربما كان يأكل من كسب يمينه ونسج الحرير » . ومما يرجح ان عمل شيخ المشايخ لم يكن مهنياً بقدر ما كان شعائرياً يتعلق بالاشراف على اقامة الاحتفالات والطقوس الرمزية بين اعضاء الحرف قول المحبّي : « وشيخ المشايخ هو الذي يعقد الشد والعهد لاهل الصنائع » . وبهذا المعنى أشار اليه القدسي في « نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية » ، في الربع الاخير من القرن التاسع عشر . وذكر القدسي (٢٧) أن شيخ المشايخ ، السيد احمد افندي منجك العجلاني ، لم يكن على شيء من صنعة أو حرفة ، وان هذه الرتبة موروثة في آل عجلان الذين اختصوا أيضاً بنقابة الاشراف ومشيخة الطرق الصوفية ، وان شيخ المشايخ يراس ، عملياً أو نظرياً (وفي هذه الحال ينيب عنه النقيب) حفلة الشد التي يجرونها للمبتدىء أو الاجير عند انتقاله من درجته الى درجة صانع ، أو للصانع عند ارتقائه الى درجة معلم . كما انه يبارك شيخالحرفة عند انتخابه. ويكون الشد بربط المرشح « بالمحزم » ، وتتلى الفاتحة عدة مرات . اما بالنسبة للمسيحي فتتلى الصلاة الربانية ، وبالنسبة لليهودي فالوصايا العشر . ويزود المشدود بالنصائح الاخلاقية والمهنية . ويعين له أب بالكار يكفله من الخلل ، ثم يولم للحاضرين (٢٨) . اما قول القدسي (٢٩) أن شيخالمشايخ ، قبل عهد السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ ــ ١٨٦١) ، كان يتمتع بسلطة كبيرة على مشايخ الحرف

وافرادها فيلقي من يسيء منهم في السجن ويضربه فليس هناك ما يؤيده في وثائق المحاكم الشرعية التي هي المصدر الرئيس لمثل هذه الاعمال .

والى جانب هذه المراتب المهنية في الطائفة الحرفية وجدت وظائف عدة ، بعضها استمر طوال العهد العثماني تقريباً ، مثل وظيفة النقيب ، وبعضها اندثر او استحدث على فترات . وقد تمتع النقيب بسلطة كبرى في الطائفة الحرفية ، وناب احيانا عن شيخ الطائفة . كما انه حضر تنصيب شيخ الطائفة في المحكمة . ومما يدل على انه كان حرفياً في الاصل اشتراكه مع أعضاء الطائفة في اختيار شيخ لهم . ويعين النقيب في وظيفته من قبل القاضي بناء على اقتراح شيخ الطائفة المعنية (٣٠) . واختير عادة من بين المعلمين في الطائفة . ووجد النقيب على مستوى الطائفة الرئيسة في المدينة ، وعلى مستوى طائفة الحي أو الصايح، التي هي جزء من الطائفة الرئيسة التي تنتظم المدينة ككل(٣١) ، وكان شيخ الطائفة يكلف النقيب بالسهر على حسن انتظام قواعد الطائفة واخلاق افرادها . ومما يدل على علو شأن النقيب في الطائفة انه كان يذكر ، بين حرفيي الطائفة اذا ما شخصوا الى المحكمة ، بعد الشيخ مباشرة . وعلى غرار شيخ المشايخ ، وجد للنقباء نقيب أعلى ، عرف بنقيب النقباء . وذكر احمد البديري الحلاق (٣٢) أن الشيخ عبد الرحمن بن الشيخ محمد الحلاق القادري ، صاحب الحلقة في الجامع الاموي ، والمتوفى في ٢٦ ربيع الاول ١١٥٦/ (٢٠ أيار ١٧٤٣) ، كان نقيب النقباء في دمشق على الحرف والصنايع والطرق . ويدل جمع نقيب النقباء بين يديه السلطة على نقباء الحرف والصنايع والطرق على أهميته وعلى ارتباطه بالطرق ، مما يظهر الرابطة التي كانت تجمع بين الطرف الصوفية والحرفيين . وذكر القدسي أن أهمية النقيب قد نقصت كثيراً في عهده (٣٣) .

والى جانب النقيب وجد منصب اليكيت باشي ، والكلمة مشتقة من يكيت التركية ، وتعني فتى ، أي الرجل الاخلاقي والكريم ، وباشي تعني الرئيس . وعين اليكيت باشي في الطائفة من قبل الشيخ ، الذي اشرك معه احياناً ، في عملية الانتقاء ، كبار اعضاء الطائفة ، وروعي في اختياره ان يكون اهلا لعمله ، قادراً على القيام به على الوجه المرضي . وذكر ان طائفة العطارين اليهود بحلب ، وهي تابعة لطائفة العطارين في المدينة ، نصب القاضي عليها يكيت باشي يهودياً ، وذلك بطلب من شيخ طائفة العطارين وعدد من اعضائها مسلمين ويهوداً(٣٤) ، وناب اليكيت باشي ، احيانا ، عن شيخ الطائفة في الامور المتعلقة بالطائفة (٣٥) ، ومع ذلك ، كان النقيب أكثر حضورا وربما استمرارا من اليكيت باشي ، بدليل ان القدسي لم يشر اليه . وربما تغيرت تسميته فيما

بعد . وقد ذكر القدسي « الشاويش أو الجاويش » (٢٦) ، الذي ينتخبه الشيخ واعضاء الطائفة ، ويقوم بابلاغ أوامر الشيخ الى الحرفيين . ولم يرد لهذا الموظف ، بهذا الاسم ، ذكر في الوثائق الشرعية التي اعتمدناها .

وذكرت الوثائق صاحب رتبة آخر هو الاونجي باشي ، بالنسبة لطائفة طحاني الخاص بحلب ، ولعله شيخ هذه الطائفة المتفرعة من طائفة الطحانين (أو الطحانة) . وقد نصب، على غرار النقيب واليكيت باشي، من قبل القاضي، بناء على طلب شيخ طائفة الطحانين وكبار أفرادها،وروعي فيه ان يكون مستقيما دينا ، قادرا على اداء عمله . وعهد اليه دون غيره ، باخراج الكماجة (لفظة فارسية الاصل ، جمعها كماج ، وتعني الخبز المستدير السميك) المعروك ، والسنبوسك ، والخبز الافرنجي ، والحلاوة . واذا اخرج الكماجه شخص آخر، غير الاونجي باشي « تفعل معه الحقارة التامة » ويغرم الف عثماني فضة (وفي مثال آخر خمسة الاف عثماني فضة) ، بطريق النذر للجامع الكبير الاموي بحلب (٢٧) .

وذكرت وظيفة اخرى ، بالنسبة لطائفة الدلالين بحلب ، وهي كتخدا (أو كاخيا) الطايفة ، الذي حضر فراغ شخص عن وظيفة الدلالة لابنه (٢٨) . والكلمة تعني المساعد ، وربما كان احد مساعدي شيخ الدلالين .

وورد ذكر وظيفة « مقدم » في حلب في عام ١٥٩١/٩٩٩ ، وتعني في هذا المثال ، رئيس سبع طوائف ، لكل منها شيخها ، وتعنى بالخدمات ، مثل العتالين ، والحمالين ، والعكامين ، والسقايين ، والبغالة . وكان احد الاشخاص المسمى تقي الدين ابن الحاج محمد ، قد حصل على براءة سلطانية للحصول على مقدمية هذه الطوائف من صاحبها الحاج احمد بن محمد . ولكن القاضي ، بناء على طلب عدد من اعضاء هذه الطوائف ، ابقى الحاج احمد بن محمد في مقدمية الطائفة لانه « رجل مستقيم في امور المقدمية المذكورة خبير باحوالها من غيره وهو اولى بها من تقي الدين » (٢٩) . وقد شاعت وظيفة « مقدم » في العصور التي سبقت الفترة العثمانية ، ولكنها لم تستمر ، كما يبدو ، بدليل عدم ورودها في الوثائق ، بعد القرن السادس عشر .

العلاقة بين الطوائف الحرفية

ارتبطت احيانا اثنتان أو اكثر من الطوائف الحرفية ببعضها ، نظرا لتكامل الحرف المعنية ، أو لاعتماد حرفة على اخرى ، أو للمشاركة في تأدية الضرائب

الجماعية . فطائفة الحماميين ، مثلا ، كانت على علاقة وثيقة بطائفة الحلاقين . وقد تم الاتفاق بين الطائفتين في حلب في ٢٨ محرم ١٠٥٥/٢٦ آذار ١٦٤٥ ، على ان من دخل الحمام واعطى اجرة الحمام واجرة الحلاق معاً الى معلم الحمام ينقسم ذلك بين الحمامي والحلاق بالتساوي ، واذا اعطى اجرة الحمام الى الحمامي وحده واجرة الحلاقة الى الحلاق وحده فلا يعترض احدهما على الاخر ولا يطلب منه شيئاً (٤٠) . وقد اتفقت طائفة الأبارين (صانعي الابر) مع طائفة المدادين للشريط على انه اذا جاء الجلاب بالشريط تأخذ الطائفة الاولى الشريط الرفيع ، والثانية الشريط الغليظ (٤١) . وكانت العادة انه اذا جاء اليقطين الجلب الى حلب للبيع قسم بالتساوي بين طائفة البقالين وطائفة الخضرية . وفي احدى المرات تخلت الطائفة الاولى للثانية عن حصتها (٤٢) .

وفي عدد من الحالات عين شيخ واحد لمجموعة من الطوائف المتقاربة في الاختصاص ، مثل طائفة الطباخين وطائفة الشوايين وطائفة السنبوسكيين التي عين لها في حلب في ٨ محرم ١٠٣٩/٢٨ آب ١٦٢٩ شيخ واحد . ويبدو أن هذا الشيخ المشترك بين الطوائف الثلاث لم يلغ شيخ كل طائفة منها ، كما تدل وثائق تلك الفترة . وفي حالة اخرى عين شيخ على طائفة السيوفية والسكاكينية والقواسين والخناجرية والتروسية (٤٣) . ومع ذلك وجد شيخ لطائفة السيوفية فقط (٤٤) . ولا ندري فيما اذا كان الاختصار هو سبب عدم ذكر الحرفيين الاخرين الى جانب طائفة السيوفية ، التي كانت الاشهر ، ام أن الحرف الاخرى قد وسعت أعمالها وحق لها تعيين شيخ لكل منها ، كما حدث في الواقع ، اذ ذكرت طائفة السكاكينية على حدة .

وضمت بعض الطوائف الحرفية اكثر من مهنة مثل طائفة الحلاقين والجراحين التي كان لها شيخ واحد . ومن المعروف ان الحلاق كان يقوم ببعض الاعمال الطبية ، ولكن ليس من الضروري أن يقوم الجراح بالحلاقة ، وما يؤيد هذا ان عددا من افراد هذه الطائفة حملوا لقب جراح فقط (٤٥) . والشائع أن تذكر طائفة الحلاقين على انفراد . ويبدو أن اضافة الجراحين اليها هو اما استطراد بحكم عمل الحلاق في الطب ـ والحلاقون هم الكثرة ـ أو ان الجراحين لم يتمكنوا من ايجاد طائفة خاصة بهم فاندمجوا مع الحلاقين . وذكر فما بعد ، وجود دكان لصنعة الطب قائمة بذاتها (٤٦) . واستمر الحلاقون مع ذلك في تعاطي التطبيب وسمحت لهم السلطة في دمشق في ٦ شعبان ١٢٦١ / ١٠ آب ١٨٤٥ بالاستمرار في بيع العلق ، على أن يحدد سعر العلقة الواحدة في الصيف باربع بارات وفي الشتاء بخمس بارات .

وهنـاك طوائف حرفية تبعت الواحدة منها الاخرى ، وكان للطائفتين شيخ واحد أو احتفظت كل طائفة بشيخها . فقدكانت طائفة الصاغرجية (تصنع جلود الادوات الموسيقية) تابعة لطائفة الدباغين (٤٧) . وكان لشيخ طائفة الدباغين ، المعروف باخي بابا ، في فترة من الفترات ، سلطة على عدد من الطوائف ، مثل الخفافين ، وبائعي النعال ، والسيوفية ، والحياك ، والنهودية، واللبادية ، والخياطين ، ربما لان هذه الطوائف استخدمت الجلد بكميات متفاوتة ولاستعمالات متباننة . وفي مثال آخر قرر القاضي شيخ طائفة الخياطين بحلب شيخا على طائفة العرقيانية (صانعي القبعات) فيها ، وذلك بطلب عدد من اعضاء الطائفتين (٤٨) .

وعرفت الطائفة التي تبعت طائفة اخرى ، رغم ان لكل منهما شيخاً مستقلا ، بانها يمق لها ، وهذه كلمة تركية ، تعني المساعدة . وكانت الطوائف التابعة لبعضها ذات علاقة في الانتاج . والهدف الرئيسي من التبعية هو المساهمة في الضرائب . مثال ذلك ان طائفة المسالخية في دمشق كانت يمقاً لطائفة القصابين واقتضى ذلك ان تدفع الطائفة الاولى عشرين قرشا في السنة ، عرفت بمال المشيخة ، الى القصاب باشي ، وذلك بالاضافة الى ثلاثين قرشا مساهمة في ضريبة الجيش (مال العرضي ، أو الاوردي ، من أوردو التركية ، وتعني الجيش) (٤٩) . وفي مثال آخر حاولت طائفة القاوقجية (التي تصنع القبعات) ان تلحق بها طائفة العرقجية (التي تصنع الطواقي) والتي كانت ملحقة منذ القديم بطائفة الخياطين ، واسهمت معها بدفع الضرائب . وكان هدف طائفة القاوقجية ان تجعل طائفة العرقجية تسهم معهـا بدفع الضرائب ، نظرا لان طائفة الطواقي الزربا ، وطائفة الزربابية ، وطائفة الطواقي المخمل ، التي كانت في السابق ، تسهم مع القاوقجية في دفع الضرائب ، قد بطلت وأن لاقدرة لطائفة القاوقجية على دفع الضريبة بمفردها ، ولهذا طالبت بضم طائفة العرقجية اليها، ولكن القاضي رفض ذلك لانه يخالف العادة القديمة (٥٠) .

وقد اعتمدت التقاليد ورغبة افراد الطائفة في تقرير ما اذا كان يحق لشيخ احدى الطوائف ان يضم طائفة اخرى الى مشيخته . وقد حدث ان شيخ طائفة رامي البخور قد وجهت اليه مشيخة طائفة مداحي الرسول وحكوية السير النبوية . وحين احتج افراد الطائفة الاخيرة على ذلك وافقهم القاضي ، وقرر لهم شيخاً خاصاً بهم (٥١) .

وبالاضافة الى تحمل الطائفة التابعة (اليمق) مسؤولية المساهمة في الضرائب مع الطائفة المتبوعة ، فقد اقتضت التبعية ايضا ان ترعى الطائفة المتبوعة امور

ومصالح الطائفة التابعة لها لما فيه نفع الطائفتين . وقد أكد على ذلك القاضي حين اعترف افراد طائفة البوزجية انهم تابعون (يمق) لطائفة الاقسمارية منذ القديم (٥٢) . ونستدل من ذلك على ان الطائفة الكبيرة كانت تسيطر على الطائفة الصغيرة ، ضمن فصيل واحد ، مع ما يترتب على ذلك من تبعية اقتصادية .

اهمية الطوائف الحرفية اقتصادياً واجتماعياً وادارياً

طبقت الطوائف الحرفية مبدا توزيع العمل والتخصص الدقيق ، وهي من صفات الاقتصاد المنظم : ففي مجال الصباغة، مثلاً ، وجد صباغون متخصصون بالصباغ الاحمر ، واخرون بالازرق الغامق (الكحلي أو النيلي) ، وأخرون ببقية الالوان . وفي حين اقتصر عمل هؤلاء ، في الغالب ، على صباغة الخام ، وجد صباغون آخرون يصبغون الحرير الملون . ولكل تخصص طائفته وشيخه . ويدل ذلك على رواج عمل الصباغين ، وبالتالي تصنيع الخام والحرير محلياً ، للاستهلاك الداخلي وللتصدير . ووجد بين فتالة الحرير طائفة متخصصة بفتل الحرير الشطي والابلق والبلدي ، وأخرى متخصصة بفتل الحرير العنداري ، وثالثة بالفتل على الدولاب الكبير ، الى جانب طائفة فتالي الحرير ذات الصفة العامة .

ووجد تخصص في العمل على اساس جغرافي ، فهناك مثلاً شيخ القصابين بصايح السقطية بحلب ، واخر بصايح باب النصر ، وثالث بصايح باب النيرب ، ورابع بصايح بانقوسا في الوقت نفسه . وعين القاضي في ١٥٨٨/٩٩٦ شيخ القصابين بصايح السقطية شيخا اعلى على القصابين بالصوايح الثلاثة الاخرى، بحضور مشايخ هذه الصوايح ورضاهم به (٥٣) . ويتبع هؤلاء المشايخ القصاب باشي ، أي شيخ القصابين ، المسؤول عن طائفة القصابين بعامة في حلب .

ووجدت طوائف جمعت بين التخصص والتوزع الجغرافي ، مثل طائفة دلالي العفص بخان الصابون بحلب . وهناك طائفة دلالي الخام الكلزي بحلب ، وطوائف دلالين في عدد من الاسواق الرئيسية في المدينة ، الى جانب طائفة الدلالين العامة . ولكل طائفة شيخها .

ووجدت طوائف خاصة بالمسلمين ، او بالمسيحيين ، او مشتركة بينهم . وضم اختيارية الطائفة ، التي شخصت الى المحكمة لابلاغ القاضي اختيارها لمن ينصب شيخاً عليها ، ممثلين لاعضاء الطائفة على اختلاف مذاهبهم . وهذا يبين

القاسم الحرفي المشترك الذي جمع بين الحرفيين هؤلاء ، واولوية المقدرة والخبرة الحرفية على اي شيء آخر . وقد اتفق ، مثلاً ، في طائفة القصارين بحلب ، في ٦ ذي القعدة ١٠٣٦/١٩ تموز ١٦٢٧ بمعرفة شيخ الطائفة وافرادها والقاضي ، ان ما يتجمع لديهم من الخام والشاش والمناديل والدعى للقصر يكون بينهم ستة اقسام : اربعة منها للمسلمين واثنان للمسيحيين (٥٤) . ثم تقرر بعد شهرين ، في ٥ صفر ١٠٣٧ /١٦ تشرين الاول ١٦٢٧ ، ان يكون القصر بينهم بالسوية (٥٥) .

واذا ما وجدت طائفة على اساس مذهبي ، مثل طائفة اليهود العطارين بمدينة حلب ، اشترك شيخ طائفة العطارين وممثلون عن اعضائها ، على اختلاف مذاهبهم ، في اقتراح تعيين يكيت باشي على طائفة اليهود العطارين هذه (٥٦) . ولا نعلم فيما اذا كان لهذه الطائفة شيخ خاص بها . وفي مثال آخر سمح للقصابين من طائفة اليهود بزيادة درهم على السعر الذي يبيع به القصابون المسلمون ليدفعوا هذه الزيادة الى فقراء اليهود وصعاليكهم . ووافقت طائفة القصابين على ذلك ، ولم يعارض المحتسب (٥٧) . ولكن لم يسمح القصاب باشي بحلب والقاضي للقصابين اليهود بذبح الاغنام خارج المسلخ ، خلافا للعادة المتبعة ، حيث تدمغ الاغنام بالدمغة السلطانية ويترتب عليها رسم (٥٨) . وفي مثال آخر نصب القاضي يهودياً شيخاً على طائفة مروبصي الفضة والذهب من اليهود بحلب (٥٩). ولا نعلم فيما اذا شاعت هذه المهنة بين المذاهب الاخرى .

ووجدت طوائف خاصة بالنزلاء ،العرب وغيرالعرب،او مشتركة بينهم وبين السكان المحليين . فهناك طائفة خاصة بالمغاربة في حلب،في القرن السابع عشر ، لها شيخها ونقيبها. وعمل افرادها اكثر شيءفي الحراسة وكسعاة (٦٠). ووجدت في دمشق ، في القرن الثامن عشر ، طوائف متعددة للمغاربة ، مبنية على اساس جغرافي ، نظرا لكثرة عدد المغاربة المقيمين في دمشق للمجاورة ، او العلم ، او العمل كمسلحين . ووجد لكل طائفة شيخها ، وتراس جميع الطوائف شيخ المشايخ . وهذه الطوائف هي : الفاسية ، الجزائرية ، السوسية ، التونسية ، الطرابلسية ، الدراوية ، والمراكشية (٦١) .

وقد وجد بين الخفافين في حلب (الذين يبيعون الحذاء الخف) ، طائفتان منقسمتان حسب هوية افرادهما ، فهناك طائفة الخفافين الاروام (اي الاتراك)، بحلب ، وطائفة الخفافين من ابناء العرب بحلب (٦٢) . ومن الطوائف التي اشترك فيها النزلاء العرب مع السكان المحليين طائفة السقايين بحلب ، الذين ياخذون

الماء من قسطل الطواشي داخل باب المقام . وقد ضمت ، حوالي منتصف القرن السابع عشر ، ثمانية افراد ، اربعة منهم مصريون واربعة حلبيون (٦٣) .

وقد تحكمت الطوائف الحرفية في نوعية الانتاج ومواصفاته وجودته واجرته واسعاره . مثال ذلك ان افراد طائفة الحريرية بحلب اتفقوا ، في اوائل القرن السابع عشر ، على ان ينتجوا نوعين من الاثواب المعروفة بالعناباتية : الاول يتكون من عشرة الاف طاق ، وطوله عشرة اذرع ، وعرضه ذراع ، والثاني من ثلاثة عشر الف الى اربعة عشر الف طاق ، ووزن الثوب من هذا النوع مائتا درهم . واذا نقص طول كل ثوب من النوعين تحسب قيمته وتسقط من ثمنه ويعمل مع صاحبه ما يستحقه بحسب الشرع الشريف وبمعرفة الشيخ او من يقوم مقامه ، ولا يكون للمحتسب دخل في ذلك (٦٤) . وفي مثال آخر ، اتفق شيخ طائفة الحريريين وشيخ طائفة العقادين مع شيخ طائفة الفتالين للحرير الشطي والابلق والبلدي على ان الحرير الذي تفتله الطائفة الاخيرة بالاجرة تكون اجرته قرشين لكل الف درهم . واذا صبغ الحرير باللون الازرق ، بعد الفتل ، يصبح وزن المائة درهم ، بعد الصبغ ، ستة وسبعين درهماً . واذا اصبح الوزن اقل من ذلك يكون الحرير مغشوشاً بالزيت ، ويؤخذ النقص من الفتال الذي فتله ، ويعامل بما يستحق من الاهانة والحقارة (٦٥) . وفي مناسبة اخرى ، اتفقت طائفة الحياك بحلب ان يكون طول الفوط الزرقاء التي تشتغلها ثلاثة اذرع الا ربعاً ، بالذراع الحلبي ، وعرضها ذراعان الا ربع ذراع ، وان يكون اعتبار ذراعها بعد بلها بالماء وجفافها ، وان تكون قيمة الواحدة منها سبعة واربعين عثمانياً فضياً ما دام القرش يومئذ مائة وخمسون عثمانياً ، ومن خالف يفعل معه انواع الحقارة (٦٦) .

وقد اتفق افراد طائفة الغرابلية والمناخلية بحلب ، برضاهم وحسن اختيارهم ، من غير اكراه ولا اجبار ، على ان يكون شغل المناخل على خمسة طوق ، على العادة القديمة ، ومن خالف منهم واشتغل غير ذلك تعمل معه الحقارة ويغرم بالف عثماني لجهة وقف الجامع الكبير الاموي بحلب (٦٧) .

وفي مثال آخر ، شكت طائفة القوافين بدمشق ، في مطلع القرن الثامن عشر ، من ان طائفة البقارين (الذين يدبغون جلود البقر) تمتنع عن اعطائهم ما يحتاجون اليه كل يوم من النعل والكسلا ، ولا تأخذ بعين الاعتبار عامل القلة والكثرة . واعترف البقارون بانهم يبيعون للمدعين كل يوم ستة جلود ويبيعون الباقي لغيرهم . وصدرت فتوى آنذاك تمنع القوافين من اجبار البقارين على

رفع مخصصاتهم من الجلود ، والتزم القاضي بذلك (٦٨) . واللجوء الى الفتاوى في حل منازعات الطوائف الحرفية كان أمراً شائعاً ، واذا كان الخلاف عميقاً وشمل عدة طوائف استشير مفتيو جميع المذاهب في الامر (٦٩) .

وكانت المواد الخام المستوردة توزع على العاملين فيها ، من ابناء الطائفة ، من قبل شيخهم . فقد اتفق النجارون بحلب ، في مطلع القرن الثامن عشر ، على انه اذا جاء الجلاب بالخشب والدفوف الى سوق الخشب فيوزعها شيخهم على اهل الحرفة بحسب ما تتحمله حالهم . واذا أخذ الحكام من شيخهم خشباً ودفوفا وما اعطوه ثمنها فيوزع الثمن على اهل الحرفة برضاهم . واذا طلب الجلاب مالا بطريق السلفة فيأخذه الشيخ منهم ، على مقدار تحمل حالهم ، ويدفعه الى الجلاب ، وان لا احد من اهل حرفة النجارين يعين ثمن الخشب والدفوف سوى الشيخ (٧٠) . ومما يؤيد ان لا المحتسب ولا القاضي كان لهما حق تسعير الحاجيات ان طائفة البساتنة بحلب احتجت على المحتسب الذي طالبهم بتسعير القرنبيط والملفوف واجابوا بانه لم تجر العادة بتسعير ذلك في المحكمة . وايدهم القاضي ، ومنع المحتسب من معارضتهم (٧١) .

ونلاحظ في عمل الحرفيين انه كان فردياً في الغالب ، ونادراً ما اجاؤا الى الشركة فيما بينهم . وفي احدى الحالات اتفق افراد طائفة صباغي الحرير الملون بدمشق ان الحرير الذي يأتيهم للصباغة يصبغونه بطريق الشركة ، ثم تقسم الاجرة بينهم . ولكنهم عدلوا عن ذلك ، فيما بعد ، لاسباب لم يبينوها . واتفقوا ان يشتغل كل منهم على حدة ، ومهما حصل له من اجر يتناوله لنفسه (٧٢) .

ويبدو ان الاتجاه نحو فردية العمل قد شجعته الانظمة الحرفية وطبقه القاضي ومثال ذلك ان القاضي طلب من طائفة المخومين للسروج (الذين يعملون السروج من جلد الجمل) « ان يشتغل كل واحد منهم في دكان مستقل ولا يشتركون في العمل لان فيه ضرراً للمسلمين » (٧٣) . وهذا يعني ان تبقى امكانات الحرفي محدودة وعلاقاته مع زملائه متوازنة . وليس من مجال ، والحالة هذه ، لوجود تضخم في الثروات ، وبالتالي لحدوث تفاوت كبير فيها ، ولكن التفاوت يبقى قائماً بين مستوى ثروات المعلمين ومستوى ثروات الصناع ، ضمن الطائفة الواحدة . صحيح ان الصانع يترقى ليصبح معلماً ، في منظور مهني صرف ، ولكن افتتاح حانوت خاص به ، كمعلم حرفة ، يقتضي راس مال لا يستهان به لشراء خلو الحانوت ، بما في ذلك الادوات اللازمة لعمله ، وهذا ما عرف بالتركية (كدك) .

وقد عرف الكدك في دمشق ، في حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، بأنه « جميع عدة الدكان المعير عنه بالكدك » (٧٤) وفي بعض الفترات وبعض المدن اقترنت كلمة خلو بكدك ، او استخدمت لوحدها وتضمنت معنى الكدك (٧٥) . ونظراً لهذه الصعوبات والاعباء المادية فقد صعب أحياناً على الحرفيين الفقراء الارتقاء في سلم المهن ، واقامة مشاغل خاصة بهم .

وعارض المعلمون ، في بعض الاحيان ، في زيادة أجور الصناع الذين عملوا لديهم ، مثال ذلك ان الصناع في عمل القطنيات الحلبيات ابتهلوا الى القاضي لينصفهم من معلميهم الذين اعطوهم أجرة الثوب ثلاثين قطعة فضة . وذكر الصناع ان هذه الاجرة « دون اجرة المثل يوميذ واظهروا الحيف وتظلموا بسبب ذلك » ، وحضر الى المحكمة أهل الخبرة وشهدوا ، بمواجهة المعلمين ، ان اجرة الثوب الواحد لصانعه اثنتان وثلاثون قطعة . فأمر القاضي المعلمين بدفع ذلك(٧٦) . ولكن في مثال اخر ، بعد قرنين من الزمن ، رفض بعض المعلمين في صناعة الكريشه طلب الصناع زيادة أجرة السدا عما يأخذوه ، وهو ثمانية قروش ، لانه لا يفي بمعيشتهم ، وحكم القاضي انه ليس للصناع اجبار المعلمين على دفع الزيادة ، وخير الصناع بين العمل عند هؤلاء المعلمين او ترك خدمتهم .

ولما كانت المبادرة الحرفية فردية في الغالب نجد ان المشاغل تقوم في حانوت (دكان) مستقل ، أو قائم في خان ، أو في دار . وينطبق ذلك على المصابغ واماكن النسيج . وبما أن استيعاب الحانوت او الدار كان محدوداً ، فان انوال النسيج ، مثلاً ، لدى شخص واحد ، لم يتجاوز وسطيها العشرة انوال . وفي حين نجد اماكن بيع السلع مجمعة في اسواق متخصصة ، يراس كلا منها شيخ السوق ، نلاحظ ان معظم حوانيت تصنيع الحاجيات كانت متفرقة في انحاء المدينة . ولم يكن هناك ، مثلاً ، حي للمصابغ ، او للحياكة ، على غرار سوق الحرير ، او سوق القطن ، او سوق القوافين . ولكن بعض الطوائف ، التي تصنع وتبيع في ان ، مثل الصياغ ، او السيوفية ، او السروجية ، فلها اسواق خاصة بها . وتجمعهم في مكان معين اقتصته ، عادة ، دواعي الامن ، او تيسير المتاجرة ، لتمكين الشاري من الحصول على حاجياته في مناطق متقاربة . كما ان شيخ الطائفة يسهل عمله اذا كان افراد حرفته منتشرين في منطقة محددة وذلك لتمكنه من مراقبة عملهم وجودة انتاجهم ، ومن جمع الضرائب منهم . وقد حاول بعض افراد طائفة الزراميزية بحلب الخروج على العادة المتبعة التي تقضي ببيع انتاجهم في السوق المخصص لهم ، قرب الجامع

الكبير الاموي بحلب ، واخذوا يبيعونه خفية في الازقة والمقاهي . وحين تبين لباقي افراد الطائفة ان ما يباع في هذه الاماكن سيء الصنع ويسيء الى مهنتهم ككل نبه القاضي ان على من يشتغل بصنعة الزراميزية الا يبيع في غير السوق المخصص لها على العادة القديمة الجارية (٧٧) .

وقد حصر عمل الدباغين في منطقة معينة لان ذلك يقتضي تواجد عدد من الخدمات القريبة ، مثل المسلخ للتزود بالجلود ، والميـاه لغسلها . كما أن الروائح الناتجة عن العمل ، وما يلحق بها ، يحسن حصرها في مكان معين . لذا كان مركز الدباغات في دمشق ، حتى فترة قريبة ، في باب السلام ، حيث توافرت الشروط اللازمة لذلك (٧٨) . وحين تعاطى أحد الدباغين الدباغة بداره ، بمحلة القبيبات بدمشق ، احتج الدباغون ، وثبت لدى القاضي ان ذلك مخل بنظام الحرفة ومضر بأهلها لما فيه من اختلال قواعدهم . فمنعه القاضي مـن تعاطي حرفته خارجا عنهم (٧٩) . وحدث مثل ذلك في حلب ايضا (٨٠) . وانتقال الدباغات من منطقة الى اخرى ، اكثر بعداً عن اطار المدينة ، يعتبر مؤشراً لنمو المدينة العمراني (٨١) .

وبعض الحرف تقتضي الانتشار لا التجمع ، مثل طائفة البارودية التي لاتتواجد في سوق السلاح ، حيث تجمع في الاصل صناع السـلاح الابيض الفولاذي ، لان وجود البارود في مكان واحد يجعل خطورة الانفجارات قائمة ، لذا نرى بائعي البارود موزعين في مناطق متباعدة .

وفي مجال الخدمات ، كما في مجال الانتاج والتسويق ، روعي الاختصاص وتقسيم العمل . فهناك ، مثلا ، دلالون وقبانيون لسلع معينة ، وفي اماكن جغرافية معينة . وقد وجد في طائفة الطوافة (الباعة المتجولين) من اختص ببيع الفستق البلدي ، ومن اختص ببيع الفستق الجلب (٨٢) . وفي طائفـة الحمالين وجد تخصص في مناطق العمل ونوعيته . فقد اتفق ، في حوالي منتصف القرن السابع عشر ، ان يختص شيخ طائفة الحمالين بدار الوكالة بباب الجنان بحلب ، يحمل ماء الليمون ، بينما اختص بقية الافراد في الحمولة الاخرى ، ولم يتدخل فريق منهم في عمل الاخر (٨٣) . وكانت طائفة العتالين متخصصة بحمل أحمال طائفة الافرنج بحلب ، وعارضت ان يخالطها احد مـن الخـارج في عملهـا (٨٤) .

وحرص أصحاب كل طائفة على منع العناصر الغريبة من تعاطي حرفتهم . والهدف من ذلك ضمان حسن الانتـاج ، واستئثـار بالاربـاح ، ومشاركـة

جميع أعضاء الحرفة في تحمل الضرائب الجماعية . وقد احتج جماعة من طائفة الدباغين لجلود الحور بدمشق ضد ممارسة احد النطاعين (الذين يدبغون الجلد ويصنعون الاطباق منه) (٨٥) لحرفتهم لانه « لم يتقدم للمدعي المزبور تعاطي الصناعة المزبورة بينهم ، ولم يتقدم له اخذ قسم من الحور المزبور وان العادة القديمة والقاعدة المستمرة بينهم على ان ساير الحرف لاتداخل صناعتهم المزبورة ... ولم يتقدم لاجنبي الدخول في صناعتهم المزبورة وان صدر ذلك فيحصل الخلل لهم في الصناعة » . وقد وافقهم القاضي على ذلك (٨٦) .

وحافظت الطوائف ، في المجال الاجتماعي ، على بعض المميزات السائدة في المجتمع . كما انها ، بتنظيماتها واخلاقيتها المهنية ، قد ساعدت على تطوير مستوى الاخلاق بعامة . وبهذا لعبت الطوائف دورا فاق الى حد كبير ، دور المحتسب ، الذي تضاءل شأنه في بلاد الشام في العهد العثماني ، وغاب في كثير من الاحيان عن الوجود .

وقد طبعت الحرفة حياة الحرفي بطابعها ، ولصق اسمها به حتى غدا كنية له . ونظراً لان الابن ، في غالب الاحيان ، كان يتعلم حرفة أبيه فقد لصق اسم الحرفة بالاسرة ككل ، مثل خشاب ، مسالخي ، حواصلي ، حداد ... الخ . ونلاحظ ، من ناحية اخرى ، ان الطوائف عكست مواقع فئات السكان في المجتمع ففي الربع الاول من القرن السابع عشر وجد بين الدباغين في حلب شيخ للاشراف من طائفة الدباغين، وكذلك شيخ للدباغين غير الاشراف (٨٧) . ويعكس هذا اهمية الاشراف وكثرة عددهم بين الدباغين بخاصة ، وفي حلب بعامة ، كما يستدل من الدور السياسي والعسكري الذي لعبه الاشراف في حلب في القرنين التاليين . ولم نعثر على ادلة لاحقة حول استمرار هذين الشيخين بين الدباغين الذين ذكرت لهم طائفة واحدة فيما بعد .

ويبدو ان العلماء بين الحرفيين عوملوا معاملة خاصة ، كما يستدل من اعفاء الشيخ عبد الرحمن بن محمد ، من طائفة النشارين بدمشق ، من الكلف والمغارم العرفية المترتبة على هذه الحرفة « لكونه اماما وخطيبا ويتعاطى ذلك (اي النشارة) لاجل معيشته ، وانه قبل تاريخه منع من التعرض له بموجب حجة شرعية ابرزها من يده » (٨٨) .

وقد لقي الفقراء والمفلسون من الحرفيين اهتماما ورعاية كبيرين . فالذي كانت بذمته ديون لم يستطع الوفاء بها قسط عليه الدين بنسبة تتناسب

مع ثروته ، ويختلف ذلك من حالة الى اخرى . ففي احدى الحالات ثبت لدى القاضي فقر احد العاملين في صناعة تحميل البضائع اذ كان مدينا لعدد من الناس بخمسمائة قرش ، فقرر القاضي ان يدفع المدين خمسا وعشرين قرشا من فاضل كسبه كل سنة ليوزع على ارباب الديون بنسبة ديونهم (٨٩) . وفي حالة اخرى ثبت اعسار اب وولدين يعملون في الحياكة فقسطت الديون التي كانت بذمتهم بان اعطوا ، من فاضل كسبهم ، لصاحب كل مائة قرش خمسة قروش (٩٠) .

وعرفت الطوائف الحرفية درجة متميزة من الاخلاقية المهنية التي ظهرت على مختلف المستويات ، فشيخ الطائفة اشترط فيه ، الى جانب معرفته بأمور الحرفة وقدرته على أداء واجبات المشيخة ، ان يكون متحليا بالعفة والاستقامة والتدين . واشترطت الصفات نفسها في التقيب واليكيت باشي . واذا اخل الشيخ ومساعدوه بالثقة التي وضعت فيهم حق لافراد الطائفة طلب عزلهم . ووافقهم القاضي ، عادة ، على ذلك بعد ان ثبتت لديه صحة دعواهم . وطبقت المقاييس ذاتها على الحرفيين ، فالحرفي الذي يغش في عمله (يعامل بما يستحقه من الاهانة والحقارة » (٩١) . وحين ثبت لدى القاضي ان شخصا وولديه من طائفة الصياغ هم « على غير الطريق المستقيم في بيعهم وشرائهم وانهم دائما يتطاولوا على الناس بغير حق » وافق القاضي على طرد هؤلاء من السوق (٩٢) . وقد هدد شيخ الترابين في حلب افراد طائفته بالا يلقي أحد منهم التراب على المقابر ، او في الطرق ، أو على التلال بظاهر المدينة ، وان يحصر ذلك في الحفر والمغارات المهجورة . ويعاقب المخالف بما يستحق من الاهانة (٩٣) . وحين أخل صباغ ، اعطي الف درهم من الحرير لصبغه ، بشروط الصباغة ، توجب عليه اعطاء صاحب الحرير الفا ومائة وثمانين درهما من الحرير الخام (٩٤) . ويبدو ان تفسير الزيادة في وزن الحرير المعوض هو أنها تعويض اضافي لان هذا الوزن الاجمالي يعادل وزن الالف درهم من الحرير الخام المسلمة أصلا الى الصباغ والتي ربما كان وزنها سيزداد الى الف ومائة وثمانين درهما بعد صبغها بنتيجة ما يلحق بها من زيت ومواد اخرى اثناء الصباغة . وظهر بين الطوائف اتجاه نحو تطبيق العدالة الاقتصادية بين الحرفيين . فالشيخ هو المسؤول ، عادة ، عن توزيع المواد الخام بالتساوي على افراد الطائفة ، ولكنه غالبا ما اخذ لنفسه حصة ونصف .

ويدل هذا التاكيد على الالتزام بالاخلاقية المهنية على اهتمام الحرفيين ، وبالتالي الشعب ، بالممارسة الاخلاقية . وينعكس ذلك بالمقابل ، على توطيد

فكرة الاخلاق بين الناس . وامكن للطائفة ان تصهر الحرفيين ، على اختلاف مذاهبهم ، في انضباط مهني تجاوز حدود التمييز بينهم ، فشارك المسلمون والمسيحيون في انتخاب شيخ الطائفة الحرفية على اساس من المقدرة والاستقامة والتدين .

ومما يجدر بحثه ، في مجال الحياة الاجتماعية للطائفة الحرفية ، تقصي العلاقة بين الطوائف الحرفية والطرق الصوفية ، ومقدار ما اسهمت به التنظيمات الحرفية في نشر الطرق الصوفية ، واستمراريتها ، وكذلك مقدار ما مارسته الطرق الصوفية من تأثيرات على الحرفيين في مجال تقديم الطاعة لشيوخ الطوائف وموظفيها الاعلين . ونظرا لاهمية هذه الموضوعات التي لم تدرس بعد فانها تحتاج الى ابحاث خاصة بها .

وعلى الصعيد الاداري ، لعبت الطائفة دورا هاما من حيث تنظيم العلاقة بينها وبين السلطة الحاكمة . فالسلطة تبلغ اوامرها الى الحرفيين عن طريق شيخ الطائفة . وبالمقابل،يرفع الحرفيون مطالبهم الى السلطة عن طريق الشيخ. وتجلت العلاقة بين الطرفين ، بأوضح صورة ، في مجال الضرائب . ووجدت ضرائب ثابتة واخرى عارضة ، فالاولى ، التي اشير اليها احيانا باموال الميري (من اميري اي دولة) ، جمعت عن طريق الالتزام ، وهو في الغالب لسنة . ومثال ذلك التزام مقاطعة دق القطني ، ومقاطعة دلالية العطارين .. الخ . ويصعب معرفة نسب الضرائب الثابتة الى العارضة . وقد أشير الى الاخيرة بتعابير مختلفة مثل « تكاليف عرفية » أو « مال الاوردي او العرضي » ، أي الجيش ، وهي مدفوعات غير منتظمة فرضتها الدولة لتمويل حملة أو غير ذلك. اما « مال المشيخة » فهو ما يفترض انه مخصص لشيخ الطائفة . وايا كان الحال ، وجب على كل حرفي في الطائفة المساهمة ، حسب امكاناته ، في أداء الضريبة التي كانت تفرض بصورة جماعية ، ويقوم شيخ الطائفة ، بمساعدة بعض الموظفين ، بجمع اموال الضريبة من الافراد بالطريقة التي يرونها .

واشترك مع شيخ الطائفة في عملية توزيع الضرائب ثم جمعها كل من نقيب الطائفة واليكيت باشي فيها ، الى جانب شخص دعي بالمعرف . وقد نصب المعرف على مجموعة من الطوائف وكلفها بدفع ما توجب عليها بموجب الدفتر(٩٥). وذكر ايضا الحواط الذي يبدو أن مشاركته اقتصرت على جمع مال الجزية (٩٦).

وتوضح الامثلة التالية كيفية جمع الضرائب ، فقد اتفق شيخ طائفة الصابونية بمدينة حلب وجماعة من الصابونية مع طائفة الصابونية في محلة

بانقوسا على انه اذا وقعت على طائفة الصابونية بحلب تكاليف عرفية يكون أربعة أخماسها على المدينة وتوابعها ، والخمس الخامس على صابح بانقوسا (٩٧) . واذا تخلف عضو في الطائفة عن المساهمة في التكاليف العرفية « يفعل معه الحقارة التامة » (٩٨)

وفي الحالات التي تكون فيها طائفة ، او مجموعة طوائف ، تابعة (يمق) لطائفة اخرى ، تشترك هذه الطوائف معا في تحمل التكاليف ، مثال ذلك ان طائفتي المطافجية واللبابيدية التابعتين لطائفة الشعارين ، تحملتا ثلاثة أرباع التكاليف ، وتحملت طائفة الشعارين الربع الرابع (٩٩) ، وفي مثال آخر التزمت طائفة المسالخية ، التابعة لطائفة القصابين ، بدفع مبلغ معين للطائفة الاخيرة من التكاليف (١٠٠) .

وقد روعيت أوضاع الطوائف المادية عند فرض الضرائب عليها . مثال ذلك ان مبلغا من المال فرض على عدد من الطوائف الحرفية في حلب للمساهمة في تمويل حملة أمر بها السلطان ، وطلب من والي حلب المشاركة فيها ، وذلك في شوال ١٠٤٦ / آذار ١٦٣٧ . واجتمعت الطوائف المعنية واتفقت ، دون اكراه ، على توزيع مبلغ الضريبة بالنسب التالية :

جماعة بازرستان ٤٣٧ (بالقروش الريالية) ، بقالين ٢٩٤ ، قوافين ٢٧٣، عطارين ٢٥٩ ، سراجين ١٩٧ ، قره قماش ١٩٥ ، عقادين ١٨٧ ، سيوفية١٧٥، قاوقجية ١٦٤ ، صباغ ١٦١ ، سوق دهشة ١٥٩ ، خبازين ١٣٥ ، قصابين ١٣٢ ، مطاقجية ١٢٦ ، خياطين ١٢٣ ، حدادين ١٢١ ، سمرجية ٩٦ ، بياطرة ٨٩ ، اشجية ٨٢ ، فرايين ٨٢ ، علافين ٧٧ ، نجارين ٧٣ ، عباجية ٦٩ ، حبالين ٦١ ، سرفجية ٣٣ ، قازنجيان ٢٩ ، حلاقين ١٣ (١٠١) .

وسواء دلت كلمة جماعة على طائفة بكاملها ، ام على جماعة منها فان تفاوت النسب بين الجماعات يبقى قائما ، ويستدل منه على الملاءة المالية لكل جماعة . وليس غريبا ان جماعة بازرستان (اي السوق حيث خزن التجار بضائعهم وسوقوها واحتفظوا فيه بسيولتهم المالية وبالامانات) (١٠٢) ، تحملت العبء الاكبر من الضريبة .

وفي حالات اخرى وزعت الضريبة على افراد الطائفة بنسبة ما عين لكل منهم من المادة الخام ، التي درت عليه الارباح بحسب مقدارها وطاقته على تصنيعها ، مثال ذلك اتفاق افراد طائفة المعصرانية ان ما يطلب منهم من التكاليف

العرفية لجهة الميري في عام واحد يوزع بينهم على قدر أخذهم السمسم (١٠٣) . وفي مثال آخر اتفق أفراد طائفة الكونجية (الذين يدبغون جلود الجواميس المسماة بالكون) ان تؤخذ التكاليف العرفية منهم على قدر الجلود التي يدبغها كل منهم (١٠٤) .

واذا ما تعطلت فئة من طائفة حرفية عن العمل تحملت بقية الطائفه ماخص الفئة المعطلة من ضرائب ، مثال ذلك انه وجد في دمشق في الربع الثاني من القرن الثامن عشر ، تسعة محامص للبن ، موزعة في مختلف مناطق المدينة ، وشكل اصحابها طائفة محمصي البن ، وكان على الطائفة مائتا قرش ضريبة في الشهر . وقد تعهد افراد الطائفة لدى القاضي انه اذا تعطل أحد المحامص فانهم يتحملون ما عليه من مال الميري بحيث لاينقص هذا المال (١٠٥) .

وبالاضافة الى دورها الاداري ، قامت الطوائف الحرفية بدور سياسي وعسكري ، وبخاصة في القرن الثامن عشر ، حين ضعفت سلطة الدولة ، وبرزت المنظمات الشعبية في مراكز المدن ، مثل اليرلية في دمشق (وهي الطائفة الانكشارية التي سيطر عليها السكان المحليون) ، والاشراف في حلب ، ورجال الاحياء،للدفاع عن مصالح السكان المحليين . وقد استعرض الحرفيون في دمشق في حوالي ١٧٦٠ ، وكان بعضهم « بالاسلحة والعدد والدروع الفاخرة » (١٠٦) .

أثر الاقتصاد الاوربي على الطوائف الحرفية في القرن التاسع عشر

أدت الثورة الصناعية في اوربا ، وبخاصة في مجال صناعة النسيج ، الى اغراق اسواق العالم ، في القرن التاسع عشر ، بالبضائع التي تميزت بالجودة والرخص . وكان ذلك ضربة شديدة للصناعات الحرفية المحلية التي لم تقو على الوقوف في وجهها (١٠٧) .

وقاست الصناعة الحرفية في بلاد الشام من منافسة البضائع الاوربية فضعفت وافتقر اصحابها . وتضرر الاقتصاد المحلي بصورة عامة . ويعزى ذلك الى سببين رئيسيين ، أولهما عدم اهتمام اوربا ، في فترة التصنيع الاقتصادي ، بمبادلة منتجاتها بالمنتجات المحلية ، كما كان الامر قبل الثورة الصناعية . فقد غدت انتقائية فيما تستورد ، واقتصرت على ما يغذي صناعاتها الناشطة . وبذلك كسدت في بلاد الشام المنتجات التي لم تعد تلائم اغراض

الصناعة الاوربية . والسبب الثاني هو اضطرار بلاد الشام ، ازاء هذا الوضع ، الى دفع ثمن البضائع المستوردة بالعملة النقدية ، اكثر منها بالمنتجات المحلية ، مما ارهق ميزانها التجاري .

وادى تدفق البضائع الاوربية الى بلاد الشام ، ورواجها فيها ، الى قيام دكاكين متخصصة ببيعها . وذكر من هذه الدكاكين في عام ١٨٥٥/١٢٧١ دكان بسوق الخياطين بالصف الغربي معدة لبيع الاقمشة الافرنجية ، واربعة دكاكين بسوق البريد بالصف الغربي معدة لبيع الاقمشة والامتعة الافرنجية ، ودكان اخرى بالصف الشرقي من هذا السوق (١٠٨) ونستدل من هذا ان البضائع الافرنجية اصبحت تحتل اماكن بارزة في أسواق دمشق الرييسية . ولم تقتصر الصادرات الاوربية على الاقمشة بل تعدتها الى المواد الاولية ، واصبح الغزل الافرنجي ، مثلا ، يستعمل في الانسجة المحلية .

وقد تعرض عدد متزايد من العاملين في النسيج الى الافلاس بسبب مزاحمة البضائع الاوربية . وتدنت قيمة الانوال ، وكذلك قيمة خلو الدكاكين وكدكاتها ، وكثر بيعها بفعل كساد المنتجات المحلية ، وقصر ملتزمو الضرائب عن دفع كامل ما يستحق عليهم من أموال للدولة نظرا لعجز الحرفيين عن تأدية ما يترتب عليهم لهم . وجاء في الكتاب الذي رفعه عبد القادر آغا خطاب ، احد كبار الملتزمين بدمشق ، الى السلطات المسؤولة فيها ، مطالبته بتخفيض قيمة التزام دمغة القطني والالاجة والصلواتي والديما ، وقلم المنكنا ودق القطني والالاجة وغيرها ، التي كانت في عهدته، بسبب « حالة الكار وقلة تشغيله من قبل تكاثر وجود اجناس البضائع الافرنجية فالاقمشة الشامية كلما لها على تدني ومن ذلك يزيد بالاقلام (الالتزام) المذكورة تدني حاصلاتها وهذا شيء معلوم عند حضراتكم » (١٠٩) . وقد نظرت السلطات المعنية في هذا التقرير في ٥ محرم ١٢٦١ / ١٤ كانون الثاني ١٨٤٥ ، وقررت « بخصوص توقف بضائع الاقلام المذكورة في محروسة الشام من تكاثر البضائع الافرنجية فهذا مشاهد وملحوظ من تدقيق الاقلام المذكورة وتنازل اموالها عن العام الماضي لقلة رواج بضائعها التي هي القطني واللاجة والسدي فقبول هذا الالتماس فيه المغدورية على جانب الميري وان كانت اعذار عبد القادر آغا من تدني الاقلام المذكورة لسبب تدقيربضائعهامقبول»(١١٠) .

وانعكس اضطراب صناعة النسيج المحلية على تناقص عدد الانوال وانتاجها، فقد قدر عدد أنوال النسيج في دمشق في أواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر باربعة آلاف نول ينتج النول الواحد منها في الاسبوع بين اربع وخمس قطع

منسوجة (١١١) ، اي ما يقرب من ٨٣٢٫٠٠٠ الى ١٫٠٤٠٫٠٠٠ قطعة سنوياً . وقدر عدد انوال القطني في دمشق عام ١٨٥٠ ب ٦٥٣ نولا ، استخدمت ٦١٣ رجلا و ٣٠٠ ولد . وقدر عدد أنوال الالاجة في السنة نفسها ب ١٠١٣ نولا ، استخدمت ١٠١٣ رجلا و ١٣٠٠ ولد ، وبلغ مجموع انتاجها بين ٢٢٠٫٠٠٠ و ٢٣٠٫٠٠٠ قطعة سنوياً (١١٢) ، وقدر عدد الانوال في عام ١٨٦٢ ، في اعقاب الاضطرابات في دمشق التي زادت في تعطيل الاقتصاد المحلي ، حوالي ٣٠٠ نول ، كان نصفها فقط منتجاً (١١٣) . ورغم ان عدد الانوال بلغ في السبعينات من القرن التاسع عشر ٥٢٥٠ نولا ،كما ذكرنعمان القساطلي(١١٤)، الا انه اعتبر عددها هذا اقل مما كان عليه في بداية جيله . واضاف « اما الان فقد نكبت صنائع دمشق اعظم نكبة ولا سيما صنعة النسيج لسبب غلاء الحرير وكثرة انتشار البضائع الافرنجية مع عدم متانتها » . ويلاحظ ان ٢٣٠٠ نول من مجموع الانوال التي ذكرها القساطلي اختصت بنسيج الديما ، وهو النسيج الذي ابتكرته الصناعة المحلية لترد على منافسة البضائع الاجنبيــة . وذكر الياس القدسي (١١٥) في عام ١٨٨٣ « ان من تفحص احوال الحرف الدمشقية ونظر اليها نظر المنتقد المدقق يرى انها في تأخير عظيم يوجب الاسف من جهة وفي اتقان يوجب الدهشة من جهة اخرى ... اما الترتيب ... فهو كمال الانتظام وحسن الترتيب اللذان لم يزالا محفوظين من ازمنة قديمة الى يومنا هذا بين عملة اليدين من كل نوع وملة » .

ونظراً للازمات الاقتصادية التي تعرض لهـا الحرفيون بسبب منافسة البضائع الاجنبية للبضائع المحلية كثر الفقر والافلاس في صفوفهم ، وعمدت السلطة القضائية الى جرد ثروة المفلس وتوزيعها على الدائنين . ففي احدى الحالات اخذ الدائن من أصل القرش ربعه وسامح المدين بالباقي ، وفي حالة اخرى اخذ النصف وبقي له بذمة المدين النصف الاخر ، وذلك بعد ان ثبت للقاضي ،في الحالين ، ان المدين معسر فعلا .

وغدا تهرب الحرفيين من دفع الضرائب امراً شائعاً . ولجأ بعضهم الى طلب حماية القناصل الاجانب والحصول على براءة من قبلهم لتحاشي الضرائب ، وعرف الواحد منهم ، في هذه الحال ، بانه « براءتلي » ، اي صاحب براءة تعفيه من دفع الضرائب . وفي احدى الحالات تقدمت طائفة فتالة الحرير بمعروض الى سلطات دمشق تبين فيه ان بعض افرادها ينقطعون عن العمل وقت دفع أموال الميري ، ويعودون اليه بعد دفعه ، لتحاشي مشاركتهم في الدفع . فقررت السلطات ان الذي يشتغل بالحرفة يجب ان يساوي أهل حرفته بمال الميري ،

وفي حال انقطاعه عن العمل يجب ان يعطي سنداً بعدم العودة اليه ، واذا عاد واشتغل ، ولو باخر السنة ، وجب عليه ان يدفع ما خصه من مال الميري ، ويطلب ذلك ايضاً ممن هم تحت الحماية .

واذا كانت البضائع الاجنبية قد اوجدت ازمة بالنسبة لصناعة النسيج المحلية ، فان التجار المحليين سرعان ما تاقلموا مع الوضع الجديد وجنوا ثروات كبيرة نتيجة تعاطيهم المتاجرة بالبضائع الاجنبية . واصبح تعاملهم مع « لوندره» وغيرها امراً مالوفاً . ونشات بنتيجة ذلك طبقة بورجوازية محلية من التجار والوسطاء ، ضمت اناساً من مختلف المذاهب ، كما يستدل من ثروات التجار وانواع السلع التي تعاطوها .

وادى التداخل بين الاقتصاد الاوربي والاقتصاد المحلي والتعقيدات التي نجمت عن تشعب التجارة الى انشاء محكمة تجارية بدمشق عام ١٨٥٠ (١١٦) . وكانت محكمة مشابهة قد انشئت في دمشق في اواخر الحكم المصري ثم الغيت (١١٧) ، وانشئت محكمة مماثلة في حلب في عام ١٨٥٥ (١١٨) .

وادت كثرة البضائع المتدفقة من اوربا الى بلاد الشام ، في القرن التاسع عشر ، الى الحاجة الى ميناء جديد يتسع لاستقبال السفن الكبيرة التي اخذت تسير بقوة البخار . وكانت الموانى التقليدية ، قبل ذلك ، مثل الاسكندرونة وطرابلس وصيدا ، صالحة لاستقبال السفن الشراعية التي تحمل كميات محدودة من البضائع . ولهذا انشىء ميناء بيروت لاستقبال البضائع الاوربية بكميات كبيرة . واقتضى ذلك انشاء طريق بيروت ـ دمشق لتصريف البضائع في الداخل . وقد بدأ العمل في هذا الطريق عام ١٨٥٩ من قبل شركة عثمانية مغفلة وبراسمال فرنسي بلغ ثلاثة ملايين فرنك موزعة على ستة الاف سهم . وافتتح الطريق رسمياً في الاول من كانون الثاني ١٨٦٣ (١١٩) وارتفع عدد المسافرين عليه من ٥٨٠٩ عام ١٨٦٣ الى ٨٤١٨ مسافراً في العام التالي . ووصل العدد عام ١٨٦٩ الى ٩٥٠٩ مسافر (١٢٠) . وجرت اتصالات بين ممثلي الشركة والقبائل البدوية المسيطرة على طرق المواصلات في بادية الشام لتسهيل انتقال القوافل التجارية بين دمشق وبغداد لنقل البضائع اليها من بيروت ولطريق بيروت ـ دمشق اهميته في مجال الحياة الاجتماعية والثقافية ، فضلا عن اهميته الاقتصادية ، لانه اصبح المعبر الرئيس للافكار والعادات الاوربية .

وادى انشاء شركات الملاحة الاوربية في البحر المتوسط (١٢١) في القرن التاسع عشر الى استخدام عدد كبير من الحجاج الاتراك طريق البحر للسفر

الى الحجاز ، وبخاصة بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، مما انقص عدد الحجاج المارين بدمشق (١٢٢) . وحرمت دمشق ، وبلاد الشام بعامة ، من كثير من النشاط التجاري الذي رافق قافلة الحج (١٢٣) .

ورغم التأثيرات المدمرة للاقتصاد الاوربي المتصنع على الصناعات المحلية ، وبالتالي على الطوائف الحرفية ، فلم تعدم الصناعة المحلية وسائل التأقلم والرد على هذا التحدي(١٢٤) . فقد تكيفت بعض الصناعات مع التحدي الاوربي، وظهرت صناعات محلية تجمع ما بين المحلي والمستورد ، من ناحية المادة والزي . ولمجابهة راس المال الاوربي المتفوق عمد التجار المحليون الى التحول تدريجياً عن الفردية التجارية ، الى المشاركة لمواجهة التحدي ، كما عمدوا الى تقليد البضائع الاوربية . فظهر في دمشق نسيج الديما ، الذي قلد الالاجة ، وهو القماش المقلم المصنوع من الحرير والقطن . فعوضاً عن الخيوط الحريرية استخدمت القطنية فقط ، وهي ارخص ثمناً . وراجت الديما كثيراً . وحين شاع لبس البنطلون محلياً (الكلمة فرنسية ذات اصل ايطالي) ، نسج نوع خفيف الوزن من الديما يصلح لصناعة البنطلون ولبسه في الصيف . وكان هذا النسيج اجود وارخص ثمناً من النسيج الاوربي المماثل . واستخدمت المياه في تشغيل الات غزل القطن محلياً . ورغم النجاح في هذه النواحي فلم يلق تقليد القماش الافرنجي المعرق رواجاً محلياً اذ ان « النساء ابين لبسه لانه غير مشرف بوسام افرنجي » (١٢٥) . وهكذا أصبح الاقتصاد المحلي يدور في فلك الاقتصاد الاوربي ، وترتب على ذلك حدوث تحولات اقتصادية واجتماعية وثقافية عميقة في بلاد الشام .

---

(١) انظر مثلا :

Louis Massignon, **Encyclopédie de l'Islam**, 1ère ed. s.v. sinf; Claude Cahen, «Y-a-t-il eu des corporations professionnelles dans le monde musulman classique?» dans The **Islamic City**, edd. A.H. Hourani, S. M. Stern, Oxford, 1970, pp. 51 - 63.

(٢) رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، جزءان ، تحقيق الدكتور علي المنتصر الكتاني ، بيروت ١٩٧٥ ، ج ١ ، ص ٣١٤ ـ ٣١٥ .

(٣) انظر : سجل دمشق الشرعي ، رقم ٤٥ ، ص ٥٨ ، (تاريخ القضية) ٢٨ شعبان ١١٣٢ / ٥ تموز ١٧٢٠) .

(٤) عني بنشرها محمد احمد دهمان ، دمشق ، ١٣٤٣ .

(٥) انظر الدراسة الهامة من الطوائف الحرفية في مصر التي قام بها :

André Raymond, **Artisans et Commerçants au Caire au XVIIIe Siècle,** 2 tomes, Damas 1973 - 1974.

(٦) في جزئين ، الجزء الاول ، تأليف محمد سعيد القاسمي ، والثاني تأليف جمال الدين القاسمي وخليل العظم ، تحقيق ظافر القاسمي ، نشر موتون وشركاه ، باريس — لاهاي ، ١٩٦٠ .

(٧) الياس بن عبده بك قدسي قنصل دولة هولانده في دمشق ، « نبذة تاريخية في الحرف الدمشقية » ، قدمها للمجمع العلمي الشرقي الملتئم في مدينة ليدن ، عام ١٨٨٣ ، ونشرت في :

Carlo Landberg, **Actes du VIe congrès des Orientalistes,** t. 2, Leiden, 1885.

(٨) مثلا وجد في دمشق في القرنين السابع عشر والثامن عشر من يصنع البنادق ، الذي عرف بلقب بندقجي . ولكن لم تذكر طائفة البندقجية وربما لان صنع البنادق كان ممنوعا من قبل الدولة، انظر حول عمل هؤلاء البندقجية وهويتهم بحثنا :

«The Local forces in Syria in the seventeenth and eighteenth centuries», in **War, Technology and Society in the Middle East,** edd. V. J. Parry and M.E. Yapp, Oxford University Press, 1975, p. 298.

(٩) انظر : Raymond, I, p. 265.

(١٠) انظر بحثنا بعنوان :

«The Law-Court registers of Damascus, with special reference to craft-corporations during the first half of the eighteenth century», dans **Les Arabes par Leurs Archives (XVIe-XXe siècles)**. par J. Berque et D. Chevallier, Editions du Centre National de la Recherche Scientifique, Paris, 1976, p. 156.

(١١) انظر : سجل دمشق ، رقم ٢٢ ، ص ٦٠ ، ٥ ربيع الاول ١١٠١ / (١٧ كانون الاول ١٦٨٩) .

(١٢) انظر كنموذج لهذا النوع من البحث دراستنا : غزة ، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية ، من خلال الوثائق الشرعية ، ١٢٧٣ — ١٢٧٧ / ١٨٥٧ — ١٨٦١ ، بحث قدم للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام المنعقد في الجامعة الاردنية بعمان ، ١٩ — ٢٤ نيسان ١٩٨٠

(١٣) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٢٣٧ ، ٥ صفر ١٠٣٧ (١٦ تشرين الاول ١٦٢٧) .

(١٤) سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ٩١ ، ٢٤ رمضان ١١١٩ / (١٩ كانون الاول ١٧٠٧) .

(١٥) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، ص ١٣٤ ، ٢٧ محرم ١٠٥٥ / (٢٥ آذار ١٦٤٥) .

(١٦) سجل دمشق ، رقم ١٥١ ، ص ٢٦٠ ، ٦ ذي القعدة ١١٦٨ / (١٤ آب ١٧٥٥) .

(١٧) سجل حلب ، رقم ٢٣ ، ص ٤٤٨ ، ١١ رجب ١٠٥٥ / (٢ ايلول ١٦٤٥) .

(١٨) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٣٠٢ ، ٢٨ محرم ١٠٣٨ / (٢٧ ايلول ١٦٢٨) .

(١٩) سجل حلب ، رقم ١٠ ، ص ٥٩٥ ، ٢٠ رجب ١٠١٧ / (٣٠ تشرين الاول ١٦٠٨) .

(٢٠) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٠٩ ، ٢٥ محرم ١٠٤٤ / (٢١ تموز ١٦٣٤) ، رقم ٢٤ ، ص ٢٨٠ ، ٢٥ ربيع الاول ١٠٥٥ / (٢١ أيار ١٦٤٥) .

(٢١) سجل دمشق ، رقم ٢٢ ، ص ٢٨٥ ، ١٢ جمادى الثاني ١١٠١ / (٢٣ آذار ١٦٩٠) .

(٢٢) نبذة تاريخية ، ص ٢٨ .

(٢٣) سجل دمشق ، رقم ١١ ، ص ١٢١ ، ٢٢ محرم ١٢٦١ / (٣١ كانون الثاني ١٨٤٥) .

(٢٤) سجل دمشق ، رقم ٥٠ ، ص ٢٨ ، ٢٥ ذي الحجة ١١٣٤ / (٦ تشرين الاول ١٧٢٢).

(٢٥) سجل دمشق ، رقم ٢٤ ، ص ١٥٩ ، ٢٢ ذي الحجة ١١٠٣ / (٤ ايلول ١٦٩٢) .

(٢٦) محمد الامين المحبي ، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ، أربعة اجزاء ، القاهرة، ١٢٨٤ / ١٨٦٩ ، ج ٤ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٢٧) ص ١٠ .

(٢٨) القدسي ، ص ١٥ - ٣٠ .

(٢٩) ص ١١ .

(٣٠) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٤٢٠ ، ٢٠ محرم ١٠٣٩ / (٩ ايلول ١٦٢٩) .

(٣١) المصدر السابق ، ص ٨٥٢ ، ٩ رمضان ١٠٤٦ / (٤ شباط ١٦٣٧) .

(٣٢) حوادث دمشق اليومية ١١٥٤ - ١١٧٥ / ١٧٤١ - ١٧٦٢ ، تحقيق الدكتور احمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣٩ .

(٣٣) نبذة تاريخية ، ص ١٢ .

(٣٤) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٦٨٨ ، ٤ ربيع الثاني ١٠٤٣ / (٨ تشرين الاول ١٦٣٣) .

(٣٥) المصدر السابق ، ص ٨٥ ، ٢٤ ذي القعدة ١٠٣٥ / (١٧ آب ١٦٢٦) ، ص ٧٦١ ، ٩ ربيع الثاني ١٠٤٥ / (٢٢ ايلول ١٦٣٥) .

(٣٦) ص ١٤ .

(٣٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٩١ ، ١٧ شعبان ١٠٤٥ / (٢٦ كانون الثاني ١٦٣٦) ، ص ٨٣٠ ، ٣ ربيع الثاني ١٠٤٦ / (٤ ايلول ١٦٣٦) .

(٣٨) المصدر السابق ، ص ٦٢١ ، ٢٥ ذي القعدة ١٠٤١ / (١٣ حزيران ١٦٣٢) .

(٣٩) سجل حلب ، رقم١٢ ، ص٤٢٣، أواخر ربيع الاول٩٩٩/(أواخر كانون الثاني ١٥٩١).

(٤٠) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، ص ١٣٧ ، ٢٨ محرم ١٠٥٥ / (٢٦ آذار ١٦٤٥) .

(٤١) سجل حلب ، رقم ٢٠ ، ص ١٤ ، سلخ محرم ١٠٤٦ / (٤ تموز ١٦٣٦) .

(٤٢) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٥٢ ، ١٤ محرم ١٠٤٥ / (٣٠ حزيران ١٦٣٥) .

(٤٣) المصدر السابق ، ص ٣٨٠ ، ٢٢ جمادى الاول ١٠٣٨ / (١٧ كانون الثاني ١٦٢٩) .

(٤٤) المصدر السابق ، ص ٧٦١ ، ١٧ ربيع الثاني ١٠٤٥ / (٣٠ ايلول ١٦٣٥) .

(٤٥) المصدر السابق ، ص ٣٩٥ ، ١٦ شوال ١٠٣٨ / (٨ حزيران ١٦٢٩) .

(٤٦) سجل دمشق ، رقم ٢٨٨ ، ص ٣٣٧ ، ١٥ جمادى الثاني ١٢٦٤ / (١٩ أيار ١٨٤٨).

(٤٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٣٨٦ ، ٢٥ جمادى الثاني ١٠٣٨ / (١٩ شباط ١٦٢٩) .

(٤٨) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، ص ١٢٥ ، ٦ ربيع الثاني ١٠٥٢ / (٤ تموز ١٦٥٢) .
(٤٩) سجل دمشق ، رقم ٢١ ، ص ٢٨٥ ، ١٥ جمادى الثاني ١١٠١ / (٢٤ شباط ١٦٩٠) .
(٥٠) سجل دمشق ، رقم ٤٥ ، ص ٥٨ ، ٢٨ شعبان ١١٣٢ / (٥ تموز ١٧٢٠) .
(٥١) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، ص ٣٧٦ ، ٢ ذي القعدة ١٠٥٢ / (٢٢ كانون الثاني ١٦٤٣) .
(٥٢) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٨٠٥ ، ٢٦ ذي الحجة ١٠٤٥ / (١ حزيران ١٦٣٦) .
(٥٣) سجل حلب ، رقم ٦ ، ص ٢٨٠ ، أواسط ربيع الاول ٩٩٦ / (أواسط شباط ١٥٨٨).
(٥٤) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٢٠٨ ، ٦ ذي القعدة ١٠٣٦ / (١٩ تموز ١٦٢٧) .
(٥٦) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٦٨٨ ، ٤ ربيع الثاني ١٠٤٣ / (٦ تشرين الثاني ١٦٣٣).
(٥٧) سجل حلب ، رقم ٦ ، ص ٢٦٥ ، سلخ صفر ٩٩٦ / (٢٩ كانون الثاني ١٥٨٨) .
(٥٥) المصدر السابق ، ص ٢٣٩ ، ٥ صفر ١٠٣٧ / (١٦ تشرين الاول ١٦٢٧) .
(٥٨) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٥٨ ، ٢٩ رجب ١٠٥٠ / (١٤ تشرين الثاني ١٦٤٠) .
(٥٩) سجل حلب ، رقم ٧ ، ص ٤ ، ٢٩ رجب ٩٩٨ / (٣ حزيران ١٥٩٠) .
(٦٠) سجل حلب ، رقم ١١ ، ص ٢٧٦ ، ١٠ ذي القعدة ١٠٢٧ / (٢٩ تشرين الاول ١٦١٨) ، رقم ١٥ ، ص ٤٨٤ ، ٢١ رجب ١٠٣٩ ، رقم ٢١ ، ص ٢٤٨ ، ٦ شوال ١٠٤٩ / (٣٠ كانون الثاني ١٦٤٠) ، رقم ٢٢ ص ١٥٣ ، ٥ شوال ١٠٥٠ / (١٨ كانون الثاني ١٦٤١) .
(٦١) سجل دمشق ، رقم ٥٩ ، ص ٢٢٠ ، ١٠ رمضان ١١٤١ / (٩ شباط ١٧٢٩) .
(٦٢) سجل حلب ، رقم ٦ ، ص ١٦٥ ، أوائل صفر ٩٩٦ / (أوائل كانون الثاني ١٥٨٨) .
(٦٣) سجل حلب ، رقم ٤ ، ص (بدون ترقيم) ، غرة ربيع الثاني ١٠٥٢ / (٢٩ حزيران ١٦٤٢) ، رقم ٢٥ ، ص ١٩٦ ، ٢٢ شوال ١٠٥٨ / (٩ تشرين الثاني ١٦٤٨) .
(٦٤) سجل حلب ، رقم ١٠ ، ص ٨٧٠ ، أوائل ذي الحجة ١٠١٦ / (أواسط آذار ١٦٠٨) .
(٦٥) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٨٩ ، ٢٥ شعبان ١٠٥٠ / (١٠ كانون الاول ١٦٤٠) .
(٦٦) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٥٠٠ ، (؟) رجب ١٠٢٨ / (حزيران ـ تموز ١٦١٩) .
(٦٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٥٨٨ ، أواسط ربيع الثاني ١٠٤١ / (أوائل تشرين الثاني ١٦٣١) .
(٦٨) سجل دمشق ، ٢٨ ، ص ١٩٥ ، ٤ جمادى الثاني ١١١٢ / (١٦ تشرين الثاني ١٧٠٠) .
(٦٩) انظر : سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ١٣٦ ، ٥ ذي الحجة ١١٩ / (٢٧ شباط ١٧٠٨)، ص ١٣٩ ، ١٤ ذي الحجة ١١١٩ / (٧ آذار ١٧٠٨) .
(٧٠) سجل حلب ، رقم ١١ ، ص ٧٦ ، ٢٢ محرم ١٠٢٧ / (١٩ كانون الثاني ١٦١٨) .
(٧١) المصدر السابق ، ص ٥٥ ، ٢٩ ذي الحجة ١٠٢٦ / (٢٨ كانون الاول ١٦١٧) .
(٧٢) سجل دمشق ، رقم ٢٤ (بدون ترقيم) ، ٨ رجب ١٠٩١ / (٤ آب ١٦٨٠) .
(٧٣) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٢٤٨ ، ١٤ رمضان ١٠٤٩ / (٨ كانون الثاني ١٦٤) .
(٧٤) سجل دمشق ، رقم ٤٧٢ ، ص ١٣١ ، ١٤ صفر ١٢٧٢ / (٢٦ تشرين الاول ١٨٥٥) .

(٧٥) انظر تفاصيل اخرى عن الكدك في دمشق وحلب في بحثنا التالي الذي القيناه في المؤتمر الدولي الثاني للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي لتركيا ، المنعقد في جامعة ستراسبورغ بين ١ ـ ٥ تموز ١٩٨٠ :

«The Impact of Europe on a traditional economy : The case of Damascus, 1840 - 1870», IIe Congrès International d'Histoire Economique et Sociale de la Turquie, Colloque : Economie et Sociétés dans l'Empire Ottoman, fin du XVIIIe-début du XXe siècle, Strasbourg, 1er - 5 Juillet 1980.

(٧٦) سجل حلب ، رقم ٦ ، ص ١٦٦ ، ٣ صفر ٩٩٦ / (٣ كانون الثاني ١٥٨٨) .

(٧٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٦٠٢ ، أواخر رجب ١٠٤١ / (اواسط شباط ١٦٣٢).

(٧٨) سجل دمشق ، رقم ٣٤ ، ص ٢٨ ، ٢٩ ذي الحجة ١١٢٢ / (١٨ شباط ١٧١١) .

(٧٩) سجل دمشق ، رقم ٢٨ ، ص ٢٢٠ ، ١١ محرم ١١١٤ / (٩ حوز ١٦٩٩) .

(٨٠) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٨٨ ، ٢٢ شعبان ١٠٥٠ / (٧ كانون الاول ١٦٤٠) .

(٨١)

André Raymond, «Le déplacement des tannerie à Alep, au Caire et à Tunis». **Revue d'Histoire Maghrébine,** VII - VIII, 1977.

(٨٢) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٤٢٠ ، ٢٠ محرم ١٠٣٩ / (٩ ايلول ١٦٢٩)

(٨٣) سجل حلب ، رقم ٢٥ ، ص ١٠٤ ، ١٠ شعبان ١٠٥٨ / (٣٠ آب ١٦٤٨) .

(٨٤) سجل حلب ، رقم ١٢ ، ص ١٦٣ ، ١٠ جمادى الاول ١٠٣٢ / (١٢ آذار ١٦٢٣) .

(٨٥) قاموس الصناعات الشامية ، ج ٢ ، ص ٤٨٤ .

(٨٦) سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ٨٠ ، ٢٣ شعبان ١١١٩ / (١٩ تشرين الثاني ١٧٠٧) .

(٨٧) سجل حلب ، رقم ٢ ، ص ١٥٢ ، ١٧ ذي الحجة ١٠٠١ / (٢٤ ايلول ١٥٩٣) .

(٨٨) سجل دمشق ، رقم ٢١ ، ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ ، غرة جمادى الثاني ١١٠١ / (٥ آذار ١٥٩٣) .

(٨٩) سجل دمشق ، رقم ١٤٨ ، ص ١٥٧ ، ١٩ جمادى الاول ١١٦٨ / (٣ آذار ١٧٥٥).

(٩٠) سجل دمشق ، رقم ١٤٨ ، ص ١٧٤ ، ٥ جمادى الثاني ١١٦٩ / (٧ آذار ١٧٥٦).

(٩١) سجل حلب ، رقم ٢٢ ، ص ٨٩ ، ٢٥ شعبان ١٠٥٠ / (١٠ كانون الاول ١٦٤) .

(٩٢) سجل حلب ، رقم ٢٥ ، ص ١٢٤ ، ١٩ شعبان ١٠٥٨ / (٢٨ آب ١٦٤٩) ، وانظر كذلك ، دمشق ، سجل ٥١ ، ص ١١٩ ، ٨ رجب ١١٣٥ / (١٤ نيسان ١٧٢٣) .

(٩٣) سجل حلب ، رقم ٢٣ ، ص ١٨٤ ، ١٩ جمادى الثاني ١٠٥٢ / (١٤ ايلول ١٦٤٢).

(٩٤) سجل حلب ، رقم ١٢ ، ص ٤٦٧ ، ١٩ ربيع الثاني ٩٩٩ / (١٤ شباط ١٥٩١) .

(٩٥) سجل دمشق ، رقم ٥١ ، ص ٣٦ ، ٧ ربيع الاول ١١٣٥ / (١٦ كانون الاول ١٧٢٢).

(٩٦) سجل حلب ، رقم ٢٣ ، ص ٤٤٧ ، ٧ رجب ١٠٥٥ / (٢٩ آب ١٦٤٥) .

(٩٧) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٨٥٢ ، ٩ رمضان ١٠٤٦ / (٤ شباط ١٦٣٧) .

(٩٨) المصدر السابق ، ص ٧٩٩ ، ١١ ذي القعدة ١٠٤٥ / (١٧ نيسان ١٦٣٦) .
(٩٩) سجل حلب ، رقم ٢٤ ، (بدون ترقيم) ، ١٧ شعبان ١٠٩٠ / (٢٣ ايلول ١٦٧٩) .
(١٠٠) سجل دمشق ، رقم ٢١ ، ص ٢٨٥ ، ١٥ جمادى الثاني ١١٠١/(٢٦ آذار ١٦٩٠).
(١٠١) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٨٢٠ ، ٢٦ شوال ١٠٤٦ / (٢٣ آذار ١٦٣٧) .
(١٠٢) انظر حول اهمية البازرستان (أو البدستان) في الدولة العثمانية :

Halil Inalcik, «The Hub of the City - the Bedestan of Istanbul», **International Journal of Turkish Studies**, Vol. 1, No. I, pp. 1 - 17.

(١٠٣) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٣٤ ، ٢٧ شعبان ١٠٤٤ / (١٥ شباط ١٦٣٥) .
(١٠٤) المصدر السابق ، ص ٨٣٨ ، ٢٥ جمادى الثاني ١٠٤٦ / (٢٤ تشرين الثاني ١٦٣٦).
(١٠٥) سجل دمشق ، رقم ١٠١ ، ص٢ ، ٢ جمادىالثاني ١١٥١ / (٧ تشرين الثاني ١٧٣٨).
(١٠٦) البديري ، ص ٢٣٤ ، وانظر ايضا بحثنا :

«Changes in the Relationship between the Ottoman Central Administration and the Syrian Provinces from the Sixteenth to the Eighteenth Century, in **Studies in Eighteenth Century Islamic History**, edd. Thomas Naff and Roger Owen, Southern Illinois University Press, 1977, p. 65.

(١٠٧) انظر الدراسة الهامة التي قام بها حول لبنان :

Dominique Chevallier, **La Société du Mont Liban à l'Epoque de la Révolution Industrielle en Europe**, Paris, 1971.

(١٠٨) سجل دمشق ، رقم ٤٧٢ ، ص ٣٢ ، ٢٩ شعبان ١٢٧١ / (١٧ أيار ١٨٥٥) .
(١٠٩) سجل دمشق ، رقم ١١ ، ص ٩٦ ، ٥ محرم ١٢٦١ / (١٤ كانون الثاني ١٨٤٥) .
(١١٠) المصدر السابق .
(١١١) انظر :

John Bowring, **Report on the Commercial Statistics of** Central Administration and the Syrian Provinces from the Sixteenth to the Eighteenth Century, in Studies in Eighteenth **Middle East, 1800 - 1914**, ed. Charles Issawi, Chicago, 1966, p. 2'4.

(١١٢) انظر :

Affaires Etrangères; Correspondence Commerciale, (Paris, Quai d'Orsay), Damas 3, (dépêche de) 20 janvier, 1850.

(١١٣) انظر :

A.E. CC, Damas 4, 16 occtobre, 1962.

(١١٤) ص ١٢٣ .
(١١٥) « نبذة تاريخية » ، ص ٨ — ٩ .
(١١٦)

AE, CC, Damas 3, 28 mai, 1850.

(١١٧) Bowring, p. 93.

(١١٨) AE, CC, Alep 31, 31 mai, 1855.

(١١٩) AE, CC, Damas 4, 12 juin, 1863, Damas 5, 29 avril 1870.

(١٢٠) AE, CC, Damas 5, 29 avril, 1870.

(١٢١) مثل شركتي : Messageries Impériales, et Compagnie Russe

انظر : AE, CC, Damas 5, 19 Janvier, 1870.

(١٢٢) انظر بحثنا : «The Impac of Europe», pp. 4 - 5.

(١٢٣) القساطلي ، ص ١٢٤ – ١٢٥ .

(١٢٤) انظر :

Dominique Chevallier, «Un exemple de résistance technique de l'artisanat syrien aux XIXe et XXe siècles, les tissus ikatés d'Alep et de Damas», Syria, 39 (1962).

(١٢٥) القساطلي ، ص ١٢٣ .



قافلة الحج الشامي
وأهميتها في العهد العثماني

د. عبد الكريم رافق

كلية الاداب ـ جامعة دمشق

كانت قافلة الحج الشامي احدى قافلتين رئيستين في الدولة العثمانية ، والقافلة الاخرى هي قافلة الحج المصري . وقد اوجدت في عام ٩٦٣/١٥٥٦ قافلة ثالثة ، هي قافلة الحج اليمني ، ولكن وجودها كان متقطعا ، والغيت في عام ١٦٣٥ ، عندما استقل اليمن ، بزعامة الائمة الزيديين ، عن العثمانيين . وكان اليمن بذلك اول ولاية عربية تخرج عن السلطة العثمانية .

وقد لعبت قافلة الحج الشامي دورا هاما في تاريخ دمشق وبلاد الشام بعامة ، من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية . وكانت لها اهمية خاصة في الدولة العثمانية لان السلطان العثماني ، منذ فتحه حلب في عام ١٥١٦، اتخذ لقب حامي (او خادم) الحرمين الشريفين ، واقتضى ذلك تامين سلامة الحجاج لزيارة الحرمين الشريفين . كما ان انتقال العلماء والافكار ، وكذلك التجار ورؤوس الاموال ، من دمشق واليها ، ابان فترة الحج ، كانت له آثاره الواضحة محليا وفي الدولة العثمانية ككل .

تشكل القافلـة

ام دمشق ، في موسم الحج ، عدد كبير من الحجاج ، من المناطـق الشمالية والشرقية ، من داخل الدولة العثمانية وخارجها . ووصل الحجاج اليها جماعات عرفت بحسب مناطقها . وكان ابرزها الحج الرومي ، والحج الحلبي ، والحج العجمي،

* اعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ، ١٦ ـ ٢١ جمادي الاخرة ١٤٠١ هـ / ٢٠ ـ ٢٦ نيسان ١٩٨١ م .

والحج الشـــامي(١) . ولم تكن هذه التقسيمات الجغرافية ضيقة المعنى ، اذ التحق بهذه الجماعات حجاج من خارج مناطقهم .وكان اكثر هذه الجماعات عددا الحج الرومي لان كلمة روم اطلقت على المناطق ما وراء طوروس والفرات(٢) .

ولم يمر الحج الرومي، في الغالب، بمدينةحلب، ولهذا لم يندمج مع الحج الحلبي. اما الحج العجمي فكان ياتي الى دمشق اما عبر حلب اومباشرة عبر بغداد والطريق الصحراوي برفقة قافلة التجارة ، للافادة من الحماية المتوافرة لها . ووصل بعض الحجاج الى دمشق قبل انطلاق القافلة باربعة او خمسة اشهر ولكن الغالبية منهم وصلت في شهر رمضان . واقام معظم الحجاج في منطقة المرج بدمشق ، قرب التكية السليمانية . ونزل بعضهم في خان الحرمين ، قرب باب البريد(٣) ، او بالقرب من جامع الورد(٤) ، في سوقساروجا . واقام الحجاج الاعجـام عادة في حي الخراب والسويقة(٥) .

ولم يشر الاخباريون الدمشقيون الى عدد الحجاج الذين وصلوا دمشق .وكانوا يكتفون بالقول انه وصل حج كبير أو كثير . واشاروا احيانا الى عدد الحجاج الاعجام الذين قدروا عددهم ، في احدى المرات ، بنحو ثلاثمائة (٦) ، وفي مرة اخرى ، بالف وستمائة ، ووصفوهم انذاك بانهم « حجاج كثيرون من العجم »(٧) . وقد لفت الحجاج الاعجام النظر بسبب البضائع التي كانوا يحملونها وبخاصة الاحجار الكريمة .

ولم يشر الاخباريون الحلبيون الى عدد حجاج قافلة الحج الشامي ككلّ الا في الحالات التي هوجمت فيها القافلة في طريقها الى الحجاز . ولم تكن الاعداد التي اعطوها صحيحة لانها غير مبنية على اية وقائع . وكثيرا ما كانت تضخم للايحاء بشدة الهجوم وكثرة الخسائر ، كما حدث مثلا بالنسبة للقافلـة التي هوجمـت في طريق العودة في ايلول ١٧٥٧ ، في المنطقة بين القطرانة ومعان . وقد قدر عدد هذه القافلة الرحالة الفرنسي فولني ، الذي زار بلاد الشام في حوالي عـام ١٧٨٤ ، بانه كان ٦٠,٠٠٠(٨) . وقدرها مصـــدر معاصر في استانبـول بانها كانت بين ٧٠,٠٠٠ و ١٠٠,٠٠٠(٩).وذكر فولني انعدد حجاج القافلة فيالظروف العادية تراوح بين٣٠,٠٠٠ و ٥٠,٠٠٠(١٠). وقد قدر عددها مراقب آخر في عام ١٧٣٩ بانه يتراوح بين ١٥,٠٠٠و ٢٠,٠٠٠(١١) . ولعل متوسط عدد حجاج قافلة الحج الشامي كان بحدود ٢٠,٠٠٠ ، وارتفع احيانا الى ٤٠,٠٠٠ ، أو اكثر ، في الاوقات التي اعقبت كارثة ما ، او حربا ما ، اقتضت التوجه الى الحج لشكر الله على انتهائها ، أو حين ازدهرت حركة التجارة مما زاد في عدد التجار المرافقين لقافلة الحج(١٢).

وقد تناقص عدد الحجاج الاروام ، الملتحقين بقافلة الحج الشامي ، في القرن التاسع عشر ، في اعقاب تسيير البواخر المنتظمة في البحر الابيض المتوسط ، فانتقل عدد متزايد من الحجاج بواسطتها الى جدة ، وبخاصة بعد افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ . وقدر عدد حجاج القافلة التي عادت الى دمشق في ٢١ نيسان ١٨٤٥ ب ٦٠٠٠ منهم ٢٠٠٠ تركي و ٢٠٠٠ عجمي والبقية من العرب(١٣) . وذكر ان الحجاج الاعجام قد استخدموا في اوائل عام ١٨٧٠ البواخر من الخليج العربي الىجدة(١٤) .

قيادة القافلـة :

لم تخرج قافلة الحج الشامي الى الحجاز في السنتين اللتين اعقبتا الفتح العثماني لبلاد الشام في عام ١٥١٦ بسبب التبدل في السلطةالحاكمة واضطراب الامن في الارياف وتحرك القبائل البدوية(١٥) . وبعد ما قضى العثمانيون على ثورة جان بردي الغزالي، والي دمشق المملوكي الاصل ، في عام ١٥٢١ ، استبعد المماليك نهائيا من امارة الحج الشامي ، في حين انهم تسلموا قيادة قافلة الحج المصري طوال وجودهم في مصر في العهد العثماني . وعمد العثمانيون ، في بلاد الشام ، الى تعيين احد الامراء المحليين ، من حكام صناجق غزة أو عجلون أو اللجون أو نابلس او صفد او القدس ، التي كانت تتبع ولاية الشام ، اميرا على الحج . وممن عين من هؤلاء الامراء المحليين امراء لقافلة الحج الشامي قانصوه بن مساعدة الغزاوي امير عجلون والكرك ، الذي شغل منصب أمير الحج الشامي مدة خمس عشرة سنة ، من حوالي عام ١٥٧٢/٩٨٠ ـ ١٥٧٣ ، وعين ايضا لهذا المنصب الامير منصور بن فريخ ، امير البقاع ، الذي مد سلطته على صناجق صفد وعجلون ونابلس ، والامير احمد بن الامير قانصوه بن مساعدةالغزاوي، حاكم عجلون ، والامير طراباي ، حاكم اللجون ، والامير فروخ بن عبد الله ، حاكم نابلس والقدس(١٦) .

وكانت الدولة العثمانية قد اعترفت بهؤلاء الامراء المحليين ، الذين قامت قوتهم على اسس قبلية واقطاعية ، حكاما على الصناجق التابعة لولاية الشام لانهم اثبتوا وجودهم وسلطتهم محليا ، وكان القضاء عليهم سيكلف الدولة كثيرا من الجهد . وضمنت الدولة بذلك دفعهم الضرائب اي أموال الميري (المشتقة من امير وتجبى من اراضي الدولة) ، عن المناطق التي سيطروا عليها . ثم عمدت الى تعيين بعضهم امراء للحج لانهم اصحاب سلطة بين البدو وبامكانهم تسيير قافلة الحج بسلام الى الحجاز. ولجأت الدولة ، من ناحية أخرى ، لضمان سلطتها على هؤلاء الامراء ، الى اثارة امير ضد آخر .

وحين قام فخر الدين المعني الثاني ، امير جبل لبنان ، بتوسيع سلطتـه في الفترة بين ١٥٩٠ و ١٦٣٥ ، لتشمل الساحل اللبناني والبقاع وصناجق فلسطين اصطدم بالامراء المحليين ، الذين عينوا امراء على الحج ، فازال بعضهم من السلطة ، واضعف البعض الآخر . وحين قضت الدولة العثمانية على الامير فخر الدين في عام ١٦٣٥ ظهر فراغ محلي في المنطقة ، سرعان ما ملأه ولاة دمشق وولاة صيدا ، بعد تأسيس هذه الولاية في عام ١٦٦٠ . وعمدت الدولة الى تعيين انكشارية دمشق الذين ازدادت سلطتهم ، في هذه الفترة ، امراء على الحج الشامي . وعين هؤلاء الانكشارية، في الوقت نفسه ، حكاما على صنجق او اكثر من صناجق فلسطين ، ليتمكنوا من جمع الضرائب المحلية ، لتغطية نفقات القافلة . كما ان القوات الموضوعةتحت تصرفهم ، لقيادة القافلة ، اقامت معهم في هذهالصناجق . وبازدياد نفوذ انكشاريةدمشقعمدت الدولة ، في عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي (١٦٥٦ـ١٦٧٦) ، الى البطش بزعمائهم في عام ١٦٥٩ . واقامت طائفة انكشارية جديدة عرفت بالقابي قول (عبيد السلطان)الى جانبهم . وكانتهذه الطائفة اكثر ولاء للسلطان . وعرفت الطائفة الاولى باليرلية(المحلية) وبدولة دمشق ، لكثرة ما سيطرت عليها العناصر المحلية ، بينما عرفت القابي قول بدولة القلعة ، حيث اقامت سلطتها ودعمت هيبة الدولة . ولجأت الدولة اثر ذلكالى تعيينموظفين عثمانيين ، ضموا بعضولاة دمشق ،امراءالحج الشامي . وعينبعضهم ،في الوقت نفسه ، حكاما على الصناجق السابقة . وطبيعي انه لم تكن هنالكمنسنة محددة تم فيها استبدال طائفة من امراء الحج باخرى ، اذتداخلت الفترات مع بعضها ، ومع ذلك تميزت كل فترة باشتهار فئة معينة في امارة الحج(١٧) .

وحين عين حاكم الصنجق اميرا على الحج ، وكذلك حين عين امير الحج حاكما على صنجق ما . فان امير الحج ـ حاكم الصنجق اقام مع قواته في ذلك الصنجق الى ان يحين موعد سفر القافلة . ويأتي عندئذ الى قبة الحج ، في طرف دمشق الجنوبي ، خارجبوابة « أو باب الله» حيثتتجمع قافلة الحج ، لقيادتها الىالحجاز . وفيالحالات التي لم يعين فيها امير الحج حاكما على صنجق ما فانه اقام مع القوات الموضوعة تحت تصرفه في دمشق . ونتج عن ذلك اضطراب الوضع الامني والاجتماعي في المدينة لما سببته تلك القوات من فوضى .وذكر مفتي دمشق محمد خليل المرادي ، صاحب « سلك الدرر » . ان هذه الفوضى حفزت جده مراد المرادي للطلب من السلطان «برفع امارة الحج عن دمشق وعودها الى حكام القدس وعجلون وتلك البلاد كما كان الامر في الزمن السابق لاضمحلال حال دمشق بسبب ذلك فان دمشق من حين صارت امارة الحاج عليهـا زال رونقهـا وكثر الظلـم بسبب ذلـك فيهـا وزالت محاسنها وعمت الشدايد بها . . . وقبل السلطان رجاه ورفعها عن دمشق وكانت منذ سنين لم ترفع

ووجهها للشريف يحي بن بركات المكي بمنصب القدس فذهب المذكور في تلك السنة اميرا للحج وارتفع عن اهالي دمشق في تلك السنة الظلم والعساكر والبغي والجرائم مما كان يوجد في وقت الحج . ثم ان الشريف يحي المذكور سها سهوة بأذيه بعض الحجاج وبغى العرب فلمّا اخبرت الدولة العلية بصنيع الشريف يحي عزل من ذلك واعيدت امارة الحج الي دمشق كما كانت وهي الى الآن »(١٨) . وكانت امارة الشريف يحي للحج في سنة ١١٠٢ / ١٦٩٠ – ١٦٩١ . واصبحت دمشق منذ هذا التاريخ مركز امراء الحج من الموظفين والولاة ، ولكن لم يعين ولاتها باستمرار امراء للحج حتى عام ١٧٠٨ .

ولم يكن للموظفين العثمانيين ، الذين عينوا امراء للحج ، مصالح محلية ، على غرار حكام الصناجق المحليين ، ليحرصوا عليها بل كان همهم الاثراء من منصبهم بعد ان اشتروه بالمال ، لذا عمدوا الى الامتناع عن دفع ما اعتادت الدولة دفعه من اعطيات للقبائل المتحكمة بطريق الحج لشراء طاعتها وحمايتها للقافلة . وقد عرفت هذه الاعطيات بالصر أو الصرة . وكانت تدفع للقبائل على قسطين ، في الذهاب وفي الاياب . وادى امتناع امير الحج عن دفع الصر الى البدو ، وبخاصة في طريق العودة ، الى مهاجمة القبائل القافلة . ومما اغرى البدو للقيام بذلك ان القافلة في طريق العودة كانت محملة بالبضائع .

وقد هوجمت قافلة الحج سبع مرات في القرن السابع عشر جرت خمس منها في الثلاثين سنة الاخيرة من القرن ، حين عين امراء الحج من الموظفين . وادى هجوم عام ١١١٢/١٧٠٠–١٧٠١ الى ابادة القافلة بكاملها تقريبا . وتسببت كثافة الهجمات في الاضرار بهيبة الدولة لدى المسلمين . وكانت الدولة العثمانية قد خرجت لتوها من حرب خاسرة مع ال هابسبورغ في اوربة اذ وقعت معهم في عام ١٦٩٩ معاهدة كارلو فيتز التي تخلت لهم بموجبها عن جميع هنغاريا وترانسلفانيا وبودوليا . وكانت هذه اول خسارة كبرى للعثمانيين منذ حوالي ثلاثمائة عام ، حين هزمهم تيمورلنك في عام ١٤٠٢ كما كانت هذه اول مرة وقع فيها العثمانيون الصلح كمنهزمين وتخلوا عن مناطق سيطروا عليها منذ فترة طويلة . وغدا السلطان بنتيجة ذلك ، اكثر حرصا على سمعته بين المسلمين وبالتالي اكثر تصميما للحفاظ على سلامة قافلة الحج الشامي ، بصفته حامي الحرمين الشريفين . ولهذا عمد في عام ١٧٠٨ الى تعيين والي دمشق باستمرار اميرا للحج الشامي . وترتب على ذلك حدوث تطورات هامة في تاريخ دمشق . فلم يعد والي دمشق يكلف من قبل السلطان بالمشاركة في الحملات خارج حدود ولايته ، كما ان سفر الوالي – امير الحج مدة ثلاثة اشهر مع قافلة الحج اتاح المجال للقوى المتنفذة في دمشق للاقتتال فيما بينها وتعكير الامن العام غير عابئة بسلطة المتسلم الذي ناب عن الوالي .

وادى استئجار الوالي ـ امير الحج القوات المرتزقة وتجميعها فيدمشق لحماية القافلة، الى اضطراب الامن في المدينة لان هذه القوات رفضت مغادرة دمشق بعد انتهاء مهمتها . وكان لها تأثير سيء على الاخلاق العامةالتي انهارت بسببها وبسبب الضائقة الاقتصادية لدى قطاع كبير من الشعب . وهذا ما يفسر كثرة ايراد البديري في يومياته لاخبار بنات الهوى وحوادث الانتحار .

ومن التطورات الهامة التي ترتبت على تعيين والي دمشق اميرا للحج استمراره في منصبه طالما انه يؤمن سلامة القافلة مما ارضى السلطان والراي العام الديني. ولهذا شهدت دمشق ، منذ عام ١٧٠٨ ، استمرار ولاتها في الحكم سنوات عديدة ، خلافا لما كان عليه الامر في القرن السابق . وقد ادى ذلك الى اطالة حكم الولاة من آل العظم الذين امنوا سلامة القافلة ، وحكموا دمشق حوالي ستين سنة بشكل متقطع في القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر .

واستمر ولاة دمشق يعينون امراء للحج حتى عام ١٨٦٦ حين فصل المنصبان ، وعهد بالامارة الى قائد قوات (الباش بوزوق) ، الذي اصبح يعرف بمحافظ الحج . واختير محافظ الحج ، في الفترة بين ١٨٦٦ و ١٩١٦ عندما توقفت القافلة ، من اغوات الاكراد في دمشق ، من أسر اجليقين وبوظو وشمدين واليوسف(١٩) . وهكذا نلاحظ ان تبدل هوية امير الحج الشامي ، خلال اربعة قرون من الحكم العثماني ، قد املته التطورات السياسية في بلاد الشام و تبدل الاوضاع العامة في الدولة العثمانية .

والى جانب امير الحج وجد امير الجردة الذي عرف ايضا بلقب باشة الجردة ، وجردهجي ، وامير الملاقاة . ومهمة الجردة ، في الاساس ، الخروج لملاقاة القافلة في طريق عودتها وتزويدها بالمؤن التي تنقصها . ونظرا لتعرض الجردة الى هجمات البدو فقد اضطرت الى التسلح. وعلى غرار امير الحج عين امين الجردة اولا من بين الامراء المحليين ثم من الانكشارية والموظفين. وحين اصبح ولاة الشام امراء للحج عهد بامارة الجردة الى والي صيدا او والي طرابلس، وفي حالات نادرة الى والي حلب. وعمد والي دمشق ـ امير الحج الى الطلب من السلطان أن يعين ابنا له او قريبا واليا على صيدا او طرابلس او كليهما ليضمن ولاء امير الجردة وحرصه على الذهاب الى ابعد مسافة في ملاقاة الحج . ولهذا كثيرا ما حكم افراد اسرة واحدة ، في القرن الثامن عشر ، ولايات الشام وصيدا وطرابلس في آن . وابعد نقطة وصل اليها امير الجردة لملاقاة قافلة الحج كانت في هدية . وتغادر الجردة دمشق عادة في شهر ذي العقدة او ذي الحجة ، واذا ما تعرضت الى اعتداء عليها وجب اعداد جردة أخرى. والقيت مسؤولية ذلك ، في الغالب ، على الدمشقيين(٢٠) .

تمويل القافلة

تنوعت المصادر المالية التي مولت قافلة الحج الشامي ، وجاء قسم كبيرمنها من الضرائب التي أشير اليها بمال الميري ، او من الرسوم التي فرضتهاالدولة على التجارة والصناعات في ولاية الشام بصورة رئيسية وفي ولايات صيدا وطرابلس وحلب الى حد ما . وقد سبقت الاشارة الى ان تعيين امير الحج من بين حكام صناجق نابلس ، عجلون ، اللجون ، غزة ، صفد ، القدس ، او تعيين امير الحجحاكما ، فيالوقتنفسه، على واحد او اكثر من هذه الصناجق ، في الفترة التي سبقت تعيين والي الشام اميرا للحج ، في ١٧٠٨ ، كان الهدف منه جمع اموال الميري من هذه المناطق لتمويل قافلة الحج . وعرف المال المخصص لذلك بانه « مال الحج » ، والمال المخصص للجردة بانه «مال ملاقاة الجردة »(٢١) . وعندما عين والي دمشق اميرا للحج اصبح يخرج بنفسه كل سنة ، قبيل خروج القافلة ليدور على الصناجق التابعة لولايته ويجمع منها مال الميري المخصص للقافلة ، وعرف خروجه هذا بالدورة . ورغم ان والي دمشق هو في الاساس المحصل الرئيسي لاموال الميري في ولايته فلم يكن مضطرا قبل تعيينه لامارة الحج للخروج كل سنة لجمع الضرائب لان حكام الصناجق المحليين الذين عينوا امراء للحج قاموا عنه بهذه المهمة . واستغرقت الدورة ما يقرب من الشهر واصطدم الوالي خلالها بالملتزمين الذين رفضوا دفع اموال الميري ، كما حدث مثلا في هجوم والي دمشق سليمان باشا العظم على ظاهر العمر المتحصن في طبرية في عام ١٧٤٣ ،وقد توفيالوالي اثناء الحصار(٢٢) . واذا ما اضفنا الزمنالذياقتضاهغياب الواليفيالدورة الى فترة غيابه مع قافلة الحج لتبين ان مجموع غيابه عن دمشق مشتغلا بأمور القافلة قد بلغ حوالي اربعة اشهر .

ومن الموارد المالية التي رصدت لقافلة الحج « مال البدل » ، اي المال الذي دفعه أصحاب الاقطاعات من الجنود السباهية (الفرسان) لقاء اعفائهم من القيام بالخدمة العسكرية. وقد حدث ذلك بعد ان تضاءل شانالجنود السباهية،بالمقارنة معالانكشارية اصحاب النفوذ المتزايد(٢٣) . كما ان مالكانات حمص وحماه ومعرة النعمان التي التزمتضرائبها مدىالحياة الحقتبواليدمشقمنذ أن عيناميرا للحجلينفقمنعائداتها على قافلة الحج(٢٤) . وهناك مصادر مالية اخرى ، مثل التزام المقاطعات والاقلام المتنوعة التي رصدت لتمويل الحج والتيبضيق المجال بذكرها .

واستخدم امير الحج هذه الموارد للانفاق على احتياجات القافلة مثل استئجار قوى عسكرية غير نظامية للمشاركة في حماية القافلة ، وتوفير المؤن اللازمة للقائمين بشؤون الحج ، وكذلك وسائط نقلهم ، ولدينا معلومات مفصلة تبين انواع السلع التي

اشتراها امير الحج للوفاء باحتياجاته فقد اشترى مثلا حسن باشا أمير الركب الشامي في عام ١٧٠٨/١١١٩ مقدار ٧١٥ قنطارا من البكسماد من طائفة البكسمادية بدمشق لاحتياجاته(٢٥).

وعرف هذا البكسماد ، الذي كان على شكل قوالب ، بالسفري ، ويصنعونه عادة من طحين الخاص ، واشترط فيه ان يكون يابسا ، ظاهره كباطنه ، ليتحمل السفر ، ويبل بالماء عند أكله(٢٦) . وخصصت كميات كبيرة من الحنطة والشعير ، من صناجق ولاية الشام لتمويل القافلة . وقد جاء في سجلات غزة الشرعية مثلا ، انه نقل من شونه غزة في شوال ١٢٧٣ / حزيران ١٨٥٧ الى بندر معان ، لتموين الحج الشامي ، مقدار ١٨٦٤٠ كيلة شعير بالكيل المجيدي (تزن كيلة الشعير ٢٢ر٢٥ كغ) . ونقل في جمادى الاولى ١٢٧٦ / كانون الاول ١٨٥٩ ، مقدار ١٠٩٩١ كيلة حنطة (تزن كيلة الحنطة ٢٧ر٢٥ كغ) و ٢٥ر٢٢٩٩٢ كيلة شعير الى بندر معان للغرض نفسه (٢٧) .

واحتاج امير الحج الى استئجار المئات من الجمال لنقل الجنود والمؤن المتعلقة بالقافلة ، فقد استاجر عثمان باشا والي الشام وامير الحج ، في جمادى الاولى ١١٧٤/ كانون الاول ١٧٦٠ ، خمسمائة جمل من مشايخ قرى حوران لنقل اثقاله من المزيريب الى المدينة المنورة (٢٨) . واستاجر اكثر من ذلك العدد في العام التالي (٢٩) .

وانفق أمير الحج ، من المال المخصص للحج ، المبالغ المرصدة الصر او الصرة التي كانت تدفع الى بعض القبائل البدوية على طريق الحج لشراء حمايتها . وقد حاول العثمانيون ، في مطلع حكمهم لبلاد الشام ، السيطرة على القبائل البدوية ، في جنوبي بلاد الشام ، ولكنهم فشلوا ، ولذلك لجاوا الى العادة القديمة بشراء رضى القبائل بالمال . ويذكر ان اسعد باشا العظم ،والي الشام (١٧٤٣ - ١٧٥٧) ، قد دفع الصر الى القبائل القوية على طريق الحج في حين انه فرض الضرائب على القبائل الصغيرة. وقد استثيرت القبائل الصغيرة فثارت لنفسها بمهاجمة قافلة الحج الشامي في عام ١٧٥٨ وابادتها تقريبا ، وذلك في اعقاب عزل اسعد باشا عن ولاية دمشق (٣٠).

وكان السلطان العثماني يرسل ، بمناسبة سفر قافلة الحج الشامي الى الحجاز ، اعطيات نقدية وعينية ، عرفت بالصرة ، الى اشراف وعلماء وفقراء الاماكن المقدسة ، التي ضمت مكة والمدينة واحيانا القدس . وعهد السلطان بالصرة الى موظف عرف بالصرة اميني أو أمين الصرة . وكان الصرة اميني يغادر استنابول كل سنة في أواسط رجب متجها نحو دمشق وسط احتفالات شعبية ورسمية ، ويرافقه ، بالاضافة الى

حاشيته ، عدد من الحجاج للافادة من الحماية المؤمنة له . وطلب السلطان من حكام الولايات التي مر بها موكب الصرة اميني تامين الحماية له ، كل في منطقته ، واعلام السلطان بذلك . ويصل الصرة اميني الى دمشق ، علاوة ، في القسم الاول من رمضان ، ويغادرها ، بعد عودته من الحج باتجاه استانبول ، بين ١٥ صفر و ١٥ ربيع الثاني ، حسب الظروف (٣١) .

نقــــل الحجــاج

مما يثير الاهتمام معرفة الطريقة التي تم بها نقل مابين خمسةعشرالفا،وعشرين الف حاج ، بالاضافة الى القوات المرافقة لهم ، من دمشق الى الحجاز ، كل سنة ، وكذلك نقل القوات المرافقة للجردة من دمشق الى هدية . ان الحيوان الرئيسي الذي استخدم في عملية النقل كان الجمل . وقد اشتهرت قرى حوران ، التي كان سكانها بدوا أو من أصول بدوية ، بتوريد آلاف الجمال الى القائمين على شؤون القافلة مما سهل نقلها واتى بالفوائد المالية لاصحاب الجمال . وقام مشايخ قرى حوران بالنيابة عن سكانها بتاجير الجمال الى المسؤولين في دمشق . وذكرت وثائق دمشق الشرعية اسماء عدد من مشايخ هذه القرى تذكر منهم في الفترة بين ١١٧٤ — ١١٧٧/١٧٩٥ — ١٧٦٤ الشيخ شهاب الدين بن حمد الحتمل شيخ قرية الطره (أو الطرا) ، والشيخ أحمد بن عمر المحاميد والشيخ بكار بن موسى قطيفان شيخا قرية ادرعا(ترد ادرعات او اذرعات وهي درعا اليوم) ، والشيخ ملحم بن ناصر الجبلاق شيخ قرية شمسكين او اشمسكين (شيخ مسكين اليوم) ، والشيخ حمد بن علي الحريري شيخ قريةالسعلية (أو السلعة) ، والشيخ دعيبس بن حسين شيخ قرية الكرك،والشيخ حسن بن مقداد شيخ قرية بصير ، والشيخ عبد الله الشنور شيخ قرية اعجيم ، والشيخ راشد بن محمد الراشد شيخ قرية الحراك ، والشيخ رشيد بن علي الغزالي شيخ قرية الحراك الشرقي ، والشيخ منصور بن مصطفى حجاد شيخ قرية السهوة ، والشيخ ابراهيم ابن الشيخ مصطفى الزعبي شيخ قرية البصيلة ، والشيخ ابراهيم بن الشيخ علي الزعبي شيخ قرية المسيفرة ، والشيخ محمد بن مصطفى شيخ قرية غوشه ، والشيخ سعيفان بن الشيخ محمد شيخ قرية صورا ، والشيخ محمد بن نصر الله شيخ قرية بصرة (بصرى) ، والشيخ حسن بن علي الغزالي شيخ قرية خربة الغزالة ، والشيخ ابراهيم الحريري واحمد بن حمدان شيخا قرية منصورة ، والشيخ خليل العبادية بن ناصر شيخ قرية المحجي . وبرزت أيضا قرى عراضه وملجم وطفس في عملية تقديم الجمال . وشاركت كذلك ، في هذه الفترة ، طائفة السخانة من نواحي حماه . كما ان تجمعات قبليــة اخرى ،مثل السردية وبني صخر وبني صقر ، زودت القافلة بالجمال في أوقات مختلفة . ويمكننا معرفة الطاقة الاقتصادية لكل قرية باجراء

مقارنة بين اعداد الجمال التي قدمتها القرى . وقد حضر مشايخ القرى ، الذين اجروا الجمال الى والي دمشق امير الحج ، الى المحكمة الشرعية بدمشق لتسجيل واقعة التأجير وكيفية دفع الاجرة ، وتبرئة ذمة الوالي مما يستحق لهم عليه . وكانت اجرة الجمل الذي حمل اثقال الوزير من المزيريب الى المدينة في عام ١٧٦٢/١١٧٥مثلا، ٣٣¼ قرشا ، ومن المزيريب الى مكة ٦٥ قرشا . وكانت اجرة الجمل الذي حمل اثقال الجردة من المزيريب الى هدية ، ومن هدية الى دمشق ٤٠ قرشا (٣٢) .

وقد وجدت طوائف حرفية خاصة في دمشق وحلب وغيرها لنقل الحجاج الى الحجاز . وابرز هذه الطوائف طائفة المقومين الدوجية . وكلمة الدوجية، أو الدعجية، المستخدمة بالتركية ، مشتقة من الكلمة العربية (يدعو) ، وتشير الى الذين يدعون الى اللـه . والمقوم هو الذي يتعهد بنقل الراغب بالحج من دمشق أو غيرها الى مكة المكرمة ، ويعيده ، بحسب الاتفاق ، الى مكان بدء الرحلة . ويركب المسافر في محارة ، وهي محمل من الخشب يغطى بالقماش ، وتتسع لراكب واحد . وتوضع اثنتان منها على ظهر الجمل ، كل واحدة من طرف . ولم يكن ضروريا وضع مسافرين على جمل واحد اذ وضعت احيانا حمولة في الطرف الآخر . واستخدمت تسمية أخرى للمحارة، في دمشق وحلب ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وهي الشقدوفة (٣٥) . واستخدمت كذلك كلمة محفة (٣٦) ، وهي تخت خشبي وضع على ظهر الجمل ، واستخدم لنقل الحجاج . ويبدو ان للمحفة ميزات خاصة ميزتها عن المحارة ، أو الشقدوفة ، بدليل ان امراة في مدينة حلب دفعت لنقلها في محفة الى مكة ثم عرفات ، ذهابا وايابا ، مع تقديم الزادوالماء وسائر اللوازم لها ، مائة وسبعين قرشا (٣٧) ، وهي ما يساوي تقريبا اجرة شخصين يركبان المحارة ، مع الخدمات ذاتها.ولا ندري اذا كان الركوب في المحفة يدل على الثروةوالمكانة الاجتماعية ، ام على حالة مرضية . ويقدم المقوم للمسافر ، بالاضافة الى مكان جلوسه ، طعامه وماءه وما يلزمه .

وانتظام المقومين في طائفة لها شيخها يدل على اهمية هذه الحرفة ، وضرورة مراقبة افرادها ذاتيا وحرفيا ، من قبل شيخ الطائفة ، وبمعرفة القاضي الشرعي . وخوفا من تقصير المقوم (الدوجي) في خدمة زبائنه ، أو هربه في الطريق ، تعهد المقومون ، امام القاضي الشرعي ، قبل السفر الى الحج ، بانهم يضمنون بعضهم بعضا، فاذا اخل احدهم بشروط العقد مع المسافر ضمنه زملاؤه ، وضمن الجميع شخص واحد ، وذلك لحصر المسؤولية (٣٨) .

وساهمت طائفة العكامة في عملية نقل الحجاج ، ولكن دورها كان ثانويا اذا ما قورن بالمقومين الذين تعهدوا عملية النقل بكاملها . والعكام (٣٩) هو الذي يقود

الجمل ويخدم راكبيه(٤٠) . وفي حين ان طائفة المقومين اختصت بنقل الحجاج فقط ، فان طائفة المكامة استخدمت في مرافقة حيوانات النقل ، من جمال وغيرها ، في خدمات متعددة ، مثل نقل الذخائر بين حلب وبلاد الروم (٤١) ، أو مرافقة المسافرين في انحاء الامبراطورية . وساهمت كذلك طائفة الجمالة في تقديم الجمال لاغراض الحج ولكنها لم تتدخل مباشرة بنقل الحجاج (٤٣) . وتقديم الجمال لاغراض الحج جزء من عمل هذه الطائفة الذي شمل أيضا تقديم الجمال للقيام بخدمات التحميل بصورة عامة . كما ان المشعلجية ، وهم حملة المشاعل ، رافقوا جماعات المسافرين .

واختلفت اسعار نقل الحجاج ، تبعا للخدمات المقدمة لهم . وقد قمنا بدراسة عينتين : الاولى من حلب ، من حوالي منصف القرن الحادي عشر الهجري ، والثانية من دمشق ، من حوالي منتصف القرن الثاني عشر الهجري . ففي العينة الاولى تعاقد مسافر وامه ، في ١٦ شعبان ١٠٤٥ / ٢٥ كانون الثاني ١٦٣٦ ، مع مقوم على ان يدفعا له لقاء حملهما في محارتين من الخشب (شقدوفتين) ، ونقلهما من مدينة حلب الى مكة المكرمة ثم الى عرفات ،ثم الى مكة عودا ، صحبة الركب الشريف (اي قافلة الحج الشامي) ، المتوجه في ذلك العام الى الحجاز ، وتزويدهما « بجميع اكلهما ومايهما وزادهما وساير لوازمهما الضرورية التي لابد منها في الطريق»اجرة قدرها مائة قرش مقبوضة من المتعاقدين « قبضا تاما سلفا ومعجلا »(٤٤) . ويبدو ان هناك تخفيضا لافراد الاسرة ، وربما روعي سن الاولاد ، بدليل ان الام وابنها في المثال السابق دفعا مائة قرش في حين ان امراة من حلب تعاقدت بعد شهر من العقد السابق على ان تدفع للمسافة نفسها وللخدمات ذاتها سبعين قرشا (٤٥) . ويبدو ان دفع اجرة الذهاب والاياب معا كانت اكثر توفيرا لأن المقوم يضمن العودة بدون شواغر . وكانت العادة ان يتخلف بعض الحجاج في الحجاز للمجاورة . وسواء كانت الرحلة للذهاب فقط ، أم للذهاب والاياب ، فقد دفعت الاجرة للمقوم علىاقساط . وبقي احيانا جزء من الاجرة الى مابعد العودة . وعمد بعض الراغبين بالسفر الى الحجاز الى استئجار الجمال فقط بدون الخدمات الاخرى . وبلغت اجرة الجمل من حلب الى مكة ، ثم الى عرفات ، وعودا الى مكة ، في تلك الفترة ، اربعا واربعين قرشا ، مما يعني ان قيمةالخدمات ، بالمقارنة مع مثال الام وابنها ، بلغت ستا وخمسين قرشا . ويفترض ان صاحب الجمال المؤجرة رافقها الى الحجاز للعودة بها . واذا كان قد رتب مسبقا لايجارها من هناك فهذا يدل على تنظيم دقيق في النقل والمواصلات .

وفي العينة التي اخترناها من دمشق في حوالي منتصف القرن الثاني عشر الهجري نلاحظ ان اجرة نقل المسافر من دمشق الى مكة في شوال ١١٥٨ / تشرين الثاني ١٧٤٥ كانت سبعين قرشا (تفصيلها : اجرة جمل ٤٠ ، سقاية ماء ٥ ، ثمن

شقدوفة ٥ ، اجرة عكام ٥ ، اجرة حمولة وزنها ١٥ أوقه ١٥ قرشا) . ويبدو ان الاجرة لم تتضمن الطعام لأنه لم ينص عليه (٤٦) . وفي مثال اخر تعاقد رجل وامه ان يدفعا اجرة نقلهما من مكة الى دمشق ، بما في ذلك كامل الخدمات ، مائتي قرش ، بمعدل مائة قرش للشخص مقسطة (تفصيلها : اجرة الجمل للشخص الواحد ٨٠ قرشا ـ من غير اجرة ارطال على الراكب اي بدون أجرة الحمولة ـ و ١٥ نظير اكله ، و ٥ لقاء سقايته) . وحين احتج الراكبان ، لدى وصولهما الى دمشق ، أن السعر مرتفع ، استدعى القاضي الشهود فشهدوا ان المائة قرش هي سعر المسلمين في سنة تاريخه ، فألزمهما القاضي بالدفع (٤٧) . وتؤكد هذه الاجرة امثلة أخرى من الفترة ذاتها (٤٨) . والملاحظ ان سعر العودة الى دمشق كان اغلى من سعر الذهاب ، وربما يفسر ذلك بعامل الاضطرار . كما انه بالمقارنة بين اسعار حلب ، في حوالي منتصف القرن الحادي عشر ، واسعار دمشق ، بعد قرن من ذلك ، يتبين لنا تدني قيمة العملة ، وبالتالي ارتفاع الاسعار ، وهذا امر كان شائعا في الدولة العثمانية .

واذا ما أخذنا عينة من اسعار السلع الاستهلاكية(٤٩) ، واثمان العقارات(٥٠) ، ومستوى الارباح والاجور ، في تلك الفترة ، وقارناها مع تكاليف السفر الى الحج ، لتبين لنا ان كلفة الذهاب للحج لم تكن بقليلة على اصحاب الدخل المحدود . وحتى العلماء ، الذين كان وضعهم المادي احسن من غيرهم ، نظرا للوظائف الدينية المتعددة التي شغلوها والتي رصدت لها الاعتمادات من مال الوقف ، فقلما ذهب واحدهم الى الحج اكثر من مرة بسبب النفقات الباهظة المترتبة على ذلك . وفي مقابلة بين عالم مصري وعالم دمشقي ، هو نجم الدين الغزي صاحب « الكواكب السائرة » ، في المدينة المنورة ، في اواسط محرم ١٠٠٢/ أواسط تشرين الاول ١٥٩٣، ذكر المصري انه حج أربعا وعشرين مرة . فقال الغزي أن اهل الشام لايكاد يحج الواحد منهم الا مرة . فأجاب المصري « الواحد منا يستأجر بعيرا بعشرة ذهب ويحمل تحته الفريقيشات والبصلات ويحج وانتم اذا حج الواحد منكم تكلف كلفة كثيرة تكفي عدة منا وطريقكم اشق من طريقنا والاجر على قدر النصيب »(٥٢) .

سفر القافلة

كانت قافلة الحج الشامي تغادر دمشق في موكب حافل (٥٣) ، يسير فيه الوالي ـ أمير الحج ، ويحمل فيه المحمل والصنجق ، وترافقه قوات كثيرة . وتتم المغادرة ، في الغالب ، بين الثاني عشر والعشرين من شهر شوال . ويتوقف امير الحج عند قبة الحج ، خارج باب اوبوابة الله (سميت بذلك لانها تؤدي الى بلاد الله في الحجاز والقدس) ، بانتظار تجمع الحجاج . ويتباطأ هؤلاء في الخروج ، بسبب رغبة

بعضهم في مشاهدة موكب الحج ، او لتوديع اقربائهم ، او للقيام بالمشتريات في اللحظة الاخيرة ، ويكتمل خروجهم خلال اسبوع . ومن قبة الحج تتوجه القافلة نحو المزيريب (تبعد حوالي ١٠٣ كم جنوبي دمشق) بشكل متفرق ، لانه ليس ثمة من اخطار تجبرها على التجمع . كما ان عددا من اقرباء الحجاج ومن الباعة يرافقون الحجاج الى المزيريب . وبعد توقف ، يقارب الاسبوع ، في المزيريب ، حيث يلتئم عقد الحجاج ، وتتم الاستعدادات النهائية ، ويودع الراغبون من الحجاج ودائعهم في قلعة المزيريب ، تنطلق القافلة ككل باتجاه الحجاز . ويعود الذين رافقوا الحجاج الى دمشق ، ويعرفون بالمزيرباتية (٥٤) . ويرافق القافلة الى الحجاز قاض ، عرف بقاضي الركب الشامي ، لنظر في القضايا الطارئة . واختير عادة من بين نواب القاضي الحنفي بدمشق ، او من القضاة المتقاعدين ، او من العلماء المدرسين (٥٥) .

وقد اشير الى الطريق الرئيسي ، الذي سلكته القافلة من دمشق الى الحجاز ، بالطريق السلطاني . وتألف من عدة منازل (مفردها منزل او منزلة) ، حيث يتوقف الحجاج للراحة ، والتزود بالماء ، واحيانا بالمؤن . وضم الطريق السلطاني في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، المنازل التالية(٥٦) : قبه الحج ، المزيريب ، المفرق ، الزرقاء ، البلقاء ، القطرانة ، الحسا (تابوت قرهصى) ، العنزة ، معان ، ظهر العقبة (عقبة الحلاوة) ، جغيمان (المدورة) ، ذاتا حج ، القاع (قاع البسيط او قاع الصغير) ، تبوك ، مغائر شعيب ، الاخضر (الاخيضر)، المعظم ، دار الحمراء (اقيرع او مفارش الرز ، اوشق العجوز) ، مدائن صالح (ديار او ابار ثمود او الحجر) ، العلا ، المطران (بيار او ابار الغنم ، او طوامير) بئر الزمرد ، شعب النعام ، هدية ، النحلتين (النخلتين) ، وادي القرى ، الجرف ، المدينة المنورة ، قبور الشهداء ، الجديدة ، القاع ، رابغ ، قديد ، خليص ، عسفان ، وادي فاطمة ، مكة المكرمة . ولم تشمل هذه المنازل جميع الامكنة الصغيرة حيث توقف الحجاج في بعض الاحيان ، كما انه لم يكن من الضروري أن تتوقف القافلة في كل منها . واذا ما اراد البدو الاضرار بقافلة الحج ، دون الهجوم عليها ، لجأوا الى وضع الحشائش السامة ، مثل الحنظل ، او بقايا الحيوانات المتفسخة ، في برك الماء ، في بعض المنازل . ولهذ اهتمت الدولة العثمانية ، منذ بدء حكمها في بلاد الشام ، ببناء القلاع في منازل الحج ، او ترميمها ، او تعزيزها بالحاميات لحماية القافلة (٥٧) . وقام ولاة دمشق ، على فترات ، ببناء ، او ترميم ، القلاع ، ووضع الحاميات فيها (٥٨) . وقد عهدت الدولة العثمانية ، في بادىء الامر ، الى الجنود السباهيين . من أصحاب الاقطاعات بحماية القلاع (٥٩) ، ثم خلفهم الانكشارية ، وبخاصة البرلية منهم ، بعد عام ١٦٦٠ ، حين حل مكانهم ، في حماية القلعة وسور وأبواب

دمشق ، الانكشارية القابي قول (٦٠) . واضطرت القافلة ، احيانا ، في طريق العودة الى دمشق ، الى التخلي عن الطريق السلطاني ، لتحاشي هجمات البدو عليها ، أو لانقاذ ما يمكن انقاذه في اعقاب الهجوم عليها . وحولت طريقها ، بعد منزلة ذات حج ، الى غزة ، حيث يمر الطريق التجاري المتجه من دمشق الى مصر ، وكان اكثر أمنا . وعرف هذا بالطريق أو الدرب بالغزاوي(٦١) . واقتضت العودة عن هذا الطريق تأخر وصول القافلة الى دمشق الى ما بعد النصف الأول من صفر ، وهو الموعد العادي لعودتها في الطريق السلطاني . واذا هدد الجردة ، التي كانت تخرج لاستقبال القافلة ، خطر مماثل عادت هي الأخرى على الطريق الغزاوي .

وسبق عودة القافلة الى دمشق وصول جوقدار (٦٢) الحج اليها ، مرسلا من قبل أمير الحج ، لابلاغ الدمشقيين بسلامة القافلة . وغالبا ما أرسل الجوقدار من معان ، حيث دخلت القافلة منطقة الامان . ويصل الجوقدار الى دمشق ، في العادة ، في أواخر شهر محرم (٦٣) . وخلال أسبوع من وصول الجوقدار يصل دمشق كتاب الحج حاملا رسائل الحجاج الى ذويهم ، وتوزع الرسائل في الدرويشية . ويرسل الكتاب في الغالب ، من منزلة القطرانة . ويحمل كتاب آخرون الرسائل الى حماه وحلب (٦٤) . أما الحجاج الاروام فانهم يرسلون المكاتيب الى استانبول لدى وصول القافلة الى منزل ظهر العقبة (٦٥) .

وتصل طلائع الحجاج العائدين الى دمشق خلال أسبوع من وصول الكتاب اليها، اي في النصف الأول من شهر صفر ، ويستبقون بذلك وصول المحمل وامير الحج بحوالي اسبوع ، وهي المدة نفسها تقريبا بين خروج المحمل من دمشق الى قبة الحج، في الطريق الى الحجاز ، ولحاق آخر الحجاج به . ويتوقف أمير الحج العائد في قبة الحج ، حيث يستقبله اعيان دمشق (٦٦) .

اما المدة التي استغرقتها قافلة الحج الشامي في الوصول الى مكة من دمشق ، فكانت حوالي خمسة وثلاثين يوما (٦٧) . واستغرقت المدة ذاتها تقريبا في طريق العودة (٦٨) . وقد قدر احد الحجاج ساعات السفر التي اقتضاها الوصول الى مكة من دمشق ب ٤٩٠ ساعة (٦٩) ، وقدر آخر ساعات العودة ب ٤٥٠ ساعة (٧٠) . وهذا يعني ان القافلة كانت تسير بين ١٣ ـ ١٤ ساعة في اليوم .

اهمية قافلة الحج الشامي :

لعبت قافلة الحج الشامي ، في العهد العثماني ، دورا هاما ، سواء بالنسبة

لدمشق وبلاد الشام بخاصة ، أو العالم الاسلامي بعامة . وزاد من أهميتها ، آنذاك ، كونها واحدة من قافلتين رئيسيتين سمحت بهما ، وبالتالي تبنتهما ونظمتهما ، الدولة العثمانية ، في العالم الاسلامي . وتجلت اهمية قافلة الحج الشامي ، بالاضافة الى الناحية الدينية ، في النشاط الاقتصادي الذي رافقها ، واهم من ذلك في التمازج السكاني والثقافي الذي سهلت تحقيقه الى حد كبير .

وكان سفر القافلة مناسبة هامة لانتقال البضائع ، سواء منها التي حملها الحجاج انفسهم ، أو تلك التي حملها التجار بكميات كبيرة (٧١) . وقد حرص التجار على مرافقة القافلة للافادة من الحماية العسكرية التي تمتعت بها . وانضمام التجار الى قافلة الحج زاد في اعدادها ، وفي المخاطر التي تعرضت لها ، لان كثرة البضائع اغرت القبائل الناقمة على مهاجمتها . وقد افادت دمشق ، وحوران بصورة خاصة ، وحلب الى حد ما ، من تقديم الخدمات للقافلة . ففي دمشق نشطت صناعة البكسماد السفري الذي تمونت به القافلة ، وانعكس ذلك على نشاط الطائفة الحرفية الخاصة بالبكسمادية . وبلغت مبيعاتها أثناء موسم الحج آلاف القناطير (٧٢) . ونشطت طائفة البكسمادية ايضا في حلب ، بمناسبة موسم الحج . وافادت كذلك طائفة العكامين ، الذين يقودون الجمال ، والمحايرية ، الذين يصنعون المحارة (الشقدوفة) . وسبقت الاشارة الى الفوائد التي جناها مشايخ قرى حوران ، وبدرجة اقل ، مشايخ البدو في منطقة حماه وحلب ، من تأجير الآلاف من جمالهم لنقل الحجاج والقوات والبضائع المرافقة للقافلة .

وقد اشارت المصادر الى انواع البضائع وكمياتها التي حملها الحجاج معهم . وضمت البضائع ، بصورة رئيسية ، الاحجار الكريمة والقهوة والمنسوجات والتوابل وقد عبر البديري عن النشاط الاقتصادي الذي عم دمشق ، في أعقاب وصول الحجاج الاعجام اليها في عام ١١٦٤ / ١٧٥١ ، بقوله : « وصار جبر خاطر لعموم الناس في البيع والشراء وجاء مع العجم ربيات ذهب كل واحدة بثلاثة عشر قرشا ولؤلؤ كبير وصغير واحجار ومعادن وشال وغير ذلك » (٧٣) . وحمل الحجاج الاروام معهم ، الى الشام والحجاز ، انواعا من السلع ، اشارت احدى الوثائق الشرعية الى بعضها ، في عام ١١١٩ / ١٧٠٧ ، بأنها عدة أحمال من الشال والزعفران ، بلغت قيمتها عدة آلاف من القروش . وقد جاء ذكرها بمناسبة هجوم قطاع الطريق ، في ناحية السويدية ، التابعة لحاكم حماه ، عليها . وغرم هذا الحاكم بثمن المسروقات لأنه مسؤول قانونيا عن الامن في منطقته (٧٤) .

وكانت قافلة الحج العائدة من الحجاز تحمل عدة سلع منها السنا (٧٥) ، وهو

نبات مليّن اشتهرت به منطقة مكة ، فعرف بالسنامكة . واشهر ما أتت به القافلة من منتجات الجزيرة العربية هو البن . ورغم ان اليمن هي التي اشتهرت بانتاج البن الا انه اشير اليه في المصادر المحلية بالبن الحجازي ، ربما لانه شري في الحجاز (٧٦) . وبلغت كمية البن المستورد من الحجاز ، في عام ١٧٤٦ ، مثلا ، ستمائة كيس أدى طرحها في السوق الى هبوط سعر البن في بلاد الشام (٧٧) . ويدل هذا على شيوع شرب القهوة محليا (٧٨) . وحملت قافلة الحج، كذلك، المنسوجات والتوابل والعطور والاحجار الثمينة المستوردة من الهند عبر البحر الاحمر الى جدة ومنها نقلت الى مكة (٧٩) .

ويتبين لنا مدى مساهمة قافلة الحج الشامي في التجارة الدولية مما رافق القافلة ، التي عادت الى دمشق من الحجاز بتاريخ ٢٨ آذار ١٨٤٢ ، من بضائع . فقد ضمت ٢٢٥ حملا من الحناء زنتها ٢٢٥٠٠ رطلا (حوالي ١٤٥٠٠ كغ) ، سعرها ١٢٠ر٠٠٠ قرش ، وأربعين حملا من البن الحجازي Moka coffee (٨٠)(كانت في الاساس تسعين حملا ، ولكن سرق منها خمسون حملا في الطريق تزن ٤٠٠٠ رطل قيمتها ١٤٠ر٠٠٠ قرش) ، وعشرين حملا من نسيج هندي يصلح للعمائم ، يتألف كل حمل من بالتين ، تضم الواحدة منها مائة قطعة ، ثمن القطعة ٢٠٠ قرش ، ومجموع ثمنها ٨٠٠ر٠٠٠ قرش . وقدرت قيمة المجوهرات التي حملتها تلك القافلة بـ ١٠٠ر٠٠٠ قرش . واشتملت البضائع ايضا على ريش النعام ، وقيمته ١٧٠ر٠٠٠ قرش ، وعطورات ثمنها ١٦٠ر٠٠٠ قرش ، ومتفرقات قيمتها ٦٠ر٠٠٠ قرش . وبلغ مجموع قيمة البضائع التي حملتها تلك القافلة ٣٨٧ر٠٠٠ فرنك أو ما يعادل ١ر٨٥٠ر٢٠٠ قرش (٨١) .

وقد تأثرت تجارة قافلة الحج الشامي بازدياد استخدام الحجاج الاروام للطريق البحري الى الحجاز ، وبخاصة بعد افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ ، وذلك لاسباب امنية واقتصادية . كما ان عددا متزايدا من الحجاج الاعجام بدأ يسافر بحرا من الخليج العربي الى جدة (٨٢) . وذكر القساطلي ، الذي عاصر هذه التطورات في دمشق ، في السبعينات من القرن التاسع عشر ، أن « أول نكبة دهمتها (اي دمشق) تسببت عن سير سفن البخار في البحار ... وعندما فتحت ترعة السويس حلت بلية عظمى وطامة كبرى على تجارة دمشق لانها سلبت كل ما بقي لها من التجارة البرية وفتحت بابا قريبا للحجاز فامتنع الحجاج من الاتيان اليها فخسرت جداول الذهب الغزيرة التى كانوا يسكبونها فيها ذهابا وايابا » (٨٣) .

وعلى صعيد آخر ادى التنوع في جنسية الحجاج الذين اموا دمشق للالتحاق

بقافلتها ، وبقاء بعضهم للعيش والعمل فيها ، الى تعدد الاقوام في دمشق . وكثيرا ما اقام هؤلاء في أحياء خاصة مثل حي الخراب والسويقة بالنسبة للحجاج الاعجام ، أو في زوايا تحمل اسمهم ، مثل زاوية المغاربة(٨٥) ، وزاوية الهنود ، القائمة ظاهر دمشق ، بمحلة السويقة ، والتي تولى امرها هنود(٨٦) . وذكرت زاوية السنود ، بمحلة الهنود بدمشق ، بمناسبة تعيين الشيخ محمد بن محمد السندي في وظيفة الامامة فيها(٨٧) . وربما كانت التسميتان (زاوية الهنود وزاوية السنود) ، اللتان ذكرتا بفاصل خمس سنوات تشيران الى زاوية واحدة ووجدت كذلك زاوية للموصليين بمحلة ميدان الحصى ، تعاقب على مشيختها اناس من اصل موصلي(٨٨) .

وقد رغب عدد من المسلمين الاغراب الاقامة في دمشق سواء منهم الذين قدموا اليها بمناسبة الحج ، او الذين قصدوها خصيصا بهدف المجاورة لبعض الوقت او للاقامة فيها كنزلاء . واجتذبت دمشق ، بصورة خاصة ، العلماء والمتصوفة بسبب شهرة ما ضمته من اماكن دينية . ونظرا لكثرة الاغراب الذين دفنوا فيها ، وبخاصة من الحجاج ، فقد خصص مكان لدفنهم ،عرف بمقابر الغرباء ، في تربة مرج الدحداح(٨٩)، وقد جاء ، مثلا ، في احد سجلات القسام المدني (يشار اليه ايضا بالعربي) ، الذي نظر في مخلفات المتوفين في دمشق ، في الاعوام ١١٦٣ ــ ١١٦٦ هجرية ، ذكر خمسة وسبعين غريبا ، معظمهم من الحجاج الاروام ، دفنوا في دمشق ، اما العلماء الاغراب فقد دفنوا في الغالب حيث دفن علماء دمشق (٩٠).

وقد اغنيت الحياة الثقافية في دمشق بتوافد العلماء اليها بمناسبة الحج،واقامة بعضهم فيها . وكثيرا ما حدثت المناظرات بين العلماء الزائرين والعلماء المقيمين ، مثال ذلك زيارة عبد الله السويدي البغدادي لدمشق بين ٢٢ شعبان و ٢٠ شوال ١١٥٧/ ٣٠ ايلول و ٢٦ تشرين الثاني ١٧٤٤ ، بمناسبة سفره للحج ، ووصفه الجو الاجتماعي في دمشق ومناقشاته مع علمائها(٩١) .

وقد شغل عدد من نزلاء دمشق مراتب عليها فيها ، سواء في الامامة او في التدريس ، على اختلاف مستوياته(٩٢) ، بما في ذلك للدريس الحديث تحت قبة النسر في الجامع الاموي ، في اشهر رجب وشعبان ورمضان ، وهو من ارفع مراتب التدريس(٩٣) ، واقام النزيل ، او المجاور ، عادة ،في حجرة في مدرسة او في جامع(٩٤) واذا ما تزوج سكن في دار(٩٥) ، واذا لم يكن النزيل عربي اللسان امكنه تعلم العربية بدمشق(٩٦) ، واستغل العلماء المحليون وجود العلماء الاغراب في دمشق ، بمناسبة الحج ، فحصلوا منهم على الاجازات فيما اختصوا به من علم(٩٧) . وافاد العوام ، كذلك ، من العلماء النزلاء الذين كانوا بمستوى معرفتهم . وقد وصف احد هؤلاء

العلماء بأنه « يتكلم على الحقيقة ولا يعرف الشريعة وكان لكثير من الناس فيه كبير اعتقاد »(٩٨) .

ورغم ان مناسبة الحج كانت فرصة هامـة لتبادل الآراء بين العلمـاء الاغراب والمحليين ، وللتعليم والتعلم في آن ، فقد ساعد ذلك ايضا على نشر التصوف والطرق الصوفية . ولعل خير مثال ، في هذا المجال ، هو نشر الطريقة النقشبندية في دمشق، في اواخر القرن السابع عشر ، على يد جد الاسرة المرادية ، السيد مراد المرادي ، الذي ام دمشق بمناسبة الحج ، واهتم بنشر هذه الطريقة في دمشق ، وتابع عمله من بعده ابنه السيّد محمد . واصل الاسرة المرادية من بخارى ، ولكن الطريقة النقشبند التي نشروها تنتسب الى الشيخ احمد الفاروقي ، الذي اقام في الهند ، واشتهر بالمجدد(٩٩) . ولو لم يكن المناخ مهيئا في دمشق لنشر هذه الطريقة وغيرها لما شاعت بين الناس ولما ام دمشق عدد من الهنود النقشبندية آنذاك(١٠٠) . وانتشرت طرق صوفية عدة في دمشق ، في العهد العثماني . وانتسب الناس الى اكثر من طريقة . وافاد انتساب العلماء الى الطرق الصوفية بأن رفع من مستواها وازال منها كثيرا من تطرفها ، كما انه عزز الروابط بين افراد الطريقة الواحدة ، دون ان يوجد حساسيات قاتلة بين الطرق ، لانها لم تكن عقائدية متعمقة ، وانما ذات شعائر اجتماعية متقاربة .

ورغم انه لم يقم اي سلطان عثماني باداء فريضة الحج ، بما في ذلك السلطان عبد الحميد الثاني ، الذي اعلن نفسه خليفة المسلمين ، ربما لاسباب امنية ، فقد اهتم العثمانيون بتأمين سلامة قافلة الحج، بوصفهم حماة الحرمين الشريفين، طوال القرون الاربعة التي حكموا فيها بلاد الشام .



المراجع

(١) انظر : محمد بن عيسى بن كنان ، الحوادث اليومية من تاريخ احدى عشر الف ومية ، جزءان مخطوطان في مجموعة برلين ، ارقامها : 9479, We. (II) 1114, 9480, We. (II) 11150 ج ٢ ، الاوراق ٧١ ا ، ٨٠ ا ، ١٢٥ ب ، ١٤٧ ا ، ١٦٢ ا ، ١٧١ ب ،د.صلاح الدين المنجد ، ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ١٩٤٧ ، حقق فيه : الباشات والقضاة ، لمحمد بن جمعة ، والوزراء الذين حكموا دمشق ، لرسلان القاري ، ص٢، ٥٣ ، احمد البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ، ١١٥٤ — ١٧٤١/١١٧٥ — ١٧٦٢ ، تحقيق د . احمد عزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٠ ، ١١٥ ، ١٦١ ، ١٧١ .

(٢) سكن هذه المناطق ، قبل العثمانيين ، الروم البيزنطيون . وقد اشار العرب ، منذ الفتوحات الاولى ، الى البيزنطيين باسم الروم . وحين زال الحكم البيزنطي عن الاناضول ، وحل محلـــه حكم السلاجقة ، ثم العثمانيين ، فقد تعبير « روم » مدلوله السياسي ، ولكنه لصق بالمنطقة مـن ناحية جغرافية . لذلك اشار العرب الى سلاجقة قونية بانهم سلاجقة الروم ، والى العثمانيين بانهم روم ، والى سلطانهم بانه ملك ، ثم سلطان ، الروم .

(٣) البديري ، ص ١٧٦ .

(٤) ابن كنان ، ج ١ ، ١٤١ ب.

(٥) البديري ، ص ١٧١ .

(٦) البديري ، ص ١٠ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١٦١ .

(٨) انظر :

C.F. Chasseboeuf Comte de Volney, **Voyage en Egypte et en Syrie**, ed. J. Gaulmier, Paris, 1959, P. 253.

(٩) انظر :

Public Rcord Office (P R O), London, State Papers (SP) 97/38: Istanbul (date of despatch) 3. 12. 1757.

(١٠) انظر : Volney, p. 322

(١١) انظـر :

Lettres édifiantes... de la Compagnie de Jésus (Jesuits), 34 Vols., Paris, 1707- 73, P. 444.

(١٢) انظر كتابنا :

The Province of Damascus, 1723-1783, Khayats, Beirut, 2nd ed. 1970. P. 61.

(١٣) انظر :
Affaires Etrangères, Correspondance Commercialo (Quai d'Orsay), Damas 2, 16 Mars 1847.

(١٤) انظـر :
AE. CC. Damas 5, 19 Janvier 1870.

(١٥) محمد بن طولون ، اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد احمد دهمن دمشق ١٩٦٤ ، ص ٢٢٠ ، ٢٢٥ .

(١٦) انظر لتفاصيل ومصادر هذه المعلومات في كتابنا : بلاد الشام ومصر (١٥١٦–١٧٩٨) ، دمشق ١٩٦٨ ، ص ١٥٧ ، ١٩٧ – ٢٠٠ .

(١٧) انظر لتفاصيل ذلك في كتابنا : بلاد الشام ومصر ص ٢١٣ – ٢١٤ ، ٢٢٥ – ٢٣١ .

(١٨) محمد خليل المرادي ، مطمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد ، مخطوطة في المتحف البريطاني بلندن ، رقم ٤٠٥٠ ، OR ، الاوراق ، ٢٦ ب – ٢٧ أ .

(١٩
H . Tresse, Le Pélerinage Syrien aux Villes Saintes de l'Islam, Paris,1937, PP. 85, 88.

(٢٠) انظر لتفاصيل اخرى عن الجردة في كتابنا :
The Province of Damascus, PP. 65-68.

(٢١) حيدر احمد شهاب ، تاريخ الامير حيدر احمد الشهابي ، نشر نعوم مغبغب ، القاهرة ، ١٩٠٠ – ١٩٠١ ، ص ٦٧٧ – ٦٧٩ – ٦٨٣ – ٦٨٤ ، الحسن بن محمد البوريني ، تراجم الاعيان من ابناء الزمان ، صدر منه جزءان ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٩ – ١٩٦٦ ، ج ١ ، ٢٠٥ .

(٢٢) البديري ، ص ٤٢ – ٤٦ .

(٢٣) المرادي ، مطمح الواجد ، الاوراق ، ٤٢أ – ٤٢ب .

(٢٤) المرادي ، سلك الدرر ، ج٢ ، ص ٣٢ ، ج ٣ ، ص ٤٧ .

(٢٥) سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ٩٦ ، ١٢ شوال ١١١٩/ (٢٥ كانون الاول ١٧٠٨) .

(٢٦) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٥٣ ، ٤ محرم ١٠٤٥/ (٢٠ حزيران ١٦٣٥) .

(٢٧) انظر بحثنا : غزة ، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ، ١٢٧٣– ١٢٧٧/١٨٥٧ – ١٨٦١ ، بحث قدم للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، عمان ، نيسان ١٩٨٠ ، ص ٨٠ – ٨١ .

(٢٨) سجل دمشق ، رقم ١٦٩ ، ص ٢٩١ ، ٢٠ جمادى الاولى ١١٧٤/ (٢٨ كانون الاول ١٧٦٠) .

(٢٩) سجل دمشق ، رقم ١٧٤ ، ص ٦٠ ، ختام شعبان ١١٧٥/ (٢٥ اذار ١٧٦٢) ، ص ٦١ ، ٦ رمضان ١١٧٥ (٣١ اذار ١٧٦٢) .

(٣٠) انظر وصفا دقيقا لهذا الهجوم في كتابنا :
The Province of Damascus, Pp, 213-222.

(٣١) Ibid., pp - 72 - 73

(٣٢) سجل دمشق رقم ١٧٤ ، ص ٦٠ ، ختام شعبان ١١٧٥/(٢٥ اذار ١٧٦٢) ، ص ٦١ ، ٦رمضان ١١٧٥/ (٣١ اذار١٧٦٢).

(٣٣) انظر حول هذه الطائفة في دمشق ، في القرنين التاسع عشر والعشرين ، قاموس الصناعات الشامية ، في جزأين ، الجزء الاول ، تاليف محمد سعيد القاسمي ، والثاني تاليف جمال الدين القاسمي وخليل العظم ، تحقيق ظافر القاسمي ، نشر موتون وشركاه ، باريس - لاهاي ، ١٩٦٠ ، ج ٢ ، ص ٤٦٥ - ٤٦٦.

(٣٤) انظر حول المحايري الذي يصنعها ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٢٠ - ٤٢١ .

(٣٥) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٨١ ، ١٦ شعبان ١٠٤٥ / (٢٥ تشرين الثاني ١٦٣٦) ، سجل دمشق ، رقم ١٢١ ، ص ٢٦٣ ، ١١ شوال ١١٥٨ / (٦ تشرين الثاني ١٧٤٦) .

(٣٦) سجل حلب رقم ٢٢٢ ص ١٢٥ ، ٤ شوال ١٠٥٠/(١٧ كانون الثاني ١٦٤١) .

(٣٧) المصدر السابق .

(٣٨) سجل دمشق ، رقم ١٧٤ ، ص ٥٠ ، ١٩ شعبان ١١٧٥/ (١٠ اذار ١٧٦٢) .

(٣٩) انظر حول تعريفه : قاموس الصناعات الشامية ، ج ٢ ، ص ٣١٨ - ٣١٩ .

(٤٠) سجل دمشق ، رقم ١٢١ ، ص ٦٣ ، ١١ شوال ١١٥٨/ (٦ تشرين الثاني ١٧٤٥) .

(٤١) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٨٠٩ ، ١٧ صفر ١٠٤٦/ (٢١تموز ١٦٣٦) .

(٤٢) انظر ، مثلا ، سجل حلب ، رقم ١١ ، ص ١٤٨ ، ٢٩ ربيع الاول ١٠٢٧/ (٢٦ آذار ١٦١٨).

(٤٣) سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ٩٦ ، ١٣ شوال ١١١٩/(٧ كانون الثاني ١٧٠٨).

(٤٤) سجل حلب رقم ١٥ ، ص ٧٨١ ، ٦ اشعبان ١٠٤٥/ (٢٥ كانون الثاني ١٦٣٦) .

(٤٥) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٨٨ ، ٢٢رمضان ١٠٤٥/(٢٩شباط ١٦٣٦) .

(٤٦) سجل دمشق ، رقم ١٢١ ، ص ٦٣ ، ١١ شوال ١١٥٨/ (٦ تشرين الثاني ١٧٤٥) .

(٤٧) سجل دمشق ، رقم ١٢٢ ، ص ١٥٠ ، ٦ صفر ١١٥٩/ (٢٨ شباط ١٧٤٦) .

(٤٨) انظر مثلا ، سجل دمشق رقم ١٢٤ ، ص ٢ ، ٥ صفر ١١٥٩ / (٢٧ شباط ١٧٤٦) .

(٤٩) قدر البديري (ص ٨١ - ٨٢) ان رطل الخبز الجيد في عام ١١٥٩ هـ ، بيع بسبع مصاري ، والرديء بخمسة مصاري، ورطل الارز بعشرة مصاري، ورطل اللحم بنصف قرش، ورطل العسل بقرش ونصف ، ورطل الباذنجان بثمانية مصاري ، واذا اعتبرنا ان الرطل الدمشقي انذاك قدر ب ١٫٨٥٠كغ (انظر : فالتر هنتس ، المكاييل والاوزان الاسلامية ، ترجمة د. كامل العسلي ، منشورات الجامعة الاردنية عمان ، ١٩٧٠ ، ص٣٢) وان القرش يعادل اربعين مصرية ، لتبين لنا مقدار القيمة الشرائية لكلفة السفر الى الحج انذاك ، وهي مائة قرش .

(٥٠) بيعت دار في عام ١١٥٩ هـ بدمشق بمحلة باب السريجة بزقاق العلواني تابع زقاق الوسطاني، تشتمل على ساحة سماوية ،وبركة ماء ، يجري اليها من نهر قنوات ، وايوان ومربع ، وقبة تعلوها طبقة ومطبخ ، ومشرقة ،ب ١٧٥ قرشا (سجل دمشق ، رقمه١١ ،ص٨٨٦ ربيع اول١١٥٩ (٣١ اذار ١٧٤٦).

وبيعت دار اخرى ، ظاهر دمشق ، بمحلة الشاغور البراني ، بزقاق الجوزة تشتمل على ساحة سماوية ، ومربع ، ومرتفق بـ٧٠ قرشا (سجل دمشق ، رقم ١١٨ ، ص ١٢٥ ، ٥ ربيع الاول ١١٦٠ (١٧ اذار ١٧٤٧). وكانت اجرة حمام الورد ، بسوق ساروجا ، ستة عشر قرشا في الشهر (سجل دمشق رقم ١١٨ ، ص ٥٦ ، ٢٠ ذي الحجة ١١٥٩) / ٣ كانون الثاني ١٧٤٧ .

(٥١) ذكر ان سمانا ، ينفق على عياله ، لم يستطع دفع مبلغ ٤٠٠ قرش من الديون بذمته ، واعلن اعساره في المحكمة (سجل دمشق ، رقم ١٤٢ ، ص١٠٣٣ ، ربيع الاول ١١٦٤/٦ شباط ١٧٥١) . وبلـــغ ما تقاضاه السيد حسن بن السيد علي البرهاني عن وظيفة الامامة والتعليم وقراءة جزء شريف بمسجد المرحوم محمد الجلبي القرماني ، بالقرب من تحت القلعة بدمشق ، عشرة دراهم عثمانية في اليوم (سجل دمشق ، رقم ١١٥ ، ص١٥٢ ، ٢٦ شعبان ١١٥٩/١٣ ايلول ١٧٤٦) اي ما يعادل ثلاث مصريات وثلث في اليوم وغالبا ما قام العالم بعدد من هذه الوظائف في اليوم . وكانت نفقة الولد ، انذاك ، مصريتين في اليوم.

(٥٢) نجم الدين الغزي ، لطف السمر وقطف الثمر من تراجم اعيان الطبقة الاولى من القرن الحادي عشر ، (وهو ذيل الكواكب السائرة) ، مخطوط في الظاهرية رقم ٤١ ، الاوراق ، ١٩٩ب-٢٠٠ا وقد روى هذه الواقعة : محمد الامين المحبي ، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ، ٤ اجزاء ، القاهرة ١٢٨٤/١٨٦٩ جـ ٢ ، ص ٣٧٨ .

(٥٣) هناك وصف لموكب الحج في دمشق في كتاب محمد بن عيسى بن كنان الصـــالحي ، المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية ، مخطوط في برلين ، برقم : 6088. We. 1166 وتوجد عنه نسخة مصورة في مجمع اللغة العربية بدمشق. ونشر صفحات منه: محمد احمد دهمان، اعلام الورى، ص٢٩٨ .

(٥٤) انظر : ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ ٢ ، ١٢٥ ب ، ١٦٩ ب ، البديري ، ١٠ ، ٣١ .

(٥٥) المحبي ، جـ ١ ، ١٣ ، جـ ٣ ، ١٠٣ ، جـ ٤ ، ٦٢ ، المرادي ، سلك الدرر ، جـ ١ ، ٢٣ .

(٥٦) اسماء هذه المنازل مبنية على المصادر التالية : ابراهيم الخياري ، تحفة الادباء وسلوة الغرباء ، مخطوط في مجموعة برلين برقم 6135, We. (I) 125 (وصف طريق الحج في ١٠٨٠ هـ) ، عبد الغني النابلسي ، كتاب الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز ، مخطوط في جامعة كيمبردج برقم Q q. 300 (وصف طريق الحج في ١١٠٥-١١٠٦هـ) ، مرتضى بن علوان ، (وصف طريق الحج في عام ١١٢١هـ) مخطوط في مجموعة برلين برقم 6137. We. (II) 1860 عبد الله السويدي ، النفحة المسكية في الرحلة المكية ، مخطوط في المتحف البريطاني ، برقم Add. 23, 385 (وصف طريق الحج في ١١٥٧) ، عثمان (؟) (وصف طريق الحج في عام ١١٥٦هـ) ، مخطوط في مجموعة برلين 6147. Pm (II) 105. ووصف محمد اديب باللغة التركية ، طريق الحج في عام ١١٩٣ هـ ، بين استانبول ومكة ونشرت اجزاء من مؤلفه باللغـة الفرنسية ، انظر :

M. Bianchi, **Itinéraire de Constantinople à la Mecque** (Extrait de l'ouvrage Turk intitulé. Kitab Menassik El-Hadj), for Muhammad Adib b. Muhammad Darwish, Paris, 1825.

(٥٧) ابن جمعة ، تحقيق المنجد ، ص ١١ ـ ١٢ ، الغزي ، الكواكب السائرة ، جـ ٢ ، ١٥٣ .

(٥٨) المرادي ، سلك الدرر جـ ٣ ، ١٦١ ، مطمح الواجد ، ٢٦٢ ، القاري ، تحقيق المنجد ، ٩٣ ، محمد اديب ، مناسك ، ص ٥١ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ .

(٥٩) الغزي ، الكواكب السائرة ، جـ٣ ، ١٥٧ .

(٦٠) انظر كتابنا : The Province of Damascus, 32:

(٦١) ابن جمعة ، تحقيق المنجد ، ص ١١ - ١٢ .

(٦٢) الكلمة فارسية الاصل واشار بعض الاخباريين الدمشقيين الى الجوخدار باسم نجاب ، انظر مثلا ، ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ ٢، الاوراق ، اب ١٨١ ، البديري ١٦، ٣٦، ١٢٤، ١٥١، ١٦٤، ١٧٣ ، ١٨٨ ، ١٩١ .

(٦٣) ابن كنان ، جـ ٢ ، الاوراق ١ ب ، ٨ آ ، البديري ، ١٦ ، ٣٦ ، ١٢٤ ، ١٥١ ، ١٦٤ ، ١٧٣، ١٨٨ ، ١٩١ .

(٦٤) البديري ، ١٩١ .

(٦٥) محمد اديب ، ٤٨ .

(٦٦) ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ٢، الاوراق ، ١٦٧ب، ١٧٤ب ، النابلسي، الحقيقة والمجاز، ٢٨٥ آ ، حسن الشهير بابن الصديق ، غرايب البدايع وعجايب الوقائع ، مخطوط في مجموعة برلين رقم 8163. We. (II) 202 ، الورقة ٤، ا .

(٦٧) السويدي ٢١١٤ ، ٢١٢٩ ، محمد اديب ، ٣٩ - ٨٦ ، وقدر Volney, 322 المدة باربعين يوما .

(٦٨) النابلسي ، الحقيقة والمجاز ، ٢٤٤ب ، ٢٧٢ ب ، ٢٨٥ آ .

(٦٩) محمد اديب ، ٧٧ .

(٧٠) عثمان ، ٢٨٤ ب .

(٧١) انظر ، مثلا ، البديري ، ٣٦، ٣٧، ١٦١ .

(٧٢) انظر مثلا ، سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ٩٦ ، ١٢ شوال ١١١٩/ (٦ كانون الثاني ١٧٠٨) ، ورقم ٤٥ ، ص ١٤٩ ، ٢٠ ربيع الاول ١١٤٠ / (٥ تشرين الثاني ١٧٢٧) .

(٧٣) البديري ، ص ١٦١ .

(٧٤) سجل دمشق ، رقم ٣٣، ص ٨٢ ، ٣ شعبان ١١١٩ (٣ تشرين الاول ١٧٠٧) .

(٧٥) سجل دمشق ، رقم ١٧١ ، ص ٣٧٩ ، ١٢ صفر ١١٧٦ (٢ ايلول ١٧٦٢) .

(٧٦) سجل دمشق ، رقم ١٣٦ ، ص ٣٧ ، ١٧ محرم ١١٦٣ (٢٧ كانون الاول ١٧٤٩) ، ورقم ١٤٢، ص ١٩٤، ١٦ شعبان ١١٦٤ (١٠ تموز ١٧٥١) .

(٧٧) انظر : PRO. SP. 110/25, Pt, II : Aleppo, 19,10,1726; volney, P. 323.

(٧٨) يذكر ان مبتكر شرب القهوة في اليمن هو ابو بكر الشاذلي العيدروسي (المتوفى اوائل ٩٠٣هـ/ اواسط ١٤٩٧) الذي مر بشجرها هناك واقتات من ثمرها فوجد فيه تخفيفا للدماغ واجتلابا للسهر وتنشيطا للعبادة (الغزي ، الكواكب السائرة ، جـ ١، ١٣٢ - ١٣٤) . وقد ادخل شرب القهوة الى دمشق في صفر ٩٤٧/ حزيران تموز ١٥٤٠ (الغزي ، الكواكب السائرة جـ٢ ، ١٩٨) . ثم نودي بابطالها في ٧ ربيع الاول ٩٥٣/٨ ايار ١٥٤٦ (الغزي ، الكواكب السائرة ، جـ ٢ ، ٣٩) . وقد شاع شرب القهوة في بيوت القهوة (المقاهي) بدمشق، في الربع الاخير من القرن العاشر اي القرن السادس عشر (الغزي، الكواكب السائرة جـ٣ ، ٢٢، ٣٦، ٢٠٥ ، المحبي ، جـ ١ ، ١٦٦، ٣٠٢، ٤٢٠ .

(٧٩) PRO. SP. 97/39: Istanbul, 23,12 1757; AE. B' 1040. Seyde, 11.10.1783

(٨٠) كلمة Moka تشير الى مخالي اليمن .

(٨١) انظر : AE. CC. Damas I, 30 mars 1842.

(٨٢) انظر بحثنا التالي الذي القيناه في المؤتمر الدولي الثاني للتاريخ الاقتصادي الاجتماعي لتركيا ، المنعقد في جامعة ستراسبورغ ، (١ — ٥ تموز ١٩٨٠).

« The impact of Europe on a traditional economy : the case of Damascus, 1840 - 1870 », a paper sumbitted to the IIe Congrès international d'Histoir Economique et Sociale de la Turquie , Economie et Sociétés dans l'empire Ottoman, fin du XVIIIe - début du XXe siècle » Strasbourg, Ier - 5 Juillet - 980.

(٨٣) نعمان القساطلي ، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، بيروت ١٨٧٩ ، ص ١٢٤ .

(٨٤) ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ١ ، ١٠٢ ، المرادي ، مطمح الواجد ، ٤٢ ا . انظر ايضا البديري ، ص ١٧١ ، الذي ذكر السويقة الى جانب حي الخراب .

(٨٥) بنيت في عام ٨٠٢/١٣٩٩ — ١٤٠٠ ، وهي شمالي جامع الجراح في باب الصغير ، عرفت ايضا بزاوية الوطية نسبة الى علي الشهير بابن وطية الذي انشاها (ابن طولون ، اعلام الورى ، تحقيق الدهمان ، ص ١٠٢ ، المنجد ، ولاة دمشق ، ص ١٠).

(٨٦) سجل دمشق رقم ٣٢٤ ، ص ١٩٢ ، ١٦ رمضان ١١٥٩ (٢ تشرين الاول ١٧٤٦) .

(٨٧) سجل دمشق ، رقم ١١٠ ، ص ٢٠ ، ١٠ جمادي الاول ١١٥٤ (٢٤ تموز ١٧٤١) .

(٨٨) المحبي ، جـ ٢ ، ص ٣٤٦ .

(٨٩) المرادي ، سلك الدرر ، جـ٢ ، ٢ .

(٩٠) انظر مثلا : المرادي ، سلك الدرر ، جـ١ ، ٢٥٨ .

(٩١) النفحة المسكية ، ٩٤ ا ، ٩٤ب .

(٩٢) انظر مثلا : المرادي سلك الدرر ، جـ ٣ ، ٩ .

(٩٣) انظر مثلا : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ٢١٥ ، جـ ٤ ، ٢٦٥ .

(٩٤) المحبي ، جـ ٢ ، ٧٦ ، المرادي ، سلك الدرر ، جـ٢ ، ٣٣ ، جـ ٣ ، ٢١٣ ، عبد الرزاق البيطار ، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، ٣ اجزاء ، تحقيق محمد بهجت البيطار ، دمشق ، ١٩٦١ — ١٩٦٣ ، جـ١ ، ١٠٣ .

(٩٥) المرادي ، سلك الدرر ، جـ٣ ، ٩ .

(٩٦) انظر مثلا : المحبي ، جـ ٢ ، ١١٨ .

(٩٧) انظر مثلا : الغزي ، لطف السمر ، ٢٠٩ ب .

(٩٨) المصدر السابق ١٧٩ ا ، المحبي ، جـ٤ ، ٢٨٧ .

(٩٩) المرادي ، سلك الدرر ، جـ ٤ ، ١١٤ ، ١٢٩ .

(١٠٠) انظر مثلا المصدر السابق ، جـ٢ ، ٢ ، جـ٣ ، ٢٦٠ .

مظاهر سكانية من دمشق في العهد العثماني

د. عبد الكريم رافق

جامعة دمشق

مقدمة

تواجه الباحث صعوبات جمة في معرفة عدد سكان مدينة ما ، او قطر ما ، في مختلف فترات التاريخ العربي ، قبل اعتماد الاحصاءات الرسمية . والمصادر التاريخية العربية لا تزودنا بمعلومات عن اعداد السكان ، سواء في المدن ، ام في البلاد ككل ، كما ان معلوماتها بالنسبة لاعداد الجماعات ، بما في ذلك اعداد القاتلين في المعارك ، تعوزها الدقة . ولم تكن تقديرات المراقبين الاجانب ، وبخاصة الرحالة منهم ، اقرب الى الصحة ، اذ اعتمدت ، في كثير من الاحيان ، على اعتبارات خاطئة او مبالغ فيها ، او على معلومات مستقاة من مصادر غير موثوقة .

وازاء هذا الارتباك في المعلومات عن اعداد السكان ، وتزايدهم او تناقصهم ، لجأ الباحثون المحدثون الى اعتماد معايير عدة لمعرفة اعداد السكان في الماضي . ومن هذه المعايير اعتماد عدد الحمامات في مدينة ما لمعرفة عدد سكانها . وذهب بعض الباحثين الى القول ان الحمام الواحد يخدم مائتي بيت يتألف كل منها من خمسة اشخاص . وعلى هذا فان مجموع السكان هو حاصل ضرب عدد الحمامات بالف (٢٠٠ × ٥) . وقال احد الباحثين ان الحمام الواحد يخدم ثلاثة الاف نسمة . وقدر اخر العدد بأربعة الاف .

واعتمد باحثون اخرون مساحة الجوامع في التوصل الى معرفة عدد السكان في مدينة ما ، وذلك بتقسيم المساحة على ما يحتاجه المصلي الواحد من مكان للصلاة ، تقدر ابعاده ، حسب قول احد الدارسين للجامع الكبير في مدينة سوسة التونسية ، بستين سنتيمترا عرضا ومتر وخمسة وثلاثين سنتيمترا طولا . وبعد التوصل الى عدد المصلين الذين تستوعبهم مساحة ذلك الجامع ، يضرب العدد بالرقم ثلاثة ونصف ، وهو ما يمثل وسطي عدد الاسرة في سوسة ، لتقدير مجموع عدد السكان

في تلك المدينة . وطبيعي ان هـذا المعيار لا يمكن استخدامه في كل بلد اسلامي ، نظرا لاجتهاد المذاهب فيما بينها بالنسبة لصلاة الجماعة .

ومن الباحثين من اعتمد المساحة المسكونة في المدينة وقسمها على وسطي مساحة البيت ، لمعرفة عـدد البيوت المسكونـة ، ثم ضـرب العدد بخمسـة ، وهو وسطي عدد افراد الاسرة المتعارف عليه بين عدد من المؤرخين . وتصطدم هـذه التقديرات بصعوبات كثيرة منها ان وسطي عدد افراد الاسرة يختلف من منطقة الى اخرى ، ومن فترة الى اخرى . وكذلك يختلف عدد ساكني البيت الواحد فيما بين الاسرة الصغيرة ، والاسرة الكبيرة التي تضم جيلين أو اكثر (١) .

واعتمد بعض الباحثين السجلات المالية العثمانية ، ومقدار الضرائب والجزية لتقدير عدد السكان . ولكن هذه التقديرات بدورها لم تكن لتخلو من الاخطاء ، سواء بالنسبة لمجموع السكان في المدينة او اللواء أو الولاية ، أم بالنسبة للسكان حسب طوائفهم . وقد ذكر أحد الباحثين ، مثلا ، ان سكان مدينة حلب تناقصوا مـن سبعة وخمسين الفا ، في الفترة ما بين ١٥٢٠ – ١٥٣٠ م ، الى ستة واربعين الفا في عام ١٥٨٠ ، وحدث مثل ذلك بالنسبة لسكان دمشق ، الذين تناقصوا من سبعة وخمسين الفا الى ثلاثة واربعين الفا في المدة ذاتها . وعزي هذا التناقص الـى الطاعون الكبير الذي اصاب السكان في عام ١٥٥٥ (٢) .

وقد حدثت الطواعين بشكل متكرر في العهد العثماني وشملت مناطق واسعة من بلاد الشام وغيرها . وبعضها انتشر بالعدوى من مناطق اخرى ، وبعضها الاخر حدث في اعقاب الزلازل والدمار الذي الحقته بالانسان والحيوان ، والتلوث الـذي اصاب المياه . وتغص كتب التراجم باسماء الذين « طعنوا » ، وتوفوا بسبب ذلك . واسهب ، بل بالغ الاخباريون في وصف حوادث الطاعون والاصابات التي خلفها . ومن ذلك قول ابن جمعة في احداث عام ١١٤٤/١٧٣١ – ١٧٣٢ :

« وفيها كان الطاعون بارض الشام ونواحيها حتى فني خلق كثير وعم غالب البلدان » (٣) . ومن الطواعين الشديدة التي اصابت بلاد الشام ، في العهد العثماني ، ذلك الذي حصل في عام ١١٧٣/١٧٦٠ ، في اعقاب سلسلة من الزلازال العنيفة (٤) . وكان طاعونا مخيفا مكث ، على حد قول رسلان القاري (٥) ، اربعة اشهر . وذكر اخر انه دام ستة اشهر (٦) وبلغت ضحاياه كل يوم في دمشق ، كما ذكر القاري ، « الف أو أزيد » ، ووصف أحمد البديري الحلاق الدمشقي هذا الطاعون بقوله : « فقبل عبد الفطر بيومين وبعده بيومين يخرج من كل باب من أبواب دمشق ممن مـات مطعونا في كل يوم نحوا من الف جنازة والعياذ بالله . وهذا شيء ما سمع من عهـد

طاعون عمواس ، نسأله تعالى اللطف فيما جرت به المقادير » (٧) . وهذا دليل على اضطراب الروايات في ذكر الضحايا التي يميل الاخباريون الى تضخيمها نظرا لضخامة الحادث .

وقد قدر سكان بلاد الشام ، ابان الحكم المصري، في الفترة بين ١٨٣١-١٨٤٠، بما يتراوح بين (١٫٣٧٩٫٤٤٦) و (١٫٧٩١٫٠٧٦) نسمة ، وذلك بالاستناد الى سجلات الضرائب المصرية (٨) . وجاء في الاحصاء العثماني لعام ١٨٩٣ ان ولاية حلب ، بما فيها الوية حلب ومرعش وأورفة ، بلغ عدد سكانها ، باستثناء البدو ، (٧٨٧٫٧١٤) نسمة ، منهم (٣٨٨٫٠٨٣) من الاناث و (٣٩٩٫٦٣١) من الذكور . وضمت ولاية سورية ، التي كانت تتألف من لواء الشام (ويضم دمشق ودرعا وحاصبيا وراشيا ووادي العجم وبعلبك والبقاع والنبك) ، ولواء حماة (ويضم حماة والسلمية وحمص والحميدية) (٤٠٠٫٧٤٨) نسمة ، منهم (٢٠٢٫٧٤١) من الاناث و (١٩٨٫٠٠٧) من الذكور . واشتملت ولاية بيروت ، التي تألفت من لواء بيروت (ويضم بيروت وصيدا وصور ومرجعيون) ، ولواء عكا (ويشتمل على عكا وحيفا وصفد والناصرة وطبرية) ، ولواء اللاذقية (ويضم اللاذقية وجبلة والمرقب وصهيون) ، ولواء طرابلس الشام (ويشمل طرابلس وعكار وصافيتا وحصن الاكراد)، ولواء البلقاء (ويضم نابلس وبني صعب وجماعين وجنين) على (٥٦٨٫٠١٤) نسمة ، منهم (٢٧٣٫٤٨٥) من الاناث و (٢٩٤٫٥٢٩) من الذكور . وعلى هذا يبلغ مجموع سكان هذه الولايات التي كانت تشكل القسم الاكبر من بلاد الشام (١٫٧٥٦٫٤٧٦) في عام ١٨٩٣ (٩) . وبالمقارنة مع عدد السكان في فترة الحكم المصري يتضح ان الزيادة كانت طفيفة ، ان لم تكن معدومة ، في أحسن الاحوال . وربما يفسر ذلك بالاحداث التي جرت ، ومنها اضطرابات فترة ١٨٤٠ - ١٨٦٠ ، والهجرة التي اعقبتها الى الخارج ، واصابات الطاعون المتكررة في القرن التاسع عشر .

سجلات التركات واهميتها في دراسة السكان

تزودنا سجلات التركات ، او المخلفات ، في العهد العثماني ، بمعلومات هامة عن السكان ، وبخاصة فيما يتعلق بحجم الاسرة ، ونسبة الجنس الواحد الى الاخر بين الاولاد ، ووسطي الاعمار ، والاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بذلك .

وقد عني بسجلات المخلفات نوعان من القضاة ، عرف كل منهما بلقب قسام ، واشير الى الواحد بلقب القسام العربي او البلدي ، والى الاخر بلقب القسام العسكري ، فالقسام العربي هو القاضي الذي قام بحصر وتسعير ، أو بيع ، مخلفات

المتوفى ، واقتطاع ما كان بذمته من التزامات وديون وما ترتب على حصر التركة من نفقات ، ثم توزيع ما بقي من الثروة بين الورثة . وعالج هذا القسام بخاصة امور الاوصياء والقاصرين وثرواتهم ونفقات معيشتهم . وعرفت المحكمة التي تراسها القسام العربي بمحكمة القسمة العربية البلدية ، وباختصار القسمة العربية أو القسمة البلدية . والقسام العربي غالبا ما يعينه قاضي قضاة دمشق ، وهو القاضي الحنفي الرئيسي فيها ، الذي يعين من استانبول ، وكان طيلة الفترة العثمانية روميا ، أي عثمانيا تركيا ، باستثناء حالات نادرة عين فيها اشخاص من اصل محلي لمنصب قاضي القضاة . ولا تتوافر معلومات واضحة حول مكان عمل القسام ، وعما اذا كانت له باستمرار محكمة خاصة به ، تشمل بناء معينا ، على غرار المحاكم الشرعية .

ويستدل من بعض النصوص ان القسام العربي اقام في محكمة الباب بدمشق(١٠) وهي مقر قاضي القضاة ، وتقع في مواجهة المدرسة النورية الكبرى ، لذا عرفت بالمحكمة النورية(١١) ، اما القسام العسكري فقد عالج شؤون العسكريين ، من الجنود والموظفين . وعين القسام العسكري من قبل قاضي عسكر الاناضول ، وعرفت محكمته بمحكمة القسمة العسكرية . ولا يعرف مكان اقامة هذا القسام ولا المكان الذي مارس عمله فيه ، ولكن وجدت سجلات كثيرة للقسمة العسكرية .

وتعد سجلات القسام العربي من اهم السجلات بالنسبة لدراسة السكان ، فهي تذكر المتوفين من مختلف طبقات الشعب. ولكنها لاتشكل بحال مسحا دقيقا لجميع المتوفين . فبعض الورثة يحلون قضاياهم فيما بينهم دون اللجوء الى القسام ، كما ان معظم السكان من غير المسلمين كانوا يلجأون الى محاكمهم الدينية الخاصة بهم . ومع ذلك ذكرت سجلات القسام اعدادا لا بأس بها من المتوفين غير المسلمين . ولا يرد في سجلات القسام ذكر للمتوفين القاصرين الا فيما ندر من الحالات ، حين يكون هؤلاء من أصحاب الثروات ، بحكم الوراثة ، وعندئذ يقتضي تدخل القسام لحصر ثرواتهم وتوزيعها بين الوارثين . وعنيت سجلات القسام بالمتوفين من الجنسين ، الذكور والاناث ، كما انها عالجت مخلفات المتوفين في القرى المحيطة بدمشق ، وفي المدن الابعد احيانا حين تكون الوفاة قد حدثت في دمشق أو بجوارها ، أو اذا كان الوارثون في دمشق .

ومما تجدر ملاحظته ان هذه السجلات تعطي مسحا شبه كامل لمخلفات المتوفين الاغراب ، ومعظم هؤلاء من الاروام (الاتراك) ، الذين قدموا الى دمشق للالتحاق بقافلة الحج الشامي المتجهة منها الى الحجاز . وترد قوائم المتوفين هؤلاء في سجلات القسام العربي عقب عودة قافلة الحج الى دمشق ، في النصف الاول من شهر صفر

غالبا . ومن الحجاج من يتوفى في طريق العودة ، ويدفن هناك ، ومنهم المرضى الذين يصلون دمشق ويتوفون فيها . ويذكر هؤلاء جميعاً في سجلات القسام العربي بدمشق.

ويقوم القسام بحصر ورثة المتوفى ، أو المتوفاة ، من زوجات ، أو ازواج ، واولاد واقرباء . ويتم حصر الممتلكات في البيت وفي مكان العمل (الدكان أو الخان) وتحصى الديون ان وجدت ، ثم تطرح الممتلكات في المزاد ، لتقدير ثمنها ، أو بيعها ،و غالبا ما اشتراها ابناء المتوفى من حصصهم بالميراث ، كما اشتراها احيانا أغراب على اختلاف مذاهبهم . وكثيرا ما اجل بيع الممتلكات غير المنقولة ، مثل العقارات والاراضي ، التي تبقى مشاعا بين الورثة . اما في الحالات التي لا يوجد فيها وارثون للمتوفى فتنتقل الثروة الى بيت مال الدولة . وبالنسبة للحجاج الاغراب الذين لهم وارثون في اماكن اقامتهم البعيدة ، فتسلم ثروة المتوفى التي تكون بحوزته وغالبا ما شملت نقودا وحاجيات وسلعا ، الى وصي من بلدته ، يكون المتوفى قد عينه سلفا كتدبير احتياطي ، لينقل ذلك الى وارثيه .

ولم تذكر سجلات القسام العربي تاريخ الوفاة بدقة ، بل اكتفت بترديد العبارة التالية : « المتوفى قبل تاريخه » . وهذا يعني انه قد يمر بعض الوقت ، قد يبلغ شهورا أو سنوات ، على الوفاة ، قبل الشروع بحصر التركة ، وبخاصة اذا كانت كبيرة وتشمل ديونا كثيرة وهامة .

ولا تذكر السجلات عمر المتوفى ولا مكان اقامته اي حيه أو داره . واذا كان قرويا ذكرت القرية التي ينتسب اليها . واذا كان غريبا اشارت الى بلدته والولاية التي تقع فيها . وفي الحالات التي تذكر فيها دار المتوفى الدمشقي ، ويعين موضعها وحدودها ، بمناسبة تقدير سعرها ، وتوزيعها بين الورثة أو بيعها ، يمكن عندئذ معرفة الحي الذي كان يسكنه المتوفى . ولم تعن سجلات القسام بذكر عمل أو مهنة المتوفى ، ويمكن تقديرها من لقبه الذي يحمله ، مثل الدباغ أو الصباغ ، ومن الادوات والسلع التي توجد في دكانه .

وقد اهتم القسام العربي بمحاسبة اوصياء القاصرين كل سنة ، فيما عهد اليهم من ثروة القاصرين وتوظيفها ومبلغ الربح ، أو المرابحة ، الذي نجم عن ذلك . واهتم ايضا بمعرفة النفقات التي انفقها الوصي على القاصر ، وتقتطع من مبلغ ثروته .

دراسة عينتين من سجلات القسام العربي

تزودنا سجلات القسام العربي بمعلومات هامة عن تركيب الاسرة ، وبالتالي

السكان ، رغم الثغرات التي سبقت الاشارة اليها . ومع ان المخلفات التي نظر فيها القسام عنيت بالدرجة الاولى بشؤون القاصرين ، فان بعض المخلفات اقتصرت على ورثة من البالغين فقط . ومن شأن ذلك ان يطلعنا على فئات الاعمار بين السكان بشكل عام ، وتعد محتويات هذه السجلات مصدرا هاما لقطاع كبير من السكان آنذاك .

وقد قمنا بدراسة عينتين من سجلات القسام العربي بدمشق ، احداهما (١٢) تشمل الفترة بين اول شعبان ١١٦٣ و ٢٨ ذي الحجة ١١٦٥/٦ تموز ١٧٥٠ و ٧ تشرين الثاني ١٧٥٢ ، والثانية (١٣) تشمل الفترة بين أول ذي القعدة ١٢٣٢ و ١٦ ربيع الثاني ١٢٣٥/١٢ ايلول ١٨١٧ واول شباط ١٨٢٠ . وتتالف كل فترة من هاتين الفترتين من حوالي تسعة وعشرين شهرا . وقد اختيرت هاتان العينتان ، بفاصل سبعين سنة تقريبا ، لمعرفة المتغيرات السكانية التي حدثت خلال تلك المدة . وقد جرت احداث جسام ، بالنسبة لدمشق ، في تلك الفترة ، مثل الزلازل الشديدة التي اصابتها عام ١١٧٣/١٧٥٩ ، والطواعين التي اعقبتها واودت بحياة الآلاف من سكانها ، كما سبق القول . وحدث ايضا في تلك الفترة هجوم علي بك المملوكي من مصر على بلاد الشام واحتلاله دمشق لمدة عشرة ايام ، بين ٢٤ صفر و ٥ ربيع الاول ١١٨٥/٨ - ١٨ حزيران ١٧٧١ (١٤) ثم تلاه هجوم مملوكي اخر من مصر على الجزء الجنوبي من بلاد الشام في عام ١٧٧٥ ، كما ان احمد باشا الجزار والي صيدا المملوكي الاصل ، الذي عين على ولاية الشام اربع مرات ، بين عام ١٧٨٥ ووفاته في ١٨٠٤ ، والذي صد حملة نابليون بونابرت على عكا عام ١٧٩٩ ، قد روع الاهلين بظلمه وفرضه السخرة عليهم ، وتسخيره الطاقات البشرية والاقتصادية لمصلحته . وشهد الربع الاول من القرن التاسع عشر توغل قوات الوهابيين في بلاد الشام وحروبهم مع السلطة العثمانية .

تضم العينة الاولى مخلفات ٣٣٦ متوفى ، منهم (١٤٢) مسلما محليا (من دمشق والقرى المجاورة والمدن السورية ومن نزلاء دمشق) و (١٠٤) مسلمة محلية ، و (٨٢) من الاغراب المسلمين ، وهم باكثريتهم من الاتراك ، ويضمون بعض المصريين والمغاربة ، و (٧) مسيحيين ، وامراة يهودية واحدة . ومن الـ (١٤٢) محليا ، حمل (٧١) منهم لقب حاج ، و (٣٢) لقب سيد ، و (١٤) لقب شيخ ، و (٦) لقب اسطه او استاذ او معلم (اسطه تحوير لكلمة استاذ ، وتشير هذه الالقاب الى معلم الحرفة) وكان (١٩) منهم بدون لقب . ويبدو أن لقب سيد حل محل بقية الالقاب نظرا لاهميته في التدليل على ان صاحبه ينحدر من السلالة النبوية الشريفة . وفي بعض الحالات لم يحمل والد السيد هذا اللقب مما يدل على ان المتوفى قد اكتسب الشرافة عن طريق امه التي كانت من الاشراف . ويلاحظ ان الذين حملوا لقب شيخ ، ويدل

على درجة من التفقه في العلوم الدينية ، كانوا ينحدرون من اباء يحملون ذلك اللقب ، مما يشير الى انتقال الاهتمام بالعلوم الدينية من الاباء الى الابناء ، بدليل شيوع تعبير أن فلانا من اسرة علماء .

ويلاحظ في قائمة المتوفين الـ (١٤٢) ان (٧٣) منهم كانت لكل منهم زوجة واحدة عند وفاته ، و (٣١) كانت لكل منهم زوجتان . وفي (٢٧) من بين الـ (٣١) حالة هذه اشير الى الزوجة الثانية بانها زوجة سابقة ، وقد تكون مطلقة او متوفاة ، ولكنها خلفت اولادا حق لهم وراثة والدهم . اما الحالات الاربع اخرى فاشارت كل منها الى زوجتين كانتا في عصمة المتوفى عند وفاته . وفي اربع حالات من أصل (١٤٢) كان للمتوفى ثلاث زوجات ، وفي حالتين منهما كان اثنتان منهن في عصمته وزوجة سابقة ، وفي حالة واحدة كانت له زوجة واحدة في عصمته وزوجتان سابقتان وامراة رابعة اشير اليها بمستولدته ، اي انها ولدت له اولادا ، ولم تكن بزوجته . وفي (٣٤) حالة من (١٤٢) لم يذكر للمتوفى اية زوجة مما يعني انه لم يكن متزوجا ، او ان زوجته قد توفيت ، أو كانت مطلقة ولم تخلف له اولادا . ويلاحظ في هذه الاحصاءات ان ٥٩ر٦٧٪ من المتوفين المتزوجين كانت بعصمتهم زوجة واحدة حين وفاتهم ، وربما دل هذا الاتجاه بالاكتفاء بزوجة واحدة على اوضاع مادية محدودة ، وكذلك على تدني مستوى العمر بين المتوفين كما سنشير الى ذلك لاحقا . ونستنتج من عدد الحالات التي كان للمتوفى فيها زوجة سابقة او اكثر ، ويبلغ عددها (٣١) حالة تعادل ٧٠ر٢٨٪ من مجموع المتزوجين ، ان نسبة تعدد الزوجات ، وما يرتبط بذلك من طلاق ، كانت متدنية بالقياس مع اعداد المتوفين المتزوجين بزوجة واحدة .

واذا ما استعرضنا عدد الاولاد الذين خلفهم المتوفون لتوصلنا الى احصاءات هامة . فمن مجموع المتوفين الـ (١٤٢) خلف (٨٩) منهم اولادا ، وبلغ مجموع هؤلاء الاولاد (٢٥١) ينقسمون الى (١٣٩) قاصرا و (١١٢) بالغا . وينقسم القاصرون الى (٦٣) ذكرا و (٧٦) انثى . اما البالغون فيتالفون من (٤٣) ذكرا و (٦٩) انثى . وبالاضافة الى العدد (٢٥١) كان تسع من زوجات المتوفين حاملات . وكان الحمل قبل ولادته يخمن دائما بذكر ، وذلك عند اقتسام الميراث ، وهذا اضمن لحقوق المولود مما او خمن بانثى ، لان حصتها نصف حصة الذكر ، ومن شان ذلك ان يسبب الارباك المالي بين الورثة فيا بعد .

ونستنتج من كون عدد القاصرين بين اولاد المتوفين اكثر من عدد البالغين ان المجتمع الدمشقي كان فتيا . ولكن ذلك يعني من ناحية اقتصادية انه كان أقل انتاجا لان موارد صاحب الاسرة تنفق على عدد اكبر من القاصرين غير المنتجين .

ونلاحظ ايضا من ارتفاع نسبة القاصرين الى البالغين ، بين اولاد المتوفين ، ان متوسط اعمار المتوفين كانت متدنية . واذا اخذنا بعين الاعتبار ان ٥٩ر٦٧٪ من المتوفين المتزوجين كانت لهم زوجة واحدة ، وان الزواج في المجتمعات الزراعية التقليدية يتم عادة في سن مبكرة ، وان الولادات تتلو الواحدة منها الاخرى ، في فترات قصيرة ، فان كثرة القاصرين تغدو ذات مدلولات هامة .

ويلاحظ كذلك من مقارنة مجموع عدد الاولاد ، وهو (٢٥١) بعدد الاسر التي ضمتهم وهو (٨٩) ان وسطي عدد الاولاد في الاسرة الواحدة هو (٢٫٨٢) . واذا اضفنا الى ذلك ان نسبة القاصرين من الاولاد كانت ٣٧ر٥٥٪ فان التفسير الارجح لهذا التدني في وسطي عدد الاولاد في الاسرة هو ارتفاع نسبة الوفيات ، سواء بين الاطفال ام الاباء . ومن بين المتوفين الـ (٨٩) ، هناك اربعة كان لكل منهم ستة اولاد ، وواحد له سبعة اولاد ، واخر له تسعة اولاد ، والجدير بالذكر ان ثروة المتوفى الذي خلف الاولاد التسعة كانت أعلى ثروة بين جميع المتوفين . اما غالبية الاسر فيتراوح عدد أولاد كل منها بين ولد واثنين. كما سنلاحظ في الجداول اللاحقة.

ويلفت الانتباه ان نسبة الاناث بين القاصرين بلغت ٦٧ر٥٤٪ ، ونسبتهن بين الاولاد البالغين بلغت ٦٠ر٦١٪ . وارتفاع نسبة الاناث بين البالغين عنها بين القاصرين ربما يدل على مقاومة الاناث للامراض اكثر من الذكور . وينتج عن ازدياد نسبة الاناث بين أولاد المتوفين تجزؤ الملكيات الموروثة الى حصص اصغر مما لو كان الامر عكس ذلك ، لان الانثى ترث نصف ما يرث الذكر .

والى جانب المتوفين المحليين الـ (١٤٢) ، في العينة الاولى ، هناك (١٠٤) من النساء المتوفيات من المسلمات المحليات . وقد حملت ثماني منهن لقب حاجة ، اي بنسبة ٦و٧٪ بينما كانت نسبة الذين يحملون لقب حاج بين الرجال المحلين المتوفين ٥٠٪ . ولم يكن تدني نسبة النساء اللواتي ذهبن الى الحج ليفسر بسبب اقتصادي بحت لان وسطي ثروة النساء المتوفيات فاق وسطي ثروة الرجال المتوفين ، ويبدو ان الاسباب تتعلق بالتقاليد السائدة وبصعوبات الطريق ومخاطره . ووجد بين النساء اربع عشرة امراة حملن لقب شريفة ، اي بنسبة تبلغ ٤٦ر١٣٪ من مجموع النساء المتوفيات . ويقابل ذلك واحد وثلاثون رجلا حملوا لقب سيد ، اي بنسبة تبلغ (٢١٫٨٣) من مجموع المتوفين المحليين . ونستدل من هذه النسب انه لم يكن ضروريا أو شائعا ان يتزوج الاشراف من شريفات دون غيرهن .

ولدى استعراض عدد النساء وازواجهن ، في العينة الاولى ، نجد ان (٧١)

امراة من اصل (١٠٤) قد تزوجت كل منهن مرة واحدة . وهناك (١٧) امـراة تزوجت كل منهن مرتين . وليس هناك من امراة واحدة ذكر انها تزوجت ثلاث مرات، وطبيعي ان المعيار الذي نعتمده في معرفة عدد مرات الزواج هو وجود الاولاد وانتسابهم وحقهم في الارث ، اما بقية النساء ، وعددهن (١٤) ، فلم يكن متزوجات عند وفاتهن . ونستدل من ارتفاع نسبة النساء المتزوجات مرة واحدة ، وتقدر ب (٧٨ر٨٨٪ بين المتزوجات ، وكذلك نسبة الرجال المتزوجين من زوجة واحدة ، والمقـدرة ب (٥٩ر٦٧٪) ان المجتمع المحلي الشامي كان يميل الى عدم تعدد الزوجات أو الازواج. وربما يفسر ذلك باسباب اقتصادية أو بتدني وسطي الاعمار ، رغم ان نسبة الاناث فاقت نسبة الذكور بين البالغين ، كما ذكرنا .

وبلغ عدد الاولاد الذين خلفتهن (٦٠) متوفاة من اصل (١٠٤) ، (١٢٦) ولدا كان من بينهم (٨٧) من القاصرين و (٣٩) من البالغين . وتبلغ نسبة الاولاد لكل امراة متزوجة (٩٣ر١) ، في حين بلغت النسبة بين الرجال (٨٢ر٢) ، لان الرجال امكنهم الزواج اكثر من مرة بالمقارنة مع النساء . ويتألف القاصرون من (٤٤) ذكرا و (٢٣) انثى ، والبالغون من (٢٠) ذكرا و (١٩) انثى . وارتفاع نسبة القاصرين بين اولاد النساء المتوفيات والبالغة ٠٤ر٦٩٪ تفوق نسبة القاصرين بين أولاد الرجال المتوفين والبالغة ٣٧ر٥٥٪ والنسبة في الحالتين تؤكد كون المجتمع فتيا .

وباستعراض اسماء النساء الـ (١٠٤) تبرز نسب الاسماء المستعملة انذاك ، فقد حملت (٢٣) امراة اسم فاطمة ، و (١١) زينب ، و (٨) خديجة ، و (٧) عائشة ، و (٥) آمنة وخانم وسعدية ، و (٤) حامدة ورحمة ، و (٣) مريم و (٢) صالحة وصفية وليلى ونجيبة . وحملت أمراة واحدة اسم كل من اسامي واسمهان وجميلة وحديفة وحليمة وراجحة ورقيـة وزاهدة وسـت وستوت وسعديـة وشرف وصادقـة وصافية وعاتكة وعفيفة وعيني وفايقة وكرافة ونفيسـة وهبت .

اما بالنسبة للمتوفين الاغراب الذين قدر عددهم ب (٨٢) فكان معظمهم مـن الاتراك الذين انضموا الى قافلة الحج الشامي المتجهة الى الحجاز . وقد ذكرت مخلفات المتوفين منهم في طريق العودة (يرجح ان المتوفين منهم في طريق الذهاب قد نظر في مخلفاتهم احد القسامين في الحجاز ، أو في دمشق بعد وصولهم اليها) . وقد ذكرت مخلفاتهم بصورة متتالية تقريبا في سجل القسام العربي . واشار السجل الى اسم البلدة التي قدم منها المتوفى ، والولاية التي تقع فيها ، واسم الوصي الذي يهتم بتركة المتوفى ، وغالباً ما اختاره صاحب المخلفات قبل وفاته ووافق عليـه القسام ، واسماء الوارثين . ولكن لم تذكر تفاصيل كثيرة عن هؤلاء وفيما اذا كانوا

قاصرين او بالغين لان سجل القسام يذكر الوارثين على سبيل العلم بهم لكي لا تنتقل الثروة الى بيت مال الدولة . وينقل الوصي التركة ، بعد اقتطاع الرسوم والمصاريف الاخرى الى اصحابها في البلد الاصلي .

وذكرت العينة الاولى اسماء سبعة متوفين من المسيحيين بينهم امراة ، واسم امراة يهودية واحدة . وكان لمعظمهم مشاكل اقتضى عرضها ، كما يبدو ، على القسام العربي . فاحدهم توفي في عكا ، والاخر كان ارمنيا توفي في احد خانات دمشق ولم يكن له وارث ، والثالث توفي في القاهرة ، والاخرون كان احدهم من حلب ، وثانيهم صائغا ، وثالثهم طبيبا .اما المراة المسيحية فقد تركت زوجا وابنتين بالغتين . ولم تكن المراة اليهودية متزوجة . وكان ستة من المسيحيين السبعة متزوجين ، ولثلاثة منهم اولاد بلغ عددهم ثمانية جميعهم من القاصرين ، وقد اشتملوا على ستة ذكور وانثيين ، ولا تشكل هذه الاعداد القليلة من المتوفين غير المسلمين نماذج ذات دلالات يمكن تعميمها .

وتتالف العينة الثانية التي درسناها ، والتي تعود الى الفترة بين ١٢٣٢ ــ ١٨١٧/١٢٣٥ ــ ١٨٢٠ ، من (٢٧٧) متوفى ، يضمون (١٢٠) مسلما محليا ، و (٧٦) مسلمة محلية ، و (٧٥) من الاغراب ، و (٦) مسيحيين . وضم المسلمون المحليون (٣٧) شخصا يحملون لقب حاج ، و (٢٦) لقب سيد ، و (١٣) لقب شيخ ، وشخصا واحدا يحمل لقب معلم ، أما الاسماء الاخرى فلم تحمل لقبا .

وبلغ عدد المتوفين المحليين الذين كانت بعصمة كل منهم زوجة واحدة عند وفاته (٦٦) من اصل (١٢٠) . وهناك سبعة كان لكل منهم زوجتان عند وفاته ، و (١٥) لكل منهم زوجة واحدة واخرى سابقة خلفت اولادا . وذكر اثنان لكل منهما زوجتان بالاضافة الى زوجة ثالثة سابقة . ولم يكن لـ (٣٠) منهم اية زوجة حين وفاتهم . ولكن احد عشر منهم كان لهم اولاد ، مما يدل على وجود زوجات لهم في السابق .

وقد خلف (٨٢) متوفى ، من اصل (١٢٠) ، اولادا بلغ مجموعهم (٢٣٧) . وضم هؤلاء (١٣٦) قاصرا و (١٠١) بالغا . واشتمل القاصرون على (٧٦) ذكرا و (٦٠) انثى . اما البالغون فضموا (٤٨) ذكرا و (٥٣) انثى . ووجد الى جانب هؤلاء الاولاد اثنا عشر حملا . ويلاحظ أنه بعد مضي سبعين سنة على العينة الاولى زادت نسبة القاصرين الى البالغين في العينة الثانية ، وبلغت ٥٧ر٣٨ ٪ من مجموع الاولاد ، في حين ان النسبة في العينة الاولى كانت ٥٥ر٣٧ ٪ . ونلاحظ تناقصا في نسبة الاناث الى مجموع الاولاد ، اذ بلغت في العينة الثانية ٤٧ر٦٧ ٪ في حين كانت ٥٧ر٧٦ ٪ في العينة

الاولى . ويبلغ متوسط عدد الاولاد في الاسرة ، في العينة الثانية ، (٨٩ر٢) . وهذا يزيد بقليل عن متوسط العدد في العينة الاولى التي سبقت بسبعين سنة ، والبالغ ٨٢ر٢ ، مما يدل على ان التزايد السكاني كان بطيئا جدا .

وبالنسبة للنساء في العينة الثانية ، فقد حملت امراتان من (٧٦) امراة متوفاة لقب حاجة ، ولم تحمل اية امراة لقب شريفة . ووجد لـ (٣١) امراة زوج لكل منهن عند وفاتها ، ولامراتين زوج سابق لكل منهما رزقت منه اولادا . وكان لثلاث فقط زوجان سابقان لكل منهن . ولم يذكر سجل القسام لـ (١٩) امراة أي زوج عند وفاتهن ، ولكن خمسا من هاته النسوة ، كان لهن أولاد ، مما يعني انهن كن مطلقات من ازواجهن ، او ان ازواجهن قد توفوا .

ولم تختلف الاسماء المفضلة للنساء كثيرا في العينة الثانية عنها في العينة الاولى ، فقد بقي اسم فاطمة يحتل المرتبة الاولى ، اذ حملته (١٨) امراة ، وتلاه اسما آمنة وزينب (٦) مرات لكل منهما ، وخديجة وسعدية وصالحة (٥) ، وعائشة (٤) ، ورقية (٣) ، وحنيفة وحوا وكلسن ومروه وصادقة مرتين ، واسماء واسمهان وحسنة وحفظة وحنيفة ودرة ورحمة وساقية وصادقة وعاتكة وغوا وقادرية ومحبوبة ومريم مرة واحدة .

اما بالنسبة للمتوفين الاغراب ، وعددهم (٧٥) ، فكان معظمهم من الاناضول وقلة من روميلية . وكانوا جميعا يحملون لقب حاج . وكتبت تفاصيل تركات هؤلاء باللغة العثمانية خلافا للعينة الاولى التي كتبت فيها تركات الاغراب باللغةالعربية. وربما دل ذلك على ان الدولة العثمانية في الربع الاول من القرن التاسع عشر ، وقد بدأت بتطبيق الاصلاحات وفرض سلطة المركز على الولايات ، قد عمدت الى دعم اللغة العثمانية .

وذكرت في العينة الثانية اسماء ستة متوفين مسيحيين ضموا امراة . وكانوا جميعا متزوجين ، وتزوج احدهم مرتين . وبلغ مجموع اولادهم (٢١) ولدا ضموا (١٢) من القاصرين (٧ ذكور و ٥ اناث) ، وتسعة من البالغين(٣ ذكور و ٦ اناث). ويشتركون مع المتوفين المسلمين بازدياد نسبة القاصرين بين الاولاد .

استنتاجات

بمقارنة العينتين ، وفق الجداول اللاحقة ، نصل الى الاستنتاجات التالية :

١ ـ الالقاب

العينـــة الاولـى

١١٦٣ ـ ١١٦٦/١٧٥٠ ـ ١٧٥٣

	حــاج		شريف		شيخ	
متوفون محليون	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
العدد : ١٤٢	٧١	٥٠ ٪	٣٢	٢٢ر٥٣ ٪	١٤	٩ر٨٦ ٪
متوفيات محليات						
العدد : ١٠٤	٨	٧٦ر٠ ٪	١٤	١٣ر٤٦ ٪	ـ	ـ

العينـــة الثانيــة

١٢٣٢ ـ ١٢٣٥/١٨١٧ ـ ١٨٢٠

	حــاج		شريف		شيخ	
متوفون محليون	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
العدد : ١٢٠	٣٧	٣٠ر٨٣ ٪	٢٦	٢١ر٦٦ ٪	١٣	١٠ر٨٣ ٪
متوفيات محليات						
العدد : ٧٦	٢	٢٦ر٠ ٪	ـ	ـ	ـ	ـ

يتضح من هذين الجدولين ان نسبة الذين ادوا فريضة الحج في العينة الثانية قد تناقصت عما في العينة الاولى ، وذلك بالنسبة للرجال والنساء معـا . ويمكن

تفسير هذه الظاهرة بالضائقة الاقتصادية التي اصابت جزءا من السكان المحليين في الربع الاول من القرن التاسع عشر ، اي في السنوات الاخيرة من حكم احمد باشا الجزار وابان حكم احد عشر واليا تعاقبوا على حكم دمشق من بعده وحتى نهاية فترة العينة الثانية(١٥) . ولكن السبب الاهم من ذلك هو اتساع هجمات الوهابيين في العقد الاول من القرن التاسع عشر ووصولهم الى اطراف دمشق ، وعدم خروج قافلة الحج الشامي الى الحجاز لبضع سنوات نتيجة لذلك . ثم تلا القتال بين قوات الوهابيين وقوات والي مصر محمد علي باشا الذي كلفه السلطان العثماني بمهاجمتهم . وتمكنت قوات محمد علي من البطش بالقوات الوهابية ـ السعودية اثر حملات متعددة ضدهم واحتلت عاصمتهم الدرعية في عام ١٨١٨(١٦) .

ويلاحظ في العينتين ان نسبة الاشراف بين المتوفين الرجال كانت متقاربة مما يدل على ان عدد الاشراف في دمشق كان متوازنا وطبيعيا ، خلافا لما حدث في حلب في فترة السبعين سنة التي فصلت بين العينتين ، اذ ازدادت اعداد الاشراف وقوتهم فيها الى درجة كبيرة جعلت نقيب الاشراف في استانبول يكتب الى نقيب الاشراف في حلب يحثه على التدقيق في صحة النسب واتخاذ العلامة الخضراء ولقب السيد . وكان الاشراف في حلب يدافعون عن مصالح السكان المحليين فيها ضد الانكشارية العثمانيين ، وبالتالي ضد تسلط الدولة العثمانية . وحدثت مواقع دامية بين الفريقين بلغت ذروتها في مذبحة جامع الاطروش ، قرب القلعة ، في عام ١٧٩٨ وذهب ضحيتها عدد كبير من الاشراف . ونظرا للاهمية العسكرية للاشراف في حلب آنذاك فقد استنجدت بهم الدولة العثمانية لمقاومة حملة نابليون بونابرت على مصر وبلاد الشام(١٧) .

٢ ـ نسب الزواج

العينة الاولى

١١٦٣ ـ ١١٦٦/١٧٥٠ ـ ١٧٥٣

عدد المتزوجين	زوجة واحدة		زوجتان		ثلاث زوجات		بدون زوجة	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
١٠٨	٧٣	٦٧ر٥٩ ٪	٣١	٢٨ر٧٠ ٪	٤	٣ر٧٠ ٪	٤٣	٣١ر٤٨ ٪

عدد المتزوجات	من زوج واحد		متزوجات مرتين		متزوجات ثلاث مرات		بدون زوج	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
٨٨	٧١	٨٠ر٦٨ ٪	١٧	١٩ر٣١ ٪	ـ	ـ	١٦	١٨ر١٨ ٪

العينـــة الثانيـــة

١٢٣٢ – ١٨١٧/١٢٣٥ — ١٨٢٠

عـدد المتزوجين	زوجة واحدة		زوجتـان		ثلاث زوجات		بدون زوجة	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
٩٠	٦٦	٧٣ر٣٣٪	٢٢	٢٤ر٤٤٪	٢	٢٢ر٠٪	٣٠	٣٣ر٣٣٪

عـدد المتزوجات	من زوج واحد		متزوجات مرتين		متزوجات ثلاث مرات		بدون زوج	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
٤٦	٣١	٦٧ر٣٩٪	١٢	٢٦ر٠٨٪	٣	٦٥ر٠٪	١٩	٤١ر٣٠٪

يلاحظ في الاعداد والنسب السابقة ان ٦٧ر٥٩٪ من المتزوجين في العينة الاولى كانت لهم زوجة واحدة عند وفاتهم . وازدادت النسبة الى ٧٣ر٣٣٪ بعد سبعين سنة من ذلك ، مما يدل على ان المجتمع الشامي كان يميل في غالبيته الى الاكتفاء بزوجة واحدة . اما بالنسبة للنساء فنلاحظ ان نسبة المتزوجات من زوج واحد قد تدنت من ٦٨ر٨٠٪ في العينة الاولى الى ٦٧ر٣٩٪ في العينة الثانية . وربما كان سبب ذلك تدني نسبة الاناث في العينة الثانية الى ٤٧ر٦٧٪ ، وكانت في العينة الاولى ، قبل سبعين سنة ، ٥٧ر٦٧٪ . ولكن ما يعدل ذلك ارتفاع نسبة المتزوجات مرتين الى ٢٦ر٠٨٪ في العينة الثانية ، بينما كانت ١٩ر٣١٪ في العينة الاولى . وتبعا لهذا الاتجاه في الاقلال في عدد الزيجات فمن الطبيعي ان يكون المتزوجون من ثلاث زوجات ، او المتزوجات ثلاث مرات ، اقل من المتزوجين من زوجتين ، او من المتزوجات مرتين . ويلفت النظر ضمن هذه النسب ان عدد المتزوجين باكثر من زوجة ، في العينة الاولى ، ومجموعهم (٣٥) ، ضم ست حالات فقط كان للمتوفى فيها زوجتان في عصمته حين وفاته ، اما الزوجات الاخريات ، ممن خلفن اولادا ، فكن زوجات سابقات . وفي العينة الثانية نلاحظ ان من مجموع (٢٤) متوفى لكل منهم اكثر من زوجة ، وجد سبعة فقط لكل منهم زوجتان في عصمته حين وفاته ، وهناك خمسة عشر لكل منهم زوجة واحدة واخرى سابقة . وفي حالتين كان للزوج زوجتان وزوجة اخرى سابقة . وتؤكد هذه التفاصيل ماورد في العينتين ، على مدى سبعين سنة ، من الاتجاه نحو الاكتفاء بزوجة واحدة .

ويلفت النظر ان عدد المتوفين بدون زوجة ، بلغ في العينة الاولى ٣١ر٤٨٪ وفي العينة الثانية ٣٣ر٣٣٪ . أما نسبة المتوفيات بدون زوج فبلغت ١٨ر١٨٪ في العينة الاولى و ٤١ر٣٠٪ في العينة الثانية . وربما يفسر هذا الازدياد بالنسبة للمتوفيات بدون زوج بارتفاع متوسط العمر بينهن بالنسبة لمتوسط عمر الازواج . كما أن هذا ينصب في النتيجة باتجاه عدم تعدد الزوجات أو الزيجات .

٣ - حجم الاسرة

العينـة الاولى

١١٦٣ - ١١٦٦/١٧٥٠ - ١٧٥٧

		القاصرون		البالغون	
متوفون اعقبوا اولادا	مجموع الاولاد	العدد	النسبة	العدد	النسبة
العدد = ٨٩	٢٥١	١٣٩	٥٥ر٣٧٪	١١٢	٤٤ر٦٢٪

		القاصرون		البالغون	
متوفيات اعقبن اولادا	مجموع الاولاد	العدد	النسبة	العدد	النسبة
العدد = ٦٥	١٢٦	٨٧	٦٩ر٠٤٪	٣٩	٣٠ر٩٥٪

العينـة الثانيـة

١٢٣٢ - ١٢٣٥/١٨١٧ - ١٨٢٠

		القاصرون		البالغون	
متوفون اعقبوا اولادا	مجموع الاولاد	العدد	النسبة	العدد	النسبة
العدد = ٨٢	٢٣٧	١٣٦	٥٧ر٣٨٪	١٠١	٤٢ر٦١٪

		القاصرون		البالغون	
متوفيات اعقبن اولادا	مجموع الاولاد	العدد	النسبة	العدد	النسبة
العدد = ٤٢	٧٩	٥٢	٦٥ر٨٢٪	٢٧	٣٤ر١٧٪

ويتضح من هذا ان نسبة القاصرين بين اولاد المتوفين كانت تتجه نحو الازدياد خلال السبعين سنة التي فصلت العينة الثانية عن الاولى . ويفسر ذلك بتدني وسطي العمر بين الاباء نظرا لكثرة انتشار الاوبئة والطواعين بصورة خاصة ، ويترتب على كثرة القاصرين بين الاولاد ان الاب يضطر للانفاق عليهم لاعاشتهم ولا يستفيد كثيرا من عملهم قبل وفاته .

ويلاحظ ان متوسط مجموع الاولاد في الاسرة بالنسبة للمتوفين الذكور كان (٢٫٨٢) في العينة الاولى و (٢٫٨٩) في الثانية ، ويبدو ان تفسير هذه النسبة المتواضعة في عدد الاولاد يعود الى تدني وسطي العمر وكثرة الوفيات ثم الضائقة الاقتصادية . وسنعالج العلاقة بين الوضع الاقتصادي للاسرة وعدد الاولاد فيها في جدول لاحق . واذا اضفنا الابوين الى وسطي عدد الاولاد لوصلنا الى ما يقرب لخمسة ، وهو الحجم المتعارف عليه للاسرة في بلاد الشام في العهد العثماني . ونظرا ان الاتجاه نحو الاكتفاء بزوجة واحدة كان هو الغالب فان حجم الاسرة لا يزيد عن خمسة الا في حالات قليلة ، كأن يكون في الاسرة زوجتان او اكثر في وقت واحد .

وباستعراض عدد الاولاد في اسر المتوفين والمتوفيات في العينتين تصل الى نسب التالية :

العينة الاولى	العينة الثانية
١١٦٣ ـ ١١٦٦/١٧٥٠ ـ ١٧٥٣	١٢٣٢ ـ ١٢٣٥/١٨١٧ ـ ١٨٢٠

عدد الاولاد في الإسرة

	المتوفون (المجموع : ١١٠)		المتوفيات (المجموع : ٨٨)		المتوفرن (المجموع : ٩٨)		المتوفيات (المجموع : ٥٢)	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
بدون أولاد	٢١	١٩ر٠٩ (١)	٢٣	٢٦ر١٣	١٦	١٨ر٥١	١٠	٢٣ر٨٠
ولد واحد	٢٤	٢٦ر٦٦ (٢)	٢٩	٤٤ر٦١	١٨	٢٢ر٢٢	٢٣	٥٤ر٧٦
ولدان	٢٠	٢٢ر٢٢	٢١	٣٢ر٣٠	٢٢	٢٧ر١٦	٧	١٦ر٦٦
ثلاثة اولاد	١٥	١٦ر٦٦	٨	١٢ر٣٠	١٧	٢٠ر٩٨	٩	٢١ر٤٢
اربعة أولاد	١٨	٢٠ر٢٢	٤	٦١ر٠	١٤	١٧ر٠٧	١	١٩ر٠
خمسة اولاد	٦	٦٦ر٠	٣	٤٦ر٠	٦	٧٣ر٠	١	٢٣ر٠
ستة أولاد	٤	٤٤ر٠	ـ	ـ	١	١٢ر٠	١	٢٣ر٠
سبعة اولاد	١	١١ر٠	ـ	ـ	٣	٣٦ر٠	ـ	ـ
تسعة اولاد	١	١١ر٠	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
احدعشر ولدا	ـ	ـ	ـ	ـ	١	١٢ر٠	ـ	ـ
مجموع الاولاد (٣)	٢٥١		١٢٦		٢٣٧		٧٩	

١ ـ حسبت هذه النسبة من المجموع العام للمتوفين .

٢ ـ حسبت هذه النسبة من المجموع العام للمتوفين ذوي الاولاد .

٣ ـ لا يتضمن عدد الاولاد تسع حالات حمل في العينة الاولى والثنتي عشرة حالة حمل في العينة الثانية

يتضح من الجدول السابق ان عدد اسر المتوفين ، في العينة الاولى ، التي ضم كل منها ولدا واحدا : بلغ (٢٤) اسرة . يليها (٢٠) اسرة ضم كل منها ولدين ، وهذا يعني ان (٤٤) اسرة ، من اصل (٨٩) اسرة ذات اولاد ، ضمت (٦٤) ولدا ، اي ان ٤٣ر٤٩ ٪ من عدد الاسر ضم ٤٩ر٢٥ ٪ من عدد الاولاد . ويدل هذا على ان الاسرة كانت اقرب الى الصغر . اما الاسر التي راوح عدد الاولاد فيها من ثلاثة الى اربعة فبلغ عددها (٣٣) اسرة ، شكت ٠٧ر٣٧ ٪ من مجموع الاسر ، وضمت ١١٧) ولدا ، اي بنسبة ٦١ر٤٦ ٪ من مجموع الاولاد . ثم يهبط عدد الاسر التي راوح عدد الاولاد في كل منها من خمسة الى ستة الى عشر اسر ، تشكل نسبة ٢٣ر١١ ٪ من مجموع الاسر ، وقد ضمت (٥٤) ولدا ، اي بنسبة ٥١ر٢١ ٪ .

وبالمقارنة مع المتزوجين في العينة الثانية نجد ان عدد الاسر التي ضمت ولدا واحدا بلغ ١٨ اسرة . ويليها (٢٢) اسرة ضم كل منها ولدين . وهذا يعني ان (٤٠) اسرة من اصل (٨٢) اسرة ذات اولاد ضمت (٦٢) ولدا ، اي ان ٧٨ر٤٨ ٪ من عدد الاسر ضم ١٦ر٢٦ ٪ من عدد الاولاد . وتتشابه هذه النسب مع نسب العينة الاولى مما يعني استمرار الاسر ذات الحجم الصغير بعد سبعين سنة من العينة الاولى . اما الاسر التي راوح عدد الاولاد في كل منها من ثلاثة الى اربعة فقد بلغ عددها (٣١) اسرة ، تشكل نسبة ٨٠ر٣٧ ٪ ، وضمت (١٠٧) اولاد تبلغ نسبتهم ١٤ر٤٥ ٪ . وتتقارب هذه النسب بدورها من نسب العينة الاولى . ثم يهبط عدد الاسر التي راوح عدد الاولاد في كل منها من خمسة الى ستة فتشكل نسبة ٥٣ر٨ ٪ وقد ضمت (٣٦) ولدا يشكلون نسبة ١٨ر١٥ ٪ من مجموع الاولاد .

اما بالنسبة للمتوفيات في العينة الاولى ، فقد بلغ عدد اللواتي خلفن ولدا او ولدين (٥٠) امراة ، اي ٩٢ر٧٦ ٪ من مجموع المتوفيات اللواتي خلفن اولادا . وبلغ عدد اولادهن (٧١) ولدا من اصل (١٢٦) ، اي بنسبة ٣٤ر٥٦ ٪ . ثم يهبط عدد اللواتي خلفن ثلاثة او اربعة اولاد الى (١٢) امراة ، نسبتهن ٤٦ر١٨ ٪ ، وعدد اولادهن (٤٠) ولدا ، بنسبة ٧٤ر٣١ ٪ .

ويقابل ذلك في العينة الثانية (٣٠) امراة خلفت كل منهن ولدا او ولدين ، بنسبة ٤٢ر٧١ ٪ من عدد المتوفيات ذوات الاولاد ، وبلغ مجموع اولادهن (٣٧) ولدا ، بنسبة ٨٣ر٤٦ ٪ من مجموع الاولاد . وتقل هذه النسب قليلا عن نسب المتوفيات من فئتي الولد او الولدين في العينة الاولى . اما اللواتي خلفت كل منهن ثلاثة الى اربعة اولاد فبلغ عددهن (١٠) نساء ، اي بنسبة ٨٠ر٢٣ ٪ ، ومجموع اولادهن (٢٨) ولدا ، تساوي نسبتهم ٤٤ر٣٥ ٪ من مجموع الاولاد . وهذا اكثر بقليل من العينة الاولى ، اي ان

العينة الثانية تؤكد الاتجاه السائد نحو شمول الاسرة ولدا او ولدين مع بعض الزيادة في عدد الاسر ذوات الثلاثة والاربعة اولاد .

٤ ـ العلاقة بين وضع الاسرة الاقتصادي وعدد اولادها

يمكن ايجاد علاقة بين عمل رب الاسرة ووضعه الاقتصادي ، وحجم اسرته . ويلاحظ من تفاصيل العينتين ان بعض الحرفيين الذين اقتضى عملهم الجلوس ، مثل القوافين (بائعي الاحذية) والقاووقجية (صانعي غطاء الراس المعروف بالقلنسوة) ، وكذلك النساج ، كان لهم اسر متوسطة الحجم ، بمقاييس ذلك الزمن ، تضم الواحدة منها ولدين الى اربعة اولاد . ويشترك معهم في ذلك الحرفيون المشتغلون بالطعام ، مثل الحلوانية والاقسماوية (بائعي المرطبات) ، والسمانين . ولكن الحرفيين الذين اقتضى عملهم الحركة الدائمة ، مثل الحلاقين والحمامين والطحانين والكيالين فكانت اسرهم اقل عددا ، تضم الواحدة منها ولدا الى ثلاثة اولاد . اما المشتغلون بالعلم ، فيلاحظ انهم لا يتزوجون ، او يتزوجون وينجبون اولادا كثرا . واصحاب الاسر الكبيرة ، اي التي يضم كل منها اربعة اولاد او اكثر ، يكونون في الغالب أما من اصحاب الدخول القليلة او الثروات الضخمة . فالفئة الاولى تنظر الى الاولاد كمورد اقتصادي، والفئة الثانية تتباهى بالاولاد ، كقوة وجاه ، وبالقدرة على الانفاق عليهم .

وقد قمنا بدراسة العلاقة بين صافي ثروات المتوفين (اي المبالغ المتبقية من ثروتهم للورثة بعد اقتطاع التزامات المتوفى وديونه ونفقات دفنه) وعدد الاولاد الذين خلفوهم ، فوصلنا الى النتائج التالية :

يلاحظ في العينة الاولى ان اصحاب الدخل المحدود الذين يراوح صافي ثرواتهم بين قرش ومائة قرش ، بلغ عدد اولادهم (٥٦) ولدا وهذا اعلى رقم لمختلف فئات الثروة في حدود العينة الاولى . ويلاحظ ، من ناحية اخرى ، ان الاسر التي رزق كل منها بولد واحد بلغ عددها ، بقطع النظر عن دخلها ، اربعا وعشرين اسرة ، وهي اعلى نسبة بين الاسر على الاطلاق . مما يظهر ان الاسرة ذات الولد الواحد هي الغالبة . ويلي ذلك الاسر ذات الولدين .

العينـــة الاولـى

١١٦٣ – ١١٦٦/١٧٥٠ – ١٧٥٣

العلاقة بين صافي الثروة وعدد الاولاد لمتوفين دمشقيين

(عدد المتوفين ١١٠ خلف ٨٩ منهم اولادا)

عدد الاولاد في الاسرة	مفلس	١–١٠٠ قرش	١٠١–٢٠٠	٢٠١–٤٠٠	٤٠١–٦٠٠	٦٠١–٨٠٠	٨٠١–١٠٠٠	١٠٠١–١٥٠٠	١٥٠١ فما فوق	عدد الاسر حسب عدد الاولاد
بدون اولاد	١	٩	٢	٥	١	٢	–	–	١	٢١
ولد واحد	–	١٣	٤	٢	٣	٢	–	–	–	٢٤
ولدان	١	٧	٤	٤	٢	١	–	–	١	٢٠
ثلاثة اولاد	٢	٣	٥	٢	١	–	–	١	١	١٥
اربعة اولاد	٢	٣	٢	٣	٣	١	–	٣	١	١٨
خمسة اولاد	–	١	٤	–	–	–	–	–	١	٦
ستة اولاد	–	٢	–	–	–	١	–	–	١	٤
سبعة اولاد	–	–	–	–	–	–	–	١	–	١
تسعة اولاد	–	–	–	–	–	–	–	–	١	١
المجموع	١٦	٦٥	٥٥	٢٨	٢٢	١٤	–	٢٢	٢٩	٨٩
									٢٥١ ولدا	متوفى

العينـــة الثانيـــة

١٢٣٢ – ١٢٣٥/١٨٢٠ – ١٨٢٣

(عدد المتوفين ٩٨ خلف ٨٢ منهم اولادا)

عدد الاولاد في الاسرة	مفلس	١–١٠٠ قرش	١٠١–٢٠٠	٢٠١–٤٠٠	٤٠١–٦٠٠	٦٠١–٨٠٠	٨٠١–١٠٠٠	١٠٠١–١٥٠٠	١٥٠١ – فما فوق	عدد الاسر حسب عدد الاولاد
بدون اولاد	١	٣	٤	٣	١	١	١	–	٢	١٦
ولد واحد	١	١	٣	٤	٤	٢	–	–	٣	١٨
ولدان	٢	٥	٢	١	١	١	١	٢	٧	٢٢
ثلاثة اولاد	–	١	٢	١	٢	١	١	٤	٥	١٧
اربعة اولاد	–	–	–	٢	٤	١	١	–	٦	١٤
خمسة اولاد	–	١	–	–	–	–	١	١	٣	٦
ستة اولاد	–	–	–	١	–	–	–	–	–	١
سبعة اولاد	–	١	–	–	–	١	–	–	١	٣
احدعشر ولدا	–	–	–	–	–	–	١	–	–	١
المجموع	٥	٢٦	١٣	٢٣	٢٨	١٨	٢٥	٢١	٧٨	٨٢ متوفى

=٢٣٧ ولدا

ويحدث تبدل جذري في العينة الثانية ، اذ يزداد عدد الاولاد في الاسر التي زاد صافي ثروة اصحابها على (١٥٠٠) قرش . ويبلغ عدد اولاد هذه الفئة (٧٨) ولـدا من أصل (٢٣٧) ، اي بنسبة ٣٢٫٩٠٪ ، في حين ان نسبة الاولاد في الاسر التي زاد صافي ثروتها على (١٥٠٠) قرش في العينة الاولى كان ١١٫٥٥٪ . وتحتل الاسر ذات الدخل الاقل (من قرش الى مائة قرش) المرتبة الثالثة من حيث عدد الاولاد ، اذ بلغ مجموعهم (٢٦) ولدا ، اي بنسبة ١٠٫٩٧٪ من مجموع عدد الاولاد ، في حيـن كانت نسبة اولاد هذه الفئة من الدخل في العينة الاولى ٢٥٫٨٩٪ ، ويطـرأ تحسن في حجم الاسرة اذ يزداد عدد الاسر التي تضم الواحدة منها ولدين وتصبح هي الغالبة ، ثم تتلوها الاسر ذات الولد الواحد ، ثم ذات الثلاثة والاربعة اولاد . وتبقى اعلى نسبة بين الاسر هي تلك التي تضم من ولد الى اربعة اولاد ، وتتساوى في ذلك العينتان الاولى والثانية . ففي العينة الاولى بلغت نسبة هذه الاسر ٨٦٫٥١٪ ، وفي العينة الثانية ٨٦٫٥٨٪ . ويظهر هذا ان الغالبية العظمى من الاسر خلال سبعين عامـا لم تتجاوز حدود الولد الى اربعة اولاد .

نخلص الى القول ان ما تقدم عرضه هو محاولة لالقاء الضوء على حجم الاسرة ووسطي العمر ، وربط ذلك بالوضع الاقتصادي والصحي . ورغم ان سجلات القسام عنيت اكثر من كل شيء بمخلفات المتوفين الذين تركوا قاصرين ، ولا تشكل مسحا لجميع المتوفين ، فانها هامة جدا لانها تطلعنا على مظاهر سكانية لقطاع كبير مـن السكان ، وما يترتب عليها من نتائج شتى في مختلف الميادين . ونذكر على سبيل المثال اثر الاسرة الصغيرة الحجم بالنسبة للملكية . فقلة الافراد في الاسرة من شانه الا يفتت الملكية العقارية فتتجه هذه الى التجمع في اسر قليلة . ويصبح ذلك بالنسبة للاوقاف الاهلية (الذرية) التي ينتفع بها عدد اقل من المستفيدين . واذا كان ازدياد الثروة لدى بعض الفئات في الربع الاول من القرن التاسع عشر قد نتج عنه ازدياد حجم الاسرة ، فان الكثرة من طبقات الشعب الادنى دخلا لم تبدل كثيرا في حجم الاسرة ربما لانها بقيت تقليدية في اطرها وتقاليدها ودخلها . ولاشك ان اثر اوربا الصناعية على بلاد الشام قد زاد من الهوة الاقتصادية ، وبالتالي الاجتماعية ، بين طبقة قليلـة اصبحت تجني الثروات الضخمة من تعاملها مع اوربا ، واخرى تضم غالبية الشعب وتدفع ثمن منافسة البضائع الاوربية لمنتجاتها الحرفية . ولا شك ان هذا الوضـع كان له انعكاساته على حجم الاسرة . وقد تحسنت ، في القرن التاسع عشر ، الخدمات الصحية وطرق مكافحة الاوبئة ، واستحدثت اماكن الحجر (الكارانتينا) في مراكـز الحدود . ومن شان ذلك ان يحد من الوفيات ويزيد من عدد السكان .

الحواشي :

١ ـ انظر المناقشة الوافية لهذه الاراء المختلفةالتي قام بها المرحوم الدكتور انطوان عبد النور فـي كتابه بالفرنسية (وهو طروحة دكتوراه دولةمن جامعة باريس) وعنوانه :

Introduction à l'histoire urbaine de la Syria Ottomane (XVI°-XVII° siècle), Beyrouth, 1982, pp. 41-56.

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٥٧ ـ ٦٠ .

٣ ـ محمد بن جمعة ، الباشات والقضاة ، نشرهالدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٥٩ ، ص ٦٥ .

٤ ـ انظر حول ذلك : الشيخ محمد احمد دهمان ، « زلزل سنة ١١٧٣ هجرية » ، مجلة المشرق ، المجلد ٤٢ (١٩٤٨) . ص ٢٣٣ ـ ٢٤٧ . وانظر ايضاسيد رسلان القاري ، الوزراء الذين حكموا دمشق نشره الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه :ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٥٩ ، ص ٨٢ .

٥ ـ رسلان القاري ، ص ٨٣ .

٦ ـ قدر الاخباري الدمشقي المعاصر للطاعونالخوري ميخائيل بريك ان الطاعون دام حوالي ستة اشهر انظر كتابه : تاريخ الشام ، ١٧٢٠ ـ ١٧٨٢ ،نشره قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٣٠ ، ص٧٠ . وانظر تفاصيل اخرى عن هذا الطاعون مستقاةمن مراسلات القناصل الاجانب في بلاد الشام وغيرها، في كتابنا :

The Province of Damascus, 1723-1783, Beirut, 2nd printing (paperback), 1970, pp. 232-233.

٧ ـ احمد البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ، نشره الدكتور احمد عزت عبد الكريم ،القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٢٨ .

٨ ـ انظر المقال التالي :

Daniel Panzanc , « L'Affrontement Turco - Egyptienne de 1830 - 1840 », **Economie et Société dans l'Empire Ottoman (fin du XVIII°-début du XX° siècle)**, publié par Jean-Louis Bacqué-Grammont et Paul Dumont, CNRS, Paris, 1983, pp. 232-233.

٩ — انظر تفاصيل هذا الاحصاء في مقال :

Kemal Karpat, «Ottoman Population Records and the Census of 1881/82-1893», **International Journal of Middle Eastern Studies**, Vol. 9, No. 2 (1978), pp. 258-274.

١٠— انظر مثلا : السجلات التالية : رقم ٢٣ ص١ ، رقم ٣٤ ص ١ ، رقم ٤٠ ، ص ١١ ، رقم ٤١ ص ١ .

١١— انظر : محمد الامين المحبي ، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ، ٤ اجزاء ، القاهرة ، ١٢٨٤/١٩٦٦ ، جـ ١ ، ص ٢٤٦ ، ٣١٧ ، جـ٤ ، ١٤٣ ، محمد خليل المرادي ، سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ، ٤ اجزاء ، بولاق ١٣٠١ ، جـ ١ ، ٦٢ ، ١٨٧ ، ٢٥٤ ، جـ ٢ ، ٢٨١ — ٢٨٢ ، جـ ٤ ، ١٠٢ .

١٢— انظر سجل القسام ، رقم ١٣١ .

١٣— انظر سجل القسام ، رقم ٢٩٠ .

١٤— انظر تفاصيل ضافية عن هذا الهجوم في كتابنا :

The Province of Damascus, pp. 260-282.

١٥ — انظر حول اوضاع دمشق الاقتصادية في هذه الفترة : تاريخ حسن آغا العبد ، حققه يوسف جميل نعيسة ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٩ .

١٦— انظر حول توقف قافلة الحج بسبب تلك الاخطار ، تاريخ حسن آغا العبد ، ص ١٣٢ ، ١٤٣ — ١٤٤ . وانظر حول توغل القوات الوهابية في بلاد الشام ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ — ١٥١ .

١٧— انظر : محمد راغب الطباخ ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٧ اجزاء ، حلب ، ١٣٤٢ — ١٣٤٥ / ١٩٢٣ — ١٩٢٦ ، جـ ٣ ، ص ٣٧٠ — ٣٧٤ . وانظر : تاريخ حسن آغا العبد ، ص ٦٣ — ٦٤ . وانظر كتابنا : العرب والعثمانيون ، ١٥١٦ — ١٩١٦ ، دمشق ، ١٩٧٤ ، ص ٣١٨ — ٣٢٠ . وانظر الدراسة الضافية حول صراع الانكشارية والاشراف في حلب في كتاب :

Herbert L. Bodman, Jr., **Political Factions in Aleppo, 1760-1826**, North Carolina Press, 1963, pp. 79-102.

* * *

الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الأوربي في القرن التاسع عشر

د . عبد الكريم رافق .
جامعة دمشق

يعد القرن التاسع عشر نقطة تحول هامة في تاريخ الوطن العربي، مشرقه ومغربه، على حد سواء ، بسبب شدة المجابهة بينه وبين الدول الاوربية الصناعية ، التي تحولت الى استعمار اقطاره ، مخضعة اقتصاده لخدمة مصالحها الراسمالية .

وفي المجال الاقتصادي ، الذي يعنى به هذا البحث ، تبدت المجابهة على صعد متعددة ، اهمها التجارة والصناعة . وكانت ردود الفعل المحلية هامة لانه ، رغم شدة المجابهة ، لم تستسلم الفعاليات المحلية للتحدي الاوربي ، بل طورت انشطتها الاقتصادية للتاقلم مع الواقع الطارىء . ونتج عن ذلك فرز اجتماعي وطبقي جديد ، فظهرت البورجوازية المحلية المرتبطة بالغرب ، وحدثت تبدلات موازية على المستويين السياسي والفكري . *

* للباحث بحثان يمتان بصلة لهذا البحث ، نشر الاول بعنوان : « مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني » ، مجلة دراسات تاريخية ، العدد الرابع ، نيسان ١٩٨١ . والثاني اعد للندوة التي انعقدت في استراسبورغ بفرنسا (١ ـ ٥ تموز ١٩٨٠) حول الاقتصاد والمجتمعات في الامبراطورية العثمانية (من نهاية القرن الثامن عشر حتى اوائل القرن العشرين) وهو باللغة الانكليزية ، وقد نشر في الكتاب التالي : (عنوان البحث واسم الكتاب) .

«The impact of Europe, on a traditional economy : the case of Damascus, 1840 - 1870 » in **Economie et Sociétés dans l' Empire Ottomane (fin du XVIIIe - début du XXe siécle)**, eds. Jean - Louis Bacqué - Grammont et Paul Dumont, Editions CNRS, Paris, 1983.

التبدلات التجارية

تمتعت مدينة حلب بموقع تجاري ممتاز في القرنين الاولين من الحكم العثماني ، اذ انفتحت امامها اسواق الامبراطورية العثمانية ، وبخاصة مناطق الاناضول المجاورة (١) . وكانت مركزا هاما لتجارة المرور بين اوربا من ناحية وايران والشرق الاقصى من ناحية اخرى ، بطريق العراق والخليج العربي . ويشهد على نشاط حلب التجاري ما بني فيها من أسواق وخانات لتصريف البضائع محليا او لشحنها الىماوراء الحدود ، وكان ميناؤها الطبيعي الاسكندرونة ، كما استخدم ميناء طرابلس في نقل البضائع منها واليها . ونظرا للدور التجاري الهام الذي لعبته حلب محليا ودوليا اقامت الدول التجارية الاوربية ، وابرزها انكلترا وفرنسا ، ممثلين تجاريين فيها . واتخذ هؤلاء الصفة السياسية كقناصل لدولهم . ومن ذلك اقامة الانكليز مركزا لشركة بلاد المشرق (ليفانت) في حلب في عام ١٥٨١ ، الى جانب المراكز الرئيسية الاخرى لهذه الشركة في استانبول وأزمير . وكان لهذه المراكز مراسلات تجارية ودبلوماسية مع مركز الشركة الرئيسي في لندن . واستمرت هذه الشركة في العمل الى ان قضت عليها منافسة شركة الهندالشرقية ، وتوقفت في عام ١٨٣٥(٢) .

واقام الفرنسيون ممثلين تجاريين ـ دبلوماسيين لهم في حلب في اواخر القرن السادس عشر ، وتعود رسائلهم الى عام ١٦٠٠ ، وهي محفوظة في غرفة تجارة مرسيليا التي كانت المسؤولة عنهم والموجهة الرئيسية للتجارة الخارجية لفرنسا . وتمتع التجار الاجانب بامتيازات تجارية وقانونية بموجب نظام الامتيازات الذي بدأ في عام ١٥٣٦ واستمر حتى النصف الاول من القرن العشرين .

ولم تكن دمشق بمثل اهمية حلب في المجال التجاري ، فنشاطها في تجارة المرور لم يتعد نطاق بغداد والحجاز ومصر . وحتى في هذا النطاق ، كانت خطوط تجارتها تحت رحمة القبائل البدوية التي تسيطر على معظم هذه الطرق . ولكن دمشق افادت الشيء الكثير من كونها مركز تجمع قافلة الحج الشامي التي كان ينضم اليها الحجاج من المناطق الشمالية والشرقية ، وتبلغ اعدادهم في كل سنة ما يقرب من خمسة عشر الى عشرين الف حاج ، يتجمعون في دمشق ، ويحملون البضائع منها واليها ، من بلادهم الاصلية ومن الحجاز. لذلك كانت قافلة الحج الشامي على جانب كبير من الاهمية التجارية بالنسبة لدمشق ومنطقتها(٣) . ونظرا لعدم اهمية دمشق بالنسبة لتجارة المرور الاوربية ، بالمقارنة مع حلب ، لم يكن للاجانب فيها ممثلون او قناصل الى ان سيطر عليها محمد علي باشا والي مصر عام ١٨٣١ . وكان

تعامل التجار الاجانب مع دمشق وريفها قبل ذلك ، يتم بوساطة وكلائهم فيها ، او عن طريق ممثليهم من القناصل ونوابهم في المدن الساحلية ، وبخاصة صيدا .

وقد تضررت تجارة المرور في حلب ، في الربع الاول من القرن التاسع عشر ، حين احتلت روسيا ، في عهد القيصر بطرس الاكبر ، المناطق المنتجة للحرير في شمالي بلاد فارس ، وذلك في عامي ١٧٢١ ـ ١٧٢٢ ، وانقطع بذلك تدفق الحرير الفارسي الى حلب وعبرها الى اوربا . ورافق ذلك في الوقت نفسه تردي الوضع السياسي بين العثمانيين وحكام بلاد فارس واستئناف القتال بين الفريقين ، وبخاصة في الربع الثاني من القرن الثامن عشر ، حين سيطر نادر شاه على الحكم في بلاد فارس وانهى حكم السلالة الصفوية فيها . وكان لهذا الوضع اثره الكبير على تحجيم النشاط التجاري بين حلب واصفهان والخليج العربي وما ورائه .

وصادف في تلك الاثناء ازدياد الاهتمام الفرنسي التجاري ببلاد الشام الجنوبية ، اذ استغلت البورجوازية التجارية الفرنسية معاهدة اوترخت عام ١٧١٣ ، التي اتت بالسلام لفرنسا وامنت خطوط مواصلاتها في المتوسط ، فوسعت من نشاطها التجاري الخارجي بدعم من الملكية الفرنسية . واشتدت منذئذ المنافسة التجارية بين فرنسا ، التي ركزت اهتمامها على بلاد الشام الجنوبية ، وبين انكلترا التي تركز اهتمامها على حلب(٤) .

ومما حد أيضا من تجارة حلب اشتداد منافسة الشركة الانكليزية ـ الموسكوفية لشركة الليفانت ، بعد أن منحت الاولى حق المتاجرة مع بلاد فارس . وادى ضعف الدولة العثمانية ، واضطراب الامن في الطرق الرئيسية بين حلب وميناءها الطبيعي الاسكندرونة ، التي كثر فيها قطاع الطرق ، الى الحاق ضرر كبير بتجارة حلب . وتضاءل اهتمام اوربا ، في اعقاب الثورة الصناعية ، بشراء المنتجات المحلية بطريق المقايضة ، لان المنتجات الاوربية الصناعية بدات تفرض نفسها بمقابل المال . ووجد القطن المحلي ، الذي كانت تستورده اوربا من حلب والاناضول ، منافسا قويا له في قطن البنغال الاجود والارخص ، بالنسبة للصناعة الاوربية .

ونتج عن الثورة الصناعية الاوربية ان ازدادت منتجات اوربا ، واتسعت السفن التجارية التي اخذت تسير بقوة البخار ، واصبحت الحاجة ملحة للبحث عن مواني كبيرة تتسع لهذه السفن وحجم البضائع التي تحملها . ولم تكن المواني القائمة حينذاك ، مثل الاسكندرونة وطرابلس وصيدا ، لتفي بهذا الغرض ، لذا بدا انشاء ميناء بيروت الذي طغى على ما حوله منذ القرن التاسع عشر ، وافادت دمشق الشيء الكثير من نمو هذا الميناء وتدفق بضائعه ، عبرها ، الى الداخل وما ورائه .

وفي العقد الثاني من القرن التاسع عشر بدأ الفرنسيون يهتمون ببيروت، وباقامة ممثلين لهم فيها . ولهذا ، سمى القنصل الفرنسي في حلب ، في أواخر عام ١٨١٩، وكيلا مؤقتا في بيروت التي وصفها « بانها اليوم الميناء الناشط لدمشق »(٥) . وفي عام ١٨٢٢ وافقت سلطات باريس على تسمية السيد جان باتيست بودان (Jean Batiste Beaudin) للوكالة القنصلية في دمشق ، المرتبطة بالقنصلية العامة في حلب . وقد وصل السيد بودان الى دمشق في أواخر شباط ١٨٢٤ ، وبدأ بممارسة أعماله في الاول من اذار . ولكن والي دمشق رفض الاعتراف به رسميا ، ومع ذلك ، سمح له بالبقاء في دمشق ريثمايحصل على فرمان من استانبول يعترف به « كوكيل لطائفة الفرنساوية » . وهكذا ، لم يتم تعيين قنصل رسمي لفرنسا في دمشق حتى ٨ تموز ١٨٣٩ حين اصدر ملك فرنسا قرارا بانشاء قنصلية في دمشق . وكان أول قنصل بريطاني فيدمشق قد عين قبل ذلك بست سنوات(٦) .وسرعان ما اصبح للدول الاجنبية الاخرى ، مثل بروسيا والولايات المتحدة الامريكية ، والنمسا ، واليونان ، قنصليات في دمشق .

وشجع النشاط التجاري الاوربي في بلاد الشام آنذاك الامتيازات التجارية الواسعة التي منحتها الدولة العثمانية لبريطانيا ، ثم للدول الاخرى . فقد عقدت اتفاقية تجارية ، بين الدولة العثمانية وبريطانيا في عام ١٨٣٨ ، سرعان ما طبقتبنودها على دول أوربية اخرى ، ونصت على الا تتجاوز الضرائب الجمركية التي تتلقاها الدولة العثمانية على البضائع الاوربية المستوردة خمسة بالمائة . وقد زاد هذا الى حد كبير من النشاط التجاري الاوربي ، ومن استيراد البضائع الاوربية الى الدولة العثمانية . وطبقت نصوص هذه الاتفاقية في بلاد الشام بعد انسحاب قوات محمد علي باشا منها . وبالمقابل، كانت التجارة الداخلية ،في الدولة العثمانية ، تخضعلنسبة من الضرائب الجمركية أعلى بكثير ، مما اضر بها واضعف منمنافستها للبضائع الاوربية المستوردة .

وكان محمد علي باشا ، ابان حكمه في بلاد الشام ، بين عامي ١٨٣١ و ١٨٤٠ ، قد فتح الباب على مصراعيه للمؤثرات الاوربية على اختلاف انواعها . وتدفقت البضائع الاجنبية واخذت تنافس ، بصورة جدية ، البضائع المحلية . وقد جاء في التقرير الذي رفعه جون باورينغ (John Bowring) الى وزير الخارجية البريطاني اللورد بالمرستون، بتاريخ١٧ تموز ١٨٣٩ ، وتناول فيه احصاءات وتفاصيل تجارية واجتماعية حول بلاد الشام ، ان مجموعالدكاكين التي تبيع البضائع الانكليزية بالمفرق، في دمشق ، بلغ مائة وسبعة دكاكين يقدر مجموع رؤوس الاموال التي وظفها اصحابها في اعمالهم بمبلغ يراوح بين ٠٠٠ر٦٠٠ر١ و ٠٠٠ر٠٠٠ر٢ قرش . واضاف التقرير ان

التجار المسلمين والمسيحيين واليهود قد شاركوا ، على حد سواء ، في المتاجرة مع أوربا وفي تسويق بضائعها . وبلغ مجموع المؤسسات ، او البيوتات التجارية ، التي كان يملكها مسلمون في دمشق وتتاجر مع اوربا ، ستةوستين ، يراوح مجموع رؤوس أموالها بين عشرين وخمسة وعشرين مليونا من القروش . ومن هذه البيوتات ثمانية يزيد راسمال كل منها على المليون . وهناك مؤسستان تجاريتان يملك احداهما عبد الرحمن هاشم ، وثانيتهما محمد سعيد اغا البغدادي ، وكانتا تتاجران مع بغداد ، يبلغ رأسال كل منهما بين مليون ونصف ومليونين من القروش . ويبلغ راسمال مؤسسة اخرى ، يملكها الحاج حسين جرتقجي ، مابين مليونين ومليونين ونصف . والمؤسسات الكبرى تتاجر عادة مع اوربا وبغداد ، في حين تتاجر المؤسسات الاصغر مع استانبول وازمير . وهناك حوالي اثنتي عشرة مؤسسة تتاجر مع القاهرة والاسكندرية ، ومؤسسة او اثنتان تتاجر مع مكة والمدينة ، وقلة منها تتاجر مع القدس ونابلس واجزاء اخرى من فلسطين . وهناك مؤسسة واحدة امتد نشاطها التجاري الى جزر الهند الشرقية . ويبلغ وسطي راس مال هؤلاء التجار المتعاملين مع الخارج حالي اربعة آلاف ليرة استرلينية ، اي ما يعادل ٤٠٠ الف قرش (٧) .

وبلغ عدد التجار المسيحيين في دمشق الذين يتعاملون في التجارة الخارجية تسعة وعشرين ، يراوح مجموع رؤوس أموالهم بين اربعة ملايين ونصف المليون وخمسة ملايين ونصف مليون قرش . وكان اغنى هؤلاء التجار على الاطلاق السيد حنا عنحوري ، الذي بلغ راسماله بين مليون ونصف ومليونين من القروش . وكان يتاجر مع بغداد وفرنسا وايطاليا ، كما انه ينتج البضائع الدمشقية ، ويشترك معه في التجارة الخارجية عدد من أفراد أسرته . وكانت النسبة الاكبر من التجار المسيحيين تتعامل مع بريطانيا ، ولكنهم كانوا ، على وجه العموم ، أقل ثراء من التجار المسلمين واليهود . ويتراوح وسطي راس مال الغالبية العظمى من التجار المسيحيين ما بين ٢٥ و ١٠٠ الف قرش (٨) .

وكان التجار اليهود في دمشق من اغنى التجار المتعاملين مع الخارج . ويبلغ عددهم اربعة وعشرين ومجموع رؤوس أموالهم ما بين ستة عشر وثمانية عشر مليونا من القروش ، أي بمعدل ستة آلاف الى سبعة آلاف ليرة استرلينية لكل منهم ، ويعادل ذلك ما بين ٦٠٠ و ٧٠٠ الف قرش . ومن بين هؤلاء تسعة تجار على الاقل يتراوح راسمال كل منهم ما بين مليون ومليون وثلث من القروش . ويعتقد ان اغنى تاجرين من اليهود كانا مراد فارحي ونسيم فارحي وتزيد ثروة كل منهما على مليون قرش ونصف المليون . وكانت معظم المؤسسات اليهودية تتاجر مع بريطانيا (٩) .

ومما شجع هؤلاء التجار الدمشقيين على التعامل بالبضائع الاجنبية تسهيلات

الدفع التي منحهم اياها التجار الاجانب . ومعظم هؤلاء التجار هم من تجار الجملة ، يستوردون البضائع أولا ثم يدفعون قيمتها بعد ذلك ، في حين كان تاجر المفرق يبيعها نقدا في الغالب . ولم تكن دمشق السوق الوحيدة لهذه البضائع ، فكان تجار القوافل يحملونها الى الداخل والخارج ، ويمنحون بدورهم تسهيلات في الدفع من قبل تجار الجملة الدمشقيين ، بحيث يسددون ثمن البضائع عند عودتهم في العام التالي . وضم تجار القوافل اناسا من العراق وفارس والمناطق الى الشرق منها . وكانوا في الغالب على درجة كبيرة من الامانة في التعامل والدقة في دفع ما يستحق عليهم من مال .

وازاء هذا النشاط التجاري وحسن التعامل ، نشطت المتاجرة بالبضائع الاجنبية ، وبدا البحث لايجاد تسهيلات أكثر ، في التعامل وفي المواصلات ، لتصريف هذه البضائع بشكل أوسع (١٠) .

وقد وجدت في دمشق ، ابان الحكم المصري ، محكمة تجارية مهمتها النظر في الخلافات الناجمة عن الاعمال التجارية ، وكانت تتألف من اثني عشر عضوا منهم تسعة من المسلمين ، ومسيحيان ، ويهودي واحد . وكانت هذه النسبة تتفق وأعداد الطوائف المختلفة آنذاك ،ولا تؤثر بأي حال على قرارات المحكمة بالنسبة للمتقاضين على اختلاف مذاهبهم (١١) . وقد توقفت هذه المحكمة عن العمل ، كما يبدو ، بعد انسحاب المصريين من بلاد الشام وحل مكانها ديوان التجار للنظر في القضايا التجارية، وله حق اصدارالاحكام ، التي سمح للمتقاضين باستئنافها الى مجلس شورى الشام العالي (١٢) .

وفي عام ١٨٥٠ انشئت في دمشق ، من جديد ، محكمة تجارية تضم اربعة عشر عضوا . وفي حين أن المحكمة الاولى ، التي كانت قائمة ابان الحكم المصري ، لا تعرف كيفية تعيين اعضائها ، فان نصف أعضاء المحكمة الجديدة كان يعين من قبل الحكومة العثمانية ، ونصفهم الاخر يعينه القناصل من بين التجار الاجانب . وهذا دليل على ازدياد حجم التجارة الاجنبية في الشام ، وكذلك على ازدياد نفوذ القناصل الاجانب وتدخلهم في القضايا الاقتصادية المحلية . وضم الاعضاء السبعة الذين عينتهم السلطات العثمانية أربعة مسلمين ، ومسيحيين ، ويهوديا واحدا . واذا كانت نسبة الاعضاء في المحكمة الاولى تتوافق والنسبة العددية للطوائف ، كما ذكرنا ، فان نسبة ممثلي الطوائف ، فيما يتعلق بنصف اعضاء المحكمة الجديدة ، تدل على نسبة مساهمة كل طائفة في النشاط الاقتصادي وفي التعامل بالتجارة الاجنبية (١٣) . وبعد خمس سنوات ، أي في عام ١٨٥٥ ، انشئت محكمة تجارية في حلب (١٤) .

واقتضى ازدياد حجم التجارة بين دمشق والدول الاجنبية ، الاهتمام بتحسين طرق المواصلات ، وبخاصة بين دمشق وبغداد . ونظرا لسيطرة البدو آنذاك ، من قبائل العنزة ، على البادية السورية ، وتحكمهم في طريق دمشق ـ بغداد وفرضهم الاتاوات على المسافرين وعلى البضائع مقابل حق الطريق ، فقد لجأت القوافل التجارية ، سواء منها القادمة من الشرق الاقصى بطريق الخليج العربي وبغداد ، او الذاهبة الى تلك الجهات من دمشق ، الى سلوك الطريق الاطول والاكثر أمنا ، عبر الموصل وحلب (١٥) . فالقافلة التي تسير من بغداد الى دمشق ، بطريق الموصل وحلب ، يقتضي وصولها الى دمشق من شهرين ونصف الى ثلاثة أشهر (١٦) أما القافلة التي تنطلق من بغداد الى دمشق ، عبر البادية ، فيقتضي وصولها حوالي خمسة وثلاثين يوما(١٧) . ووجدت محاولات في الشرق الاقصى لارسال البضائع من كلكوتا الى دمشق عبرالبحر الاحمر وخليج السويس وغزة (١٨) . ولكن هذه المحاولات فشلت بسبب صعوبات الطريق وكلفته ، وبقي طريق دمشق ـ بغداد ، عبر البادية . ناشطا في نقل البضائع رغم أخطار البدو . وحين ازداد حجم التجارة الخارجية التي سلكت هذا الطريق في أعقاب انشاء طريق دمشق ـ بيروت البري ، اضطر التجار الاجانب وممثلو الشركة التي انشأت هذا الطريق الى التعامل مباشرة مع القبائل البدوية وشراء صداقتها بالمال ، لتأمين سلامة البضائع ومرورها عبر البادية . وكان ذلك بداية التعامل بين الدول الاوربية الصناعية ، وبخاصة بريطانيا وفرنسا ، وبين القبائل البدوية ، بعد أن فشلت جميع المحاولات لايجاد البديل عن خط بغداد ـ دمشق المباشر .

وحدث في عام ١٨٥٩ ، مثلا ، ان هاجم البدو القافلة التجارية المتجهة من دمشق الى بغداد ، فاضطرت الى قطع الطريق بثلاثة وخمسين يوما . ومن شأن ذلك ان يتلف المنتجات السريعة العطب ، كما انه يزيد في مصاريف النقل . ولم يتملكن تجار دمشق ، أو تجار بغداد ، على السواء ، من ايجاد تسوية مع البدو المجاورين للطريق. وحتى البعيدين عنه ، الذين يهاجمونه بسبب عدم قدرة الدولة العثمانية آنذاك . وخوف البدو من نكوث التجار بوعدهم ، باعطائهم ما ألفوا ان يأخذوه من الخوة ، التي هي بمثابة حق الطريق . وحين ازدادت مصلحة التجار الفرنسيين والانكليز في استتباب الامن وحماية القوافل التجارية بين دمشق وبغداد ، عمدوا من التقرب من هذه القبائل التي أصبحت صديقة لدولة أو لاخرى . وذكر في عام ١٨٦٦ ان قبائل ولد علي والشمر والفدعان ، وبني صخر والموالي ، وبعض أفخاذ السبعة ، كانوا موالين للفرنسيين ، في حين أن قبائل الرولة وبعض أفخاذ السبعة والقبائل التي تسيطر على البادية في الجانب العراقي من نهر الفرات ، باتجاه بغداد ، كانت موالية للانكليز . وبالاضافة الى الفوائد المادية التي جنتها القبائل ، من ذلك ، فانها في كل

مرة نشب فيها الخلاف بينها وبين السلطات العثمانية كانت تلجأ الى قنصل الدولة التي تتعامل معها ليتدخل لدى هذه السلطات لصالحها (١٩) .

ومن المحاولات التي جرت لايجاد بديل عن خط بغداد ـ دمشق ، تلك التـي حدثت في عام ١٨٧٠ حين بدأ نقل البضائع بين بغداد ومسكنة بواسطة السفن التجارية في الفرات . ومن مسكنة كانت البضائع تنقل برا الى حلب التي تبعـد عنهـا بحوالي خمسين كيلومترا . وكانت تسير رحلة واحـدة ـ في الاتجاهين ـ كـل أسبوعين . واستغرقت الرحلة النهرية من مسكنة الى بغداد ثلاثين ساعة ، في حين ان الرحلة من بغداد الى مسكنة اقتضت تسعة ايام ، لانها كانت تسير ضد مجرى المياه . وقد فشلت هذه المحاولة بدورها (٢٠) .

وكان من انجح خطوط المواصلات التي تمت آنذاك خط بيروت ـ دمشق البري. وقد اعطي امتيازه في الاساس الى الفرنسي (الكونت دو برتويـس (de Perthuis) في ٢٠ تموز ١٨٥٧ ، فأوجد شركة عثمانية مغفلة براسمال قدره ثلاثـة ملايين فرنـك موزعة على ستة آلاف سهم . وبدا العمل في هذا الطريق في تشرين الثاني في عام ١٨٥٩ ، وشارك حوالي الف الى الف وخمسائة عامل في انجاز الجانب اللبناني منه ، وبعـد اربعة أشهر تم تعبيد اربعة وعشرين من أصل مائة وثمانية كيلومترات من الطريق . وكان مقدرا للعمل ان ينتهي في عام ١٨٦١ ، ولكن الطريق دشن فعلا في الاول من كانون الثاني عام١٨٦٣(٢١) . وبلغ عدد المسافرين الذين استخدموا هذا الطريق في عام افتتاحه ٥٨٠٩ ، وارتفع هذا العدد الى ٨٤١٨ مسافرا في العام التالي ، وبلغ ٩٥٠٩ في عـام ١٨٦٩ . وبلغت العائدات الاجمالية لهذا الطريق ٥٥٠ الف فرنك في عام ١٨٦٣ ، ثـم ارتفعت الى ٩٨٠ الف فرنك في عام ١٨٦٦ . واتصل ممثلو الشركة المسؤولة عـن الطريق بالبدو في البادية السورية لتسهيل نقل البضائع بين بيروت وبغداد عبـر دمشق (٢٢) . وذكر أن كمية البضائع التي نقلت بواسطة طريق بيروت ـ دمشق ، في عام ١٨٦٣ ، بلغت ٤ر٧٣٠ طنا ، وارتفعت في عام ١٨٩٠ الى ٢١ر٠٠٤ طن . وزاد ذلك من عائدات الاسهم التي بلغت ٤٢ فرنكا في عام ١٨٧٢ ثم ارتفعت الى ٨٠ فرنكا في عام ١٨٨٢ . ولعب هذا الطريق دورا رئيسيا في حيـاة بيروت الاقتصادية ، وفي حيـاة المناطق المحيطة به ، ولاشك انه كان عاملا هاما في استمرار بيروت كأهم ميناء علـى السـاحل السوري(٢٣) . ولا ادل على اتساع نشاط ميناء بيروت خلال القرن التاسع عشر من الارقام التالية : بلغت زنة البضائع التي استوردت أو صدرت عن طريق هذا الميناء في عام ١٨٣٥ ، ١٢٨ر٦٣٥ طنا ، منها ٧٨ر٤٦٣ طنـا من الواردات و ١٧٢ر٥٠ مـن الصادرات (٢٤) ، في حين كان مجموع البضائع التي تعامل معها ميناء بيروت ، استيرادا وتصديرا ، ٨٠٥ر٥٢٠ طنا في عام ١٨٩٥ (٢٥) .

وحين عارضت الحكومة العثمانية تمديد امتياز الشركة المشرفة على طريق بيروت ـ دمشق ، او زيادة فعالياتها التي كانت تكفي لاستخدام الف من الخيول والبغال في عمليات النقل ، بدا التفكير لدى الشركة في الثمانينات من القرن التاسع عشر ، بربط بيروت بدمشق بخط حديدي. وتم انشاء هذا الخط فيعام ١٨٩٥ على يد شركة اخرى فرنسية باجيكية عثمانية . ولكن الخط الحديدي هذا مني بخسائر كبرى الى ان فرض الانتداب الفرنسي في ١٩٢٠ على سورية ولبنان ، وعندئذ اخذت عائدات الخط بالازدياد (٢٦) .

وازداد تدفق البضائع الاجنبية الى دمشق بنتيجة التسهيلات في عمليات النقل بينها وبين بيروت ، ويتبين ذلك من الاحصاءات التالية :

جدول ببيان قيمة البضائع المستوردة الى دمشق والمصدرة منها بالفرنكات الفرنسية

السنة	البضائع المستوردة	النسبة	البضائع المصدرة	النسبة	الاجمالي	
١٨٣٣	١٢٥ر٢٤٢ر١٣	٥٤٪	٢٥٠ر٢٤٨ر١١	٤٦٪	٣٧٥ر٤٩٠ر٢٤	(٢٧)
١٨٥٩	٢٥٠ر٣١٨ر١٥	٦٠٪	٠٠٠ر٤١٨ر١٠	٤٠٪	٢٥٠ر٧٣٦ر٢٥	(٢٨)
١٨٦٢	٤٢٠ر٢١٤ر٢٠	—	—	—	—	(٢٩)
١٨٨٣	٢٢٨ر٩٥٣ر١٤	٥٧٪	٤٤٤ر٢٧٥ر١١	٤٣٪	٧٣٢ر٢٢٨ر٢٦	(٣٠)
١٨٨٤	٠٠٠ر٠٠٧ر١٥	٦٥٪	١٧١ر١١٣ر٨	٣٥٪	١٧١ر١٢٠ر٢٣	(٢١)
١٨٨٥	٠٠٠ر٣٦٧ر١٤	٦٣٪	٥٠٠ر٣٢٠ر٨	٣٧٪	٥٠٠ر٦٨٧ر٢٢	(٢٢)
١٨٨٧	٠٠٠ر٠٠٠ر١٧	٦٣٪	٠٠٠ر٠٠٠ر١٠	٣٧٪	٠٠٠ر٠٠٠ر٢٧	(٢٣)

يتبين من الجدول اعلاه ان قيمة البضائع المستوردة الى دمشق خلال نصف قرن تقريبا راوحت قيمتها بالنسبة للقيمة الاجمالية للبضائع الاجمالية المستوردة والمصدرة ما بين ٥٤٪ و ٦٥٪ . في حين ان البضائع المصدرة منها تفاوتت نسبتها بين ٤٦٪ و ٣٧٪ . ويلاحظ ان قيمة البضائع المصدرة من دمشق كانت في تناقص في حين ان البضائع المستوردة كانت في ازدياد ، أي ان نسبة العجز في الميزان التجاري كانت بازدياد مستمر ،وقد بدات هذه النسبة فيالجدولبمقدار ٩٪ ثم بلغت بعد نصف قرن

٢٦٪ . ويعزى ذلك ، بدرجة كبيرة ، الى افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ ، التي حولت جزءا كبيرا في تجارة المرور بين الشرق الاقصى واوربا عن دمشق ، ثم الى تزايد نقل الحجاج الى الحجاز بالطريق البحري ، وكذلك الى الخسارة التي منيت بها البضاعة الدمشقية بفعل منافسة البضائع الاجنبية .

وادى فتح قناة السويس وتحول قسم كبير من الحجاج لاستخدامها الى تحول قسم اكبر من البضائع التي كانت ترافق قافلة الحج عن دمشق . ولكن فتح القناة زاد من ناحية اخرى ، في حجم العلاقات التجارية بين دمشق ومصر . وكانت هذه العلاقات تقوم في السابق على المتاجرة بالتبغ ، الذي كان يستورد من بلاد فارس ويصدر الى مصر . واستوردت دمشق البضائع المصرية ، وبخاصة الكتان ، الذي كانت لـه سوق رائجة في بلاد الشام (٢٤) . كما أن وجود تجار مصريين مقيمين في دمشق ، وبالمقابل وجود تجار من أهل الشام في مصر ، شجع مثل هذه العلاقات التجارية . ومما يجدر ذكره ان وجود الجالية المسيحية الشامية ، التي بدات بالهجرة الى مصر منذ أوائل القرن الثامن عشر ، قد زاد من اتساع العلاقات التجارية بين البلدين (٢٥) .

وقد ضمت قوائم البضائع التي استوردتها دمشق في عام ١٨٣٣ السلع التي استوردتها من مصر ، وشملت الكتان ، والبن من مخا ، والنيلة ، والحناء ، وجوز انهند ، والاصبغة والجلود ، وانياب الفيلة ، والرز ، والسكر ، والقبعات ، والكرابيج، والحصر ، والبلح . وبلغت قيمة هذه البضائع آنذاك ٤٦٣ر١٢٥ فرنكا ، اما صادرات دمشق الى مصر في تلك السنة فضمت الفواكـه المجففة، والتفاح ، والاحذيـة ، والمنسوجات ، والتنباك ، والشال الكشمير ، وسيوف فارس (٢٦) .

وكان لاستعمال الحجاج ، وبخاصة حجاج الاناضول والبلقان ، للطريق البحري الى الحجاز ، اثره الكبير في تناقص حجم التجارة التي كانت تفيد منها دمشق كمركز لقافلة الحج الشامي . فقد افادت دمشق الشيء الكثير من تجارة الحج قبل ذلك وكان يؤمها عادة ، كل سنة ، حوالي ١٥ الى ٢٠ الف حاج ترافقهم بضائع كثيرة ،الى الحجاز ومنه وينفق هؤلاء الحجاج الاموال الكثيرة في دمشـق للتزود بالمؤن ، واستئجار الجمال ، وشراء السلع (٢٧) . ولا ادل على اهمية البضائع التي تحملها قافلة الحج الشامي من استعراض البضاعة التي حملتها معها ، مثلا ، قافلة الحج العائدة من الحجاز الى دمشق في ١٥ صفر ١٢٥٨/ ٢٨ آذار ١٨٤٢ ، فقد ضمت ٢٢٥ حملا من الحناء ، تزن ٢٢٥٠ رطلا (حوالي ١٤٥٠٠ كغ) ، ويقدر ثمنها بـ ١٢٠ الف قرش فضة (ما يعادل ٣٠ الف فرنك فرنسي) ، و ٤٠ حملا من بن مخا (كانت في الاصل تسعين فقد منها في الطريق خمسون حملا) ، تزن ٤٠٠٠ رطل ، ثمنها ١٤٠

الف قرش ، و٢٠ حملا من نسيج هندي للعمائم ، كل حمل من بالتين ، تحتوي كل منهما مائة قطعة ، ثمن كل قطعة ٢٠٠ قرش ، مجموع ثمنها ٨٠٠ الف قرش. وقدرت الجواهر التي حملتها القافلة بما ثمنه ١٠٠ الف قرش . وبلغ سعر ريش النعام الذي حملته هـذه القافلة ١٧٠ الف قرش ، والعطـور ١٦٠ الف قرش ، والسلع المتنوعة ٦٠ الف قرش . وكان مجموع ثمن البضائع التي حملتها القافلة مايعادل ٢٠٠ر٨٥٠ر١ قرش(٣٨) .

وهكذا اخذت اعداد الحجاج المسافرين عن طريق دمشق بالتضاؤل التدريجي في القرن التاسع عشر فقد اشتملت ، مثلا ، القافلة العائدة الى دمشق من الحجاز بتاريخ ٢١ نيسان ١٨٤٥ على حوالي ستة الاف حاج ، الفين منهم من الاعجام، والفين من الاتراك ، والبقية من العرب . ورغم هذا العدد المتواضع للقافلة فان الحجاج احدثوا حركة تجارية ناشطة في دمشق ، وقدرت مشترياتهم منها بحوالي ستة ملايين قرش(٣٩)

وقد بدأ الحجاج الاتراك ، منذ اوائل الخمسينات من القرن التاسع عشر بالسفر ، على نطاق واسع ، بطريق البحر الى الحجاز ، بواسطة السفن التجارية التي شاع استعمالها انذاك(٤٠) وكانت اشهر شركتين تسيران مثل هذه البواخر في المتوسط هما : المساجيري امبريـال(Messageries Imperiales) والشركة الروسية (Compagnie Russe) ويصل الحجاج الى بور سعيد او الاسكندرية ثم يتابعون سفرهم ، من الاولى في القنال ومن الثانية في القطار ، الى السويس حيث يستقلون باخرة اخرى الى جدة . ويعود اختيار الحجاج للطريق البحري الى كونه اكثر امنا من الطريق البري ، الذي اخذ يعج بقطاع الطرق ، وكذلك الى كونه اقل كلفة(٤١) .

وكان بعض الحجاج الاتراك يستخدمون الطريق البري في الذهاب والطريق البحري في الاياب ، حين يكونون محملين بالبضائع . وضمت القافلة التي عادت الى دمشق من الحجاز في ٧ آب ١٨٦٣ الموافق ٢٢ صفر ١٢٨٠ ،مائتين وخمسين حاجا فقط . اما الباقون فقدعادوا بطريق البحر . وكان يرافق هؤلاء الحجاج الى دمشق ٦٥٠ عبدا من الجنسين ، وجه مئتان منهم الى حلب وبيع الباقون في دمشق ، على الرغم من وعود الباب العالي ومحاولات الدول الاوربية منع المتاجرة بالرقيق(٤٢) . وزاد في تناقص الحجاج المسافرين بطريق دمشق ان الحجاج من العجم اخذوا يستقلون منذ عام ١٨٧٠ ، الطريق البحري من الخليج العربي الى جدة(٤٣).

وقد علق نعمان القساطلي، صاحب كتاب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ،

والذي عاصر تلك التحولات ، على تناقص حجم التجارة المرتبطة بقافلة الحج بقوله : « واول نكبة دهمتها (اي دمشق) تسببت عن سير سفن التجار في البحار فخسرت تجارتها البرية مع الاستانة والروم ايلي وبر الاناضول وغيرها وتحول ذلك الى المواني البحرية وعندما فتحت ترعة السويس حلت بلية عظمى وطامة كبرى على تجارة دمشق لانها سلبت كل مابقي لها من التجارة البرية وفتحت بابا قريبا للحجاز فامتنع الحجاج عن الاتيان اليها فخسرت جداول الذهب الغزيرة التي كانوا يسكبونها ذهابا وايابا حيث كان يأتيها كل سنة ثمانية الاف ونيف ويتجهزون منها للحجاز وفي ايابهم يتجهزون منها الى بلادهم ويأخذون البضائع والاقمشة اما هدايا او للتجارة واذا انفق كل حاج ٥٠ ليرة يكون ما ينفقه الحجاج سنويا اربع مئة الف ليرة ولا يخفى كم كانت تنتفع دمشق من هذه المبالغ وقد كان كثيرون من اهلها من ذوي العيال الكبيرة الذين لا ثروة عندهم يتعيشون من البيع بالامانة للحجاج او من انزال البعض في بيوتهم . وقد كملت في هذه السنة اضرار ترعة السويس بتجارة دمشق لان ما بقي لها من تجارة العراق فتح له طريق على السويس فتحول الى مواني سوريا» (٤٤) .

وادى تضرر دمشق التجاري هذا الى تضرر الاسواق الريفية التي تتعامل معها، وبخاصة القرى في حوران وغيرها ، التي كانت تؤجر الاف الجمال لنقل الحجاج ومؤنهم والقوات العسكرية المرافقة لهم . واشهر تلك الاسواق سوق المزيريب (وتبعد مسيرة يومين عن دمشق) ، حيث كان يتجمع الحجاج استعدادا لانطلاقهم الى الحجاز . وكان يقام في المزيريب كل سنة ثلاثة اسواق كبيرة اشبه بالمعارض ، اثنان منها بمناسبة ذهاب قافلة الحج وعودتها ، وثالثها في الربيع لخدمة مصالح الفلاحين والبدو والتجار من مراكز المدن(٤٥) .

وكانت المزيريب سوقا رائجة لتجارة الخيول التي ياتي بها بدو العنزة وبدو نجد . واهتم الاوربيون بشراء الخيول من سورية نظرا لجودتها ، ولاستخدامها في تحسين نسل خيولهم ولاستعمال حرسهم الملكي(٤٦) وقد ادت كثرة شراء الفرنسيين والانكليز للخيول والبغال (التي استخدمت في النقل) من سورية ، الى تضرر المواصلات المحلية والحد من انتقال البضائع والسلع(٤٧) .

منافسة البضائع الاوربية للبضائع الشامية

لاحظنا ان تدفق البضائع الاجنبية ، وبخاصة النسيجية منها ، الى بلاد الشام قد بدأ يلفت النظر ابان الحكم المصري ، نظرا للتسهيلات الكبيرة التي منحها ذلك الحكم للمصالح الاجنبية . ثم كانت معاهدة ١٨٣٨ بين الدولة العثمانية وبريطانيا،

والتي تلتها معاهدات اخرى من هذا القبيل مع دول اوربية متعددة ، فازداد تدفق البضائع الاوربية الى ولايات الدولة العثمانية ، بفعل الضرائب الجمركية المتدنية التي تقاضتها الدولة العثمانية عنها وكانت الثورة الصناعية في اوربا في اوجها ، وتبدت بصورة خاصة في صناعة النسيج التي اخذت تكتسح العالم برخص منتجاتها وجودتها في الوقت ذاته . ولم تتمكن المنتجات الحرفية المحلية ، التي اعوزتها حماية الدولة العثمانية ،من منافسة البضائع الاجنبية .

ولم يكن اثر هذا الوضع مقتصرا على أصحاب الحرف ، وبالتالي على الاقتصاد المحلي التقليدي ككل ، بل بدل في بنية المجتمع وافرز فئات وسيطة غير منتجة ، لعبت دور الوسيط بين المستهلك المحلي والمنتج الاوربي ، وكونت احدى دعائم البورجوازية الجديدة . كما ان هذا الوضع ساعد ، بالنتيجة ، على ظهور انماط جديدة من الانتاج المحلي والتعامل الاقتصادي ، في محاولة للتأقلم مع هذا المد الاوربي . واذا ما تذكرنا ان حوالي خمس عمال دمشق كانوا يعملون في الصناعة النسيجية ، فان اثر المنافسة الاوربية للبضائع المحلية ينعكس الى حد كبير على البنية الاجتماعية ايضا .

وقد سوقت المنسوجات الاجنبية في دمشق في دكاكين خاصة بها في الاسواق الرئيسية ، مثل سوق الخياطين وسوق باب البريد . واشار الاهلون الى هذه البضائع على انها افرنجية . واذا ما اشتهر نوع منها فعندئذ يذكر بلد المنشأ الى جانب اسم البضاعة ، كأن يقال (جوخ انكليزي) .وادت المنافسة بين البضائع الاجنبية في السوق المحلية الى تدني اسعارها بدرجة اكبر ، الامر الذي جعل منافستها للمنتجات المحلية اشد من ذي قبل .ويذكر ،مثلا، عام ١٨٥١ ،ان مؤسسة تجارية يونانية استوردت الى دمشق كمية كبيرة من الكتان النمساوي ، وطرحته في السوق باسعار تقل عن اسعار مثيله الفرنسي ، مما اضر بهذا الاخير(٤٨) .

وعمدت البضائع الاجنبية الى تقليد الانماط النسيجية المحلية ، مما زاد في ترغيب السكان المحليين باقتنائها . وكمثال على ذلك تقليد الصناعة النسيجية السويسرية لانماط الكتان الدمشقي ، ثم تصديره الى دمشق ومنافسته للكتان المحلي في عقر داره(٤٩) .

وطبيعي ان المنافسة الاوربية لم تقتصر على بضائع دمشق فحسب ،بل شملت بضائع المدن الاخرى ، ففي حلب مثلا ، قلدت منسوجات مدينة ليون الفرنسية منسوجات حلب ، وفعلت ذلك منسوجات بريطانية وبلجيكا وسويسرا والمانيا ، مما اشاع استعمالها بين السكان المحليين لرخص اسعارها(٥٠) . وكانت البضائع الالمانية

قد اخذت في غزو السوق المحلية بعد عام ١٨٧٠ ، أي بعداكتمال الوحدة الالمانية ، وانطلاق المانيا الى التوسع التجاري والاستعماري . وقد علق القنصل الفرنسي في دمشق على دخول المنسوجات الالمانية ميدان المنافسة مع البضائع الاوربية في السوق المحلية فقال انها تغزو اكثر فأكثر سوق دمشق(٥١) .

ومما اضر بمنتجات دمشق ان المراكز التقليدية لتصريف هذه المنتجات ، سواء المدن والارياف السورية ، أم الاناضول والعراق ومصر ، قد اتخمت هي الاخرى بالبضائع الاجنبية ، التي نافستها فيها . وقد ادى تحول قسم من الاهالي عن الزي المحلي الى الزي الاوربي الى التخلي عن البضائع المرتبطة بالزي المحلي ، ورواج البضائع المناسبة للزي الاوربي .

ولم تكن الحكومة العثمانية لتهتم بالمصير الذي آلت اليه الصناعة المحلية لولا ظهور افلاسات بين التجار المحليين الذين يتعاطون المتاجرة بالاقمشة المحلية ، والى اضطراب اوضاع الحرف ، وبخاصة النسيجية منها ، مثل حرف فتالة الحرير ، والصباغين ، والقصارين ، والطباعين ، والدقاقين ، والالاجاتية ، والقطنية ، مما افقر أصحابها ، وادى بالتالي الى تعذر جباية الضرائب المفروضة عليها . واوضح مثال على ذلك الطلب الذي تقدم به أحد كبار ملتزمي الضرائب في دمشق ، ويدعى عبد القادر آغا خطاب ، الى السلطات المسؤولة في دمشق بتاريخ ٥ محرم ١٢٦١/١٤ كانون الثاني ١٨٤٥ ، يلتمس فيه تخفيض قيمة الضرائب من العام السابق نظرا للخسارة التي لحقت بالمشتغلين بالاقمشة المحلية من جراء منافسة البضائع الاوربية. وكان عبد القادر هذا قد التزم في عام ١٢٦٠ ضريبة دمغة منسوجات القطني والالاجه والصلواتي والديما ، بمبلغ قدره (١٤٥ر١٠٠) قرش . وحين طرحت تلك الضريبة في المزاد العلني في مطلع العام التالي بدات المزايدة ب ٣٠ر٠٠٠ قرش وبلغت ١٣٠ر٣٠٠ تقدم بها عبد القادر خطاب بالنيابة عن ابنه ، ثم تقدم هو بنفسه بمبلغ العام السابق . والجدير بالذكر ان جميع المزايدين كانوا من كبار اعيان دمشق . والتزم عبد القادر خطاب قلم المنكنا (تستعمل في كبس الانسجة القطنية) بمثل ما التزمه به في العام السابق . ويقدر بمبلغ ٦٠ر٠٥٠ قرشا . وفعل مثل ذلك بالنسبة لالتزام دق القطني ، الذي التزمه بمبلغ ٤٧ر٢٠٠ قرش ، والتزم حوالي ١٢ قيراطا من دق الالاجه بمبلغ ٢٧ر٠٠٩ قروش ونصف . وكان مجموع المبلغ الذي التزم به عبد القادر خطاب هو ٢٧٩ر٣٥٩ قرشا ونصف . وذكر عبد القادر خطاب انه خسر في عام ١٢٦٠ في التزام هذه الاقلام مبلغ خمسين الف قرش واضاف : « واذا لم صدقتم مبلغ الخسارة فاستحضروا السيد محي الدين كاتب سوق الدق وباقي كتاب الاقلام واطلعوا على الدفاتر يظهر لحضراتكم صدق تقريرنا ففي هذه السنة (أي ١٢٦١ هـ) بحسب حالة

الكار وقلة تشغيله من قبل تكاثر وجود اجناس البضائع الافرنجية فالاقمشة الشامية كلمالها على تدني ومن ذلك يزيد بالاقلام المذكورة تدني حاصلاتها وهذا شيء معلوم عند حضراتكم وليس له تدبير فان تحسن يصير التبصر بما اعرضناه لاجل ملاحظة حال دعجيكم ورفع المغدورية عنه الموصلة لخراب الحال حيث هذه الاقلام بالاقيام السابقة لا تستطيع على تأدية حالها » . وبمذاكرة السلطات المعنية بالطلب رأت « انه بخصوص توقف بضايع الاقلام المذكورة في محروسة الشام من تكاثر البضائع الافرنجية فهذا مشاهد وملحوظ من تدقير الاقلام المذكورة وتنازل اموالها عن العام الماضي لقلة رواج بضايعها التي هي القطني واللاجة والديما(٥٢) فقبول هذا الالتماس فيه المغدورية على جانب الميري وان كانت اعذار عبد القادر آغا من تدني الاقلام المذكور لسبب تدقير بضايعها مقبول ولكن لا يصوغ الرخصة من تنقيص الاموال الميرية على قياس تدنيها في الماضي فقد تتزايد في المقابل بحسب تواجد البضايع»(٥٣). ومع ان عبد القادر خطاب قد رفض طلبه بتخفيض مبلغ التزام هذه الضرائب فانه قبل الالتزام نظرا لما كان يتوقعه من فائدة ولانه كان هو بالذات ممتهنا لهذا الالتزام وغيره . وحصل مع ذلك على تسهيلات في دفع الضرائب ، اذ اعفي من دفع اي مبلغ في الاشهر الثلاثة الاولى من سنة الالتزام على ان يقسط كامل المبلغ على الاشهر التسعة الباقية ويدفع قسط كل شهر في نهايته(٥٤) .

ومما يجدر ذكره ان عبد القادر خطاب هذا حين توفي بعد سنوات قليلة وحصرت ثروته من قبل القسام العربي بتاريخ منتصف ربيع الاول ١٢٦٥/ (٨ شباط ١٨٤٩)، تبين ان مجموع ثروته هو ١٩٥ر٤٠١ قرشا ، بعضها كان ديونا لقاء ثمن جمال وكدش لم يستوفها ، وبعضها ديون مدفوعة له ، وبعضها ثمن امتعة وممتلكات اخرى . وحين اقتطعت الرسوم والنفقات المترتبة على وفاته والبالغة ١٦٦٥٦ر١٦ قرشا وثلاثة ارباع القرش ، بقي من ثروته ٥٣٨ر٣٨٤ قرشا ونصف القرش . وقد حجزت خزينة الدولة كامل هذا المبلغ لان تركة المتوفي مغرقة بالديون الميرية للدولة . ولم تستفد نساؤه الاربع واولاده من ثروته ، ولكن بقيت الدار المقدرة قيمتها بـ ١٠٠ الف قرش بين الورثة(٥٥).

ونجم عن شدة منافسة البضائع الاجنبية للبضائع المحلية وتحول التجار الاجانب عن اسلوب المقايضة في السلع ، الذي اعتمدوه قبل قيام الثورة الصناعية ، الى بيع منتجاتهم بالعملة الذهبية(٥٦) ، ومعظمها اوربي ، وانهيار قيمة العملة المحلية الفضية وكثرة فرض الضرائب على الاهلين من قبل السلطات الحاكمة ، ان عمت الفوضى في الحياة الاقتصادية المحلية لصالح الراسمالية الاوربية .

وكانت كثرة انواع العملات المتداولة في دمشق ، من محلية واجنبية ، وذهبية

وفضية ونحاسية ، واختلاف اسعارها ، عامل فوضى في التعامل التجاري . فالوحدة المحلية المتداولة كانت القرش الفضي الذي يوصف بانه صاغ وصحيح وميري، ويقسم الى اربعين مصرية ، أو بارة ، اما العملات الاخرى فبعضها من بقايـا الحكم المصري وبعضها الاخر عثماني يحمل اسماء بعض السلاطين ، وبعضها اوربي متنوع يشاراليه باسم الدولة التي اصدرته او بالعلامة التي يحملها ، وباستعراض قيمة بعض العملات المتداولة الرئيسية ، من اجنبية ومحلية ، خلال سنتين، يتبين مـدى ازدياد قيمـة العملات الاجنبية منها بالنسبة لوحدة التعامل الرئيسـية ، وهي القرشـ الفضي الصحيح الميري .

السنة	ليرة مجيدية	ليرة مصرية	ليرة فرنساوية	ليرة انكليزية	ليرةموسكوفية
١٢٧٤هـ/(٥٧) ١٨٥٧	١١١قرشا	١٢٥	٩٥ر٥	١٢٠	٩٧ر٥
١٢٧٦هـ/(٥٨) ١٨٥٩	١١١ر٥	١٢٦	٩٨ر٥	١٢٤	١٠٠

	قرانيصة	ريـال شوشة(٥٩)	ريـال سينكو(٦٠)	ريـال مجيدي	ريال فنس	بشلك
١٢٧٤هـ/ ١٨٥٧	٥٧ر٥	٢٦ر٥	٢٥ر١٤	٢٢ر٥	١٩ر٥	٥ر٥
١٢٧٦هـ/ ١٨٥٩	٥٧ر٥	٢٥ر٧٥	٢٤ر٥٠	٢٢	١٩ر٥	٥

نلاحظ من هذه القائمة انتشار العملات الذهبيـة الاجنبية وارتفـاع اسعارها بالمقارنة مع العملات العثمانية والمحلية ، وكذلك ارتفاع سعر الليرة الانكليزية بالنسبة للعملات الاخرى . وهذا دليل على سيطرة الراسمالية الاوربية ، وبخاصة البريطانية، على السوق المحلية . وبلغ من الثقة بالعملات الاجنبيـة ان معظم تركات المتوفـين الميسورين ، اذا ما احتوت على نقود ، كانت معظم تلك النقود بالعملات الاجنبية . ومن الطبيعي ان يحدث هذا نظرا لكثرةالعملات العثمانية والمحلية المتراكمةمن عهود مختلفة، كمايستدل من اسمائها ، وتبدل اوزانها ، والتلاعب فيها ، وانعدام الثقة بها . وكانت اسعارها اما ثابتة او بتراجع مما لا يشجع على اقتنائها وادخارها ، بالمقارنة معالعملات

الاجنبية . وضمت القائمة الاولى من عام ١٢٧٤/ ١٨٥٧ بالاضافة الى ما ذكرنا ، فئات النقود التالية المتداولة : ذهب عتيق ٦٠ قرشا ، التنك ٥ر٦ ، قمريات ؟. وفي القائمة الثانية من عام ١٢٧٦/١٨٥٩ ذكرت العملات الاضافية التالية : دبلون ٤٠ قرشا ، قرانيصة مربع ٢٥ ، حجر ٥ر٥٦ ، بيشلي قديم ٢٠ ، عامود(٦١) ٧٥ر٢٧ ، ربع فنس ٧٥ر٤ قروش وخمس مصريات او بارات ، فرنك ٤ قروش وخمس مصريات ، ربع فرنك ٥ر٣ ، جهادي صحيح وازنه ١١٢ ، نصف جهادي طري ٥٠ ، نصف جهادي يابس ٣٩، غازي قديم وازن ٣٧ ، ممدوحي وازن ٢٨ ، ربعية جنزرلية ١٥ ، ليرة مجيدية مبخوشة ١٠٩ ، مجيدي مبخوش ٥ر٢١ .

واذا ما اجرينا مقارنة بين نسبة ازدياد قيمة الليرات الاوربية خلال سنتين (١٢٧٤-١٢٧٦/ ١٨٥٧-١٨٥٩) ، والتي بلغت حوالي٣٪ ، ونسبة ازدياد قيمة العملة العثمانية الذهبية بالنسبة للقرش الفضي ، لتبين لنا انخفاض قيمة القرش بالنسبة للذهب . ونظرا لاختلاف تسميات العملات بين فترة واخرى ، نأخذ مثال الغازي القديم ، الذي يبدو ان تسميته لم تتغير. فقد ضرب الغازي القديم عام١٢٢٣/ ١٨٠٨ - ١٨٠٩ في عهد السلطان محمود الثاني ، وكان عيار ذهبه ٢٥ر٢١ قيراطا ، وسعره ٢١¼ قرشا . وسعّر رسميا في دمشق في ١٨ نيسان ١٨٨٣ ،ابان الحكم المصري، بما يساوي ٢٠ قرشا وخمس بارات(٦٢) . واصبح سعره في عام ١٢٧٦/١٨٥٩ مايعادل ٣٧ قرشا ، اي ان سعره ازداد خلال واحد وعشرين عاما ١٦ قرشا وخمس وثلاثين بارة . وهذا دليل على انهيار قيمة الوحدة النقدية الفضية ، وهي القرش بالنسبة للذهب ، بنسبة تقدر بحوالي ٥٤٪ .

ومما زاد في الضائقة المالية لدى افراد الشعب فرض الدولة ضرائب اضافية ، اهمها ضريبة الاعانة التي فرضتها الدولة في عام ١٨٣٤ . وجبيت الاعانة من دمشق بفرضها جماعيا على كل ثمن من اثمان المدينة . وكذلك فرضت جماعيا على القرى . وجبيت الاعانة من الافراد الذكور حسب وضعهم المالي ، واعفي منها ، كليا او جزئيا، من ثبت فقره . وطولب الافراد بدفع الاعانة في اماكن اقامتهم لا في محلات عملهم . واعفي من الاعانة بعض الفئات ، مثل العسكريين وملتزمي الضرائب ، وسكان القرى الخربة . ومن الامثلة المتوافرة لدينا ، نلاحظ ان مبلغ الاعانة قد راوح ، في حوالي عام ١٨٤٥ ، ما بين مائة وخمسمائة قرش على الفرد الواحد ، ولجأ البعض الى الاحتماء بالقنصليات الاجنبية لتحاشي دفع الاعانة(٦٣) . وهناك ارتباك في المصادر حول التمييز بين ضريبة الاعانة وضريبة الفردة . فمن المصادر ما يستخدم الاعانة في مكان الفردة ، التي سبق ان استعملها المصريون اثناء حكمهم كضريبة على الافراد ، ثم عاد فظهر استعمالها زمن العثمانيين . ومن المصادرما يجعل الفردة غير الاعانة . وقد زيد مبلغ الفردة على الشخص الواحد في عام ١٨٤٥ الى ٥٠٠ قرش ، في حين انها خفضت على

الفقراء الى حدود ١٥ الى ٣٠ قرشا(٦٤). ويدل هذا التباين في الضريبة على اتساع الهوة بين الفقراء والاغنياء، وكان ذلك احد عوامل الاضطرابات الاجتماعية ـ الطائفية التي حدثت في حلب في عام ١٨٥٠ ، وفي جبل لبنان ودمشق في عام ١٨٦٠ ، والتي استغلها اصحاب المصالح ، من فئات محلية وقوى اجنبية ، لصالحهم .

وأناخ التجنيد الاجباري بثقله على الاهلين وعطل من فعاليات شبابهم الاقتصادية. وحسب الاوامر الصادرة في عام ١٨٥٠ ، فقد زيد عدد المجندين من سورية عشرة آلاف. ويشكل المجندون ، حسب الاحصاءات المقدرة آنذاك ، نسبة واحد الى احد عشر من الشبان الذين تراوح اعمارهم مابين ٢٠ و ٢٥ سنة . وفيما يلي بعض اعداد المجندين من المناطق السورية في عام ١٨٥٠ : دمشق ١٦٫٨٥٤ مجندا ، حلب ٢٦٫٣٧٤ ، صيدا ٢٤٫٣٣٤ ، طرابلس ٥٫١٦٤ مجندا . وهرب عدد كبير من الشباب من دمشق الى الجبال لتحاشي التجنيد (٦٥) .

وقد نتج عن هذه العوامل ، وفي طليعتها العامل الاقتصادي الذي تجلى بسيطرة الراسمالية الاوربية على السوق المحلية ، ازدياد حالات الافلاس بين صغار التجار والحرفيين على حد سواء . ولفتت الافلاسات في مدينة دمشق النظر منذ السنوات الاخيرة من الحكم المصري في بلاد الشام . ومن الذين افلسوا ايضا ملتزمو الضرائب الجمركية الذين وقعوا في عجز في عام ١٨٣٩ قدر بمائتي الف قرش(٦٦) . وقد وقف القضاء الى جانب المفلسين الذين ثبت عجزهم عن الدفع ، الى حد دفع بعض المراقبين الاجانب الى القول ان تسامح القضاء مع المفلسين شجع على الاكثار من حالات الافلاس(٦٧) .

وتوضح الامثلة التالية بعض حالات الافلاس وطرق معالجتها من قبل السلطات . فقد تقدم السيد ابراهيم المالح بتاريخ ٢٩ صفر ١٢٦١/ ٩ آذار ١٨٤٥ بالمعروض التالي: « نعرض لسعادتكم بانه غير خافي المراحم العلية بالاصناف وتأخير احوالهم فعبدكم رجل دكنجي برقبته اطفال وعيال من قلة الحركة متاخر عليه جانب عن ثمن بضايع لاربابها وارىابها ما هم صابرين مرادهم كل من له شي يأخذه بالتمام وهذا شي ما هو متوقع مع عبدكم وما له قدرة عليه ومرادهم كسر سبب عبدكم ومن ذلك يحصل على عبدكم غدر وتتعطل احواله واذا تعطلت احواله فهلك عياله نرجوكم احالت المادة الى ديوان التجار ومن بعد الوقوف يعملوا لعبدكم رابطة موافقة لاداء المطلوب بالذي يمشي به الحال من دون مغدورية على احد واغتنام دعانا والامر امركم افندم » . وفي التقرير الذي قام به محمد بك عصمة زاده ، بمعرفة التجار ارباب الديون ، تبين له وللسلطات حقيقة أمر المستدعي « فعمومهم قرروا بعجزه وتأخير حاله فحصل جرد دكانه بحضور

بعض ديانته فوجد له موجودات بدكانه مع جارية سودة كانت بداره وضعها مع الموجودات وحررنا قايمة بالديون التي عليه وتخمين موجوداته فبلغ القرش نصف عبارة عن عشرين بارة فاقتضى تحرير هذا الخطاب لكي نستعلم من الديانة عن الذي يقبل اخذ النصف الموجود ويسمح بالباقي كما ذكر واما يأخذ النصف ويعطي مهلة بالنصف المتاخر مدة ستة سنين عن ستة اقساط يدفع قسط واحد وابتدا تناوله بعد سنتين من تاريخه حيث ما بقي بيده مال يستمين منه الوفا وصارة يده فارغة من الرسمال فينبغي تحرير المجاوبة عما ذكر لنعرض كيفية الجواب لطرف المجلس حسب الاصول » . وقد اجاب ارباب الديون بانهم يقبلون قبض النصف ويبقى النصف الاخر ، باستثناء دائن واحد قبل قبض النصف وسمح ، اي تنازل ، عن النصف الباقي ، وقبلت السلطات بذلك وخيرت بقية الدائنين الذين لم يحضروا بان يحذواحذو هؤلاء والا ترتب عليهم اقامة البينة على يسار صاحب المعروض . وحسمت القضيةعلى هذا الشكل بتاريخ ٤ شعبان ١٢٦١/٦ تشرين الاول ١٨٤٥(٦٨) .

والجانب الهام في هذه القضية هوية الدائنين ، الذين ضموا ، حسب تسلسل ورود اسمائهم ، حنا زريفة ، فتح الله طراد ، الحاج محمد ابو رشيد ، السيد محمد الادلبي ، السيد ابراهيم الدقر ، جرجس عنحوري ، محمد انيس قصاب حسن ، الحاج سليم اغا (الذي سمح بالنصف الباقي) ، الياس مخشن ، الشيخ سعيد متولي قطنا ، السيد صلاح القتلان ، الخواجة نقولا خباز ، وابراهيم التركريتي . ولم تذكر مبالغ الديون التي كانت لكل واحد من هؤلاء ولا نوعيتها ، أو فائدتها او مدتها . وكان السيد ابراهيم المالح قد اشار في معروضه الى أن الديون التي بذمته هي ثمن بضائع لاربابها ، مما يدل على ان هؤلاء الدائنين هم من التجار الذين قدموا ، كما يرجح ، البضائع للسيد ابراهيم المالح على ان يدفع ثمنها فيما بعد . وليس هناكدليل على نوعية البضائع التي تعامل بها المدين والدائنون . ولكن وجود اربعة من المسيحيين بين الدائنين ، وربما خامس هو فتح الله طراد ، الى جانب ثمانية ، او تسعة ، من المسلمين امر له دلالته، لانه يظهر القاسم المشترك الذيجمع هؤلاء في التجارة وغيرها ، وكذلك التعامل على قدم المساواة في عقد الديون وتحمل نتائجها . ويتبين ايضا من كون اثنين من الدائنين حملا لقب « الحاج » وآخر « الشيخ » ، وثلاثة لقب «السيد»، وربماكانوا من الاشراف ، ان طائفة التجار لم تكن مقتصرة على فئة معينة من الناس ، وان مهنة التجارة صهرت وقربت بين الناس على اختلاف مذاهبهم ومستوياتهم الاجتماعية .

وفي قضية اخرى نظرت السلطات في الديون المترتبة على احد الصناع ، وربما كان يعمل في اعداد مواد البناء . وبالاتفاق مع دائنيه قرر معظمهم اخذ ربع ما هو مدين

بـه لهم وابرأوا ذمته من الباقي ، في حين ابرا البعض ذمته من الدين كاملا (٦٩) .

وهناك عدة قضايا تدل على الازمات التي اخذت تعاني منها ، بخاصة ، الحرف التي كانت تساهم في تصنيع الاقمشة . من ذلك معروض حسن بن حسين الصباغ الى السلطات في دمشق ومضمونه : « يعرض عبدكم اني صباغ وابي صباغ وجدي صباغ ولنا قدمه بصبغ نيل واحمر واخضر والان ظهر بصمجية متعلقين على صباغ الاحمر من نحو عشرة سنوات ولم احد مانعهم والان يريدوا يمنعونا من كارنا وكار ابونا وجدنا ونحن فقرا واصحاب اعيال وعلينا مال مكسور الى اربابه ويقولوا لنا شاركونا وبطل شغل النيل والا لم يخلونا نشتغل والامر امركم » . وقد رات السلطات بتاريخ ١٦ جمادى الثانية ١٢٦١ / ٢٢ حزيران ١٨٤٥ « ان مقدم المعروض رجل فقير الحال ومعارضته وممانعته من تعاطي أسبابه غير موافق لكون ان اليد الواحدة ممنوعة بالوجه الشرعي والعرفي فيقتضي عدم المعارضة في تعاطي اسبابه » (٧٠) . ويتبين من هذه القضية ان احد اساسيات العمل الحرفي ، وهي توزيع العمل والتخصص فيه . قد انتهكت آنذاك حين سلب احدهم الصباغة باللون الاحمر لعدة سنوات ، واريد سلبه بعد ذلك الصباغة باللون النيلي ، من قبل اناس ليسوا من المهنة (متعلقين) . وهذا الاعتداء على التخصص يدل على ان مرابح هذه المهنة لم تعد كافية ، لذا عمد البعض الى تجميع أكبر عدد ممكن من التخصصات الحرفيـة في أيديهم . وجاءت السلطات لتدعم تقاليد العمل المتعارف عليها .

وفي قضيتين اخريين ، احداهما تقدم بها اليهود من طائفة غسالي القماش ، والثانية رفعها طباع فقير « يطبع القماش » في عام ١٢٦١ / ١٨٤٥ ، برز خلاف بين المعلمين والصناع في هاتين الحرفتين حول اجور الصناع . ولم تقف السلطات الى جانب أي من الفريقين ، بل تركت لكل حرفة حل خلافاتها بنفسها (٧١) . وهذا دليل ، من ناحية ، على استقلالية الطائفة المهنية تجاه الدولة ، وعدم تدخل هذه الاخيرة في شؤونها . ومن ناحية ثانية ، فان اثارة الخلافات حول الاجور بين المعلمين والصناع ، في هذه الطوائف الحرفية بالذات التي عملت في تصنيع الاقمشة ، دليل آخر على الضائقة التي اخذت تعاني منها الاقمشة المحلية التي تعرضت لمنافسة البضائع الاجنبية . والمعروف أن المعلمين في الحرفة ، وهم الذين يحق لهم افتتاح الدكاكين والمشاغل ، يحاولون في أوقات الضيق الاقتصادي ان يقللوا من اجرة الصناع لتلافي الخسارة ، أو لتفادي التقليل من ارباحهم . وليس هذان المثالان الا شاهدين على حالة عامة من الشقاق ضمن الطوائف الحرفية ، وبخاصة منها التي تتعاطى صناعة الاقمشة التي تهددت مصالحها بفعل المنافسة الاوربية . وقد اشار الياس قدسي ، الذي كتب

في عام ١٨٨٣ عن الحرف الدمشقية ، الى « الثورات التي تحدث من الفعلة على المعلمين بطلب تزيد الاجرة (ويعبرون عنها بقولهم « الكار قالع » أي ثائر) »(٧٢) .

ونستدل من هذا أن الضائقة المالية التي لحقت بالحرف قد أزّمت العلاقة بين الصناع والمعلمين الى الحد الذي وصف به احتجاج الصناع بأنه ثورة . وفي هذا ملامح صراع طبقي في مجتمع بدات تتسرب اليه الراسمالية الغربية وتهز اسسه التقليدية المتوازنة وتسهم في ايجاد الفوارق في الثروة بين المنتجين والمستهلكين . ولم يكن ، في الاقتصاد الحرفي التقليدي ، تباين كبير في الثروات بين المعلمين في اية مهنة، أو بينهم وبين الصناع . ويلاحظ في تصنيع الاقمشة مثلا ان المشاغل كانت فردية ومتواضعة ، ولم يزد عدد الانوال في أي منها ، كما يتبين من معظم سجلات الوثائق الشرعية ، عن أحد عشر نولا . وضم معظمها بين نولين وأربعة انوال . ومردود هذه الانوال المعتدل يوزع بشكل مقبول أرباحا للمعلمين واجورا للصناع . ولكن المجابهة مع الصناعة الاوربية لم تضعف الصناعة المحلية فحسب بل زادت من التناقضات الاجتماعية حتى داخل الحرفة الواحدة ، واصبح الحرفيون الفقراء عنصر عدم استقرار سياسي واجتماعي في دمشق .

ومن الامثلة البارزة التي تجلى فيها الاثر المدمر للاقتصاد الاوربي على الاقتصاد المحلي التقليدي ما حدث لانتاج قماش الالاجه الفاخر في دمشق . وكانت الالاجه ، الى جانب قماش القطني ، اهم نسيجين في دمشق . وتختلف نسبة الحرير في كل منهما ، ولكنهما يشتركان في انتاج النسيج المقلم ، وفي تسويق هذا القماش على شكل قطع او اثواب ، طول الثوب منها في الغالب ، كما قدر في حوالي ١٨٦٣(٧٣) ، (٦٠ر٥) أمتار ، بعرض (٧٠) سم . وقدر مصدر آخر طولها بتسعة اذرع او تسعة وربع ، وذلك قبل غسلها ودقها وكبسها (٧٤) . ولا يعرف هنا بدقة طول الذراع المستخدم ، ولا يمكن حسابه على أساس التقدير بالامتار لان عمليات الغسل والدق والكبس ستعدل من الطول المذكور ، وكان ربع كل ثوب من الالاجه والقطني مصنوعا من الساتان ، وبقية الثوب في القطني مصنعة من الحرير في اللحمة ومن القطن في السدى. اما ثوب الالاجة فبقية الثوب مصنعة من القطن في اللحمة ومن الحرير في السدى ،أي ان نسبة الحرير فيه هي الغالبة(٥٧) ، وبالتالي كان سعره مرتفعا ، ولا يتمكن من شرائه الا القادرون .

وقد قدر عدد الانوال التي كانت تنسج قماش القطني في دمشق عام ١٨٥٠ بـ٦٥٣ نولا تستخدم ٦٥٣ رجلا و ٣٠٠ ولد . وبلغ عدد انوال الالاجه آنذاك ١٠١٣ نولا تستخدم ١٠١٣ رجلا وحوالي ١٣٠٠ ولد . وانتجت هذه الانوال بمجموعها ما يقرب

من (٢٢٠ الى ٢٣٠) الف ثوب في السنة(٧٦) . وتظهر اعداد الانوال هذه ، وكذلك انتاجها ، عام ١٨٥٠ ، تراجعا كبيرا عما كان عليه عدد الانوال وانتاجها في اواخر الثلاثينات من القرن التاسع عشر ابان الحكم المصري . فقد قدّر عدد الانوال التي انتجت القطني والالاجه آنذاك ب ٤٠٠٠ نول ينتج كل منها في الاسبوع ما بين اربعة الى خمسة اثواب (٧٧) . اي ان انتاجها السنوي يقدر ، على هذا الاساس ، بحوالي ٨٣٢ الف الى ١٫٠٤٠ الف ثوب.

ويدل هذا التراجع في الانتاج على شدة منافسة البضائع الاوربية للبضائع الشامية في السوق المحلية . ونظرا لان الاقتصاد المحلي ، بمواده الخام والمصنعة ، اصبح يدور في فلك الاقتصاد العالمي ، فان اية تبدلات في هذا الاقتصاد الاخير من شأنها ان ترمي بظلالها على الاقتصاد المحلي .وقد حدث مثلا ، في عام ١٨٥٦ ، ان اصيب انتاج الحرير في أوربا وتركيا بكوارث طبيعية ، فتضاعف سعر الحرير في بلاد الشام ، وافادت من ذلك صناعة الاقمشة الحريرية المحلية فزادت من انوالها ، وبالتالي من انتاجها . وبلغ عدد الانوال في ذلك العام ٢٨٠٠ نول انتجت حوالي ١٢٠ الف ثوب من القطني و ٢١٠ الاف ثوب من الالاجه ومن نسيج آخر مشابه ، عرف بالصوراتي . وسوّق نصف هذه الاثواب في حلب وازمير واستانبول وآسيا الصغرى، وسوق ثمنها في بغداد ومكة ، ومثل ذلك في دمشق وصيدا (٧٨) .

الا ان صناعة الاقمشة الحريرية والقطنية في دمشق لم تلبث ان انتكست ، وخلال اربع سنوات ، من جديد . فقد ازداد سعر الحرير عالميا بمعدل ٥٠٪ ، كما زادت الحكومة العثمانيةمن الضرائب الجمركية على الاقمشة المحلية وموادها الاولية . ففي العهد المصري لم تفرض اية ضريبة على المواد الاولية الداخلة الى دمشق من القرى المجاورة ومن لبنان ، كما ان الانسجة الحريرية لم تدفع ضريبة حين تصديرها من دمشق . وبعودة الحكم العثماني فرض على الحرير عند دخوله دمشق ضريبة قدرها ١٢٪ من قيمته ، كما توجب على الاقمشة المصدرة منها ان تدفع حوالي ٥ الى ٦٪ من سعر القطعة . وعلق القنصل الفرنسي في دمشق على ذلك ، في أوائل عام ١٨٦٠ ، انه نظرا لهذه الاحوال فقد توقف عدد كبير من الانوال عن العمل (٧٩) .

وكانت الكارثة الرئيسية التي المت بصناعة النسيج في دمشق وانقصت انتاجها الى النصف تقريبا ، الاضطرابات الاجتماعية التي حدثت في عام ١٨٦٠ . فقد احرق او تعطل انتاج عدد كبير من الانوال ، وقدّر عدد ما بقي منها في اواخر عام ١٨٦٢ بحوالي ٣٠٠ نول (٨٠) . ثم عادت الحركة الصناعية في دمشق الى الانتعاش حين عاد

اليها عدد كبير من الحرفيين المسيحيين الذين لجأوا الى لبنان (٨١) ، في حين استوطن الباقون بيروت والقاهرة والاسكندرية واسهموا في تطوير اقتصاديات هذه المدن .

وتنعكس الازمات التي مرت بها الصناعة الدمشقيه ، وبخاصة صناعة الاقمشة ، في ارتفاع ثمن الانوال وانخفاضها ، وتكرار بيعها في اوقات الكساد . وكانت أكثر الانوال طرحا في السوق انوال الالاجه نظرا لكلفة انتاجها المرتفعة وصعوبة تسويق أثوابها الفاخرة بين الاهالي الذين كانوا يزدادون فقرا بغالبيتهم العظمى . ويرتبط بالانوال مصير المشاغل التي اقيمت فيها ، وكذلك مصير الدكاكين التي سوقت انتاجها . ولذلك طرحت للبيع ايضا المشاغل والدكاكين التي تنتج او تسوق الالاجه باكثر من غيرها . وعلى غرار اسعار الانوال ، تبدلت اسعار شغل هذه المشاغل والدكاكين ، ارتفاعا أو انخفاضا ، بحسب السوق . واستعملت كلمة « كدك » التركية للتعبير عن عدة الدكان ، من انوال أو خزائن أو رفوف ، وغير ذلك . واستعملت كلمة « خلو » العربية للتعبير عن المال الذي يدفع لاشغال المكان ، وهو ما زال ساريا ومتعارفا عليه حتى يومنا هذا . وحين تذكر الكلمتان معا ، كأن يقال ان فلانا اشترى كدك وخلو الدكان ، فان ذلك يعني انه اشترى العدة وحق استعمالها في مكان تواجدها ، اي حق اشغال ذلك الدكان واستعمال العدة فيه . ويلاحظ انه يمكن بيع اجزاء من الكدك والخلو تقدر بالقيراط ، ووفي هذه الحال يكون البائع قد ورثها ، كما ان النساء كثيرا ما تملكن الكدك والخلو حينا عن طريق الوراثة ، وحينا بتوظيف المال المتجمع لديهن ، حين يكون الكدك والخلو لدكان ما ، أو مشغل ، مربحا ، أي ان السلعة التي يبيعها الاول ، او يصنعها الثاني ، رائجة . والقائمة التالية(٨٢) المبينة على سجلات محاكم دمشق الشرعية توضح لنا اسماء مالكي وبائعي الكدك والخلو ، واماكن تواجد المشاغل والدكاكين ، واسعار بيعها .

* * *

نماذج من عمليات بيع وشراء ادوات واماكن الانتاج والتسويق والخدمات

التاريخ	المشتري	البائع	كيفية تملك البائع	الحصة المباعة والسلعة	الموقع	الثمن بالقروش
٢٩ ربيع١ ١٢٥٧/ ٣١ أيار ١٨٤١	شمعون الشطاح اليهودي	الشيخ عبد الله افندي الحلبي	بالشراء من المشتري	جميع دكان الصباغة (بناء وادوات)	بمحلة الخراب	٤،٥٠٠
١٥ ذو القعدة ١٢٥٧/ ١٧ كانون اول ١٨٤١	الحاج محمد الحلبي	السيد مصطفى القصماني بالوكالة عن حرمة	بالارث	جميع كدك وخلو المخزن داخل خان الحماصنة	قرب البزورية	٦٥٠
١١ جمادى١ ١٢٥٨/ ٢٠ حزيران ١٨٤٢	المعلم جريس شريقية النصراني بالوكالة عن الحرمة تقلا	جريس اللبان	بالارث	جميع كدك الدكان بخان الكرجية فيها دواليب للفتالة	حارة النصارى	٢،١٥٠
٨ ربيع١ ١٢٥٩/ ٨ نيسان ١٨٤٣	السيد عمر الرهونجي بالوكالة عن ابنه القاصر	خليل حشيش	بالشراء في ١٢٥٠	جميع كدك وخلو الدكان بخان الدبس وفيها ١١ نول الاجه	محلة القيمرية	٢،٠٢٠
١٢ ربيع١ ١٢٥٩/ ١٢ نيسان ١٨٤٣	السيد حمزة شحادة	الحاج عرابي ابن السيد يوسف	بالشراء في ١٢٥٠ و ١٢٥٨	جميع الدكان داخل الخان وفيها نولان لنسج المناشف	محلة الشويكة	٢٥٠
٦ رمضان ١٢٥٩/ ٣٠ ايلول ١٨٤٣	عبد الله النديم النصراني بالوكالة عن ولده القاصر	حنا جبارة وشركاه	بالارث	جميع كدك وخلو الدكان بطالع القبة وفيها دولابان للفتالة	حارة القصبة	٢،٠٠٠

التاريخ	المشتري	البائع	كيفية تملك البائع	الحصة المباعة والسلعة	الموقع	الثمن بالقروش
٢٨ شوال ١٢٥٩ / ٢١ تشرين اول ١٨٤٣	الحاج حوري الحمصي	السيد عبد الغني جهري الوكيل عن حرمة	بالارث	جميع الدكان بزقاق الميحي فيها انوال لنسج الحرير	محلة مئذنة الشحم	١ر١٠٠
٥ محرم ١٢٦٠/ ٢٦ كانون ثاني ١٨٤٤	المعلم باروخ المغربي اليهودي	الشيخ احمد المنجد	بالشراء في ١٢٥٧	جميع كدك وخلو الدكان لصيق بركة السبيل بسوق المنجدين		٧ر٦٠٠
٢٧ رجب ١٢٦٠ / ١٢ آب ١٨٤٤	المعلم الياس شحيرة وكيل المتولي على وقف دير صيدنايا	الخواجة سركيس دبانة بالوكالة	بالارث	جميع عمارة وبناء الدكان وفيها ٤ دواليب فتالة	محلة النصارى	١ر٥٠٠
٢٨ جمادى ١ ١٢٦١/ ٤ حزيران ١٨٤٥	السيد حسن جلبي بالوكالة	احمد وحسن ولدي القصاب باشي وغيرهما	بالارث	جميع كدك وخلو دكان اللحامة بسوق راس البزورية	قرب فرن الزين (ثم اجرت ٢٧ قرشا بالسنة)	٩ر٥٠٠
٢١ ربيع ٢ ١٢٦١/ ٢٩ نيسان ١٨٤٥	الحاج عبد الفتاح الحمصي بالوكالة عن زوجته	الحاج عمر الاقسماوي	من تعميره	جميع كدك وخلو الدكان المعدة للكنافة	بمحلة سوق القاضي	١ر٢٠٠
١٢ شوال ١٢٦٣/ ٢٣ ايلول ١٨٤٧	الحاج محي الدين البصروي	الحرمة فاطمة الاركزلي	بالارث	الحصة ٤ او ٤/٥ قيراط من جميع عمارة وبناء دكان شغل السيوف	محلة الحضرة ظاهر دمشق	١ر٨٢٥

التاريخ	المشتري	البائع	كيفية تملك البائع	الحصة المباعة والسلعة	الموقع	الثمن بالقروش
غرة جمادى ا ١٢٦٤/ ٥ نيسان ١٨٤٨	الحاج حسين الانقود	الحاج محمد الريحاوي	بالشراء في ١٢٦١	جميع كدك وخلو الدكان وفيها ٦ انوال الاجه	بمحلة الجورة داخل خان	٥٠٠
١٤ رجب ١٢٦٥/ ٥ حزيران ١٨٤٩	احمد افندي الاسلامبولي	عبدي افندي الكردي	بالشراء في ١٢٦١	جميع الدكان وفيه ٨ انوال الاجه	بمحلة باب مصلى بزقاق المخللاتي	٢ر٠٠
غرة ربيع ا ١٢٧٣/ ٣٠ تشرين ا ١٨٥٦	الخواجه ابراهيم صيدناوي	الخواجة حنا فارس	بالشراء في ١٢٧٢	١٢ قيراط من جميع كدك وخلو الدكان وفيها ٧ انوال لنسج الالاجا والكريشة وغيرها	بمحلة طالع القبة داخل خان الحمام	٥٠٠
ختام ربيع ا ١٢٧٥/ ٧ تشرين ٢ /١٨٥٨	الخواجة ميخائيل الطوى والخواجة انطون الطوى	السيد حامد جلبي بالوكالة عن حرمة	بالشراء في ١٢٦٨	جميع عمارة وبناء الدكان وفيها ٥ انوال الاجه	خان عيسي القاري	٣ر٢٠٠
٦ القعدة ١٢٧٥/ ٧ حزيران ١٨٥٩	السيد درويش الروماني	الخواجة ابراهيم الزبال	بالشراء في ١٢٦٨	جميع عدة دكان الفتالة وفيها ٣ دواليب وتوابعهم	محلة الخراب بخان الجاموس	٤٦٠٠
٢٧ شوال ١٢٧٧/ ٨ ايار ١٨٦١	الخواجة حنا الفتال العيساوي	الخواجة يوسف البيطار العيساوي	بالشراء في ١٢٧٠	الحصة ١٢ قيراط من جميع كدك وعدة الدكان وفيه ٣ دواليب لفتل الحرير	بمحلة باب توما بخان بين المعمارين	٧٥٠

نلاحظ في هذه القائمة اثباتها هوية كل من البائع والشاري ، وكذلك انتقال السلع بين مختلف الطوائف . وضمت القائمة مبيعات تتعلق بغير صناعة الاقمشة ، للمقارنة بين اسعار مختلف الخدمات والبضائع في مدى عشرين عاما . وتظهر القائمة كذلك اماكن تواجد الفعاليات الاقتصادية وحجمها وتوزعها على مختلف احياء المدينة وخاناتها . ويدل هذا على عدم وجود مناطق صناعية تختص كل منها بانتاج نوع معين من السلع ، اي ان انتاج السلع كان يتم غالبا في خانات ودكاكين متفرقة في انحاء المدينة .

وبينت القائمة كيفية تملك البائع للمرفق المبيع ، وما اذا كان قد آل اليه عن طريق الارث او بالشراء . ولو ذكرت الوثائق سعر الشراء الذي دفعه المالك ، الى جانب تاريخ حجة البيع التي ذكرت في حالات كثيرة ، لامكننا معرفة نسبة سعر المبيع الوارد في القائمة الى سعر الشراء . ويلاحظ ورود اسماء بعض النساء والقاصرين بين الشارين بواسطة وكلاء عنهن ، واوصياء عنهم ، مما يدل على توظيف أموال النساء والقاصرين في عقارات أو مصالح تجارية .

ان كثرة طرح انوال الالاجه للبيع ، خلال السنوات العشرين التي غطتها القائمة، وبيع بعض مالكيها لها بعد سنوات قليلة من شرائها ، يبين المصاعب التي أعترضت تسويق هذا النسيج ، بالمقارنة مع غيره من المنسوجات الارخص ، كالقطني مثلا .

وقد لخص مراقب فرنسي يدعى غوستاف روبان (Gustave Robin) في تقرير له من دمشق بتاريخ ١٩ تشرين الاول ١٨٦٩(٨٣) ، الوضع التجاري والصناعي في المدينة ومقدار ما عانته الصناعة الدمشقية والشعب ، تحت تأثير الراسمالية الاوربية بقوله: ان الصناعات التي اسهمت في السابق في غنى دمشق وشهرتها قد اندثر بعضها ، وبعضها الاخر في طريق الاندثار ، والاهالي الذين يزدادون فقرا كل يوم لا يطلبون من اوربا الا منتجاتها السيئة ، ويغلقون اسواقهم في وجه معظم المستوردات الفرنسية . وربما تجدر الاشارة هنا الى سيطرة البضائع الانكليزية وغيرها من البضائع الاوربية . وفي قائمة الواردات والصادرات التي ارفقها غوستاف روبان بنهاية تقريره، جاء ان وزن الاقمشة التي نقلت من بيروت الى دمشق في عام ١٨٦٨ بلغ ٣٥٢ر٨٢٤ اوقة (الاوقة تعادل آنذاك ٢٨٢ر١ كغ) اي ما يعادل ٣٢٠ر٤٥٢ كيلو غراما ، في حين كان وزن ما نقل من دمشق الى بيروت ٣٠٥ر١٠٩ كغ . واحتلت الاقمشة المرتبة الثالثة ، بعد الرز والسكر ، في قائمة المستوردات من بيروت الى دمشق ، وشغلت المرتبة الرابعة في قائمة الصادرات بعد الدقيق والصوف والاصبغة ، مع النظر بعين الاعتبار الى الفارق الكبير بين الكميتين .

موقف الصناعة الدمشقية من التحدي الاوربي

ادت منافسة البضائع الاوربية للبضائع المحلية الى حدوث تطورات هامة في التمويل والتصنيع وفي العلاقات التجارية المحلية . وقد قاومت بعض الصناعات المحلية اي تغيير في بنيتها ، ولم تستطع المنتجات الاوربية ان تحل محلها ، بتأثير العادات الاجتماعية المرتبطة بها . وكمثال على الصناعات المحلية التي لم تندثر صناعة فوط الحمامات التي ظلت رائجة مادام استعمال الحمامات قائما(٨٤) .

ولما كان الاقتصاد التقليدي يقوم ، في الغالب، على المبادرة الفردية في العمل ، والمشاغل والدكاكين التي تحوى الانوال أو أدوات الانتاج الاخرى في ملكية الافراد ، فقد حدث تطور جديد تحت ضغط المنافسة الاوربية تجلى في الشركة ، أو الشراكة ، في العمل . والهدف من ذلك زيادة راس المال الموظف للتمكن من انتاج سلعة جيدةبسعر معتدل . ومثال ذلك ما رواه نعمان القساطلي الدمشقي في أواخر السبعينات منالقرن التاسع عشر بقوله : « أما الآن فقد نكبت صنائع دمشق اعظم نكبة ولاسيما صنعة النسيج لسبب غلاء الحرير وكثرة انتشار البضائع الافرنجية مع عدم متانتها . وهذا مما دعا الحاذق السيد عبد المجيد الاصفر ان يقلد الالاجهبالغزلليتمكن ابناء الوطن من استعماله ولضيق ذات يده انضم الى السيد حسن الخانجي فامده . وبعد الجهد نال مراده وراج عمله بين الخاص والعام واقتدى به بعض العملةوزادوا عمله اتقانا فاضحى نسيج الديما صناعة مهمة يتعيش بها الوف »(٨٥) .

وقد شاع هذا الاتجاه نحو (الشراكة) في العمل بغية تأمين راسمال اكبر لمقاومة المنافسة ، المحلية والاوربية ، وتحقيق الجودة في الانتاج ، والحصول، في الوقت نفسه، على أرباح أكبر . ومن مزايا هذه الشراكة انها لم تكن مغلقة طائفيا بل ضمت اناسا من مختلف المذاهب .

وفي ميدان الشراكة المساهمة في الانتاج فقد ذكر القساطلي ان بعض اعيان دمشق اجتمعوا في عام ١٨٦٠ واقاموا كرخانة* تدير آلاتها المياه لغزلالقطن ، وانفقوا عليها مالا كثيرا . وبعد صعوبات كثيرة ، توقف خلالها الانتاج لعدم حسن الغزل ، عادت الكرخانة الى العمل . وكانت تغزل في كل يوم نحو ستين رطلا من القطن(٨٦) .

* التعبير مشتق من الكلمتين التركيتين الفارستي الاصل كار (kar) وتعني حرفة ، وخانة (hane) وتعني المكان . وتعنيان معا المشغل أو المعمل .

وحاولت صناعات محلية كثيرة التأقلم مع المؤثرات الاجنبيـة ، فظهرت عـدة صناعات يظهر فيها اللون المحلي والاثر الاوربي في آن واحد . ومنها ما نجح في تقليـد البضاعة الاوربية ووصل الى حد التفوق عليها . وقد ذكر القساطلي ان رجلا من بيت مرتضى استنبط « شكلا جديدا منقوشا نقشا جميلا فراج كثيرا ثم تبعه السيد درويش الروماني وقلد القلاووظ الافرنجي المفرق بمساعدة الخواجة جرجي ماشطة على أن النساء أبين لبسه لانه غير مشرف بوسام أفرنجي فعدل عن عمله » (٨٧) . ويظهر هـذا المثال كيف ان المستهلكين المحليين اخذوا يرتبطون تدريجا بالازياء الاوربية ويمحضونها ثقتهم . وكان هذا تحديا كبيرا للصناعة المحلية التي وجب عليها ان تحافظ على مستوى مناسب من الجودة وان تتأقلم مع الازياء الجديدة لتحظى بثقة المستهلك .

وقد نجح نسيج الديما المحلي في الحصول على ثقة المستهلك ، وفي التأقلم مـع الازياء المستجدة . وقد استوعب ادخال تعديلات عليه ليتفق ولبس البنطلون (الكلمة مأخوذة عن الفرنسية وهي ايطالية الاصل) . وكان صاحب المبادرة في ادخال هـذه التعديلات الخواجة يوسف الخوام الذي راى « انصباب القوم على لبـس البنطلون واحتياجهم الى نسيج خفيف يناسب الصيف فغير وزاد في نول الديما واتى بنسيج احسن من النسج الافرنجية وارخص فنال ثناء الجميع »(٨٨) . ومن منطلـق الحرص على الصناعة المحلية ورواجها ، علق القساطلي ، بروح من الالتزام بالمصلحة الوطنية ، على عمل يوسف الخوام بقوله : « ولو اهتم جميع الصناع اهتمامه في اصلاح صنائعهم لفازوا وأغنوا البلاد عن النسج الافرنجية في برهة وجيزة »(٨٩) .

ولم تقف الصناعات الدمشقية عند تقليد الصناعات الاوربية والتلاؤم معها ، بل أملت في تصدير منتجاتها الارخص سعرا الى أوربا لمصلحة المستهلكين من ذوي الدخـل المحدود . لقد استورد عبد الله بولاد الدمشقي ، قبيل عام ١٨٦٠ ، نولا من فرنسـا لصناعة « الجاكار Jacquard » ، باستطاعته ادخال الوان متعـددة ومتشابكـة في النسيج . والتسمية بالنسبة الى الفرنسي J. M. Jacquard (١٧٥٢ - ١٨٣٤) الذي اخترع هذا النول . وبعد سنوات من التجربة اثبت فيها النول المستورد مقدرته علـى انتاج النسيج باشكال متعددة ، استورد عبد الله بولاد نولين آخرين ، مما مكنه من زيادة الانتاج باشكال وحجوم مختلفة . ولكن اضطرابات عام ١٨٦٠ ادت الى حرق انواله مما ادى بالسيد بولاد الى اليأس . وذكر ان عشرة أنوال من النوع نفسه كانت تعمل في ديـر القمر في الوقت ذاته ثم تناقص عددها (٩٠) . وبالرغم من ان تجربة عبد الله بولاد انتهت الى الفشل في دمشق ، الا انها كانت تجربة رائدة في استخدام الانوال الاوربيـة في الصناعة المحلية لمواجهة المنافسة الاوربية بمثل مستواها .

ومن الصناعات الدمشقية التي قاست من انتشار الازياء الاوربية صناعة العقادين ، وكان يعمل فيها آنذاك (حوالي عام ١٨٦٣) نحو خمسمائة صانع وخمسين معلما . والعقاد ، كما يقول القاسمي(٩١) ، «من يحترف في خيطان الحرير والصوف والقطن والشرايط وغيرها » . وتسوق هذه المنتجات في المدن والارياف على حد سواء . ولكن المنتجات الاجنبية المشابهة اضحت تباع في دكاكين المعلمين من العقادين الى جانب المنتجات المحلية . وضمت المنتجات الاجنبية «الكراكر» ،و « الزنانير الحريرية» ، و « السيم المقصب » ، و « شلل الخيطان » ، واكياس حريرية مقصبة للدراهم وامثالها(٩٢) . ونظرا لمنافسة المنتجات الاجنبية في العقادة للمنتجات المحلية ، أخذت اعداد العقادين تتضاءل وانتاجهم يخف . ولكنهم وجدوا سوقا رائجة لمنتجاتهم في الحجاز(٩٣) .

ومن الصناعات الهامة التي حققت نجاحا كبيرا في دمشق صناعة النجارين . فقد « ضارعوا الاعمال الاوربية وفاقوها اتقانا »(٩٤) كما اشتهرت صناعة الدباغين ، والسراجين ، وصناعة الفواكه المجففة .

وباجراء مقارنة بين ما انتجته دمشق من مختلف السلع ، في مدى ست عشرة سنة ، كما ورد في ثلاثة تقارير فرنسية ، مؤرخة على التوالي في ١٨٦٣ و ١٨٦٩ و ١٨٧٩ ، تتبين لنا الصناعات التي تطورت وتلك التي انحطت في تلك الفترة . فقد جاء في التقرير الاول بتاريخ ٥ آذار ١٨٦٣(٩٥) أنه قبل احداث عام ١٨٦٠ استهلكت دمشق ٣٠٠ كنتال (حوالي ٨٠٠ر٠٠٠ كغ) من الحرير المستورد من جبل لبنان ، ومائة كنتال من حرير الشام والحرير المستورد من بروسه ، وجيورجيا (بلاد الكرج) وفارس . وقدر التقرير ما استهلكته صناعة دمشق من الحرير في عـام ١٨٦٢ بحوالي نصف الكمية السابقة . ويفسر هذا التناقص بسببين :أولهما هجرة المسيحيين في أعقاب الاضطرابات، وكانت لهم الاسبقية في صناعة الحرير ، وثانيهما منافسة بضائع حلب ، في الاسواق الخارجية ، وبخاصة مصر ، لبضائع دمشق الحريرية التي اضعفتها الاضطرابات .

وقد انتجت دمشق ، في عام ١٨٦٢ ، ٢٤ الف ثوب من الانسجة التي تستخدم الحرير والقطن ، وهي الالاجه والقطني . وبيع منها الف ثوب او قطعة محليا ، وصدر الباقي الى روميلية وآسيا الصغرى ومصر وازمير وحلب ، وكان سعر قطعة الالاجه (٦٠ر٥ مترا × ٧٠سم) بين ٢٠ و ٢٥ فرنكا . وهناك نوع آخر منها أرخص ثمنا يراوح بين ٩ـ١٣ فرنكا .وبلغ مجموع الانوال التي صنعت هذه الانسجة ١٧٠٠ نول .

ووجد ٥٥٠ نولا تنتج أقمشة قطنية يلبسها الصناع والعمال ، انتجت في عام

١٨٦٣ ما مجموعه ٢٩٧ الف ثوب طول واحدهما ٦ر٣٠ امتار وعرضه حوالي ٧٥ سم. وبيع الواحد منها في مطلع عام ١٨٦٣ ما بين ٤و٥ فرنكات ، ثم ارتفع سعره في العام نفسه الى ٦-٧ فرنكات بسبب ندرة القطن .ونظرا لغلاء اسعار انتاج هذه الانوال فقد توقف أكثر من مائتي نول منها عن العمل . وكان يعمل في تصنيع هذا النسيج قسم كبير من الجالية الجزائرية بدمشق .

وكان يعمل في صناعة المشالح ذات الالوان المتعددة ٣٠٠ نول . وصنع منها ٣٥ الف مشلح في عام ١٨٦٣ ،استخدم نصفها محليا ، وصدر الباقي الى انحاء سورية ومصر .

ووجد ٣٠٠ نول تنسج كتانا ابيض ، خفيفا وممتلئا يسمى مبروم ، وله سوق رائجة في مصر . وقد صدر اليها ٣٠٠ الف قطعة منه عام ١٨٦٢ . وينسج المبروم بكامله من قبل النساء . وعانى هذا النسيج آنذاك من ندرة القطن ، وتعطل نصف انواله . وتنسج مائة نول آخر نسيجا مشابها ولكنه أكثر سمكا واكتنازا، يستخدم كملابس داخلية للقرويين ، ويشهد التقرير الفرنسي ان هذا النسيج احسن وأكثر صلابة من الكتان القطني المستورد من اوربا ، وبخاصة انكلترا .

وينسج ٥٠ نولا الشالات التي تقلد برسومها شالات فارس ، واللحمة فيها من الحرير والسدى من القطن . وطول الشالة (٨٠ر٢) مترا وعرضها متر واحد ؛ وسعرها يراوح بين ١٠ ــ ١٢ فرنكا للنوع العادي و ٢٠-٢٢ فرنكا للنوع الممتاز الذي يدخل الحرير في سديه . ومن الشالات ما هو مصنوع بكامله من القطن لاستعمال الطبقة الفقيرة وسعر القطعة منه بين ٦ ــ ٧ فرنكات . وثلاثة ارباع الشالات يصدر الى استانبول ومصر وازمير . وقد انتج منها ، عام ١٨٦٢ ، اكثر من ٤٠ الف شالة .

واستعمل في صناعة الكوفيات (الكوفية قماش مربع طول طرفه بين ٧٥ ــ ١٠٠ سم) (٣٠) نولا ، تخصص نصفها بانتاج الكوفية الحرير ، والنصف الآخر بصناعة الكوفية القطن .ويصدر قسم من النوع الاول ، ويستخدم الباقي منه الميسورون . اما الكوفيات القطنية فتباع الى البدو والفلاحين . وسعر الكوفية من النوع الاول يراوح بين ٢٠ و٣٠ فرنكا ، ومن النوع الثاني ٣ الى ٤ فرنكات .

ويعمل في دمشق ٦٠ نولا تنتج قماش الكريب الحريري على نوعين ، احدهما خيطه مبروم ومن الوان متعددة والاخر انعم بكثير ويصنع من الحرير الابيض او البني . ويعرف هذا النسيج باسم بامبازار ، وأبعاد قطعته (٥ر٦) امتار طولا و (٧٥

سم) عرضا ، وتباع الواحدة بين ٢٠ و ٣٠ فرنكا . وانتاجه يصدر بمجموعه تقريبا الى الداخل ، وبخاصة الى نابلس ويافا والقدس وبغداد . ووجد ٥٠ نولا تصنع السجاد والمخدات واقمشة الديوان وغيرها ، وتستخدم الصوف والقطن .

وهناك ٥٠ صائغا يتعاطون صناعة الفضة ،وقد صنعوا ١٠٨٠ اوقه (١٣٨٤ر٥٦٠ كغ) في عام ١٨٦٢ ، اشترى الفلاحون تسعة أعشارها ، ويتعاطى ثمانية صياغ تصنيع الذهب . وقد صنعوا في عام ١٨٦٢ حوالي ٤٠ أوقة من الذهب (٥١ر٢٨٠ كغ) . ويعمل خمسة صياغ في الاحجار والمجوهرات . وتأتي الجواهر في الغالب من استانبول حيث تصنع باتقان .

وتستورد الواح النحاس بكاملها من انكلترا ، وتصنع منها الصحون والطناجر والقناديل وأدوات المطبخ . ووجد في دمشق ٦٠ الى ٧٠ نحاسا و ٦ مروبصين . وقد صدروا في عام ١٨٦٢ ما قيمته ٥٠٠ر٠٠٠ قرش (١٢٥ر٠٠٠ فرنك)،الى داخل سورية بما في ذلك الى البدو . وتمتاز دمشق بتطعيم النحاس بالفضة ، ولكن أصحاب هذه الحرفة تضاءل عددهم ، ومن بقي منهم طلب اجورا عالية .

ومنذ أن بدأت اوربا بتصدير الادوات الحديدية الى سورية تضاءلت اهمية الحدادين المحليين وقل عددهم ، ولم يبق منهم في دمشق اكثر من مائة حداد ، يصنعون السكك والفؤوس والمجارف والمسامير . وأكثر الحدادين عملا أولائك الذين يصنعون نضوات (نعال) الخيل ، وبالرغم من استيراد كميات من هذه النضوات من لبنان ، فان عدد ما صدر منها الى الداخل قدر سعره ب ٢٠٠ر٠٠٠ قرش (٥٠ر٠٠٠ فرنك)؛ ويؤكد القساطلي انحطاط مهنة الحدادة بقوله : « واما الحدادون فاعمالهم متأخرة ».

وكان يعمل في مهنة السروجية في دمشق حوالي ٥٠٠ صانع ، يصنعون عدة انواع من السروج واللجم والرسن والحياصات . وقد بلغت هذه الصناعة حدا كبيرا من الاتقان ، وتشكل منتجاتها قسما كبيرا من صادرات دمشق . وكانت قيمة ما صدر منها في عام١٨٦٢ تزيد على ١ر٨٠٠ر٠٠٠ قرش (٤٥٠ر٠٠٠ فرنك) . وقدرت الكميات التي بيعت داخل ولاية سورية ، وللبدو ، بأكثر من ١ر٢٠٠ر٠٠٠ قرش .

ووجد في دمشق اكثر من الف صانع للاحذية (كندرجي) . وقسم من الجلد الذي يصنعونه ينتج فيدمشق ، وكان من نوعية ممتازة ،والباقي يستورد من انطاكية ومدن اخرى في اسيا . وازدهرت صناعة القباقيب التي تستعملها النساء داخل البيوت ، وللخروج في الجو السيء . وكان يعمل بها ٢٠٠ صانع يصدر نصف انتاجهم الى مصر ، وحلب . وقدر ثمن ما صدر منها عام ١٨٦٢ ب ١ر٢٠٠ر٠٠٠ قرش .

وفقدت صناعة السلاح الابيض التي اشتهرت بها دمشق في السابق ، الكثير من

أهميتها . فوجد معلم واحد يصنع نصال السيوف العادية ، وبعض الصناع الذين يصنعون الخناجر . وقد صنع ٢٠٫٠٠٠ خنجر عام ١٨٦٢ ، يراوح سعر الواحد منها بين ٥ ــ ٢٠ قرشا . ونظرا لمنع تصدير هذه المنتجات الى بقية انحاء سورية ، في عام ١٨٦٣ ، تضاءل عدد الصناع في هذه الحرفة . ومع ذلك تسرب ثلاثة أرباع هذه المنتجات الى خارج دمشق تهريبا .

ووجد في دمشق ٦٠ معلما لصناعة الأثاث ، يرصعون خشب الجوز والزيتون والشوح بالفضة والصدف . وباستثناء معلمين أو ثلاثة ،كان هؤلاء المعلمون على درجة كبيرة من الابداع والاصالة في صناعتهم . ويباع معظم انتاجهم محليا . ولم تتجاوز قيمة الصادرات ٢٥٠٫٠٠٠ قرش تقريبا .

وكان يوجد في دمشق معملان للزجاج يتبعان الطرق التقليدية ، وينتجان الزجاجات (القناني) والمصابيح والكؤوس . ولم تصل هذه الصناعة الى الجودة ، وانتاجها لا يصدر الى الخارج .

ومن الصناعات الرئيسية في دمشق صناعة (الاراكيل) التي تلقى سوقا رائجة في الخارج ، وتصدر الى حلب والقدس ومصر ، وتقدر صادراتها بحوالي ١٠٠٫٠٠٠ قرش (٢٥٫٠٠٠ فرنك) وتتبعها صناعة (البرابيش) التي يمص بواسطتها الدخان ، وكانت تزخرف بالحرير والخيوط الذهبية ، وتلون بالوان جميلة . وتتراوح قيمة (البربيش) بين ٢٥و٤٠٠ قرش (٦ ــ ١٠٠ فرنك) .

وكانت دمشق تمتاز بصناعة الفواكه المجففة ، وبخاصة المشمش ، واستخدمت هذه الصناعة ، عام ١٨٦٢ ، ١٢٢٥ كنتالا من السكر (٣١٤٫٩٠ كغ) . وصدرت منها ما قيمته مليون ونصف مليون قرش تقريبا ويتراوح سعر الرطل منها (٢٫٥٦٤ كغ)، بين ٢٥ و ٣٥ قرشا . وكان رطل السكر يباع ب ١٥ ــ ١٨ قرشا .

واشتهرت دمشق بصناعة ماء الورد وماء الزهر ، وكذلك العطور . وكانت تنتج حوالي ٢٠٫٠٠٠ كنتال من الصابون تصدر ثلثها . وينتهي تقرير ١٨٦٣ عن صناعات دمشق الى ان فن تزيين البيوت اخذ بالانحطاط نظرا لضآلة الثروات . ولا يوجد من الصناع من هو على مستوى القدامى في هذا الفن .

ويشير التقرير الثاني الذي كتب من دمشق في ١٩ تشرين الاول ١٨٦٩ الى ان صناعة الاسلحة البيضاء متاخرة جدا ، ولهذا تباع في دمشق النصال المستوردة من

فارس أو ليبج أو صولينجن . أما صناعة الاثاث فقد فقدت الكثير من رونقها وما يصنع منها ، مثل الصناديق والطاولات الصغيرة ، فهو خشن وضخم ، ويشتريه عادة الفلاحون .

وينطبق الشيء ذاته على صناعة الزجاج التي لم تتطور . وما زالت (شيشة الاركيلة) الزجاجية تستورد من أوربا ، وبخاصة بوهيميا ، كما تستورد الشيشة النحاسية من المانيا . والحفر على النحاس متأخر بدوره . كما أن الصياغة في انهيار ، ويعزى ذلك الى هجرة الصناع المسيحيين اثر احداث ١٨٦٠ .

ولكن الاقمشة الصوفية والحريرية المصنعة في دمشق احتلت المرتبة الاولى في التصدير . ومن هذه الاقمشة الديما التي يعمل فيها نحو ألفين من الصناع ينتجون ١٥٠ر٠٠٠ ثوب في السنة يصدر معظمها الى استانبول والاناضول ومصر وبغداد .

وكان طول الثوب الواحد ١٢ ذراعا (تعادل ٨ر١٦ مترا) وعرضه ٥١ سم* وكانت خيوط الديما تستورد من انكلترا وتصبغ في دمشق . وألوان هذا القماش الرائجة كانت الازرق المقلم بالاحمر او الاخضر او الاصفر ، وكذلك الاحمر الغامق المقلم بالابيض أو الاصفر أو الازرق .

وكان يعمل في نسيج الالاجه في عام ١٨٦٩ حوالي ١٥٠٠ الى ١٦٠٠ صانع ينتجون حوالي ١٠٠ الف ثوب سنويا ، تصدر ثلاثة ارباعها . ويسجل هذا الانتاج زيادة كبيرة على انتاج عام ١٨٦٢ الذي قدر ب ٢٤ ألف ثوب من الالاجه والقطني . وتفسر هذه الزيادة الكبيرة في الاستقرار الاجتماعي في دمشق وعود كثير من الصناع المهاجرين اليها، الذين اشتهروا بصناعة الحرير .

ونظرا لازدياد الانتاج من أقمشة الديما والالاجه والقطني ، في عام ١٨٦٩ ، فقد استهلكت هذه الصناعات ما زنته ١٢ر٨٠٠ كغ من حرير لبنان و ٣٣ر٢٨٠ كغ من حرير فارس ، وذلك بزيادة كبيرة عما استهلكته قبل أحداث عام ١٨٦٠ .

وقد عمل في انتاج الكوفيات الحريرية ١٠٠ الى ١٢٥ عاملا وكان معظمها يصدر الى الخارج . ويشكل هذا زيادة كبيرة على صناعة الكوفيات في عام ١٨٦٢ .

أما صناعة المشالح فيبدو انها تضاءلت عما كانت عليه في ١٨٦٢ ، فقد بلغ عدد

* وبذلك يكون طول هذا الذراع ٦٨ سنتمترا .

المشتغلين فيها في عام ١٨٦٩ حوالي ١٩٠ صانعا . واستخدم هؤلاء خيوط الصوف الانكليزية للمشالح الممتازة ، وخيوط الصوف المحلي للمشالح الادنى .

وفيما يتعلق بالعقادين ذكر تقرير عام ١٨٦٩ ان انتاجهم يستهلك بكامله محليا ، في حين ان تقرير عام ١٨٦٣ ذكر أن العقادين يقاسون من بيع سلعهم بسبب تبدل الازياء ، وان اعدادهم في تناقص ، ويحاولون ايجاد سوق بديلة في الحجاز . ويبدو أن اعدادهم قد تناقصت ، وبالتالي انتاجهم ، عام ١٨٦٩ ، الى حدود استيعاب السوق المحليـة .

ومن السلع التي صنعتها دمشق واستمرت في تصديرها السروج والحبـال ، وكانت في غاية الاتقان . وفي حين كانت اسعار السروج معتدلة فان اسعار الحبال كانت مرتفعة مما حال دون تصديرها الى أوربا . وكانت تصدر في الغالب الى بقية انحـاء سورية ، والى بغداد .

واستمرت دمشق في تصدير منتجات المشمش الى أزمير واستانبول وموانى سورية وآسية الصغرى . وكانت مراكب شركة (مساجيري امبريال) تحمل هـذه المنتجات بين الموانى السورية والتركية .

وصدرت دمشق بزر المشمش الى مرسيليا وليفورنة ، وبلغ ما صدرته اليهمـا منه في عام ١٨٦٩ ما يزيد على ٣٠٠ الف كغ .

وجاء في التقرير الثالث من دمشق بتاريخ ٢٤ نيسان ١٨٧٩ ان دمشق صدرت من بزر المشمش في ذلك العام ٥١٢٫٨٠٠ كغ. وهذا يدل على ازدياد مردود هذا الانتاج.

ويذكر التقرير بالنسبة لنسيج الالاجه أن حوالي ١٢٠٠ صانع يعملون في نسج الالاجه ، وينتجون سنويا ما بين ١٠٠ و ١٢٠ الف ثوب . وبالمقارنـة مع تقرير سـنة ١٨٦٩ ، الذي يذكر ان حوالي ١٥٠٠ ـ ١٦٠٠ صانع الاجه انتجوا حوالي ١٠٠ الف ثوب في السنة ، نستدل ان هذه الصناعة قد حافظت على مستوى متقارب في الانتاج بكلفة أقل من السابق ، لان عدد الصناع نقص بما يقرب من ٣٠٠ ـ ٤٠٠ صانع . امـا الديما فقد ازداد عدد صناعهاعن السابق ، اذ راوح في عام ١٨٧٩ بين ٢٠٠٠ و ٢٥٠٠ ، وتضاعف انتاجهم كذلك فبلغ ٣٠ الف ثوب .

بالنسبة للكوفيات ، ذكر التقرير الثالث ان حوالي مائة صانـع يعملون فيها ، انتجوا في السنة ١٣ الف كوفية . ولكن ليس هناك من تفصيل عن نوعيـة الكوفيات

واماكن تصريفها أو تصديرها . وانتج من قماش المبروم ، بموجب هذا التقرير ، ٣٠٠ الف قطعة ، في حين ذكر التقرير الاول ، لعام ١٨٦٣ ، ان ٣٠٠ الف قطعة من هذا النسيج صدرت الى مصر في عام ١٨٦٢ . ويدل هذا على تناقص انتاج المبروم في عام ١٨٧٩ .

وهكذا ، ومن هذه التقارير الفرنسية الثلاث لاعوام ١٨٦٣ و ١٨٦٩ و ١٨٧٩ ، يتضح انه بالرغم من تناقص عدد الانوال النسيجية عما كانت عليه في الماضي فان الانتاج ، بوجه عام ، قد اخذ بالازدياد في أواخر الستينات وبخاصة في السبعينات من القرن التاسع عشر ، عما كان عليه في أوائل الستينات وقبلها بقليل . ومن العوامل التي تفسر هذه الزيادة ركود النشاط التجاري العالمي في السبعينات ، وبخاصة الازمة التي حلت بالصناعة الفرنسية ، وخففت من أثر منافستها في الخارج . يضاف الى ذلك الغاء بعض الضرائب الجمركية على انتقال المواد الاولية المنتجة محليا كالقطن والصوف والحرير .

ويرسم نعمان القساطلي صورة مشابهة لما ذكرته التقارير من ان عدد الانوال في دمشق قد تناقص ولكن الانتاج قد ازداد في السبعينات . ويقول : « اما انوال النسيج فقد قل عددها في وقتنا الحاضر عما كان في بداءة هذا الجيل وما بقي منها فهو ١٦٠٠ نول الاجه و ٦٥٠ نول قطني و ٢٣٠٠ ديما و ١٥٠ شالات حرير وشالات غزل ، و ٢٥٠ كفيات حرير وكفيات غزل ، و ٥٠ زنار طرابلسي حرير وزنار طرابلسي غزل و ٥٠ فوط وملاية حرير وغزل وبوشيه ..الخ و ٢٠٠ كريشة وهرمزي وسلطانية ومجتمع هذه الانوال ٥٢٥٠ نولا»(٩١) .

يتبين من الاحصاءات السابقة ان الصناعات الدمشقية الاساسية ، بالرغم من كل الازمات ، قد اثبتت وجودها الى جانب الصناعات الاوربية المستوردة . ولكنها لم تتطور الى الدرجة التي كان يمكن ان تصل اليها لو لم تتدفق البضائع الاجنبية . ويلاحظ في بعض الصناعات النسيجية التي مر ذكرها ، مثل الديما والمشالح ، ان الخيوط القطنية في الاولى ، والصوفية في الثانية ، كانت تستورد من انكلترا . وهذه ضربة اخرى موجهة للصناعة المحلية ، اذ انها ، عوضا من استخدام الخيوط المصنعة محليا ، عمدت الى استيراد موادها الاساسية من الخارج ، وبذلك غدت مرتبطة بالسوق العالمية لهذه المواد من حيث توافرها ، وبصورة اخص اسعارها ، التي فرضت من الخارج وتحملها المستهلك المحلي على شكل زيادة في اسعار السلع . وكانت معظم المواد الاولية للصناعة الاوربية تستورد من الخارج ، بما في ذلك بلاد الشام، باسعار تفرضها السوق الدولية التي تسيطر عليها الراسمالية الاوربية . ثم يعاد تصديرها خيوطا او

بضائع ، وفق الاسعار التي تفرضها الدول الصناعية المصدرة . وبهذا يكون انتاج المواد الاولية في بلاد الشام قد ارتبط بدوره بعجلة الراسمالية الاوربيـة واصبح تابعا لها .

وقد صدرت دمشق الى الخارج ، في عام ١٨٨٢ ، ما مجموعه ٤٢٠ الف كغ من الصوف ، وهو من خمسة انواع : الناعم ومصـدره الجـولان حوالي ١٠٠ الف كغ ، والبلقاوي من البلقاء في متصرفية نابلس ١٠٠ كغ ، وصوف المرج والبحيرة ٨٠ الف كغ ، وصوف عجلون ٦٠ الف كغ والصوف الجبلي ومصدره جبل الدروز وحوران ٨٠ الف كغ .

ويدوم موسم الصوف خمسـة اشهر تبدأ في ايار وتنتهي بنهاية تشرين الاول . وقد تم تصدير هذه الكميات ، بطريق بيروت ، الى مرسيليا وجنوه وليفورنه وتريستا وليفربول(١٠٠) . والجدير بالذكر أن هذه الكمية من الصوف المصدر تعادل تقريباكمية الصوف التي صدرتها دمشق عبر بيروت الى الخارج في عام ١٨٦٨ والتي بلغت حوالي ٤١٦ الف كغ (١٠١) .

ومما تجدر ملاحظته ان القطن لم يذكر في اي من قوائم الصادرات من دمشق الى اوربا عبر بيروت . وباستعراض ما صدرته منطقتا حماه وحمص في عام ١٨٧٨ نجد أن قيمة صادرات حماه من الصوف بلغت ٦٢٥ الف فرنك . وكانت وجهة التصدير بيروت بطريق طرابلس . اما حمص فقد صدرت الى بيروت ، بطريق طرابلس ، صوفا بلغت قيمته ١٢٥ الف فرنك . ولم تصدر اي من المدينتين قطنا ، بل استوردتا في الواقع خيوط القطن من فرنسا وانكلترا(١٠٢) . ونستدل من غياب القطن في صادرات كل مـن دمشق وحماه وحمص أن محصوله لم يكن كبيرا يسمح بالتصدير ، أو ان نوعيته لـم تكن لتتلاءم مع الصناعة الاوربية . وقد جرت محاولة في عام ١٨٥١ لادخال زراعـة القطن الامريكي ، من ولاية لويزيانا ، الى سـورية بسبب نوعيته المتميزة ، ولكـن المحاولة فشلت(١٠٣) .

ولم تفد بلاد الشام من تعطل زراعة القطن الامريكي ابان الحرب الاهلية الامريكية في الستينات ، في تطوير انتاج القطـن وتصديره الى اوربا التي انقطع القطن الامريكي عنها . والمعروف أن مصر افادت الشيء الكثير من توجيه زراعتها نحو القطن آنذاك . والامر الوحيد الذي خلفته الحرب الامريكية في بلاد الشام ان سعر القطن فيها زاد ثلاثة اضعاف ، وارتفعت بنتيجة ذلك أسعار الاقمشة القطنية . وذكر احد المراقبين في عام ١٨٦٢ (١٠٤) انه كان يمكن توسيع زراعة القطن في بلاد الشام لو عملت الحكومـة العثمانية على توفير الامن في الريف ورد اعتداء القبائل البدوية التـي كانت تفرض ضرائب على المزارعين لا تقل عن ضرائب الحكومة ذاتها .

وبنتيجة هذه التطورات مجتمعة ارتبط الاقتصاد الدمشقي بالاقتصاد الراسمالي الاوربي ، ونشأت في دمشق طبقة بورجوازية ، من التجار والصناعيين ورجال المال ، مرتبطة بأوربا ، واصبح لها قواعد وارتباطات في بيروت التـي كانت مركز التجـارة العالمية في المنطقة . وعلى غرار الصناعة ، شاعت الشراكة في ميدان التجارة واتخذت طابعا راسماليا . وجنت البورجوازية المحليـة ، بالمشاركة مع البورجوازية الاوربية ، الارباح الكثيرة مـن المستهلكين ، ولكنهـا تعرضت ، شـأن الراسمالية الاوربية ، الى الازمات وحالات الافلاس ، والمنافسة الشـديدة فيما بينهـا ، والتقاضي امام المحاكم . وتعج سجلات المحاكم التجارية والمحاكم المختلطة ، منذ الربع الاخير مـن القرن التاسع عشر ، بتفاصيل هذه القضايا .

ونظرا للازمات الاقتصادية التي مرت بهـا الصناعـة المحلية ، والتبايـن في الثروات بين الاثرياء الذين ازدادوا عددا وثروة ، وبين الطبقات الدنيا التي ازدادت إعدادها وزاد فقرها ، وظفت الراسمالية ، المحلية والاجنبية ، بعض راسمالها في عقد الديون التي لجأ اليها عدد كبير من الناس ، سواء في المدينة أم في الريف ، لمجابهة الازمة الاقتصادية . وزاد ذلك من ارتباط سكان الريف ببورجوازية المدن عن طريق التبعية المالية . وبالتدريج فقد عدد من سكان الريف ممتلكاتهم للوفاء بالتزاماتهم المالية .

وكانت نسبة الفائدة التي تقضاها المرابـون عاليـة تقارب في الواقـع ٢٥٪ في السنة ، في حين أن الفائدة الرسمية قد حددتها الدولة في عام ١٨٥٢ بـ ٨٪ . واشارت بعض وثائق المحاكم الشرعية الى الفائدة باسم المرابحة أو الربح . ولكنها في الغالب ، لم تشر اليها صراحة . وكان الغطاء الذي استخدم للفائدة هو الشراء الوهمي لكمية من الصابون ، وذكر الى جانب قيمة الدين . واكد استخدام الصابون لهذا الغرض تقرير القنصل الفرنسـي في دمشق عام ١٨٥٢ (١٠٥). والجدير بالذكر ان الادارة المالية والادارة العسكرية في دمشق كانتا مدينتين ، عام ١٨٦٣ ، بمبلغ قدره ٦ ملايين فرنك عدا رواتب الجند المتأخرة . وكانت الفائدة على هذا الدين ، ومعظمه للتجار الاجانب، تقدر من ٢ الى ٢٫٥٪ شهريا ، اي بين ٢٤ الى ٣٠٪ سنويا(١٠٦) .

ولم تكن الطبقة البورجوازية المحلية ، التي لعبت دور الوسيط للراسماليـة الاوربية ، مقتصرة على فئة من السكان دون غيرها ، بل شارك فيها الجميع ، بدلالـة الثروات الكبيرة التي ذكرت تفاصيلها في سجلات التركات . وتوضـح تفاصيل هـذه الثروات طرق التعامل التجاري وتنوع توظيف المال ، سواء في الديون أو في الصناعة أو الزراعة ، وكذلك هوية الطبقات الاجتماعية الدائنة والمدينة . وخير مثال على ذلك موجودات تاجر دمشقي هو السيد غازي بـن الشيخ محي الدين بن شيخ المحيـا ،

المختل العقل الذي لا قدرة له على تعاطي مصالح نفسه ، وتتألف ثروته من ثلاثة بنود : ١) بيان الذمم الموجود اربابهم بدمشق : ذمة الخواجه متري قسطون ، خليل مصابني ، اسحاق يهودي سمكري ، الخواجه نقولا صايغ ، مجموع ذلك ٢٤١ر٣٩ قرشا ونصف . ٢) بيان الذمم المترتبة للمختل في الجهات خارج دمشق الشام : ذمة الخواجه يوسف علام بالجبل ، أولاد زخور بحمص ، الخواجه متري زمريتا في ازمير ، بيت سبرطلي الفريدي باللوندرة ، الحاج محمد آغا زرابيلي في بروسة ، محمد رزق في طرابلوس ، حسين السيوفي في طرابلوس ، مجموع ذلك ٤٢٩،٠٨٩ر قرشا ونصف . ٣) موجودات اموال واشياء في الشام، مستكة ، كافور ، قهوة ، باذنج، قماش كرمسوت، المجموع ٢٤٩ر١١ قرشا ونصف . ويبلغ مجموع الثروة ٤٧٩،٥٨٠ر قرشا (١٠٧) .

ويستدل من المواد التي يتعامل بها هذا الشخص انه كان تاجر عطارة . ومع ذلك فان مصدر ثرائه الرئيسي كان تعاطي الديون وما تدر عليه من فوائد . وتبلغ نسبة الذمم التي كانت له في دمشق والخارج حوالي ٩٨٪ من ثروته . ومما يلفت النظر تعامل هذا الشخص مع بيت تجاري في لوندرة (لندن) .

نستنتج مما سبق أن البورجوازية المحلية في دمشق اصبحت تدور في فلك الراسمالية الاوربية التي تنامت ابعادها الى حد كبير في اعقاب الثورتين التوامين ؛ الفرنسية والصناعية . وقد ضمت البورجوازية المحلية في بداياتها خليطا من كبار الملاك ، ورجال المال والصناعة . ثم بدأ الفرز بين هذه العناصر يظهر بالتدريج حين حاولت البورجوازية ان تلعب دورا سياسيا ، تماما كما فعلت البورجوازية الاوربية . وفي هذا الوسط ظهرت اتجاهات فكرية كثيرة ، منها الاتجاه القومي ، والاتجاه القطري ، والاتجاه الديني ، والاتجاه العلماني ، والاتجاه الاشتراكي . وتبنى كل اتجاه فئة اجتماعية او اكثر . ولفهم واقع كل اتجاه ، واسباب فشله او نجاحه ، وارتباطه بفئة دون اخرى ، يجب البحث في الاسس الاجتماعية والاقتصادية لكل فئة ، وهي وحدها التي تفسر لماذا تبنت هذه الفئة اتجاها معينا وقاومت اتجاها آخر(١٠٨) .

الهوامش :

(١) انظر البحث التالي :

André Raymond, « La Conquête ottomane et le développement des grandes villes arabes : le cas du Caire, de Damas et d'Alep », **Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée,** 1 (1979), pp.115 - 134.

(٢) حول شركة بلاد المشرق ، انظر :

Alfred C. Wood, **A History of the Levant Company,** London, 1935.

(٣) انظر بحثنا : « قافلة الحج الشامي واهميتها في الدولة العثمانية »، مجلة دراسات تاريخية ، العدد ٦ ، تشرين الاول ، ١٩٨١.

(٤) انظر حول هذه التطورات كتابنا :

The Province of Damascus, 1723 - 1783, paperback ed. , Beirut, 1970, pp. 73ff.

(٥) انظر :

Archives du Ministère des Affaires Etrangères (AE), Paris, Correspondance Commerciale (CC), Alep, vol.25, le 25 novembre 1891.

(٦) انظر :

AE, CC, Alep, vol.27, 14 octobre 1823, 30 mars 1824; AE, CC, Damas, vol, 1, (Paris, 17 juillet 1839), vol. 2, 20 janvier 1846.

(٧) انظر :

John Bowring, **Report on the Commercial Statistics of Syria,** London, 1840, reprinted, New York, 1973, p.94.

(٨) المصدر السابق ، ص ٩٤

(٩) المصدر السابق ، ص ٩٤ .

(١٠) المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(١١) المصدر السابق ، ص ٩٣ .

(١٢) سجلات دمشق (مجلس الولاية) ، رقم ١١، ص ٢٢١ — ٢٢٢ ، القضية ذات التاريخ ٤ جمادى الاولى ١٢٦١/ (١١ ايار ١٨٤٥) .

(١٣) انظر : AE, CC, Damas, vol. 3, 28 mai 1850.

(١٤) انظر : AE, CC, Alep, vol. 31, 31 mai 1855.

(١٥) سجلات دمشق ، رقم ١١ ، ص ٢٧٥ — ٢٧٦ ، ١٢ شعبان ١٢٦١/ (١٧ آب ١٨٤٥) .

(١٦) انظر : AE, CC, Damas, vol. 4, 3 mai 1859.

(١٧) انظر : AE, CC, Damas, vol. 2, 14 juin 1846.

(١٨) انظر : AE, CC, Damas, vol. 3, 1 octobre 1851.

(١٩) انظر : AE, CC, Damas, vol. 4, 27 février 1866.

(٢٠) انظر : Archives Nationales, Paris, F. 12, 7191, Paris, 28 juillet 1870; AE, CC, Alep, vol. 34, 22 juin 1870.

(٢١) انظر : AE, CC, Damas, vol. 4, 27 février 1860, 12 juin 1863.

(٢٢) انظر : AE, CC, Damas, vol. 5, 29 avril 1870.

(٢٣) انظر حول اهمية الطريق بالنسبة لبيروت والمناطق اللبنانية على اطرافه الكتاب الهام التالي :
Leila Tarazi-Fawaz, **Merchants and Migrants in Nineteenth - Century Beirut**, Harvard, 1983, pp. 68-69.

(٢٤) انظر : Bowring, p. 53.

(٢٥) انظر : Tarazi-Fawaz, p. 123.

(٢٦) انظر : **Ibid.**, pp. 69-71.

(٢٧) انظر الكتاب التالي :
Henri Guys, **Esquisse de l'état politique et commerciale de la Syrie**, Paris , 1862, pp. 202-206.

(٢٨) انظر : AE, CC, Damas, vol.4, 10 janvier 1860.

(٢٩) انظر : AE, CC, Damas, vol.4, 9 juillet 1863.

(٣٠) انظر : AE, CC, Damas, vol.6,8 février 1884.

(٣١) انظر : AE, CC, Damas, vol.6, 15 mai 1886 .

(٣٢) انظر : Ibid

(٣٣) انظر : AE, CC, Damas , vol.6,25 janvier 1889 .

(٣٤) انظر : AE, SS, Damas, vol.3, 1 octobre 1851.

(٣٥) حول هجرة المسيحيين من بلاد الشام الى مصر في القرن الثامن عشر ودورهم التجاري البارزفيها،
انظر : André Raymond, **Artisans et Commersants au Caire au XVIIIe Siècle,** Damas, 2 vols, 1973-4 , vil.l, pp. 483-501.

(٣٦) انظر : Guys, pp. 202, 205.

(٣٧) للحصول على دراسة وافية لقافلة الحج الشامي ، ا نظر كتابنا :
The Province of Damascus , pp. 53-76.

(٣٨) انظر : AE, CC, Damas, vol.1, 30 mars 1842.

(٣٩) انظر : AE, CC, Damas, vol.2,16 mars 1847.

(٤٠) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,25 septembre.

(٤١) انظر : AE, CC, Damas , vol.4,16 octobre 1862, vol.5,19 janvier 1870.

(٤٢) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,21 août 1863, vol.5,1 mai 1872.

(٤٣) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,19 janvier 1870 .

(٤٤) ص ١٢٤ـ١٢٥ من كتاب القساطلي ، طبعة بيروت ، ١٨٧٦ ، اعاد تصويره وقدم له عيسى فتوح، مكتبة السائح ، بيروت (دون تاريخ) .

(٤٥) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,13 octobre 1851, vol.5,5 juin 1856.

(٤٦) انظر : AE, CC, Damas , vol.2,12 mai 1847, 3 juin 1874.

(٤٧) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,1 août 1855.

بيعت الخيول السورية لعدد من الدول الاوربية ، مثل روسيا وايطاليا ، وفرنسا التي استخدمتها لحاجاتها الداخلية ، وفي تحسين نسل الخيول في الجزائر الخاضعة بها ، وكذلك في العمليات العسكرية . وكان شراء الخيول يتم خلال فترة معينة من العام ، في نيسان وايار وحزيران وتموز ، بعد عودة البدو من البادية الى مشارف المدن . وكان البدو يستغلون مجيء الاوربيين خصيصا لشراء الخيول فيرفعون من اسعارها . ولذلك تحاشى هؤلاء الاتصال مباشرة بالبدو وعمدوا الى تكليف التجار والوكلاء الوطنيين شراء الخيول لحسابهم باسعار معتدلة . وكانت المهر مرغوبة اكثر من غيرها لرخص ثمنها ، الذي راوح بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ قرش للمهرة الواحدة ، ونظرا لرخص العلف في بلاد الشام عمد المشترون الاوربيون الى ابقاء المهر المشتراة في البلاد سنة ، ليتاكدوا من نوعيتها وصلاحيتها ، والا اعادوا بيعها محققين ربحا اضافيا .

انظرحول هذا : AE, CC, Damas, vol. 4, 16 oct. 1962.

(٤٨) انظر : AE, CC, Damas, vol.2, 2 novembre 1851.

(٤٩) انظر : AE, CC, Alep, vol.31 (Paris, 20 janvier) .

(٥٠) انظر : AE, CC, Alep, vol.35,30 mai 1871.

(٥١) انظر : AE, CC, Damas, vol.5,1 1 janvier 1873.

(٥٢) اثبتناالعبارة كماوردت في النص الاصلي ، وهو باللهجة الدمشقية العامة ، وتعطي فكرة عن انحطاط لغة القضاءانذاك .

(٥٣) انظر : سجلات دمشق ، رقم ١١ ، ص ٩٨ـ١٠٠ ، ٥ محرم ١٢٦١/ (١٤ كانون الثاني ١٨٤٥) .

(٥٤) لمقارنة مقدار التزام عبد القادر خطاب لهذه الاقلام المتعلقة بصناعة النسيج بدمشق بالقيمة الاجماليةللضرائب المستوفاة من المدينة في تلك السنة (١٢٦٠/١٨٤٤)، انظر :

AE, CC, Damas, vol. 2, « Etat du Revenue du Pachalik de Damas pendant l'année 1844 » , joint à la lettre de Damas le 16 janvier 1845.

(٥٥) انظر سجلات دمشق الشرعية مجلد ٤١٢ ، ص ١٦٢ـ١٦٦ .

(٥٦) انظر : Bowring, p. 59

(٥٧) انظر: سجلات دمشق الشرعية، مجلد ٤٩٤، ص ١١٣ ، ختام محرم ١٢٧٤/ (٢٠ ايلول ١٨٥٧) .

(٥٨) انظر : سجلات دمشق الشرعية ، مجلد ٥١٠ ، ص ٤، ١٤ جمادى الثانية ١٢٧٦/ (١٠ كانون الثاني ١٨٥٩) .

(٥٩) كلمة ريال ماخوذة اصلا من ريال ماريا تيريزا . ولم يتبين لنا معنى كلمة شوشة . ولكن وجد في غزة في الفترةذاتها نقد عرف باسم ريال فرانسة شوشة ، انظر بحثنا : غزة ، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ، ١٢٧٣ - ١٢٧٧ / ١٨٥٧ - ١٨٦١ ، دمشق ١٩٨٠ ، ص٨٨ .

(٦٠) سينكو ،او سنكو او شنكو ، كلمة مشتقة من الايطالية وتعني خمسة . انظر : الاب انستاس ماري الكرملي البغدادي ، النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ، ١٩٣٩ ، ص ١٤١ .

(٦١) لعله النقد ناته الذي ذكر في غزة باسم ريال فرانسة عامود ، وكان سعره ٣٢ قرشا ، انظر : غزة ، ص٨٧، واشير اليه كذلك باسم « ابو مدفع » .

(٦٢) انظر : Bowring, p.95.

(٦٣) انظر : AE, CC, Damas, vol,1, 30 novembre 1843, 8 décembre 1843.

(٦٤) انظر بحثنا باللغة الانكليزية وعنوانه :

« Land Tenure Problems and their Social Impact in Syria around the Middle of the Nineteenth Century », in **Land Tenure and Social Transformation in the Middle East** ed. Tarif Khalidi, American University of Beirut, 1984, pp. 384-385.

وانظرا يضا : AE, CC, Damas, vol.2,16 avril 1845, 20 mai 1845.

(٦٥) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,29 juin 1840.

(٦٦) انظر : AE, CC, Damas, vol.1,1 décembre 1839.

(٦٧) انظر : AE, CC, Damas, vol.1,28 décembre 1839.

(٦٨) انظر :سجلات دمشق ، رقم ١١ ، ص ٣٦١ - ٣٦٢ .

(٦٩) المصدر السابق ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٧٠) المصدر السابق ، ص ٢٨٣ .

(٧١) المصدر السابق ، ص٧٧ ٢ - ٢٧٨ ، ٢٨٣ .

(٧٢) الياس بن عبده بك قدسي (قنصل دولة هولاندة بدمشق) ، « نبذة تاريخية عن الحرف الدمشقية». قدمها للمجمع العلمي الشرقي المنعقد في مدينة ليدن ، عام ١٨٨٣ ، وقد نشرت في :

Carlo Landberg, **Actes du VIe Congrès des Orientalistes,** t.2, Leiden, 1885, p.15.

(٧٣) انظر : AE, CC, Damas, vol,4, 5 mars 1863.

(٧٤) انظر : قاموس الصناعات الشامية ، جزآن ، الجزء الاول تاليف محمد سعيد القاسمي ، والثاني تاليف جمال الدين القاسمي وخليل العظم ، تحقيق ظافر القاسمي ، نشر دار موتون وشركاه ، باريس لاهاي ، ١٩٦٠،ج١ ، ص ٣٩ .

(٧٥) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,5 mars 1863.

(٧٦) انظر : AE, CC, Damas, vol.3, 20 janvier 1850.

(٧٧) انظر :

Bowring, p. 20; Charles Issawi (ed.) , **The Economic History of the Middle East, 1800 - 1914**, Chicago, 1966, p. 224.

(٧٨) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,21 octobre 1856.

(٧٩) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,10 janvier 1860.

(٨٠) انظر : AE, CC, Damas, vol.4, 16 octobre 1862, cf. 11 mai 1863.

(٨١) انظر : AE, CC, Damas, vol.4, 5 mars 1863, 30 avril 1863.

(٨٢) تفاصيل القائمة مبنية على القضايا المعروضة على محاكم دمشق الشرعية حسب تواريخها ، وذلك وفق السجلات والصفحات التالية، دون مراعاة التسلسل لانه يوجب تكرار ارقام السجلات :مجلد رقم ٣٧١ ، ص٢ ، ص ٢٨ ، رقم ٣٧٣ ، ص٢٢٧ ، رقم ٣٧٤ ، ص ٢٣١ ، رقم ٣٧٦ ، ص ١٥ ، ص ١١١ ، ص ٣٩٤ ، ص ٣٧٦ ، ص ٢٦٠، ص٢٧ ،٣ ص ٢٧٦ ، رقم ٣٧٧ ، ص ٢٥ ، رقم٣٧٩ ص ١٦٤ ، رقم ٣٨٦ ، ٢٣٢ ، ص ٢٠٥ ،رقم٣٨ ، ص ١٤٠ ، رقم ٣٩٨ ، ص ٦٢ ، ص ١٥٣، رقم ٤٠٤ ، ص ٢١٩ ، رقم ٤١٣ ، ص ٤٩،رقم ٤٨٦ ، ص ١٨٦ ، رقم ٤٩٣ ، ص ٢٧٧ ، ص رقم ٥٠٣ ، ص ٣ ، رقم ٥٠٤ ، ص ٢٣ ،رقم ٥٠٧ ، ص ٢٣٩ ، رقم ٥٢٣ ، ص ٢ ،٦.

(٨٣) انظر :

AE, CC, Damas, vol.4,19 octobre 1869, « Situation Commeciale et Industrielle de Damas ».

(٨٤) انظر:

Dominique Chevallier, « Un exemple de resistance technique de l'artisanat syrien aux XIXe et XXe siècles », Syria, 39 (1962).

(٨٥) القساطلي ، الروضة الغناء ، ص ١٢٢ ، وانظر ايضا القاسمي ، ج١ ، ص ١٤٧ ــ ١٤٨ .

(٨٦) القساطلي ، ص ١٢٤ .

(٨٧) المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

(٨٨) المصدر السابق ، ص ١٢٣.

(٨٩) المصدر السابق، ص ١٢٣ .

(٩٠) انظر : AE, CC, Damas , vol.4,5 mars 1963.

(٩١) « قاموس الصناعات الشامية » ، ص ٣١٣.

(٩٢) المصدر السابق ، ص ٢١٤ .

(٩٣) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,5 mars 1863.

(٩٤) القساطلي ، ص ١٢٥.

(٩٥) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,5 mars 1863.

(٩٦) يذكر التقرير بعد سطرين من ذلك (ص ١١٠) ان الكنتال يساوي ٢٥٦ كغ و ٤٠٠غ ، ولهذا فان ٣٠٠كنتال تساوي ٧٨٠٠ كغ .

(٩٧) ص ١٢٤ .

(٩٨) انظر : Roger Owen, **The Middle East in World Economy 1800 - 1914**, London, 1981, p.171 .

(٩٩) ص١٢٣ .

(١٠٠) انظر : AE, CC, Damas, vol.6,8 juillet 1883.

(١٠١) انظر : AE, CC, Damas, vol.4,19 octobre 1869.

(١٠٢) انظر : AE, CC, Damas, vol.6,31 juillet 1879.

(١٠٣) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,2 novemdre 1851.

(١٠٤) انظر : AE, CC, Damas, vol.4, 16 octobre 1862.

(١٠٥) انظر : AE, CC, Damas, vol.3,12 janvier 1852.

(١٠٦) انظر : AE, CC, Damas; vol.4, 30 avril 1863

(١٠٧) سجلات دمشق الشرعية ، مجلد ٣٩٧، ص١٢ ، ١٧ربيع الأول ١٢٦٢/ (١٥ اذار ١٨٤٦) .

(١٠٨) انظر الدراسة الهامة التالية حول الدور السياسي لاعيان دمشق بين ١٨٦٠ و ١٩٢٠ وجذورهم الاجتماعية :

Philip S. Khoury, **Urban notables and Arab nationalism, the politics of Damascus 1860 - 1920**, Cambridge University Press, 1983.

* * *

للمؤلف بحوث اخرى ينصب معظمها في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام أعدت لمؤتمرات دولية ونشرت باللغة التي اعدت بها في الكتب والدوريات التالية :

آ ـ عنوان البحث ، ب ـ عنوان الكتاب أو الدورية :

« Les registres des tribuneaux de Damas comme source pour l'histoire de la Syrie » , **Bulletin d'Etudes Orientales**, Damas, XXVI (1973) .

« Ibn Abi' 1 - Surur and his works » , **Bulletin of the School of Oriental and African Studies** , University of London XXXVIII, part 1 (1975) .

« The local forces in Syria in the seventeenth and eighteenth centuries » in **War, Technology and Society in the Middle East** , eds. V. J. Parry and M.E. Yapp, Oxford University Press, 1975 .

« The law - court registers of Damascus with special reference to craft - corporations during the first half of the eighteenth century » , in **Les Arabes par Leurs Archives (XVIe - XXe siècles)** , eds. Jacques Berque et Dominique Chevallier , CNRS , Prais , 1976 .

« Changes in the relationship between the Ottoman central administration and the Syrian provinces », in **Studies in Eighteenth Century Islamic History**, eds. Thomas Naff and Roger Owen , Southern Illinois University Press, 1977 .

« The law - court registers and their importance for a socio - economic and urban study of Ottoman Syria », in **L'Espace Social de la ville Arabe,** ed. Dominique Chevallier, CNRS, Paris, 1976 .

« Economic relations between Damascus and the dependent countryside,

1743 - 71 », in **The Islamic Middle East, 700 - 1900 : Studies in Economic and Social History**, ed. A.L. Udovitch, Darwin Press, Princeton, 1981 .

« Aspects of traditional society in pre - industrial Ottoman Syria », in **La Ville Arabe dans L'Islam**, eds. Dominique Chevallier et A.W. Bouhdiba, CERES (Tunis) , CNRS (Paris) , Tunis, 1982 .

« The impact of Europe on a traditional economy : the case of Damascus, 1840 - 1870 », in **Economie et Sociétés dans l'Empire Ottoman (fin du XVIIIe - début du XXe Siècle)** , eds. Jean - Louis Bacqué - Grammont et paul Dumont, CURS Paris, 1983 .

« Land tenure problems and their social impact in Syria around the middle of the nineteenth century », in **Land Tenure and Social Trans - formation in the Middle East**, ed. Tarif Khalidi, American University of Beirut, Beirut, 1984 .

قيد النشر البحثان التاليان :

« Aspects of land tenure in Syria in the early 1580s », paper read before the International Conference on Pre - Ottoman and Ottoman Studies, University of Cambride, July, 1984 .

« Economics, Society and political power in Syria, 1918 - 1924 » , paper read before the International Colloquim on the Middle East in the Inter - War period : the Interaction of Political, Economic and Cultural Develop- ment, organized by Institut Für Europaische Geschichte, Bad Homburg, Germany, August, 1984 .